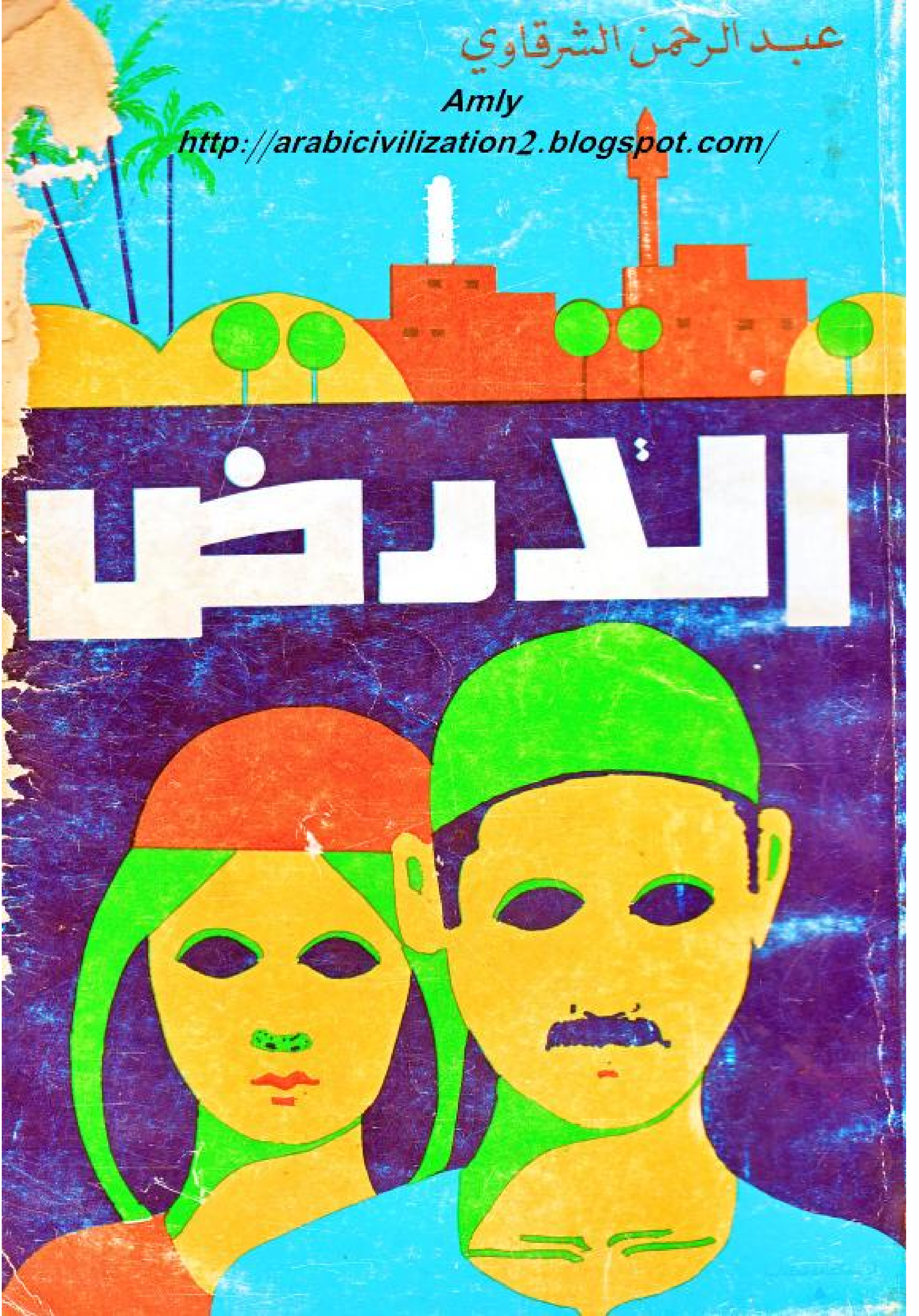

عبد الرحمن الشرقاوي
الأرض

من الأدب العربي الحديث

روايات عربية

عبد الرحمن الشرقاوي

الأرض

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

انا اعرف قريتى تماما ..

واعرف انها لم تكن تستطيع ان تقف عند شىء او تشغل بشىء على الاطلاق فى تلك السنوات التى يلهبها دائما صراع لا يهدأ من اجل القوت.

من الحق ان فتيان القرية الذين يجدون العمل والطعام قد يشغلون احيانا بفتاة تنضج فجأة ولكنها ماتكاد تتزوج ويحمل الى بيتهاالصندوق الاحمر المخطط ، حتى تفرغ القرية بسرعة من الهمس الشائع المعروف عن خيبة الزوج فى اول ليلة .. ثم تخرج الزوجة من بعـــد هذا فى الصباح المبكر لتملأ الماء من النهر الصغير وهى تلوح بيدها المصبوعة بالحنـــاء .

وانا اعرف ان القلائل الذين يملكون ارضا فى القرية ، كانوا وحدهم يشغلون بالضرائب المتجمدة على الارض ، وبالصراف الذى يطالبهمبمال الحكومة ، ويهددهم دائما بالحجز على الاطيان .

على ان بقية الرجال والفتيان لم يكن يعنيهم ان تنتزع الأرض من ايدى الملاك ام تظل ، مادام كل واحد منهم يجب ان يبحث آخر الأمر عن حقل يعمل فيه طول النهار .. وفى الحق انهم يحـاولون ابدا ان يخفوا ضحكاتهم الشامتة كلما شاهدوا الصراف يدخل ـ ومعه خفير ببندقيته ـ الى بيت احد الذين يملكون ارضا فى القرية .

ولكن وصيفة شغلت قريتى كما لم تشغلها فتاة اخرى ، وكما لم تشغلها ابدا قصص الأيام الاولى من الزواج ، او حـديث المال والصراف والحجوزات .

وعندما عدت الى قريتى فى ذلك الصيف بعـــد ان حصلت على الابتدائية ، خيل الى من كثرة ماسمعت عن وصيفة اننى لا اعرفها .

لم يسألنى الصبيان كعادتهم كل صيف عن مصر وما بمصر ، ولم يطلب واحد منهم ـ كما تعودوا ـ ان اتحدث امامه باللغـة الانجليزية او اضحك بالانجليزية او افتح له كتابا ليرى فيه الكلام الذى يكتب ، وانما حدثنى الجميع عن وصيفة ، ونحن واقفون بعد العصر بالقـرب من دكان الشيخ يوسف بقال القرية ، فى الطريق الرئيسى اللذى يمتـد من القرية الى جسر النهر .

وسالت الاولاد اللذين وقفوا معى عن وصيفة هذه من تكون . فشد احدهم طاقيته الصوف الرمادية على راسه وزام :

ـ هيه .. يعنى نسيت ؟ يعنى مصر تخليك تنسى وصيفة ؟

وابتسم الصغار ولم اكن قد تذكرت بعد ، فرفع احـدهم حاجبيه وقال وهو يبلع ريقه :

ـ بقى مانعرفشى وصيفة اللى كانت طول النهار بتنط معـانا فى الترعة من قيمة اربع خمس سنين ..

وقال ولد آخر وهو يستند الى عصا صغير من التوت كما يستند الكبار الى الشماريخ :

ـ حاكم هيه فارت بسرعة ياجدعان ، وهيه لسه راجعة من البندر فى الشتا .

ثم التفت الى وهو يحك جسـده :

ـ لكن بقى يعنى ماانتش فاكرها ؟!.. وصيفة مراتك يا اخى !!..

وضحك الاولاد .. وتذكرت وانا اضـحك كل ما كان بينى وبين وصيفة !.

كنا قبل ان اذهب الى المدرسة الابتدائية بعام واحد نستحم فى ترعة صغيرة الى جوار دور القرية ، وكنا نحن الصغار من اولاد وبنات نمرغ اجسادنا على التراب ونكسو وجوهنا ورؤوسنا بالطين لنصبح شكل العفاريت .. ثم نقفز الى الترعة الصغيرة ، ونغطس فى الماء المثقل بالطمى ، وزعيقنا يختلط بصياح الأوز والبط الذى يسبح الى جوارنا ويستقبلنا مصفقا بأجنحته ..

وذات يوم التقينا كلنا على هذه الترعة الصغيرة قبل صلاة الظهـر كما تعودنا دائما .. وقبل ان نخلع ملابسنا قالت لنا وصيفة بتألق :

ـ تيجو ياعيال نستحمه فى البحر ؟

واقسمت وصيفة انها تعرف مكانا فى النهر غير عميق نستطيع ان نستحم فيه ، ونقف على ارجلنا فى الماء ..

ولم نكن فى تلك الايام قد استطعنا ان نقرب ماء النهر ، وان كنـا لنحلم ان نسبح فيه ونعبره ذات يوم كالكبار ..

كانت وصيفة هى اكبرنا ، تعرف كثيرا من الاشياء التى لا نعـرفها نحن ، تعرف النهر وتحمل جرتها الصغيرة وتذهب اليـه لتملأ كما يملا النسـاء ..

كانت وحدها تستطيع ان تتسلق اشجار التوت ، وتهزها علينـا فنأكل الثمار الطيبة ، وكانت وحدها تنط عـلى اشـجار « الزنزلخت » وتصنع العقود من حباته الصغيرة .. وكانت تطلع جميزة عبد الهادى المخيفة الارتفاع وتنزل مسرعة ومعها كوم من التين الجميز توزعه علينا لنلعب به او ناكله وهو اخضر .

كانت هى وحدها التى تستطيع ان تصنع هذا كله .

وهكذا تعودت وصيفة ان تفتح امامنا اسرار الاشياء فتبهرناوتعودت

ان ترد فى طلاقة على الرجال الذين يصرخون فى وجوهنا ونحن نلعب ، وتشتمهم ان لزم الأمر .

ولم تكد وصيفة تقترح علينا ان نذهب لنستحم فى النهر بعيدا عن الأوز والبط وعن دور القرية حتى مضينا نجرى وراءها فرحين ، لنضرب الماء بايدينا وارجلنا ونقفز فى الماء بظهورنا كالذين يكبروننا من العمر ..

وقادتنا وصيفة الى مكان قريب من ساقية مهجورة وبدانا نخلع ملابسنا ..

كان واضحا ان وصيفة هى اكبرنا ، فلبدنها شبه قوى بأبدان النساء .

وكنا قد تعودنا عندما نخلع ملابسنا عند الترعة الصغيرة ان ننظر الى وصيفة معجبين ، فلم يكن فينا ولد او فتاة فوق الثامنة ، اما هى فكانت تعبر الحادية عشرة بادية الخصر والردفين ذات جسد محدد الخطوط .. وكان يروق لنا – نحن الأولاد – ان نتحسس جسدها من على الصدر والظهر !..

وخلعنا ملابسنا وكومناها كلها تحت شجرة ثم نزلنا الى النهر ومشينا فى الماء بخيلاء تخالجها الرهبة .. واقبل بعض نساء ليملأن بالقرب منا ونظرت الينا احداهن ، ثم جرت نحونا وهى تمسك ذيل جلبابها الأسود بأسنانها وانقضت على وصيفة من بيننا فقرصتها فى فخذها وهى تصيح :

– اطلعى يامفضوحة .. انت محشورة ليه فى وسط الصبيان ..

فصرخت فيها وصيفة متحدية كعادتها كلما شتمها رجل او امراة :

– الله ! .. وانت مالك ؟.. انت كنتى امى ولا ابوى .. اوعى كده .. ماحدش له ضرب على .. انا بنت شيخ الغفر .

واذ ذاك قذفتها امراة اخرى بحفنة من الطين قائلة :

– ياوكستى ! هو انت لسة صغيرة .. دا خراط البنات قرب ينيلك .. دا انت غلبتى خضره ..

فصاحت فيها وصيفة :

– وانتى مالك ياكسيفة ياباردة .. يابتاعة الموالد !..

وعجبنا نحن لجراة وصيفة ووقفنا فى الماء ثابتين .. غير ان امراة ثالثة هددتنا بأن تحمل ملابسنا الى اهلنا فى القرية وتتركنا عراة ..

فأسرعنا بمغادرة الماء والشتائم تلاحق وصيفة .

وتبعتنا وصيفة فارتدينا ملابسنا ، وهى تقول لى :

– ليجى نروح عند ساقية عبد الهادى ابن عمك نلعب هناك فى الضل تحت الجميزة ؟

وتحمست انا للفكرة ، وجريت الى ساقية ابن عمى ، وجرى من خلفى الاولاد ووصيفة .

وسبقتنا وصيفة الى الساقية فاستلقت الى جذع شجرة قديمة بجوار الساقية على حافة النهر حيث تقوم مصلى ذات سور منخفض تحت ظلال الجميزة .

وجلسنا حول وصيفة وبدانا كلنا ننظر اليها متلهفين الى معرفة اللعبة التى ستقترحها ، بينما كان عبد الهادى من بعيد يهوى بفأسه على الأرض .

ونظرت وصيفة الى عبد الهادى وهمست لنفسها : « الحمد لله لسه ماقيلوش » .. ثم تلفتت حولها ، تسأل عن خضرة فقال لها أحد الاولاد ان خضرة اليوم تنقى الدودة فى عزبة محمود بك مع غيرها من الصغار .. فتنهدت وصيفة وبلعت ريقها ، ونظرت فى وجوهنا جميعا..

وانتظرنا ان تقترح لعبة ، وكانت تعرف الكثير .

ولكنها لم تقترح علينا لعبة ..

وانما بدات تروى لناماشاهدته هى بنفسها فى زفاف اختها بالأمس الى فتى من القرية يعيش فى البندر ويلبس على جلبابه الجاكتة والطربوش ..

فاختها دخلت الى القاعة ومعها الداية كماتدخل العرائس ،وتسللت وصيفة ومعها خضرة الى قاعة العروسة .. وانتظر الجميع العريس .

ودخل العريس يلبس جلبابا من حرير القز وطربوشا فاقعا مائلا على جبينه ولم يكن معه المنديل الأبيض الذى يدخل به كل عريس .

واذ وجد العريس قاعته مزدحمة بالداية وام العروس والصغيرات وقف فى وسط القاعة غاضبا ، وطرد الجميع واصر على ان يبقى وحيدا مع عروسه ..

وخرجت الداية تلطم على وجهها تروى لشيخ الخفراء والد العروس من بدع عريس البندر .. ودخل محمد ابو سويلم غاضبا الى القاعة وضرب العريس بالكف على صدغه ، وطلب منه ان يدخل على ابنته العروس كما يدخل كل العرسان على البنات الشريفات فى القرية ..

وبعد قليل دخلت الداية ولف العريس حول إصبعه منديلا أبيض، وتسللت وصيفة وخضرة الى الحجرة من جديد .

كنا نسمع من وصيفة بشغف كبير ، وقلوبنا الصغيرة تدق واقتربنا منها ونحن جالسون حولها ، وهي تحكي بلذة ، وعيناها الواسعتان مفتوحتان في تألق وشفتاها تنفرجان قليلا عن لحظات صمت وابتسام .. ولكز بعضنا البعض ونحن نلتصق بها ونطلب منها ان تتكلم على طول وتكمل لنا حكاية اختها والعريس والمنديل الابيض ..

ومضت وصيفة تروى لنا كل شيء : منذ صرخت اختها حتى انطلقت الزغاريد عندما رمى على الواقفين امام قاعة العروسين منديل ابيض عليه نقط من الدم ومضى الرجال في طرقات القرية يحملون على اطراف الشماريخ مناديل بيضاء ، تملؤها بقع دم قاتم وهم يزغقون: « الحلو اهه » ومن ورائهم حلقات نساء يرقصن ويصفقن بأيديهن المرفوعة ، ورؤوسهن مائلة ، وهن يغنين في نغم سريع :

« قولوا لابوها ان كان جعان يتعشى » ..

« بنت الأكابر شرفتنا الليلة » ..

لم تترك وصيفة من القصة شيئا ..

وعندما انتهت منها سكتنا ، ووقف بعضنا يبحث لنفسه جوار المصلى عن قطعة من ظل الجميزة ..

وفجأة نظرت وصيفة الى المصلى وقالت :

— تعرفوا نلعب ايه ياعيال ؟ تعالوا نعمل فرح ..

واختارت وصيفة أبطال اللعبة .. فاقترحت أن تكون هي العروسة وبحثت عن فتاة تقوم بدور الداية وتمنت لو ان خضرة كانت معنا بدلا من بقائها طول النهار تنقى دود القطن في حقول بعيدة .. وعلى اية حال فقد اختارت فتاة لدور الداية .. اما العريس.. فقد اختارتني انا لان لي صلة بالبندر فاخوتي في القاهرة يتعلمون ، ومسيري للبندر في الآخر !.

واختارت وصيفة المصلى لتكون مخدعا للزواج ، ودخلت المصلى ودخلت وراءها الداية الصغيرة واخيرا دخلت انا ..

وظل الصغار خارج المصلى ..البنات يزغردن ويغنين ، والأولاد يمسكون عصيا صغيرة من التوت يلوحون بها وينتظرون .

غير أن اللعبة لم تتم رغم أن العروس كانت قد تهيأت تماما لاتمام اللعبة .. فقد اقبل الشيخ الشناوي فجأة !..

والشيخ الشناوي هو فقيه القرية ومفتيها ، وخطيب مسجدها ومأذونها الشرعي ، ومعلم الأولاد فيها ، وواعظ الكبار .

وهو رجل طويل عريض ضخم الجثة ، غليظ القفا ، عظيم الكرش، يحب الموالد والطعام ، وكنا نحسب نحن الصغار انه يستطيع أن يضع

في بطنه بقرة .. وهو رجل يحبه الجميع ويضحكون معه ولا يكاد يوجد في القرية رجل لم يذق عصا سيدنا الشيخ الشناوي عندما كان يقرأ في الكتاب .

وسمعنا نحن من وراء سور المصلى غناء الصغار ينقطع ، واصواتهم ترتفع مضطربة مختلطة بحركات الأقدام على التراب .

وفي اللحظة الحاسمة انتهت الينا اصوات الصغار :

— سيدنا الشيخ الشناوي .. يادى الحوسه .. اجرى يا بنت.. يوم ياوله .. اجرى يا واد اجرى ! .. سيدنا طب يا جدعان ..

وسمعنا الشيخ الشناوي نفسه بصوته المتهدج الوقور الذي يحمل الينا ذكرى تلاوة القرآن من اللوح الصفيح في الكتاب ، كان الشيخ مازال على الجسر عند الجميزة يشخط في الصغار :

— انجر منك له لها .. انجروا بعيد عن المصلية احسن تنجسوها .. يعني طهايين قوى .. اللى اهاليكو مابتهوب ناحية الجامع !..

وابتعد صوت الصغار وسمعنا رنين حبات مسبحة سيدنا وصوته يهمهم بآيات من القرآن .. واقترب الشيخ ، فتمخط وبصق بعيدا .. ثم خلع حذاءه ودخل المصلى .. والهواء يحمل الى وجوهنا رذاذ بصاقه

وكنا نحن — وصيفة والداية الصغيرة وأنا — نشعر اننا دوهمنا تماما .. فالتصقنا بجدار المصلى المصنوع من الحصيرة والطين ،وحاولنا ان نغطى انفسنا بالخوص المفروش على ارض المصلى ولكنا لم نملك الفرصة لنصلح من حالنا .

ووقعت علينا عين سيدنا فذهل .. وحملق فينا وقد راح لونه .. واسترقت اليه النظر فوجدته يتراجع قليلا ويتلفت بسرعة وهو يتمتم بكلام لم افهمه ، ثم يميل براسه ليتأمل كل بدن وصيفة .. ويتراجع وهو يقول :

— اعوذ بالله من الخبث والخبائث.. اعوذ .. اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. اللهم .. اللهم .. انس ولا جان ؟.. قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق .. قل اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس ..

وجف ريقي ، والتصقت بوصيفة ، والتصقت بي الداية الصغيرة .. فصرخت وصيفة باكية :

— معلهش والنبي ياسيدنا .. انا ماليش دعوة .. هه !! والنبي هو اللى ضحك عليه وقال تعالى ياوصيفة نلعب لعبة العروسة والعريس ..

وهنا اطمان سيدنا وارتفع صوته في انفجار :

ـ هو انتو لا اه يا انجاس ياخنازير .. وفى المصلى كمان ! والله ارميكو فى البحر !!..

وملأنا الرعب ، وتأكدنا ان سيدنا سيرمينا فى البحر حقا فقد كان يصنع اى شىء فى القرية ويروى له حديثا او قصة ليبرر ما صنع ..

واحتضنت وصيفة مستنجدا ، واحتضنتنى بوجل شديد ،وارتمت الدايه الصغيرة فوقنا وكنا مانزال على حالنا استعدادا للحظة الزفاف .. فانهال سيدنا بيديه الثقيلتين علينا :

ـ وكمان قدامى ؟ ترقدوا على بعض قدامى ياكفرة يافجرة !غوروا من هنا .. غوروا ..

ثم صفق بيديه ، وهز راسه قائلا :

ـ يا اخواتى هى البلد دى جرى لها ايه ؟ كلها متنيلة بنيلة كده من مصغرها لمكبرها ، اعوذ بالله يا اخواتى .. ياعبد الهادى .. تعالى ياعبد الهادى تعاله !!.

وكان عبد الهادى يهوى بالفاس على ارضه الممتدة تحت بطن الجسر امام الساقية على مرمى البصر .. فاقبل مسرعا على نداء سيدنا بينما سيطر علينا الفزع ولم نعد نعرف ماذا نصنع .. وظل سيدنا يقول لنفسه :

ـ ياخويا العيال دى مابتقيلش ليه .. طالعين على البحر فى وسط القيالة !! يعنى لو خطفتكم جنيه ؟ الهى تخطفكم جنيه بدل ما تطلعوا سدانين !! .

وطافت برؤوسنا صور سريعة عن الجنية تظهر على النهر بأصابع حمراء فى ساعات الظهر لخطف الصغار ، فاذا رات صغيرا يمشى وحده خايلته بالاصابع الحمراء قائلة : تعالوا كلوا بلح .. فاذا ذهب واحد اليها اخذته الى اعماق النهر بلا عودة .

ولكن قصة الجنية التى اشار اليها سيدنا ، والتى سمعناها من الامهات دائما لم تكن هى التى تخيفنا بالتحديد !!.

كان هناك سيدنا هو كل مايرعشنا فى تلك اللحظة ..

واطل سيدنا من جديد على وصيفة وكانت ماتزال على حالها فهز راسه وشوح بيديه قائلا :

ـ باسنتك سودة يادى البنت .. دا انتى على وش جواز .

ثم عاد يطل عليها وهى تلتصق بى وزعق :

ـ فزوا اطلعوا بره المصلية دا انتو نجستوها .. اقفوا هنا هه بره سور المصلية .

وسال سيدنا وصيفة :



ـ انت بنت مين ؟

فقالت وصيفة وهى تقف الى جوارى خارج المصلى باكية :

ـ بنت شيخ الغفر .

ـ بنت محمد أبو سويلم ؟ والله النار بتخلف تراب يا اولاد !

وكان عبد الهادى قد اقبل ، يمسح عرق جبينه بظهر كفه .. وقال عبد الهادى :

ـ خبر ايه ياسيدنا ؟

وقبل ان يجيبه سيدنا كان قد فطن الى وجودى انا فمصمص شفتيه وقال متعجبا :

ـ ماشاء الله !!.

ومضى سيدنا يروى لعبد الهادى كل ما رآه بألفاظ ملاتنى خجلا وفزعا واضحكت عبد الهادى فأمسك بشعرى قائلا وضحكاته تتوالى :

ـ يعنى طالع فرخ من يومك !.

غير أن الشيخ الشناوى لم يضحك ، وانما نهر عبد الهادى وتحدث طويلا عن اهتمام ابى بتاديبى بآداب الدين وسمعنا الفاظا رهيبة تسقط من فم الشيخ .

سمعنا لأول مرة كلمة الفحشاء .. وسمعنا لاول مرة كلمة الزنا .. الزنا الذى قال عنه سيدنا انه يخرب البيوت !!.

وظل الشيخ يتحدث عن النار والزنا والخراب .

ورايت عبد الهادى يلتقط عصا رفيعة من الأرض ويضرب بها وصيفة قائلا :

ـ طب هوه لسه صغير مايعرفش الحاجات دى ولا يفهم العيب .. لكن انت يامقصوفة الرقبة ؟! انتى اللى تعمرى دار ؟ ماتعرفيش غير اللعب الاغبر ده .. هو دا لعب ؟!.

واذ كان عبد الهادى يضرب وصيفة وهى تبكى ، جرت الفتاة التى كانت تقوم بدور الداية .. فالتقط عبد الهادى طوبة وقذفها فى ظهرها صائحا :

ـ استنى جاك سخونة ..

ولكن الداية الصغيرة تابعت جريها على الجسر وهى تتحسس ظهرها وجرت من ورائها وصيفة ، وجريت انا ..

واذ اصبحت وصيفة بعيدا عن سيدنا وعبد الهادى ، التفتت قائلة: « جاك ضارب ياعبد الهادى انت وسيدنا » .

واخذتنى الرهبة وانا إجرى ، وما زال صوت سيدنا ينطلق وقد احمر صدغاه المنتفخان وهو يتحدث عن الفاحشة والنار وخراب البيوت !!.

وفى الحق اننا لم نفهم سر مايغضب علينا الشيخ الشناوى . لقد كنا سعداء للغاية ونحن نلعب .. كنت انا ووصيفة والداية الصغيرة نضحك طول الوقت فى المصلى ، والصغار يغنون وراء السور المنخفض فرحين . ولم نشعر ابدا اننا نرتكب شيئا يستحق هذا كله .. وبصفة خاصة يستحق النار ..

كان ابى قد قال لى ذات مرة : « لاتكذب فالذين يكذبون يحرقون بالنار » .

ولم اكذب بعد ذلك فى تلك السن منذ قال لى ابى هذا الكلام برغم انى رايت كثيرين يكذبون ويحرقون غيرهم فى النار ، ورايت آخرين يكذبون فيحترق غيرهم بالنار ، وعلى اية حال فلم يكن احد قد قال لى بعد ان الصغار حين يلعبون .. يمكن ان يلعبوا باشياء يحرقون من اجلها بالنار !

ولم اجرؤ على ان اسأل ابى فى هذا ابدا ..

ولكن الشيخ الشناوى عندما زارنا فى ذلك المساء همس فى اذن ابى بكلمات ، وارتفع صوته مطالبا بمولد لأهل الله .. وهز ابى راسه ثم نادانى ، وضربنى ، ولم يقل لى لماذا يضربنى .. غير انى فهمت فلم اعد الى هذه اللعبة مرة اخرى . وعرفت انها كالكذب يمكن لأن تجعلنى احرق بالنار ، وربما لعبها آخرون فلم تحرقهم النار وانما احرقوا غيرهم بالنار !.

ولم اسأل ابى عن تفسير لكل هذا .. ولكنى حاولت ان اسأل وصيفة ، فقد كانت تعرف الأسرار .

غير انى لم اعد اراها .. لم تعد تخرج الى الترعة قبل الظهر ولم تعد تجلس على باب دارها فى المساء وتضع طشتا مقلوبا على الأرض وتنقر عليه ، وتغنى ونحن من حولها نرد ونسمع .

ويقولون ان اهلها ضربوها بعد المغرب ومنعوها من اللعب ، وان محمد ابو سويلم شيخ الخفراء فرض على عبد الهادى أن يقيم على المصلى سورا عاليا وبابا يغلق حتى لا يتسلل اليها الصغار .

وسافرت الى القاهرة بعد ذلك بعام لأقيم مع اخوتى الكبار استعدادا لدخول المدرسة الابتدائية .. ولما عدت الى قريتى فى اول صيف عرفت ان وصيفة سافرت مع اختها الى عاصمة الأقليم . حيث يعمل زوج الأخت ساعيا فى مدرسة الزراعة المتوسطة ..

***

ومرت اربعة اعوام .. خمسة .. وانتهيت من دراستى الابتدائية وعدت الى قريتى مع الصيف محملا بالكتب ، وبأحلام المدرسة الثانوية

واحلام بالبنطلون الطويل والجاكتة المفتوحة ذات الجيب الصغير فى داخلها ، والكرافتة التى تتراقص مع الريح ، والحذاء القصير .

ورجوت أمى ـ وانا اقبل يدها ـ ان تتوسط عند ابى ليحول مصروفى اليومى الى مصروف شهرى محترم بما انى حصلت على الابتدائية !..

واخذت امنى النفس بقطع فضية تملأ جيب بنطلونى ، وانتشى بتصور نفسى اضع يدى فى جيب البنطلون لاعبث بالنقود فاتمتع برنينها الجميل .

وحلمت بساعة وطلبتها من امى ولكنها قالت لى ان الساعة تعطل الذين فى مثل سنى ، وان الساعة كالشعر الطويل ميزة للذين يدرسون فى السنوات النهائية من المدارس العالية كأخوتى الكبار !!..

ومع ذلك فقد ظللت احلم بالساعة واتخيل نفسى وانا ادرس اللغة الفرنسية وانظر فى الساعة ، وعشت اياما فى لحظات الحلم اديرراسى ويدى على حركة من يلقى نظرة خاطفة على ساعة يده !.

وحلمت اكثر من هذا باننى اسير فى المظاهرات التى يقوم بها طلبة المدارس الثانوية واطلق حنجرتى بالهتافات التى تنطلق بها الحناجر .. وكنت قد سمعت من اخوتى الكبار كثيرا جدا مما صنعوه فى الجامعة عندما فصل طه حسين من الجامعة .. واسم طه حسين اذ ذاك يملأ نفوسنا برهبة غامضة !!.

وفى غمار هذه الاحلام كنت قد نسيت وصيفة .. وظل اصدقاء صباى فى القرية يتحدثون عنها امامى ، ولكنى اقبلت اروى للصغار كثيرا مما شاهدته فى القاهرة .. وفى ذلك العام بالذات شاهدت فى القاهرة مالم اشاهده فى عام آخر من قبل .

ولم يسالنى الصغار كما تعودوا ان يسالوا عن مصر ولكنى بدات انا احدثهم عما رايت فى مصر !.

وفى تلك الايام كانت القاهرة لاتهدأ ابدا .. وكنت اعرف من احاديث اخوتى الكبار ومن الجرائد التى يحملونها ان رجلا اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد ان الغى الدستور لحساب الانجليز . وكنت اراه يطلق فى القاهرة جنود الانجليز حمر الوجوه ليحموا له سلطانه على رقاب الناس !.

وكنت فى المدرسة المحمدية الابتدائية اسمع دوى الرصاص كل يوم واعرف عندما انصرف الى البيت فى العصر ، ان دوى الرصاص كان يزلزل القاهرة كلها ومع ذلك ففى صباح كل يوم كانت اغتصابات العمال وهتافات الطلبة تهز من جديد اوتار الحياة .

وكانت المدرسة [illegible]
فنهتف بحياة الدستور والاستقلال والحرية وبسقوط صدقى والانجليز .

واقتحم طلاب المدرسة الخديوية علينا باب المدرسة ذات صباح من مارس واضطرب الناظر والمدرسون وضباط المدرسة ، ولكننا اندفعنا مع طلاب الثانوى . وقد الهبنا الفرح وسرنا فى موكب كبير يتصايح بهتاف واحد ، وشعر كل واحد بقلبه ينبض وبجسمه يحمى والدم يغلى فى العروق ومضينا نردد هتافات الكبار فى شوارع الحلمية الجديدة وازدحمت الشرفات بالنساء يصفقن لنا ، وفتحت الشبابيك وظهرت الفتيات المختبئات خلف الشيش ، وصفقن بحماس ..

وفجأة واجهتنا جماعة من الجنود الانجليز حمر الوجوه .. كانوا يسددون نحونا البنادق ، وتعالت الصرخات من الشرفات والشبابيك .. وصاح فتى منا : « الاستقلال التام او الموت الزؤام » .. وطلبت النساء فى ضراعة ان نرجع الى الوراء .. ورجعنا قليلا الى الوراء .. فوجدنا جنودا مصريين ، سمر الوجوه كالرجال فى قريتى وينادون بعضهم بنفس الاسماء .. اسماء الرجال فى قريتى ، ولكنهم كانوا يحملون العصى الغليظة ، يقرعون بها الرؤوس والارض !!.

مضيت اروى لزملائى فى القرية كل هذا .. احلامى بالمدرسة الثانوية وما شاهدته فى القاهرة .. حديث البنطلون الطويل ، والانجليز والساعة ، وصدقى ، والدستور ، والانجليز .. وكانوا يسكتون احيانا ويسمعون بشغف ، واحيانا يتحدثون عن وصيفة فى اكبار ، واسمع انا بعجب ..

ووجدتهم يعرفون صدقى .. وسالنى احدهم مرة :

ـ هوه صدقى قد ايه ؟ يعنى هو اللى يغلب ولا الواد عبد الهادى لو نزلوا لبعض لعب عصا ؟

فرد عليه آخرون ان صدقى هذا كائن عجيب يغلب مائة عبد الهادى ولكن فى غير لعب العصا .. وانه ياكل خبزا كله من القمح .. وهو لا يعرف خبز الذرة الذى ياكلونه فى القرية .. وهو يشرب الماء بالثلج من الحنفية لا من الزير !!.

وسالنى ولد آخر ان كان صدقى يستطيع فى المرة الواحدة ان ياكل عشرين رغيفا من خبز القمح ، ويشرب ملء جرة من ماء نقى كماء طلمبة المسجد ! .

ولم استطع ان اجيب ..

وسالنى احد زملاء طفولتى عن هذا الدستور الذى هتفنا بحياته

واحلام بالبنطلون الطويل والجاكتة المفتوحة ذات الجيب الصغير فى داخلها ، والكرافتة التى تتراقص مع الريح ، والحذاء القصير .

ورجوت أمى – وانا اقبل يدها – ان تتوسط عند ابى ليحول مصروفى اليومى الى مصروف شهرى محترم بما انى حصلت على الابتدائية !..

واخذت امنى النفس بقطع فضية تملأ جيب بنطلونى ، وانتشى بتصور نفسى اضع يدى فى جيب البنطلون لاعبث بالنقود فاتمتع برنينها الجميل .

وحلمت بساعة وطلبتها من امى ولكنها قالت لى ان الساعة تعطل الذين فى مثل سنى ؛ وان الساعة كالشعر الطويل ميزة للذين يدرسون فى السنوات النهائية من المدارس العالية كاخوتى الكبار !!..

ومع ذلك فقد ظللت احلم بالساعة واتخيل نفسى وانا ادرس اللغة الفرنسية وانظر فى الساعة ، وعشت اياما فى لحظات الحلم اديرراسى وبدى على حركة من يلقى نظرة خاطفة على ساعة يده !.

وحلمت اكثر من هذا باننى اسير فى المظاهرات التى يقوم بها طلبة المدارس الثانوية واطلق حنجرتى بالهتافات التى تنطلق بها الحناجر .. وكنت قد سمعت من اخوتى الكبار كثيرا جدا مما صنعوه فى الجامعة عندما فصل طه حسين من الجامعة .. واسم طه حسين اذ ذاك يملأ نفوسنا برهبة غامضة !!.

وفى غمار هذه الاحلام كنت قد نسيت وصيفة .. وظل اصدقاء صباى فى القرية يتحدثون عنها امامى ، ولكنى اقبلت اروى للصغار كثيرا مما شاهدته فى القاهرة .. وفى ذلك العام بالذات شاهدت فى القاهرة مالم اشاهده فى عام آخر من قبل .

ولم يسالنى الصغار كما تعودوا ان يسالوا عن مصر ولكنى بدات ان احدثهم عما رايت فى مصر !.

وفى تلك الايام كانت القاهرة لاتهدا ابدا .. وكنت اعرف من احاديث اخوتى الكبار ومن الجرائد التى يحملونها ان رجلا اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد ان الغى الدستورلحساب الانجليز . وكنت اراه يطلق فى القاهرة جنود الانجليز حمر الوجوه ليحموا له سلطانه على رقاب الناس !.

. وكنت فى المدرسة المحمدية الابتدائية اسمع دوى الرصاص كل يوم واعرف عندما انصرف الى البيت فى العصر ، ان دوى الرصاص كان يزلزل القاهرة كلها ومع ذلك ففى صباح كل يوم كانت اغتصابات العمال وهتافات الطلبة تهز من جديد اوتار الحياة .

وكانت المدرسة الخديوية الثانوية تخرج الى الطريق كل صباح فتهتف بحياة الدستور والاستقلال والحرية وبسقوط صدقى والانجليز .

واقتحم طلاب المدرسة الخديوية علينا باب المدرسة ذات صباح من مارس واضطرب الناظر والمدرسون وضباط المدرسة ، ولكننا اندفعنا مع طلاب الثانوى ، وقد الهبنا الفرح وسرنا فى موكب كبير يتصايح بهتاف واحد ، وشعر كل واحد بقلبه ينبض وبجسمه يحمى والدم يغلى فى العروق ومضينا نرد هتافات الكبار فى شوارع الحلمية الجديدة وازدحمت الشرفات بالنساء يصفقن لنا ، وفتحت الشبابيك وظهرت الفتيات المختبئات خلف الشيش ، وصفقن بحماس ..

وفجاة واجهتنا جماعة من الجنود الانجليز حمر الوجوه .. كانوا يسددون نحونا البنادق ، وتعالت الصرخات من الشرفات والشبابيك .. وصاح فتى منا : « الاستقلال التام او الموت الزؤام » .. وطلبت النساء فى ضراعة ان نرجع الى الوراء .. ورجعنا قليلا الى الوراء.. فوجدنا جنودا مصريين ، سمر الوجوه كالرجال فى قريتى ويتنادون بعضهم بنفس الاسماء .. اسماء الرجال فى قريتى ، ولكنهم كانوا يحملون العصى الغليظة ، يقرعون بها الرؤوس والأرض !!.

مضيت اروى لزملائى فى القرية كل هذا .. احلامى بالمدرسة الثانوية وما شاهدته فى القاهرة .. حديث البنطلون الطويل ، والانجليز والساعة ، وصدقى ، والدستور ، والانجليز .. وكانوا يسكتون احيانا ويسمعون بشغف ، واحيانا يتحدثون عن وصيفة فى اكبار ، واسمع انا بعجب ..

ووجدتهم يعرفون صدقى .. وسالنى احدهم مرة :

– هوه صدقى قد ايه ؟ يعنى هو اللى يغلب ولا الواد عبد الهادى لو نزلوا لبعض لعب عصا ؟

فرد عليه آخرون ان صدقى هذا كائن عجيب يغلب مائة عبد الهادى ولكن فى غير لعب العصا .. وانه ياكل خبزا كله من القمح .. وهو لا يعرف خبز الذرة الذى ياكلونه فى القرية .. وهو يشرب الماء بالثلج من الحنفية لا من الزير !!.

وسالنى ولد آخر ان كان صدقى يستطيع فى المرة الواحدة ان ياكل عشرين رغيفا من خبز القمح ، ويشرب ملء جرة من ماء نقى كماء طلمبة المسجد ! .

ولم استطع ان اجيب ..

وسالنى احد زملاء طفولتى عن هذا الدستور الذى هتفنا بحياته

مع الكبار واوشكنا ان نقتل من اجله .. ولكننى لم استطيع ان اجيب ، وقلت له ان الكبار يعرفون ، فحدثنى هو عن فلاحين سجنوا وضربوا فى المركز من اجل الدستور وعن الشيخ حسونة ناظر المدرسة فى القرية المجاورة وقال لى انه نقل الى بلد فى آخر الدنيا من اجل الدستور .

واقترب من اذنى ولد آخر وهمس أن شيخ الخفراء عم محمد ابو سويلم والد وصيفة قد فصل من وظيفته فى جرائر الدستور فالقرية قاطعت الانتخابات التى يجريها صدقى ويدخل فيها حزب الشعب ، ولم يذهب رجل الى الصناديق ليعطى صوته ، وطلب المامور من محمد ابو سويلم ان يسوق الرجال الى صندوق الانتخابات ، ولكنه رفض .. ورآهم يجمعون أصوات الموتى فتشاجر !..

وأخذنى ولد من يدى وابتعد بى خطوتين عن دكان الشيخ يوسف ، الذى كنا نقف امامه فى فضاء الطريق ، ليقول لى ان الشيخ يوسف نزعت منه ملكية نصف فدان من الفدان الذى يملكه بعد ذهاب الدستور!

ومضى زملائى يروون لى اشياء عن الدستور ،وشعرت انهم فى القرية يعرفون عن الدستور — بكثير من المرارة — اضعاف ما اعرف انا رغم انهم لم يشتركوا مثلى فى مظاهرات من اجل الدستور ..

وملأنى الأكبار للشيخ حسونة الذى كان ناظرا على فى المدرسة الاولية بالقرية المجاورة ..

واحسست باشفاق على الشيخ يوسف ، وعم محمد ابو سويلم والد وصيفة صديقة صباى ..

وعرفت أن محمد ابو سويلم يشتغل بنفسه الآن فى نصف الفدان الذى يملكه وقد عادت وصيفة من عند أختها فى البندر لتساعد اباها ..

فمنذ فصل الرجل لم يعد الخفراء يساعدونه كما كانوا من قبل وهو بعد لا يستطيع ان يؤجر الأنفار ليزرعوا له ! .

عادت وصيفة من عند اختها ، وهبطت القرية بجلباب ملون كبنات البندر .

ومنذ هبطت وصيفة الى القرية ، والقرية مشغولة بها .. وهى وحدها دون بقية الفلاحات تمضى بجلبابها الملون لتملأ من على الجسر وتروح وتجىء بجلبابها هذا الى الحقل ، غير حافلة بما تثير من همسات الفلاحين .

ويقولون ان عم محمد ابو سويلم لا يستطيع ان يشترى لوصيفة الجلباب الاسود المعهود الذى تلبسه كل الفتيات والنساء فى القرية .

ويقول اخرون يستطيع ان يشترى هذا الجلباب ولكنه لا يريد ان يكسر خاطر وصيفة فهو يتركها تلبس كاهل البندر بعد ان حرمها من الاقامة مع البندريات .

وسمعت ان وصيفة اصبحت كالشهد ، وانها تتحدث بلغة اهل البندر وسمعت ان محمد افندى المدرس الالزامى طلبها من ابيها ، ورغم انه يقبض اربعة جنيهات كاملة كل شهر فان محمد ابو سويلم لا يريد ان يزوجها من اهل البلد ..

وسمعت ان عبد الهادىء قرا الفاتحة سرا مع زوج اختها الذى يعمل بمدرسة الزراعة المتوسطة فى عاصمة الاقليم ، وهما صديقان قديمان ..

وسمعت ان عبده ابن خال وصيفة طلبها من امها ، ولكنه عاد من مصر متعطلا فرفض محمد ابو سويلم .

وهكذا مضيت فى دوامة من الحديث عن وصيفة .

واقبل العصر على قريتى وانا مع زملائى فى الطريق الواسع امام دكان الشيخ يوسف نتحدث عن كل شىء .. ومر حمار عجوز عليه شاب يلبس طاقية يبدو من تحتها شعره الطويل وقد ظهرت خصلة ترتفع على جبهته .. وكان جلبابه المخطط متسخا بعض الشىء .. وكان يقعد على الحمار ورجلاه تتدليان من ناحية واحدة ، وفى القرية يسمون هذه الطريقة « بالخسروان » وهمس ولد :

— اهه .. اهه .. عبده ابن خال وصيفة طول عمره فى مصر من يوم ابوه ما طلع من البلد علشان يشتغل سايس .. وبعد ابوه ما مات قعدله سنتين تلاته ورجع قال يساعد محمد ابو سويلم .. ولكن دا لا هو عارف يزرع ولا يقلع .. شوف ياخويا راكب خسروان ازاى تقولشى عنده ابعادية !؟

ومضى الحمار العجوز بعيدا حتى اختفى فى احد دروب القرية واخذت اسراب الفتيات تمضى الى النهر بالجرار الفارغة .. ومن بعيد من جهة النهر تهادت فتيات يلبسن ثيابهن الطويلة السوداء الا واحدة منهن تلبس ثوبا ملونا . .وكان يرتفع بينهن صوت واحد وسط الضحكات ..

كن عائدات من النهر ، وقد مالت الجرار المليئة على رؤوسهن فى اتساق واحد .. الاجرة واحدة كانت اكثرهن ميلا ..

وكانت صاحبتها اطول الفتيات قامة ، واثبتهن خطوة ، وكانت وحدها تلبس ثوبا ملونا ضيقا من على خصرها ، وتضع فوق راسها طرحة سوداء شفافة ، تظهر من تحتها حمرة فاقعة لمنديل الراس الذى يلقى على جبهتها العريضة الناصعة كرات صغيرة زاهية من القماش .

وهمس بى غلام :

ـ آهى وصيفة اهيه .. ياترى حاتفتكر ؟!

واقترب سرب الفتيات .. كن يتكلمن مع بعضهن وقد هدأت ضحكاتهن والرؤوس متجهة الى الأمام ونظراتهن تتجول فى الطريق .. الا واحدة كانت عيناها الواسعتان تلقيان نظرات بعيدة الى الأمام ..

وسمعت وصيفة تقول الى فتاة مرتفعة الصوت :

ـ اختشى يا خضرة بقى احسن احنا دخلنا البلد .. بقينا فى وسط البلد !..

وتقدم السرب .. ولاحت لى وصيفة بيضاء شاهقة بضة اكثر مما تحتمل أرض قريتى ذات البيوت الوطيئة الداكنة .

كانت ناصعة النحر ، ممتلئة ، راسخة البدن ، ذات نهدين متماسكين .. وكانت يدها التى تسند بها جرتها تتكشف قليلا عن ساعد رقراق به اساور من زجاج ازرق خاطف البريق ! .

وكانت تتقدم الفتيات وحدها ..

وحدها دائما ..

وكانت وحدها تلبس « الشبشب » يقرع كعبها فى دقات متتابعة منتظمة ..

لم تكن باهرة الحسن ، ولكن وجهها كان يفيض بصفرة جميلة تختلج فى بياض كاللبن الحليب ، وتكسو احمرار خديها بشحوب فاتن ..

وكان شعرها الاسود الكثيف المسترسل على كتفيها من تحت المنديل الاحمر وكان فمها الواسع الغليظ الشفتين ، وانفها الصغير المكور وذقنها العريضة المرتفعة فى كبرياء .. وكان صدرها المفعم البارز .. كان كل هذا .. ونحرها المتألق .. يجعل لها بين الفتيات سحرا خاصا ..

واصبحت وصيفة قريبة منا ، وانقطع حديث الفتيات ..

وناديتها وهى تمر امامنا : وصيفة !.

ولم تنظر الينا وذهل الصبيان من حولى وسمعتهم يهمسون أن احدا فى القرية لم يعملها من قبل ..

« فمن يحدث وصيفة فى الطريق لا يسلم ابدا .. وهمس غلام وهو يشير الى خفية ان وصيفة ستدور الآن لتصب الماء على راسى من جرتها كما صنعت مع آخرين ..

وتقدمت انا اليها وابديت لها عجبى لانها كبرت الى هذا الحد ، واحنت وصيفة عينيها قليلا لترانى فقد كنت اقصر منها بشكل واضح

.. وارتفعت نظراتى الى ذراعها العارى وهبطت على كل جسدها الل[illegible] البض .. وسألتنى خضرة زاعقة :

ـ الله .. انت جيت ؟ ازاى مصر ؟.. حمد الله على السلامة .. يا بختكم ياللى بتروحوا مصر !!.

وابتسمت وصيفة وابطأت فى مشيتها قليلا وقالت مبتسمة :

ـ الله .. يا حلاوة .. هو انت ؟.. ازيك ؟.. والله زمان ! .

وضحك وجهها كله والتمعت عيناها ببريق جميل ، واشاعت المفاجأة السارة فى راسها وكتفها حركات من المدينة ، ولاح فى خديها غمازتان تعطيان لبسمتها عذوبة حبيبة .

وتابعت سيرها وهى تقول :

ـ جبت لنا معاك حاجة حلوة من مصر ؟.

ولم أجب فلم اكن قد فكرت فى هذا ابدا ..

***

ولم يكد يمضى أول أسبوع من اجازة الصيف حتى عرفت اشياء كثيرة عن وصيفة . عرفت ان علوانى وهو فتى عربى ولد فى القرية ، رآها يوما تسير وحدها بجرتها الى الجسر ، بينما كان هو يجلس فى حقل البطيخ الذى يحرسه ، والمساء ينشر اول ظلاله على الدور والحقول والماء .. واذ مرت وصيفة امام حقل البطيخ الذى يحرسه صفق وهو يصيح طربا :

ـ اهلا وسهلا .. اتفضل يا جدع !.

كان الطريق فارغا ، والفلاحون قد عادوا بالبهائم الى الدور ووصيفة تمضى دون ان تلتفت الى ترحيب علوانى بوجودها وحيدة فى فضاء الحقول .. وشجعت وحدتها علوانى فتقدم منها وهو يحمل بطيخة كبيرة قائلا :

ـ انا عبد الأسياد ولو قطعوا مراسيلى . انا عبد الاسياد . خدى البطيخة دى !. دا النبى قبل الهدية .. خدى البطيخة الحلوة دى طرى بها على قلبك فى الحر ده ..

وفاجأته وصيفة بقولها :

ـ جاك وجع قلبك يا عرباوى يا صايع .

واطلق علوانى ضحكة متكسرة قصيرة وحك قفاه :

ـ به ؟.. مقبول منك .. حلوة قوى المهارشة دى .. حاكم ضرب الحبيب زى اكل الزبيب .

وسد عليها الطريق ومد اليها يديه بالبطيخة ، فدفعته بيد واسندت جرتها بيد صارخة :

ـ انت فاكر نفسك ايه ياواد ياعرباوى انت يا واد ؟ .. دانت حتة خدام بتحرس بطيخ شيخ البلد ! سارق لى واحدة منه ياخطاف ؟ ياما جاب الغراب لامه !.

وضحك علوانى وتكسرت ضحكاته وطالت ..

ومد يده قائلا :

ـ خدى بس يا شيخه !..

فصاحت وصيفة وهى تبتعد عن يده الممتدة :

ـ جاتك انبلى فى خطافينك .. كن ايدك دى باقول لك .. ابعد ايدك دى عنى .. والا يعنى علشان ما بتخوف العيال الهبل اللى زيك .. انا لا اسعرك لا انت ولا حتى شيخ البلد بتاعك .. امال يا اخى لو كنت تحتكم على قراطين ارض ! .

على ان علوانى لم يتركها تذهب فقد ظلت يده ممدودة بالبطيخه وهو يقول :

ـ كله مقبول منك بس اقبلى الهدية .. دى العبارة بسيطة برضه وانا شيخ عرب يا وصيفة .. خدى يا بت !.

فانفجرت وصيفة :

ـ اخرس قطع لسانك .. بته تبتك انت واللى جابوك ! دا انت مررت عيشى ياواد ياعرباوى .. بت ؟ قال بت قال ؟! دانا ستك وتاج راسك، وست اسيادك كمان ، هو انت ياواد يا خطاف فاهم انتا مش عارفه شغلك وملاعيبك .. دا انت حرمتنى انزل البحر .. قال ايه الاقيك طالع على جميزة عبد الهادى زى عفريت القياله وعمال تبص علينا من بعيد واحنا بنستحمه .. والنبى والنبى دا لو ابويا عارف ولا عبد الهادى ولا محمد افندى ولا ايها واحد من اللى رايحين جايين يقولوا عليه لكانوا قطعوا رقبتك دى اللى واقفة على عرق !.

ـ كلامك حلو .. والنبى كلامك حلو .. طب وايمان النبى انتى عمرك ما اتكلمت مع حد فى الملك كله قدما اتكلمت معايا دلوقت ! قولى كمان قولى .. قولى ايها حاجة ..

ثم مد يده بالبطيخة حتى لامست يده صدرها وهو يكمل .

ـ طيب يا ستى .. ولا تزعلى .. خدى البطيخة دى حق عرب ونصطلح بقى ..

وهنا وضعت وصيفة جرتها على الارض بسرعة وقالت له بحنق :

ـ طب هات .

وامسكت البطيخة فقذفتها بكل قوتها فى وجه علوانى .

وتركته يترنح ، واندفعت الى النهر .. الى المكان الذى تملأ منه القرية الماء ، ويستحم فيه النساء غير بعيد من جميزة عبد الهادى ، وراء دغل من البوص المرتفع يحجب النهر عن الجسر ..

شاعت هذ القصة .. ومنذ شاعت لم يجرؤ واحد من فتيان القرية ان يتعرض لوصيفة .. فعلوانى رجل تهواه غير واحدة من نساء القرية ؛ ويهابه بعض الرجال ، فهو كابيه الذى نزح الى القرية ، شجاع يتقن ضرب النار ، خفيف اليد فى لعب العصا ، وقد ورث عن ابيه مهنته فهو احيانا يرعى اغنام الملاك الكبار فى القرى المجاورة ، واحيانا يحرس حدائق البرتقال او حقول البطيخ هنا او هناك ..

وكان يملك بندقية قديمة يسميها « المقروطة » ورثها عن ابيه الذى اقبل الى القرية ذات شتاء .. ورث علوانى عن ابيه البندقية ، وورث معها شجاعة القلب ، والجراة ولا شىء بعد .

وعلى اية حال فقد كان رجال الليل الاعراب وصعاليك القرية يحسبون له الف حساب .

وقد اصبحت قصة وصيفة وعلوانى على كل لسان حتى غدا فتيان القرية واطفالها عندما يتندرون يقولون : « دى يعنى ولا بطيخة علوانى ! » .

وحمتها قصة البطيخة من معاكسة الفتيان الآخرين .

وانصرف عن وصيفة كل الذين فكروا فى خطبتها منذ اعلن ابوها انه لن يزوجها من اهل البلد .

اما عبد الهادى فلم ييأس ابدا .. وقال للشيخ يوسف بقال القرية :

ـ ابوها لا راضى يدينى حل ولا عقد .. كلما اجى اقول له ادينى عقاد نافع يقول لى تتعدل ، يعنى هو رايح يجوزها لابن السلطان .. دكره اخدها من جوز اختها .

وقال له الشيخ يوسف وهو يسلم عليه ليدخل باب الجامع قبل صلاة العشاء ذات ليلة :

ـ والله ما له حق ابدا محمد ابو سويلم فى العمايل دى .. هو انت تتلوع كده .. دا الناس كلها تتمنى تناسبك يا عبد الهادى .. دا لولا ان بنتى نجية مايلزمهاش الا واحد افندى كنت اجهزها لك واجيبها لحد الدار .

وانصرف عبد الهادى شاكرا للشيخ يوسف عواطفه .. ومضى الى داره يفكر فى انه سياخذ وصيفة من زوج اختها .. وزوج اختها صديقه القديم .. عاشا معا طفولة واحدة وقرآ معا فى كتاب الشيخ الشناوى

وفى المدرسة الاولية فى القرية المجاورة وذهبا معا لزيارة اخت وصيفة ايام الخطبة ، وانفقا معا شبابا جميلا ملاه بالمواويل .. وعنى عبد الهادى فى اول أيام زواج صديقه باستحضار حجاب من احد العارفين المقيمين بقرية مجاورة ليعصمه الحجاب من السحر الذى ينقشه الحساد فى مخادع الأزواج الجدد !.

وحل الحجاب عقدة الزوج بالفعل ، وسافر بزوجته سعيدا الى البندر ، ولم ينس صديقه عبد الهادى فكان يرسل اليه احدث ما تصدره المدينة من كتب المواويل ، وارسل اليه نسخة كاملة من الف ليلة ، وسيف بن ذى يزن .

وكانت وصيفة تعرف هذا كله وتعرف ان عبد الهادى هو وحده الذى يستطيع ان يصلح بين اختها وزوج اختها كلما زار عاصمة الاقليم ووجد فى البيت مشاجرة .

وكانت وصيفة تنظر الى عبد الهادى فى حيرة ، وتعرف انه يريد ان يخطبها ، وتفكر أحيانا فى انها يجب ان تتزوج رجلا يلبس الطربوش كما تزوجت أختها ، ومع ذلك فقد كان يسرها ان ترى عبد الهادى يجلس مع الرجال وهى تغنى فى اى ذ ـ فى القرية ..

ومازالت وصيفة كما كانت وهى طفلة تحب الغناء والرقص وتمسك العصا ، وتضع على وجهها طرحة سوداء ، وتدخل فى حلقات الرجال الذين يصفقون كف العرب فترقص محتشمة وهى تغنى فى نغم سريع :

« وفرش منديله .. » ..

فيردد الرجال :

« عالرملـــة ....»..

وتعود تغنى :

« والحلوة تيجى له » عالرملة ..
جـدع ياللى ورا الحيط ..
انت حلى ولا ضيف ..
أنا ضيف ومعايا سيف ..
اقطـع رءوس الظـالمين ..

فيردد الرجال :

« الظالمين .. الظالمين » ..

مازالت وصيفة ترقص وتغنى وتفتن الجميع ، ويخشاها الجميع .

وكنت أنا مولعا بغناء الفتيات بقريتى .. وكان عبد الهادى يعرف هذا .

وذات يوم جاء عبد الهادى الى دارنا قبل العصر وطلب منى ان اذهب معه الى فرح كبير .. وكان يلبس جلبابا فضفاضا من الكشمير الكحلى ، ويمسك بيده الشمروخ الطويل ذا الشهرة الواسعة بين هواة لعب العصا فى قريتنا والقرى المجاورة .

وبعد العصر تقدم الطبل البلدى زفة الفرح ، وسرت مع عبد الهادى، مزهوا به ومن ورائنا زغاريد النساء ، وغناء مختلط ، ووقف الطبل فجاة فى فضاء واسع ، واتخذ الناس شكل حلقة ، وبدأ عبد الهادى يلعب العصا مع رجل مشهور ماهر من قرية مجاورة .. وضرب عبد الهادى الأرض بعصاه ووثب .. وفعل الرجل الذى كان يقف بعيدا نفس الشىء ، واخذ عبد الهادى يدور حول نفسه ويقرع عصا زميله ثم يرقد ويقوم ويلف ويتلوى وزميله يصنع نفس الاشياء ، واخيرا انقض عبد الهادى فى ضربة مفاجئة على عصا زميله اللاعب الماهر .. وضج الناس فرحين :

« يدوم الحماس يا عبد الهادى .. براوه يا جدع .. تسلم ايدك »..

ولم يضرب عبد الهادى زميله .. انما عانقه فى سماحة ، وكان الرجل الآخر مرتبكا ، ولكنه لم يملك الا عناق عبد الهادى .. ومشى الطبل بالناس مرة اخرى ثم توقف للعب العصا ..

وظل عبد الهادى يلعب العصا ويقفز ويرقد ويقوم ويدور .. وفى كل مرة كانت الزغاريد تتصاعد والفتيان يصيحون فى حماس وتعصب لعبد الهادى .

وفى آخر موكب الرجال كان الصبيان يلعبون العصا باعواد رفيعة من التوت ويقلدون حركات عبد الهادى .. وانتهت الزفة فعدت الى بيتى ..

وعندما اقبل الليل جاء عبد الهادى واخذنى لأسمع غناء وصيفة .. وامسك عصاه الطويلة بيد وامسكنى بالاخرى .. وانطلقنا الى درب طويل فى القرية وامام احدى دوره كانت الدكك الخشبية قد صفت وجلس عليها بعض الرجال .. بينما جلس على الأرض عدد كبير من النساء والفتيات ـ وجلسنا فى آخر الدكة بجوار الفتيات .. ورأينا وصيفة فى الصدر وقال لى عبد الهادى أن العريس هو ابن خالها الذى كان يعمل بالقاهرة .

وكانت الطبلة الصغيرة أمام وصيفة ، وقد وقفت خضرة ترقص وبعض الفتيات ينظرن الى حركاتها فى خجل ، وانطلق صوت وصيفة بالغناء ، وراسها مائلة ، وحاجباها يرتفعان قليلا ووجهها مشرق مبتسم

حالم ، ونظراتها الفائمة المفترة تتجه الى الناحية التى أجلس فيها وعبد الهادى .

كانت تربط عنقها بمنديل ، وصوتها الدافىء يفيض احيانا فى بحة فيمنحه جمالا خارقا ، وما برحت وصيفة ترفع يديها عن الطبلة وتحرك ساعدها المشمر البض فتحدث الاساور الزجاجية رنينا يملأ الأسماع .

ولم تتوقف وصيفة عن الفناء ابدا ، حتى عندما كانوا ياخذون منها الطبلة ليشدوا جلدها على النار ..

وبدات تغنى :

« انا كل ما اطلب وصالك بدك تمضيعنى »

« علشان ما انت الحليوه والجميل يعنى »

كان النغم حزينا هادئا يتساقط من بحة صوتها فى جلال عميق ، كمأساة .. ودارت راسى وانا احاول بنظراتى المقتحمة ان اواجه عينيها الفائمتين فى راسها المائل بنشوة النغم .. وسمعت عبد الهادى يوشوش « امضيعك ليه ياوصيفة .. دانت تضيعى بلد .. طب قولى لابوكى » .

واخيرا سكتت وصيفة عن الفناء فقامت تهز كيانها الطويل ، وترتب شعرها بيدها ، وتمسح وجهها بكمها .. وجلست مكانها خضرة تلقى اغنية خليعة بصوت متحشرج :

« على السرير ودلعنى ليه ليه يا مناه » .

وترددت الفتيات في الرد عليها ، بينما مشت وصيفة حتى اصبحت قريبة منى ، واشرت اليها براسى ضاحكا فرحا ووجهى يتضرم وداست فى طريقها على بعض الفتيات وتلقت الاحتجاجات عليها بابتسامة .. وعندما بلفتنى ضربتنى على صدرى بيدها ضاحكة ، وسحبت نفسا قويا من انفها وزفرت قائلة وهى ماتزال تضحك :

ــ عجبك الفنا ؟.. والنبى ما تضحك علينا اصل احنا فلاحين .. مانعرفشى غنا مصر !.

ومسحت انفها بيدها ، ثم اخفت بها فمها الضاحك ..

ولم اجبها ، وشعرت بسعادة قوية تغمرنى ويدها الطرية تربت صدرى ..

وقلت لها فجاة فى شبه همس :

ــ انتى مش سالتينى جبت لك ايه من مصر ؟ انا جبت لك حاجة حلوه .. قزازة ريحه !!.

كنت اهمس فى حذر ، وعبد الهادى الى جوارى يتحدث الى رجل وقف وراء الدكة الخشبية .

وسألتنى وصيفة فى همس لاهث فرح :

ــ صحيح .. والنبى .. قزازة عتر .. هيه فين ؟.

ــ تعالى خديها منى دلوقت عند ساقية عبد الهادى

فقالت بنفس الهمس :

ــ طيب .. دلوقت اشحت جلابيه سوده واطلع لك على طول .. بس نرجع علشان نسمع المواويل .. فيه اتنين مغناوية .. واحد يقول والثانى يغطى ..

وسكتت قليلا ثم قالت وهى تغمز بعينيها :

ــ قابلنى فى المصلية دلوقت ..

وضحكت وترجرج وجهها بغمزات البشر ، وتألق كله .. ثم انصرفت وشعرت بقلبى يخفق وانا احاول أن انتزع نفسى من مكانى .. وانسحبت بعد قليل دون أن أقول كلمة لعبد الهادى .. وكان هو ما يزال يتحدث الى الرجل الواقف من خلفه فى موضوع لم أتبينه .

وعندما خرجت من الدرب الضيق الذى كنت فيه ، شعرت بالدنيا تتفتح امامى .. وبكل رحابة الكون تفيض على نفسى بالسكينة .. ومضيت فى الطريق الى الجسر .. الى الجميزة .. ومصلى الذكريات !..



٢

ظللت امشى على الطريق المترب الى الجسر ..
كان الطريق خاليا .
انا وحدى .. والليل !..
وكان الجو حارا فى تلك الليلة من الصيف ، وبدا الطريق امامى موحشا طويلا لا نهاية له .

لم يكن فى السماء قمر ، والحقول لا ترسل النسمات .. وكانت النجوم فوق راسى تلمع كعيون عفاريت فى ظلمات من فوقها ظلمات !..

وانتهى الطريق المترب ، وصعدت الى الجسر ، بجوار النهر ، الذى يحجبه غاب البوص من حين الى حين .

وملأتنى صور عن الجنية ، التى تخرج فى الليل وتجلس على الجسر فى شكل امرأة فلاحة بيضاء طويلة الشعر الى جوار بلاص ملىء بالماء ، وتنادى من يمر على الجسر ليساعدها على رفع البلاص فاذا ذهب اليها انسان جذبته من فورها الى الموج الساكن المظلم الى حيث لا يسمع عنه احد بعد شيئا !.

طالما سمعت عن هذه الجنية فى قريتى ، وان كنت لا اعرف احدا على الاطلاق مضى اليها .

تذكرت اسماء الذين قتلوا على الجسر قبل او اولد . وفى طفولتى الاولى ..

متى يا ترى تخرج عفاريتهم ان لم تخرج فى هذه اللحظات السوداء من الليل ؟.

وثقلت على دوامة من الاشباح والمسوخ التى سمعت عنها من اهل قريتى ، مختلطة بصور المومياء وفرانكشتين التى رأيتها فى دور السينما بالقاهرة .

وكدت اصرخ من الرعب والوحدة ، ولكنى خفت من صوتى .. وحاولت ان ارجع الى عبد الهادى او الى بيتى ، غير انى كنت قد قطعت معظم الطريق الى جميزة عبد الهادى .

ولاحت لى الجميزة من بعيد كشبح هائل له الف ذراع يقف شامخا فى الليل المظلم .

واخيرا رايت وجه وصيفة تحت الجميزة تجلس فى ثوب أسود تائهة وسط الظلال .. ولكن وجهها كان يضىء وتبدو محلامه الوسيمة واضحة فى الظلام ..

وعجبت لانها لا تخاف ، وخجلت من نفسى بعض الشىء .. ولم اكد اقترب منها حتى توالت دقات قلبى ، وشعرت فى الأعماق من صدرى بمثل قرع الطبول .

فقد اكتشفت فجاة وانا اتقدم لاقف الى جوار وصيفة ، اننا لم نوجد وحدنا من قبل ابدا وحتى عندما كنا صغارا !! فقد تعودنا أن نلعب مع صغار آخرين ، وكان الكبار يثورون ويقولون اشياء رهيبة اذا عثروا بطفل وطفلة يلعبان منفردين ، فقد علمهم سيدنا الشيخ الشناوى ان الشيطان يدخل بين كل انثى تخلو الى ذكر .. حتى الاطفال !.

وهكذا تعودنا نحن الصغار أن نلعب فى جماعات ، وحين لعبت مع وصيفة لعبة العريس والعروسة لم نكن وحدنا فقد كانت معنا الداية الصغيرة وجمع كبير من صبيان وبنات .

على ان الأمر لم يكن لعبا هذه المرة ..

وانا لم اعد بعد صغيرا لاجهل اسرار اللقاء بين فتى وفتاة ، ومع ذلك فما كنت ادرك على التحقيق كل أسرار هذا اللقاء .

كنت فى الثانية عشرة ، وقد سعيت بأعوامى القليلة الغضة لأكون وحدى مع فتاة تضطرم فى اعماقها أنوثة الف أمراة ، ومن حولنا الليل الساخن العريض !.

ورثيت لنفسى ، فقد كنت قبل هذا اللقاء بخمسة أعوام ، اثب فى الترعة مع وصيفة واجذبها بيسر من اى مكان فى جسدها ، واتحسس لى دهشة واستطلاع قوامها العارى الطفل الذى ينضج يوما بعد يوم .. وكانت هى تصنع نفس الأشياء .

كنت اعرف كل جزء فى بدنها ، وكانت هى الاخرى تعرف كل شىء فى ، ولم يكن احدنا يرتجف من الآخر ..

اما فى هذا اللقاء تحت جميزة عبد الهادى ، فقد اخذت انظر برهبة الى صدرها الملىء وبدنها المفعم البديع ، نفس البدن الذى عرفته وتحسست كل جزء فيه ، عندما كنا اطفالا ..

ظللت انظر الى هذا البدن نفسه، وانا اعانى مع هذا كله دوى النبضات فى قلبى ، واشعر بخفايا عديدة كالاسرار الهائلة تستلقى فى جسدها الرائع .

ومدت وصيفة يدها الى وقالت فى ثبات وبساطة :

— واقف تبص لى ليه ؟.. انت خايف ؟.. تعالى اقعد ربحى !..

كان الليل يلقى كل ظلاله الداكنة الزرقة على المصلى والجميزه والساقية والنهر والحقول ، ويسكب على كل الاشياء لونا واحدا لا يتغير .

ولم يكن للنهر صوت ، ولا للحقول ..

لا شيء غير سمكات تتواثب من حين الى حين وتلطم وجه الماء بذيولها الرفيعة ، ونقنقة رتيبة تتصاعد من الحقول ، والفضاء بعد هذا راكد مثقل بالحرارة ، وباصداء خافتة لكلاب تنبح فى القرية من بعيد ، ثم دقات قلبى وصوت انفاسى ، وهمس الراحة توسوس به حنجرة وصيفة فى رسوخ !.

- ورفعت طرف جلبابى الابيض من الخلف لأجلس على جذع الجميزة الى جوار وصيفة ويدى على صدرى أحاول ان اخفى بها دوى النبضات ..

واقتربت وصيفة بوجهها من وجهى ، وشعرت بانفاسها تتراسل هادئة .. وسالتنى فى همس مبحوح ان كنت اذكر آخر لقاء كان بيننا .. هنا فى هذه المصلى !!.

وباغتنى الخجل ، ولكنى ضحكت ، وضحكت هى واخذت تسترجع حالة الشيخ الشناوى حين دخل المصلى علينا فى لحظة الزفاف بالتحديد !.

لم يكن فى صوتها اضطراب .. فقد كانت تضحك بيسر ، وتريد ان تتحدث بلا انقطاع .. ولاحظت فى كلماتها خليطا من لهجة قريتى ولهجة عاصمة الاقليم ..

ولم اقل لها شيئا ..

ومدت وصيفة يدها فوضعتها على ذراعى ، ونهضت طالبة منى أن أمضى معها الى المصلى بعيدا عن طريق الجسر .

ووقفت منتشيا ، واستدرت الى النهر المثقل بالليل ، ورأينا من بعيد شعاعا أصفر يخفق على صفحة المياه السوداء .

وحمل الى المنظر صورا من قصص غرام نشرتها المجلات التى كان اخوتى الكبار فى القاهرة يغالون فى ابعادها عنى وقراتها انا خفية .. وظلت صورمن خارج القرية تلح على ،وازدحم راسى بالأفلام الغراميةالتى كنت اشاهدها فى دور السينما بالقاهرة ، وتذكرت كلمات إقراتها فى الترجمة العربية لفيلم امريكى غرامى ، رأيته فى سينما اجنبية ـ خلسة من وراء اخوتى ـ فقد كانوا ككل الطلاب الكبار فى ذاك الوقت يتشددون فى مقاطعة السينما الأجنبية ، والبضائع الأجنبية وكل ما هو اجنبى .

واقترب منا الشعاع الخافت ، فالحت على صور مماقراته او رأيته فى السينما .. واستجمعت شجاعتى وحاولت ان امسك وصيفة من كتفيها لاقول لها كلاما ملتهبا ثم أغيب معها فى عناق حار حتى الصباح .. تماما كما رايت فى الأفلام وقرات فى القصص التى كانت تنشر فى مجلة الفكاهة والجامعة والصباح وروايات مسامرات شهرزاد ؟ ولكن يدى احاطت بجزء من خصر وصيفة ، ولم تبلغ كتفيها .. فقلت لنفسى « حسنا » يجب على وصيفة الآن ان تنثنى الى الوراء وتتنهد وتقول : « يا دنياى ! » تماما كما كانت تقول القصص الشائعة التى قراتها فى القاهرة .

انها كما قرات تماما ، طويلة مليئة فى جمالها كبرياء كأميرة هندية .. ولكننى لسوء الحظ لم اكن بعد قداصبحت كفارس من فرسان العصور الوسطى ـ كما كانت تقول القصص التى قراتها !..

ومع ذلك فقد بادرت فامسكت وصيفة من خصرها بعنف ، وشددت حولها ذراعى ، وفى صوت هامس حاولت ان اجعله حنونا .. وقفت اقول :

ـ يا غرامى .. أحبك ..

ووقفت وصيفة وامسكت ذراعى بيدها الخشنة ، وقالت :

ـ آه .. زعق شوية .. على حسك حبه !..

واعدت عليها ما قلته بصوت نصف هامس هذه المرة ..

وانتظرت منها ان تغلق عينيها فى ذهول ، او تنظر الى المجهول بعين نصف مغلقة على الاقل ، وانتظرت من شفتيها الدسمتين ان تختلجا وان تنفضا الدفء ، وانتظرت منها ان تزفر او تشهق ، وانتظرت من صدرها ان يعلو او يهبط وتسالنى : اصحيح .. يا حبيبى !.. وانتظرت منهابعدهذا كله ان تستلقى براسها على كتفى وينسدل شعرها الأسود الكثيف كالاجمة المعطرة على وجهها ، فارفع رأسها بين راحتى ، وانظر فى عينيها بهيام شديد ، ثم ينقض كل واحد منا على الآخر فى قبلة ، واحدثها عن جمالها ، وتحدثنى عن جواها .. ولا نفترق الا مع الفجر !

انتظرت ان يحدث هذا كله كما قرات فى القصص المصرية ورايت فى الأفلام الأمريكية .. ولكن وصيفة لم تصنع شيئا على الاطلاق من كل هذا ، بل سحبت نفسا سريعا من أنفها ، ودعكت وجهها بيديها ، وفتحت عينيها الواسعتين المكحولتين قائلة :

ـ يا اختى بلا وكسة !! انت بتتكلم كده ليه يا اخويا ؟.. والنبى ما انا فاهمة منك حاجتن تخلق ! أصل انا ما اعرفش الكلام الانجليزى

اللى انت بتقوله ده ·· ماتقول يا اخويا كده بالمفتشر ·· عايز ايه ·· عايز ايه يا ضناى !·

ولم أقل شيئا ·· فمشت وصيفة بعيدا عنى لتبصق فى ماء النهر وهى تقول :

ـ تعالى هنا نقعد على حرف البحر ··

ولم تنتظرنى فجلست هى على الساقية ، واعطتنى ظهرها ،ونظرت بوجهها الى النهر الصغير ، وأخذت تتمتم بأغنية سمعت منها :

قدام بيت اللى باحبــــه
شجرة وظله ومغنى وهوا
ان كنت خايف من أبويه
دانا أبوى يحبك زى أنا
وان كنت خايف من عمى
دا أنا عمى يحب الصهينا
وان كنت ما حاتعــدينى
لاقلع خلقاتى واعوم انا ..

وقبل أن أفرغ من نشوتى بصوتها ، قطعت غناءها لتسألنى :

ـ أمال فين اللى قلت عليه ·· فين قزازة العتر يا أخويه ؟!

ولم أعرف كيف أقول ·· وأخذت أنظر الى الضوء الشــاحب الذى يتقدم من بعيد على صفحة المياه السوداء ومن حوله همهمة رائقة ··

وتعثر صــوتى فى حلقى ، وأنا أحاول أن أقــول أى كلام وباغتتنى سخونة مليئة بالوخزات حتى الأذنين ، وابتلعت ريقى وأخذت أتنحنــح وأنا أحاول أن أطرد الكلمات الغائصة فى حلقى ·

واستطعت آخر الأمر أن أعترف لوصيفة أنى لم أحمل اليهــا زجاجة عطر ، ولكنى حملت لها عشرة قروش ثمن زجاجة تستطيع أن تشــتريها عندما تذهب الى أختها فى عاصمة الاقليم .

وتناولت وصيفة قطعة النقود من يدى بسرعة كأنها تخطفها ، ووثبت فجأة ، وقد تهلل وجهها وأشرق ، ورقصت فيه الغمازات ·· وأوشــكت أن تتعثر بحافة بئر الساقية ، فوثبت اليها أسندها ، وقلبى يثب معى فى اشفاق كبير ، ووقعنا على الأرض معا الى جوار البئر ·· فقبلتنى من رأسى ضاحكة ·· ثم وقفنا وأخذت تنفض لى جلبابى ، وجرت بعيدا عن ظلال جدار الساقية الى الفضاء على حافة النهر تتأمل القطعة وتقبلها فى يدها فى حرص وفرح وهى تقول :

ـ حلاوة يا أمه ·· بريزه ! بريزه بحالها !·

وعادت بسرعة فوقفت عند سور المصلى ، وارتكنت عليه وهى تطلق ضحكات متكسرة سعيدة ··

وفى بطء واعتزاز وحذر فتحت الجلباب من على صدرها ثم وضعت قطعة النقود تحت نهدها ·· وارتمت نظراتى على صدرها الوضىء الساطع ومنبت نهديها ، واختلجت وشعرت بلذة غريبة تدب فى كل بدنى ··

وشدتنى وصيفة بيديهــا فى قوة ، وهى ترتكن الى ســـور المصلى وقالت :

ـ فاكر لما لعبنا فى المصلية آخر مرة ·· آخر مرة لعبنا فيها واحنا صغيرين كانت فى المصلية ·· وأول مرة حانلعب فيها واحنا كبار حاتكون برضه فى المصلية ·

واخذت وصيفة تضحك وتهز نفسها ، فقلت لها ان سور المصلى قد ارتفع اليوم ، فقالت لى والغمازات على خديها وعيناها تتألقان اننا نحن ايضا قد كبرنا ··

وسكتت قليلا قبل أن تقول لى أن سيدنا الشيخ الشناوى لا يستطيع الليلة ان يفسد علينا اللعب ·

كانت تتراقص وهى تتكلم وقد سرت فرحة جديدة فى كل عروقها ، والتمعت منها العينان بنور غريب أخاذ ··

وامتلأت احساسا بأنى رجل رغم سنواتى الاثنتى عشرة ··

ولكن وصيفة ظلت وهى تتراقص تحدثنى بسخرية عن الشـــيخ الشناوى وتتقصع وتبرز نهديها المترعين ·

وملأنى هذا كله بالرعب ·· وخيل الى أن لديها هى فى بدنها الفائر الذى يرعشنى أشياء كثيرة تستطيع أن تتحدى بها الشيخ ، وكل شيوخ الأرض ، أما أنا فلم أكن قد أصبحت بعد مالكا لشىء أتحدى به ··

وكان ذكر الشيخ الشناوى ما زال يحمل الى صور النار والفاحشة وخراب البيوت ، ويحمل الى بصفة خاصـــة غضبة أبى ويثير فى نفس الوقت الوانا من الرعب تزلزلنى حتى النخاع ·

وخيل الى أن أبى ربما أرسل الى من يبحث عنى فى الفرح ·· فماذا لو لم يجدنى ·· وخيل الى أنى ربما رأيته أمامى فجأة ، يقف بينى وبين وصيفة وغضبته تحمل الى شيئا كاللعنة ·

وقلت لوصيفة وصوتى يرتعش :

ـ اسمعى يا وصيفة ·· انا لازم اروح دلوقت ·

فقالت باستخفاف :

ـ خايف من ايه .. دا أنا اللى حقى أخاف أكثر منك .. أهو انت اسمك راجل .. لكن هو فيه حد من البلد يقدر يطلع البحر دلوقت .. السواقى بطالة والناس مشغولة فى الفرح والدنيا كحل .. ماتخافشى ياعينى .. حتى الواد علوانى اللى دايما مغروس على الجسر يحـــرس البطيخ طول الليل راخر متلقح فى الفرح .. ماتخافشى أبدا .

وسيطر على طغيان رغبـــة جارفة فى أن أحتضن وصيفة .. وان اقبلها فى صدرها الملىء ونحرها الساطع ، وذقنها وشفتيها المليئتين ، وخدها المكور ذى الغمازات .

ومددت يدى اليها فامسكت بى ، ولفت ذراعيها حولى ، وشـــعرت بدفء بدنها ينفذ من جلبابى ..

وسالتنى عن فتيات مصر وما يصنعن وما اصنع بهن !.

ولم اقل لها شيئا فلم أكن أعرف ماذا تعنى وصيفة !.

فمضت تلاحقنى بالأسئلة عن نساء المدينة كيف يلبسن .. كيف ياكلن .. وكيف يصنعن مع الرجال ؟ هل تستحم الواحدة منهن بزجاجة عطر ؟ هل تملك كل واحدة منهن نقودا .. وأين تضع نقودها .. هل تنفق « بريزة » فى كل يوم . ففى القرية لا يكاد شيخ البلد نفســـه يملك « بريزة » . ورفعت ذراعيها عنى وانتظرت منى جوابا عن هـــذا كله .. ولم أجب فمـــا كنت أعرف شيئا عن كل هذا ـ وأنا أعـــلم من أخوتى الكبار أن الدنيا كلها ازمة ، وأنهم فى امريكا يرمون الذرة والبن فى البحر وفى الصين يموتون من الجوع ..

وكنت اسمع من ابى أن الأزمة هزمت النـــاس .. فالقطن يبـــاع بالتراب والفلاحون يسقطون فى أيدى المرابين ، والذين يملكون أرضـــا تحجز عليها الحـــكومة من أجل ضريبة اسمها المـــال .. والذين يبيعون القمح فى الأجران المحجوز عليها يسجنون ولو أنهم باعـــوا القمح الذى يملكونه ..

وكنت أعرف من المدرسة أن كثيرا من التلاميذ يقبلون بأحذية ممزقة وكنت أرى زملائى فى المدرســـــة المحمدية يدارون جواربهم المثقوبة فى احـــذيتهم .. وكان بعضهم يسير بحذر حتى لاتبدو آثار الثقوب فى البنطلونات وكان أبى فى أول كل عام يصلح لى بدلة أحد اخوتى الكبار، ولم يعد أحد من التلاميذ يعرف البدل الجديدة فى أوائل الدراسة أو فى الأعياد .. الا القليل .

وحدثت وصيفة عن بعض هذا وقلت لها ان الناس فى شوارع مصر يســـيرون : رءوسهم منحنية وعلى الوجوه وجوم ، حتى لقـــد حسبتهم

لا يضحكون .. اما النساء فى القاهرة فلا يكاد أحد يرى وجوههن من تحت الحجاب ولكن النحور العارية والفساتين ترتفع الى ما فوق الركبة لتكشف اول السيقان .

وتنهدت وصـــيفة قليلا ، ثم دست يدها فى صـــدرها وتحسست القطعة الفضية وعادت عيناى تستلقيان على منبت نهديها الراسخين .

وسكتنا ..

وشردت انا بفكرى فى الطريقة التى احصل بها على نقود .. اننى اظل اصرخ ساعات كاملة وأمى تناقشنى فيما أصنع بالنقود ما دمت آكل واشرب ، ويمتلىء البيت كله بالضجيج لبعض الوقت . وعجبت لنفسى لاننى بعـــد المجهود الشاق الذى بذلته لاحصل على هذه القروش العشرة تنازلت عنها بيسر واعطيتها لوصيفة ، غير انى على الرغم من كل شىء شعرت براحة عذبة لأننى استطعت ان أصنع مسرات صغيرة ، لصديقـــة قديمة ما زلت استمتع بذكرى حلوة من شـــعاع هادىء برىء التمع فى عينيهـــا ذات مرة ونحن أطفال فملأ قلوبنـــا الجديدة اذ ذاك ببهجة حب عجيب .

ولبثت انظر فى الفضاء من حولى وأنا سعيد . وابتعدت عن وصيفة قليلا واقترب منا النور الذى كان يسرى على صفحة النهر .. ووضحت لنا أصوات رجال ونساء يتحدثون فى سفينة كبيرة بشراع واقبلتوصيفة ووقفت بجوارى ونظرت الى النهر قليلا ..

ثم قالت :

ـ المركب دى رايحه مصر .

وتتابعت زفراتها فى هدوء .

وقلت لها اننى اتمنى أن يحملنى زورق الى مـــكان بعيـــد فى هـــذا الليل .. فلم تقل شيئا . ومرت لحظة صمت ورايت وصيفة ترفع يدها وتلف جسدى بذراعها فى قوة وتحتضننى وتضع خدها على رأسىقائلة:

ـ مش بنات مصر بيعملوا كده ؟..

ولم اجب أمام المفاجأة واخذت افكر فيما صنعت قروشى بوصيفة .

وبدأ اللوم يزحف الى قلبى لأنى أعطيت وصيفة نقودا وخيل الى أننى اشتريت منها لحظـــات سعيدة .. وكانما أنا واحد من الذين يخدعـــون الفتيات الفقيرات بالمال ..

واحد من الذين تتحدث عنهم القصص التى قراتها ..

وغاظنى هذا التصور فنحيت وصيفة بعيدا واوشـــكت أن اصرخ فى وجهها بما فى نفسى ، فلو اننى لم اعدها بزجاجة عطر لمـــا اقبلت الى

.جميزة فى هذه الساعة من الليل ولو لم اعطها القروش العشرة لانصرفت منذ حين •

غير أن وصيفة لم تكن تشعر بأننى اشتريت منها شيئا أو حاولت شراء شيء ، فعندما دفعتها ضحكت وقالت :

ــ ما تخافش ••

وعادت تعانقنى •

ثم جذبتنى من يدى الى داخل المصلى فوقعنا معا على الأرض وهى تحتضننى بقوة وتلهث بصوت واضح بينما كانت صور النار والفاحشة وشراء فتاة فقيرة تملأ منى القلب بالندم وترهق احساسى بالعار •

واخيرا وقفت وصيفة فى ضيق ودفعت يدها فى صدرى بقوة وهى تقول بألم :

ــ دا انت باين عليك لسه صغير قوى •• أمال مطلعنى البحر ليه•• يا خويا بلا نيلة •

وانسحبت أنا بلا كلمة الى خارج المصلى وأنا أعانى وخزا شديدا فى كل جسدى •

وشرحت لها ما كنت أعانى وحدثتها عن العار الذى يرهق احساسى لأنى أشترى منها لحظات جميلة فهزت رأسها قائلة باستخفاف :

ــ والنبى ما أنا فاهمة حاجة من الكلام اللى انت بتقـوله .. حاكم أنا ما اعرفشى كلام المدارس والافنديات •

وتحركت بعيدا عن المصلى لأصعد الى الجسر فاستوقفتنى لتقول فى ضراعة :

ــ اسمع .. وحياة أبوك وحياة ربنا وحياة النبى وحياة ترب الميتين بتوعك اوعى تقول لحد على اللى حصل ده •• اوعى وحياة أبوك وأمك واخواتك •• اوعى تقول لأبيها واحد •• هه •• خلى عشـقنا كده فى السر •• دا أنا عمرى ما عملتها •• وبعدين أولاد الحرام يطمعوا فيه •• آه يا نايبتى •• اوعى يا ضناى •• حاكم بلدنا دى بلد خباصة •

ثم قبلتنى فى رأسى وهزت كتفى فى حنو وتأثر وهى ما تزال تقول:

ــ اوعى والنبى وحياة غلاوتى عندك •

وشعرت أنا بأننى أريد أن أبكى اشفاقا على وصيفة وتمنيت لو أجد نفسى فى تلك اللحظة رجلا قويا يستطيع أن يحميها •

واكدت لها أننى لن أقول لأحد وتابعت سيرى وهى ورائى وغادرنا الجميزة وبدأت خطانا تنغرس فى تراب الجسر أمام حقل عبد الهادى •• ولكننا توقفنا معا واستدرنا الى الوراء دفعة واحدة وكانت ترتجف •

كان أرغول من ورائنا قد أطلق نغماته فجأة وبعد قليل رأينا الضوء الشاحب فى النهر يحاذينا والسفينة تمضى ، محملة بالتبن •

وزفرت وصيفة كأنها تخرج من ذعر مميت :

ــ يوه قطيعة •• دا أنا افتكرته عبد الهادى •

وهزتنى كلماتها ورجفتها •• ولكن أنغام الأرغول فى الليل الصامت امتلكتنا تماما •• وجرت وصيفة عائدة الى الساقية وهى تقول :

ــ تعال •• تعال نقعد على حرف البحر •• تعال نشـــد عليهم المسخرة •

وجـــريت وراءها وجلست الى جوار المصلى عند منحدر الى النهـــر يتوضأ منه المصلون ، وحاولت وصيفة أن ترفع صوتها لتنادى « يا ريس البحر » فنهرتها ولكزتها بقوة •

كنت أعرف نوع الكلمات التى يتبادلها الملاحون مع الجالسين على البر باسم « شد المسخرة » كانوا يسخرون بكل شيء : بالآباء والأمهات وكل العلاقات ويقولون ألفاظا مكشوفة •

وخجلت وصيفة فلم تحاول أن تشد المسخرة بعد وأنصتت الى الأرغول فى صمت وانطلق من على السفينة صوت جاف مرتفع يغنى :

غليون واسق جمالات على المينا الشرقيـــة
أيا عاشق البنـــات البيض تقتل ولا ليك دية
أيا عاشق البنات السمر .. خضر بلا ميـــة

وملأتنى النشوة •• واحسست بطاقات هائلة وبالقدرة على أن أصنع كل شيء وملت على وصيفة وقبلتها فى خدها •

فضحكت وهزت نفسها دون أن تلتفت الى ••

وابتعد الصوت قليلا قليلا •• حتى ذاب فى صمت الليل •

ووجمت وصيفة وزحفت على نفسها المرارة والأحلام فقالت بصوت يشبه البكاء :

ــ لو كانت الوحدة تلاقى الأكل والشرب قدامها ، وتقعد طول عمرها كده تغنى وترقص ولا تحملشى هم حاجة فى الدنيا ؟

وسكتت قليلا ثم خلعت الشبشب من قدمها وغيرت من جلستها ومدت قدمها الى الماء وتركت قدميها تعبثان فى الماء وسرت فى الماء مرمرة جميلة تحت قدميها واستمرت تقول :

ــ لو كنت اصبح الاقى فى دارنا زلعة مليانه برايز .

ثم التفتت الى •• ومالت بخدها نحو فمى وقبلتها مرة أخرى فضحكت ورفعت قدميها من الماء وجففتها بطرف ثيابها ونهضـــت قائلة ان اباها

يروى الشراقى فى حقله البعيد فى حوض الترعة الكبيرة ويجب أن تذهب اليه الآن بالعشاء .

وأبديت لها مخاوفى من أن تذهب وحدها فالطريق بين القرية وحوض الترعة طويل مخيف .

غير أنها قالت باستخفاف واعتزاز :

ــ هوه فيه حد فى البلد يقدر يهوب ناحيتى ؟ دانا بنت وراجل كمان ياجدع ، هو يعنى علشان محمد أبو سويلم ما أترفد من مشيخة الغفر تقوم الطير تأكل لحمة .. يا أخى لا ..

وتحركت فى طريق العودة .. وطلبت منى أن أسبقها وابتعد عنها حتى لا يرانا أحد ..

وسألتها وانا امضى ان كانت تخاف من علوانى الذى يجلس الآن فى حقله بلا ريب ، فقالت غاضبة انها لا تخاف أحدا فى القرية كلها ولا يهمها أحد ، لقد عاشت فى البندر خمسة أعوام مع أختها فعرفت هناك أشياء كثيرة ، فعلوانى وشيخ البلد الذى يشغله وحتى العمدة نفسه لا يساوون فى البندر شيئا ، وقد حدثها زوج أختها أنه رأى المأمور الذى يهز الدنيا يرتجف أمام الحكمدار ورأى الحكمدار يرتجف أمام المدير ورأى المدير يكاد يقبل يد وزير كان فى زيارة مدرسة الزراعة بعاصمة الاقليم .

انها لا تخاف من علوانى ولا من سيده شيخ البلد ولا من المأمور وقد رأت بنفسها طلبة مدرسة الزراعة يخرجون فى مظاهرات الى الشارع ويضربون المأمور الذى يحمل الرعشة الى قلب أكبر رجل فى المركز .

وسكتت لحظة ثم قالت انها ضربت علوانى فى الصباح بطشت الغسيل عندما دخل دارها ووقف صامتا ينظر اليها وينقرها بعينيه وهى تغسل ملابس أبيها فمشى بلا كلمة .

وقلت لها ان علوانى يريدها زوجة .. وهنا ضحكت وصيفة وقالت لى ان علوانى يصلح أجيرا عند أبيها يرعى له الغنم ان اشترى غنما أو يحرس له بطيخا ، واذا كان علوانى يريد أن يتزوج فعليه أن يتزوج احدى الفتيات اللوانى يشتغلن فى الحقول بالأجرة لأنهن لا يملكن حقلا يشتغلن فيه .

ثم تحسست صدرها ورأسها المعصوب واستمرت تقول أن الذى لا يملك فى القرية أرضا لا يملك فيها شيئا على الاطلاق حتى الشرف ، وهذا النوع من الفتيات هو الذى يشجع علوانى .

وسكتت قليلا ثم عادت تقول وقد تغيرت نبرة صوتها ، ان هؤلاء الفتيات مسكينات يعشن على اللقمة ، ويذهبن فى التراحيل الى البرارى



وهناك يعشن يوما بيوم ولا يبلغ ثمن الواحدة منهن عند رجال مثل علوانى اكثر من كوز أذرة يسرقه الرجل من حقل يحرسه •

ولم افهم جيدا كل ما قالته لى وصيفه ولكنها كانت متأثرة •• ومشيت أنا وسمعتها تمصمص شفتيها وهى تقول :

ـ عينى عليكى ياخضرة •• آهو انتى ماتسويش فى اى مولد اكثر من اكف حلاوة سمسمية •

ومضيت فى طريقى امام وصيفة وسمعت رنة شبشبها من بعيد وهى ورائى يشق الظلمات بدنها الفارع مهيبا كانه يتحدى قوى الخفاء •



٣

لم استطع ان انام فى تلك اليلة فقد سهرت فى فراشى افكر فى وصيفة وتمنيت لو انى استطيع ان اجعلها واسعة الغنى •

لو كنت كبيرا بعض الشيء لتزوجتها ••

اتزوجها ؟ ••

ان فكرة كهذه تقلب على الدنيا •• فابى وامى واهلى كلهم لا يمكن ان يوافقوا على ذلك ، فأنا لا أستطيع بعد أن أكون زوجا ، فلا أزواج فى الثانية عشرة •

وعندما أصبحت ، أحسست بشوق جارف الى رؤية وصيفة وتمنيت لو أنى لقيتها كل ليلة تحت الجميزة •• وأخذت أستعيد الكلمات التى قلتها لها ، والكلمات التى قالتها لى •• وأسرعت أدير فى رأسى كلمات كثيرة كان يجب ان أقولها وصممت على ان القاها واقول لها هذه الكلمات ••

ولكنى لم القها وعندما كنت افكر فى ان اذهب الى دارها نادانى أبى وطلب منى ان البس حذائى لأذهب معه الى عاصمة الاقليم لأمس عينى عند طبيب العيون ••

كنت اعرف جيدا هذا العذاب الذى القاه فى كل صيف عند طبيب العيون ولكنى لم أستطع أن ارفضه •

وكان دكتور العيون رجلا يلبس المنظار الأسود ولا يبتسم وكان صارما حاد الصوت ، يتحدث الى أبى كلما ذهبنا اليه عن الدستور والانتخابات والأزمة وما يصنع الانجليز •

وكان واضحا لى أن أبى يعجب بأحاديثه ويوافق على كثير جدا من آرائه •

وذهبنا فى ذلك الصباح الى الدكتور مع أبى فى العربة الحنطور الى عاصمة الاقليم وبعد أن فرغت من زيارة دكتور العيون طلبت من أبى نظارة سوداء فاشتراها لى وتركنى على مقهى يملكه رجل أرمنى وأخذت آكل قطع البقلاوة وحدى وأقلب الصحف حتى عاد أبى ••

وجلست الى جواره فى العربة وانا صامت ••



وخشيت وانا جالس الى جوار ابى ان افكر فى وصيفة . وظللت لحظة مضطرب التفكير ثم شرد فكرى فى المدرسة الثانوية وفى احـلامى بالبدلة المفتوحة ذات البنطلون الطويل وطلبت من أبى البدلة الجديدة . واهتز أبى قليلا ، فقد كانت البدلة الجديدة تكلفه أكثر مما يطيق ،كغيره من الآباء فى تلك الأيام .. وكان الرجل منهم يدارى عن أولاده انهيـاره المالى ويحاول جاهدا أن ينقذ مظهره أمام الناس .. وهو لا يملك نقودا يضعها فى جيبه لأيام طوال . وبعد قليل ابتسم ابى وطلب منى ان انتظر فما زلنا فى أوائل الاجازة ، وربنا يسهل قبل دخول المدارس .

وكانت العربة قد قطعت الطريق من عاصمة الاقليم على جسر النهر الى قريتنا ولم يعد الا الطريق الضيق الذى يصل بين الجسر والقرية .

ودخلت العربة فى هذا الطريق ، فلمحت من بعيد ثوبا ملونا مـع ثلاثة جلاليب سود .. انها هى وصيفة ..

كان أثر « مرهم المس » ما يزال فى عينى ، ورفعت منظارى الأسود الذى اشتراه لى أبى فطلب منى أبى أن ألبسه وألا أخلعه الا فى الليل.

وخجلت واضطربت وخشيت أن يكون أبى قـد لاحظ أنى حاولت اختلاس النظر الى وصيفة ..

وسارت بنا العربة الحنطور وتنحت الفتيـات عن الطريق وأدرن رؤوسهن المحملة بالجرار المليئة .. واكن وصيفة لم تدر رأسها تماما فقد كانت ترشق نظراتها الى داخل العربة .. الى أنا ، وكانت تبتسم

وقفز قلبى بين ضلوعى .. وكدت أنا أقفز من العربة وعندما وقفت العربة أمام بيتنا التفت الى الوراء فوجدت وصيفة تقبل مع زميلاتها

وصعد أبى الى البيت وأبطأت أنا قليلا فقال لى :

ــ بتتلكع كده ليه .. اطلع ريح عينيك من الشمس .

وطلعت اريح عينى من الشمس ، ومن شباك الطابق الثانى وجدت وصيفة امام البيت فى الطريق وهى تدير وجهها قليلا الى الباب ..وتاكدت أنها تبحث عنى وتمنيت لو أقفز اليها وأقع أمامها تماما وأطلب منها موعدا آخر عند الجميزة .. ولكنها مرت الى دارها ولم أفارق الشباك منتظـرا أن تعود وصيفة فتخرج الى الجسر لتملأ مرة أخرى .. ولكنها لم تخرج ولم تمر أمامى من الطريق .

وبعد العصر استطعت أن أتسلل . وأقف أمام باب البيت فى انتظار قدومها ، ولم تكد تقبل حتى ناديتها أمام الفتيات .. وضحكت وابتسمت الفتيات ، وقلت لها هامسا :

ـ قابليني زى امبارح ·· بعد العشا ·

وخرجت بعد صلاة العشاء مباشرة أبحث عنها عند الجميزة ·· لم أشعر بالخوف من الطريق هذه المرة ولم أشعر بالوحشة من حولى فى الفضاء الساكن ·· كنت أفكر فى وصيفة وفى أشياء لم أقلها ولم أصفها يجب أن أقولها وأصفها ·

ومررت بحقل البطيخ الذى يحرسه علوانى ، فلم أجد أثرا له ··

وانتهيت الى الجميزة ولكنى لم أجد أحدا ·

وأخذت أبحث عند الساقية وداخل المصلى ·· ولكن بلا جدوى ··

وعدت محنقا وأنا أتلفت ورائى فى كل خطوة أبحث عن وصيفة ·

وقطعت الجسر كله وبدأت أنحدر فى الطريق الضيق الى القرية وما زلت أتلفت ورائى ·· فربما رأيت وصيفه ·

ولمحت خيال امرأة تلبس السواد ··

أخيرا فهذه وصيفة بلا كلام · ورجعت مسرعا الى الجسر ·· ولكنى وجدت الخيال يدخل حقلا ·· ثم يختفى فى الظلام ·

كان هو حقل البطيخ الذى يحرسه علوانى · وهزنى غيظ مخيف · ان وصيفة تسخر بى لانى ما زلت طفلا ·

وسيطرت على فكرة ان وصيفة لم تكن مخلصة أبدا حين حدثتنى عن علوانى · ربما كانت تلقاه خفية وترجوه هو أيضا ألا يروى لأحد قصة اللقاء ، تماما كما صنعت معى منذ ليلة واحدة ·

ربما كان لها مع علوانى عشق آخر ، فى السر وفى المصلى بالذات·

واضطرمت بالحنق ، ولم أدر كيف أصنع ·

ولكنى مضيت فى الطريق حتى وصلت باب دارى ، وأمام باب البيت وجدت عبد الهادى ·

وتلقانى مرحبا كأنه كان يبحث عنى وقال لى أن أبى قلب البلـــد بالسؤال على · وهمس فى أذنى أن أدخل ، وسيتطوع هو بالقول لأبى أننى كنت فى داره ألعب ويضمننى ألا أخرج مرة أخرى فى الليل ··

وألح على عبد الهادى أن أدخل الى البيت مسرعا لأنه يريد أن يروح الى الساقية ··

كنت أعرف أنه يصعد الى الجسر عندما تدور ساقيته ، ليســـهر عندها طول الليل يقطع الوقت بغناء المواويل الطويلة التى تروى قصصا بأسرها عن أبطال الحياة والحب ، بينما الماء يجرى فى قناة صغيرة تمر

من تحت الجسر الى حقله ، ثم تطوف بالحقل كله ، تاركة الماء ينسكب منها عبر فجوات عديدة شقتها الفأس · وكنت أجلس مع عبد الهادى على ساقيته احيانا فى النهار أسمع المواويل والحـــكايات ، ثم يصحبنى الى بيتى فى مهبط الليل ويعود هو لينفق الليل كله وحيدا مع الفأس والماء والزرع وأبطال المواويل ·· لكم تمنيت أن أسهر معه ، ولكن أحدا من أهلى لم يسمح لى بهذا أبدا ، حتى عبد الهادى نفسه ، كان يرى السهر على الساقية لا يليق بى ، أنا الذى أتعلم فى مصر ··

على أن ساقية عبد الهادى لم تكن تدور فى تلك الليلة المظلمة الحارة من الصيف ، ولم أكن خالى البـــال لأسأل عبد الهادى الى أين يمضى ، فاختفاء وصيفة أمام الحقل الذى يحرسه علوانى كان داهية كبيرة ··· وهذه داهية أخرى تأتى الى أسخم من الأولى : فقـــد اكتشف أبى أننى خرجت من البيت دون اذن منه بعد صلاة العشاء ، وبينما كنت أفـــكر فى طريقة أتسلل بها الى المنزل لأضع بدلتى وكل ما لدى من ملابس تحت جلبابى قبل أن ألقى أبى ، لأخفف عن جسمى وقع عصاه الرفيعة ان لم تفلح شفاعة عبد الهادى فى تخليصى من الضرب هـــذه المرة ·· وبينما صورة العصا تختلط أمامى بشبح وصيفة ، اذ بعبد الهادى يسألنى :

ـ انت كنت عالبحر بتعمل ايه دلوقت ··

لم يكن عبد الهـــادى عندما قابلنى يحمل على وجهه أى تعبير · غير أنه عندما سألنى شاعت الابتسامة الماكرة فى قسماته ، كأنما هو يعرف جيدا مع من كنت ··

واحتدم فى نفسى الحنق وقلت له وأنا أكاد أبكى :

ـ انت مش عاوز تقرأ فاتحة وصيفة ؟ طب اطلع البحر بقى شوفها مع مين ؟·

واهتزت العصا الطويلة فى يد عبد الهادى وقال مبهوتا :

ـ ايه ···

ثم انفلت مسرعا فى الطريق الى الجسر ، وقد نسى شـــفاعته التى وعدنى بها عند أبى ··

وهبطت السلالم أمام منزلى ، لأعود معه ، ولـكنه كان يمضى مسرعا والتفت الى قائلا :

ـ ارجع ··

ورجعت أنا مثقل القلب ، وتسللت الى حيث وضعت كل ما لدى من ملابس فوق جسدى تحت الجلباب ·· وقابلت أبى كأننى كرة ·· فابتسم أول الأمر ، ولكنه أخفى ابتسامة · وقام الى عصاه ··

وانذرني ألا أخرج من البيت مرة أخرى بعد صلاة العشاء •

وبت ليلتي وامامي وجه أبي في غضبه الذى يخالجه الابتسام ، وفكرى هناك على الجسر .. حيث اختفى شبخ وصيفة .

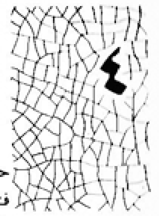
أكانت هي وصيفة بالتأكيد ؟ ••

ربما لم تكن هي •• ولكن لا بد أنها كانت هي ••

من يدرى ؟ ••

ان علواني وحده يعرف •• وسيعرف عبد الهادى كل شيء •• وأعرف أنا في الصباح عندما أقابل عبد الهادى ••

وزحفت الى راسي من جديد أحلام المدرسة الثانوية التي سأذهب اليها بعد شهور والبنطلون الطويل الذى سألبسه لأول مرة واعود الى القرية به ، وبصوت غليظ فأبهر وصيفة واحميها ..



اما عبد الهادى فقد ظل يندفع في الطريق الى الجسر حتى غاب في الليل تماما ، وعصاه تقرع الارض بعنف فتثير الدوى في الصمت الحالك ، وغبـــارا كحبات الظلام •

وبلغ عبد الهادى حقل البطيخ الذى يحرسه علواني فوقف لحظة على رأس الحقل ، وفتح عينيه ثم زر جفنيه ، وحاول أن يخترق بنظـــراته الحادة الغاضبة ظلمات الليل التي كانت تمتزج بسواد الأرض •

ولم يستطيع عبد الهادى أن يرى شيئا .. ولم يستطيع حتى ان يسمع صوتا أبعد من صوت أنفاسه التي ترددت في أنفه بقوة ••

وأمسك بعصاه ، وهزها في الفضاء ، ثم امسك عصاه بذقنه ، وشمر ساعديه ووضع العصا على كتفيه ، واسند اليها مؤخرة راسه ، وارخى عليها يديه ، ودخل حقل البطيخ •

ومشى عبد الهادى قليلا في تحفز ، ثم توقف عند مكان من الحقـل تعود أن يجلس فيه علواني ، وينام •• ولم يجد عبد الهادى غير بقـايا بطيخة مفتوحة على الأرض ركلها بقدمه •• ثم وجد قلة بها ماء بارد ، فشرب بصوت مرتفع ، ومصمص بلسانه وشفتيه وأطلق نفسا ثقيلا ثم وضعها الى جوار كوب غليظ للشاى ، وبراد أسود •

ولمح عبد الهادى الحرام الصوف الذى يتغطى به علواني من ندى الفجر •

كان متكوما •• فتتابعت أنفاس عبد الهادى ، وأضـــطرم ، وانقض على الحرام بيد ، ويده الأخرى تحكم مسك العصا ، ورفع الحرام المتكوم بسرعة وتوثب •• ولم يجد تحته شيئا غير الأرض السوداء فرماه بغيظ يغشاه الارتياح •

وعاد يضع عصاه على كتفه وراء قفاه ، ويرخى على العصا ساعديه ، واخذ يذرع حقل البطيخ من أوله الى آخره وينظر في الأرض ويركـل بقدمه الكتل السوداء ، ولكنه كان دائما يركل البطيخ •

لم يستطع أبدا ان يسمع شيئا غير أنفاسه الثائرة •

وصعد الى الجسر ، واخذ ينظر في الفضاء من حوله وهو ينادى في تحرش وتحد :

ـ يا علوانى .. يا واد يا عرباوى ..

ولكنه لم يظفر بجواب .

وتذكر عبد الهادى فجأة أنه ترك علوانى عند الشيخ يوسف بقال القرية .. ذهب اليه بعد انصرافه من الفرح .

فعلوانى العربى الذى يعيش فى القرية بلا أعمام ولا أخوال وبلا ارض ولا شىء على الاطلاق .. غير البندقية ، والمهارة فى التحطيب ، والأجرة التى يأخذها على الحراسة .. علوانى هذا لا يجد شيئا يملأ وحدته الا مجلس الشيخ يوسف .. فهو يهبط الى القرية بعد كل مغرب ليشترى الشاى والسكر والدخان ويسمر قليلا مع بعض فتيان القرية أمام دكان البقال ثم يعود الى الحقل بعد أن تنام القرية .

وتذكر عبد الهادى أنه رأى علوانى بعد المغرب يضحك مع خضرة وهى تفتح يديها وراء ثور تنتظر ما يسقط منه لتضعه فوق رأسها مع ما جمعته من روث البهائم .. أنه يذكر الكلام الخارج الذى قالته خضرة عن الثور ..

وخضرة فتاة ترقص فى كل فرح ، وتتحدث عن العلاقات الجنسية بلا تحرج وتبيع نفسها فى الموالد والأفراح ومواسم الذرة والقصب والأعياد والقطن بعلبة من الملبن أو بكف من الحلاوة السمسمية ، أو ربما بكيزان خضراء من الذرة وأعواد من القصب ..

وارتاح عبد الهادى قليلا .. وهمهم لنفسه أن علوانى يشبه خضرة تماما .. وأن ما جمع بينهما وفق حقا .. فهى أيضا تعيش فى القرية بلا أرض ولا أهل .. وأقاربها قد تنازلوا عنها منذ تركوها « للبيه الأعزب » تخدم فى ضيعته الصغيرة ذات الثلاثين فدانا .. وطردها « محمود بيه » بعد أن خدمته سنتين .

كانت اذ ذاك سمراء نضرة راسخة النهدين .. وعادت الى القرية لتعيش على عملها فى الحقول ، أو لتغسل القمح فى البيوت الثلاث التى يختبىء نساؤها .

ومضى عبد الهادى يهمهم بأغنية حزينة ، واتجه الى ساقيته مارا بالمكان الذى تملأ منه النساء ، ويرتفع منه صوت خضرة فى النهار بالكلمات الخارجة ، وحركات الذراع التى تثير خجل النساء من حولها ، كلما رأت محمد أفندى المدرس الالزامى يمر بمنشته الخوص ، وجلبابه المخطط الافرنجى ، وشبشبه الفاقع ، وطاقيته الطويلة البيضاء .

وظل عبد الهادى يمشى على الجسر ومر بساقيته وعاد فى الاتجاه الآخر .. وأخذ يذرع الجسر .

وفجأة قطع الأغنية عندما وجد نفسه أمام مكان مهجور كان ماكينة طحين يملكها محمود بك ثم احترقت وتعطلت ولم تعد تصلح لشىء الا لمقابلات خضرة ومن يدفع لها .

ودق قلبه بعنف .. أتكون وصيفة هنا مع أحد .. مع محمد افندى !!.

اتكون خضرة قد جلبت وصيفة هنا .

وحميت رأسه ، وأخذ يفتش كل ركن فى المكان ، حتى الجحور التى تسكنها الثعابين .. ولم يعثر بشىء ، ولم يسمع نفسا ..

وعاد يمشى على الجسر ، ويتابع الهمهمة بغنائه الحزين حتى اقترب من ساقيته وقد انتهت الأغنية الحزينة .

وهاجت نفسه فى الصمت والظلام والفضاء .. وشعر بالحاجة الى ان يحدث أحدا ..

ان هذه الأرض الواسعة التى تمتد الى جواره لتملؤها احساسا بالثبات والرسوخ والشرف .. لم يكن يرى منها شيئا فى الليل ، ومع ذلك فقد كان يعرفها .. يعرفها جيدا ، يعرف وجهها وقنواتها وكل مسلك فيها .. ويعرف شكل أعواد الذرة الغضة التى بدأت تنبثق من الأرض على مهل .

أنه الآن ليقف الى جوار الأرض التى يملكها هو ، والتى ورثها عن أبيه ، وحمل الفأس الصغير عليها وهو طفل .. انها نفس المنقرة التى حملها أبوه عندما كان طفلا .. حتى اذا كبر عبد الهادى ومات أبوه ، كبرت الفأس معه !.

انه ليعرف قصة هذه الأرض كلها منذ كان يدق الوتد للجاموسة .. وهو فى الثامنة من عمره لترعى البرسيم بحساب .. أنه مازال يذكر قصة هذه الأرض .. ولن ينساها أبدا ، وسيحفظها عنه ولده من بعده .. لقد أدرك أنها تنبت الذرة والبرسيم والقطن مع أول الأشياء التى أدركها فى الحياة .. وزرعها أبوه حديقة ثم قلعها بعد سنوات .. وزرع فيها هو القلقاس فرمت له الكثير .. وزرع فيها القصب فرمت له الكثير .. وزرع فيها الحلبة والفول فلم تخيبه أبدا ، ورفعت رأسه على الدوام .

اشترى لها أنواع السماد ، وظل يبرها ويرعاها ويعزها ، ولم يفرط فيها يوما واحدا ولم تفرط هى فيه .

فدان ؟! فدان قطعة واحدة ..

ان هذا الفدان ليجعل له مكانا خاصا فى القرية ، ويسمح له اذا

ذهب الى عاصمة الاقليم ان يجلس على مقهى الخواجة الارمنى الذى يجلس عليه معه عمه ، وعمدة البلدة والكبار هناك .

فدان ؟..

كم من الناس فى القرية يملك فدانا مثله ؟.

ان العمدة نفســـه لا يملك اكثر منـــه ، وقد اكملت له عائلته زمام العمودية بعقود صورية .

أنه واحد من عشر رجال فى القرية يملكون هذا القدر أو أكثر منه .. ومع ذلك فلو أن أخاه الكبير الموظف فى مصر ترك له الفدان الآخر !!

ولكن لا يهم .. فليسعد أخوه وزوجة أخيه وأولاد أخيه بايجار الفدان .. فعبد الهادى هنا فى القرية ، وأقدامه مغروسة فى أرضه ، يشعر بقوة لا يعرفها أخوه الموظف فى مصر مدينة الحكومة ! .

وجلس عبد الهادى قليـــــلا على أرض الجسر أمام الجميزة ، ولف سيجارة .. والح عليه الشعور بالحاجة الى أن يحدث أحدا .. وتمنى لو ان معه وصيفة ــ زوجة له ــ تجلس الى الساقية أمام ثور كبير يدور بالساقية ، وهو يروى أرضه من بعيد : هى تغنى على الساقية ، وهو يغنى هناك وسط الماء المنسكب ..

وهز عبد الهادى رأسه بجوى ، وتنهد ورمى ســـــيجارته .. وبدأ يهمهم :

ياولدى .. يا ولدى .. ياسيدى .. آه ..

وشعر بحب مباغت لكل شىء : لوصيفة ولعلوانى وخضرة ولكل مافى القرية .. ثم انطلق صوته حزينا هادئا :

مسكين محتار ، مقصور الجناح ، ولا طــــار

حط الحمام يوم على أرض الحبيب ولا طار ..

وارتفع صوته قليلا ، وتردد فى الفضاء الواسع الحالك واســـتمر يغنى ..

***

كان الليل الهادىء يحمل رنين صوته الجاف الحزين مختلطا برجع ساقية تدور على الشاطىء الآخر .. وسمع من بعيد صوتا يقول فى طرب :

ــ آه .. ياحلاوتك ياعبد الهادى . اى والنبى قول موال اخضر قول .. ياحبيبى انت يابو قلب اخضر !.

وتوقف عبد الهادى وصاح :

ــ سلامات ياشيخ العرب ..

ومضى من فوره على الجسر حتى بلغ حقل البطيخ الذى يحرســـه علوانى ، ورأى نارا صغيرة تتوقد ، وسمع كركرة الشاى فوق النار .



ووقف علوانى ومشى الى عبد الهادى يستقبله وهو يصطنع اللهجة البدوية :

ـ يا مراحب يا زين الفتيان .. مراحب بالجدعان .. اتفضل شاى ..

وأمسك بيده ، وسار عبد الهادى مع علوانى وجلسا قرب النار ، وشد علوانى الحرام الذى يتغطى به من ندى الفجر ، وفرشه لعبد الهادى قائلا بنفس لهجة البدو :

ـ ريح هنا يازين العرب ، والله شرفتنا .

فنحى عبد الهادى الحرام بقدمه ، ولكز علوانى يشده وقال مبتسما:

ـ جاتك الغم ، يعنى خواجات ياخى ؟! حانقعد عالحرام يعنى الواد خواجه قوى .. والأرض مالها ؟ دى واخدة منا راقات ياجدع .. والا يعنى شايفنا فارقين شعرنا ..

ثم جلس على الأرض الى جوار علوانى وهو يضحك ، فضحك علوانى وأكمل كلام عبد الهادى دون أن يصطنع اللهجة البدوية :

ـ أيوه .. ولا يعنى متربيين فى مصر .. ولا بنشرب سجاير مكنة ؟ دهدى .. ولا يمكن بهوات !!

وأطلق الاثنان قهقهات سريعة متلاحقة قصيرة ، والشاى يكركر على النار .

وتحرك غطاء الابريق الأسود ، واندفعت من ورائه دفقات بخار الغليان ، فرفعه علوانى بيده ، وأبعد الكوب السميك المضلع عن الابريق، وصب فيه الشاى ، فانسكب فى خيط طويل ..

واستنشق عبد الهادى رائحة الشاى ، وتابع خيطه الطويل المنسكب، وتلذذ بمرمرته .

وقال علوانى وهو يقدم الكوب الساخن :

ـ خد يا عبد الهادى .. خد شاى بيضحك زى العروسة أهه .

فتناول عبد الهادى الكوب مرحبا ، ورشف منه بصوت مرتفع وفى بطء ، ثم وضعه أمامه على الأرض وهو يرسل من حنجرته صوتا مبحوحا راضيا :

ـ احم .. شاى عرب صحيح .. تسلم .

وعرض علوانى على عبد الهادى أن يحضر له بطيخة .. فلديه بطيخ استوى وطاب الاكالة .. فاعتذر عبد الهادى شاكرا ..

وساد الصمت ..

وعاد علوانى يحدث عبد الهادى ، فسأله ما اذا كانت ساقيته تدور، فقال عبد الهادى باقتضاب :

كان صوت عبد الهادى قد انخفض ، ونكس رأسه قليلا . ولكن صوته ارتفع فجأة كعادته ـ ليسأل علوانى أين كان .

واجابه علوانى أنه كان فى الفرح ، وبعده راح يشترى الشاى من عند الشيخ يوسف .

ثم انفجر علوانى يشكو لعبد الهادى سوء معاملة الشيخ يوسف ، وقلة الرحمة فى قلبه ، فهو بقال القرية الوحيد ، وهو يكسب من البقالة كسبا طيبا ، وهو ايضا يقرأ الموالد احيانا مع فقهاء البلد ، فسيدنا الشيخ الشناوى لا ينساه ، ومع ذلك فقد كان لا يريد اعطاء علوانى الشاى ، وظل علوانى يتحايل عليه ، وأخيرا رمى فى وجهه بورقة الشاى واقسم ان هذه هى آخر مرة ، فلن يعطيه شيئا حتى يدفع ما تأخر عليه من ثمن الشاى والسكر وورق الدخان ، وعلوانى لايعرف شكل القرش الا عندما ينتهى الموسم فيأخذ أجره عن الحراسة ، وحتى هذا الأجر لن يكفى الشيخ يوسف .

وحين انتهى علوانى من شكواه قال له عبد الهادى بشرود :

ـ تتعدل يا علوانى ..

فقال علوانى بحسرة :

ـ تتعدل ازاى .. تتعدل منين .. دانا على ما يخلص الموسم أكون جريت بزيادة عن اللى حاقبضه كله ..

ولم يعلق عبد الهادى وظل شاردا ، وكأنه نسى الشاى ..

فصب له علوانى مزيدا من الشاى فى الكوب ، وسأله ان كان يستغنى الى آخر الموسم عن ريال .. فهز عبد الهادى رأسه :

ـ ريال .. هوه حد لاقى ريحتهم .. هو حد لاقى اللضى يا علوانى ؟ ماحدش عنده فلوس غير اللى نفسه فى بطنه ، لكن اللى زيى نفسه مكروش .. يا دوبك الحكاية مستورة !..

ومصمص علوانى شفتيه فى حسرة ، ثم انفجر صائحا :

ـ يادى السنة السودة يا رجاله ! ياخواتى الدنيا جرى فيها ايه.. بقى انت كمان مش لاقى ياعبد الهادى !.. يا سنه منيلة وزى الهباب.. دانا حتى سمعت أن البيه حجزوا على عزبته .

فقال عبد الهادى بهدوء :

ـ الكلام ده كان زمان من قيمة سنة .. لكن وحياتك ياخويا دا من يوم الوزارة دى ما جت وأشيته بقت معدن هوه وخاله الباشا .. ياعم دا لهم رجل فى الحكومة .

ـ طيب ما انت كمان لك رجل فى الحكومة يا عبدالهادى ، ما اخوك مستخدم فى مصر .. فى عز الحكومة ..

وابتسم عبد الهادى وسكت قليلا وهو يقول :

ـ يا جدع دى الحكومة حكومتهم والكلمة كلمتهم دا الباشا فى حزب الشعب اللى ماسك البر وحارقه بولعة ! الله !! خبر ايه يا علوانى مش تاخد بالك ٠

وهمس عبد الهادى ساخرا :

ـ ليه رجل فى الحكومة ؟ هىء ؟ دا الحكومة كاسرة رجلنا ياعم !٠٠

وهز علوانى رأسه وعاد يمصمص شفتيه فى حزن ، ثم استطرد يحكى بتحسر عن أيام خدمته القديمة فى عزبة محمود بك ٠

كان علوانى يرعى غنم « البيه » وهناك كان يحمل فى جيبه حافظة كبيرة للنقود ، فقد كان يجد شيئا على الدوام ٠

وفى أيام السوق ـ مرة على الأقل فى كل شهر ـ تعود علوانى أن يروح الى السوق بالغنم فيبيع بعضها ليصرف « البيه » ٠

وفى السوق كان علوانى يجد فرصته : فالأمر لا يخلو من عنزة أو نعجه صغيرة يدعى علوانى أنها تاهت وماتت فى الطريق ٠٠ وأحيانا يستطيع علوانى أن يحجز من ثمن كل رأس خمسة أو سبعة قروش ٠

ولكن البيه تعب من الغنم ، رغم أنها كانت ترعى على هواها فى اى أرض بلا حساب أو اعتراض واحتاج مرة الى مبلغ كبير بعد عودته من اقامة طويلة فى مصر فباع كل الغنم ولم يعد لعلوانى عنده مكان ، ورجاه علوانى أن يبقى ليحرس له حديقة البرتقال اذا جاء الشتاء ، وفى حديقة البرتقال كان علوانى يجد فرصا أخرى ٠٠ فالفتيات والنساء بائعات البرتقال كن يقبلن بلا انقطاع ليشترين السقط من البرتقال وكان هو يكسب من هذه الصفقات مبالغ طيبة ، ولكن خضرة فضحته ٠٠ وكانت تخدم اذ ذاك عند « البيه » ولا يستطيع أحد الأنفار أن يفتح عينه فيها أو يرد لها طلبا ٠٠ وطلبت يوما من علوانى برتقالة كبيرة من على شجرتها فرفض علوانى وأعطاها برتقالة من السقط قائلا :

ـ خدى الحبة دى ٠٠ بردقان السجر دا ماينقطعشى حتى ولا للبيه نفسه ، انتو حاتطفحوه حبة ورا حبة ؟! أمال يبيع ايه ٠٠ اللى يجى يشترى الجنينة حايشترى ايه ٠

وقذفت خضرة البرتقالة فى وجه علوانى ، وقامت بنفسها فقطعت برتقالة من على غصنها وهاج علوانى فقذفها بقطعة من طين الحديقة ولكن خضرة وشتمته فضربها علوانى وذهبت مقصوفة الرقبة الى «البيه» [illegible] علوانى وفضحت كل أسراره ، وراقبه « البيه » خفية دون أن [illegible] حتى ضبطه يضحك مع فتاة بيضاء أثناء احدى الصفقات ، فأمسكه البيه وفتشه وأخذ محفظته بما فيها وظل يضربه بالكف والرجل٠

وعندما انتهى علوانى من رواية هذه الحكاية لعبد الهادى ، صفق [illegible] وهو يقول :

ـ شوف الظلم ياعبد الهادى ٠

وصب علوانى كوب الشاى لنفسه وسكت ، وبعد أن رشفه هز رأسه وهو يتنهد قائلا :

ـ والله ياعبد الهادى لولا ان شيخ البلد بيبعت لى الأكل ٠٠ لكان الواحد ياكل من الغيطان زى الديب ٠٠

وقال عبد الهادى وهو ما يزال شارد الفكر ٠

ـ مسيرها تتعدل ٠٠ ربك يستر ياشيخ العرب ٠٠ ربنا يستر ٠٠

كان عبد الهادى يفكر فى وصيفة ٠٠ ربما كانت قد ذهبت الى « البيه » الذى يتخايل فى ضيعته بجلبابه الكشمير الفاخر وشعره اللامع المفروق ٠٠

ولكن لماذا تذهب الى البيه ؟٠٠

ان محمود بك يخرج أحيانا فى الليل على ظهر حصانه الفاره القوى الأبيض ٠٠ وكثيرا ما رآه عبد الهادى فى طريقه الى عاصمة الاقليم أو عائدا من هناك أو من عزبة خاله الباشا بالقرب من عاصمة الاقليم ٠

ولا طريق له غير الجسر ٠

ربما كان قد قابل وصيفة فعاد بها الى العزبة ، انه يفعل هذا أحيانا فى الليل عندما تروقه فتاة على الجسر والبلد كلها تعرف هذا جيدا ٠

ولكن أيمكن أن يصنع شيئا كهذا مع وصيفة بنت محمد أبو سويلم شيخ الخفراء السابق ٠٠

ووصيفة نفسها أمن الممكن أن تقبل هى مثل هذا الشىء ؟!

ولم يحتمل عبد الهادى التفكير فى كل هذا ٠٠

وحين كان علوانى يشرب الشاى ويفكر فى حياته التعسة ، فاجاه عبد الهادى بالسؤال عن محمود بك ، هل مر على الجسر ؟ فهز علوانى رأسه ونفى الأمر بطقطقة متكررة من لسانه ٠

وعاد عبد الهادى يسال بضيق :

ـ ماحدش فات عليك من أصله ؟٠

فقال علوانى باقتضاب وهو ساهم :

ـ أبدا من أصله ؟٠

وانتهى الشاى ، ولم يجد عبد الهادى كلاما يقوله فنهض مستاذنا ، وعلوانى يلح أن يبقى للدور الثالث فى الشاى ولكن عبد الهادى كان قلقا موزعا ٠٠ فقال علوانى متمسحا بلهجة بدوية :

ـ وبعدين نزدرك ، حكم الشاى كده ، اقعد اقعد .

فابتسم عبد الهادى بلا استعداد للضحك وبدأ يتحرك ووقف علوانى وسار قليلا بعد عبد الهادى يودعه فى صمت ٠

غير أن علوانى توقف فجـأة ومال برأسه يصغى فسمع همهمة من بعيد ٠

وطلب علوانى من عبد الهادى أن يتوقف وان يجلس فى مكانه ٠٠

وركز عبد الهادى انتباهه ، بينما قفز علوانى راجعـا الى الوراء ثم نبش قليلا تحت الحرام ونزع بعض الحجارة بخفة والتقط بندقيتـــه القديمة ذات الماسورة المقصوصة ثم كسرها ووضع فيها الطلقتين وهمس لعبد الهادى :

ــ معاك الفرد بتاعك ٠٠ عمره ان كان معاك وتعالى هنا بشويش نلبد تحت بطن الجسر ٠

فقال عبد الهادى باستخفاف :

ــ ليه بأه !٠٠

فأجاب عليه وقد امتلكه الاهتمام :

ــ باين فيه رجالة انسقطوا على البلد ٠

فقال عبد الهادى بصوت مرتفع :

ــ رجاله !٠٠ رجالة ايه وهباب ايه ٠٠ ورجالة الليل ييجوا بلدنا يزروطوا ايه ٠٠ يعنى حايسرقوا الأبعدية ولا يعنى هنا الوسـيـة ٠٠ دا البلد تسرق اللى معاهم ٠

وضحك علوانى وعبد الهادى ، واقتربت الهمهمة وأصبحت أصواتا واضحة تلتقط منهما الآذان كلمـات كاملة تجرى اليهـا بسرعة ٠ كانت اللهجة غريبة عن القرية واتضح فى الظلام شـكل بسكليت يجرى ومن ورائها بسكليت آخر ، وقال علوانى هامسا باطمئنان :

ــ دول راكبين حمار السكة ٠٠ الحمار الحديد ٠٠ دى لغوتهم لغوة أهل البندر ٠

ثم ضحك مستطردا ساخرا بنفسه :

ــ بقى رجالة الليل حاينسقطوا علينا راكبين حمير حديد ٠٠ هىء ٠٠ دول لازم رجالة خواجات ٠٠ هىء هىء ٠٠ دول لازم من لندرة ٠٠

وضحك عبد الهادى وهو يلتقط كلمات الرجلين المقبلين وقال :

ــ دول ناس من البندر ٠

ووضع علوانى البندقيـة مكانها ، وظهر الرجلان بوضـوح ، كان احدهما يلبس البدلة والطربوش والمعطف الأبيض والآخر يلبس جلبـابا من حرير القز وجاكتة بيضاء وطاقية من الصوف ٠

واصبحا على الجسر امام عبد الهادى وعلوانى ٠٠ تماما ٠

ونزل الرجل ذو الجلباب عن البسكليت وأمسكها بيده ، فقال الرجل ذو الطربوش وهو يهبط عن البسكليت ويتركها للرجل الآخر :

ــ السلام عليكم ٠٠

ورد عبد الهادى ، وهو يصعد الى الجسر ووراءه علوانى :

ــ اتفضلوا ٠٠ اتفضلوا ٠٠ نجيب عشا ٠٠

وزاحمه صوت علوانى مصطنعا لهجة بدوية :

ــ اتفضلوا يا عرب نجيب عشا ٠٠ العشا جاهز يا عرب ٠٠ ننحـر لكم الضأن يا عرب ٠٠

وقال الرجل ذو الجلباب :

ــ اسمع يا أخينا انت وهوا ٠٠ مين فيكم معلق ساقيته ٠٠ مين فيكو طالع يعلق الساقيا ٠

فهمس عبد الهادى لعلوانى ساخرا من لهجة الرجل :

ــ الساقيا !!٠

ثم استمر يقول لعلوانى فى همس :

ــ دول بتوع الهندزة ٠

وأجاب علوانى بصوت مرتفع :

ــ ساقية ٠٠ محدش هنا معلق سواقى ٠

كان عبد الهادى قد أدرك بتجربته أنهما من رجال هندسة الرى فى عاصمة الاقليم وتقدم اليهما ٠ انه يعرف وجه المهندس ومساعد المهندس، ووجوه بعض عمـال الهندسة ٠٠ ورأى وجها غريبـا ٠٠ لم يكن هو المهندس ، والمهندس على أية حال لا يأتى على بسكليت ٠٠

وأدرك أنه مساعد مهندس نقل حديثا الى الاقليم ٠٠ ولكنه عرف وجه العامل الذى يلبس الجلباب ٠٠ ان هذا الرجل نفسه يعود الى السواقى بعد أن يعطلها المهندس أو مساعده فيديرها مقابل عشرين قرشا للساقية ٠٠ ولكن لا أحد فى القرية يستطيع أن يدفع هذا الريال فى هذه السنة السوداء ٠

ونظر عبد الهادى الى العامل وقال له :

ــ انتو فتشتم بنفسكم ٠٠ لقيتو حاجة ؟٠

فاندفع الأفندى يقول بصرامة :

ــ بتوشوشه ليه ٠٠ اسمع يا جدع انت وهو ٠٠ أنا عارف لماضة الفلاحين وشغلهم ولؤمهم ٠٠ فين الساقيا اللى كنتوا طالعين تعلقوها ؟٠

فقال علوانى (تاركا اللهجة البدوية التى اصطنعها) :

ـ لا والنبي يا جناب الباشمهندس ، وحياة مقامك ورقبتك ٠٠ والله ما فيه حاجة من دي أبدا ياحضرة الهندزة واحنا أصلنا قاعدين هنا كده يعني ٠٠ أصل الحكاية ياحضرة الحكومة ٠٠٠

فقاطعه الرجل ذو الجلباب :

ـ امال ايه البنت اللي شفناها عالجسر من قيمة ســـاعة وجريت تستخبى فى الغيطان . . ايه دي . . مش باعتنها تدور السواقيا ؟

فقال علواني :

ـ بنت ؟٠٠ وهيه البنت حاتجر الساقية ٠٠ طب وفين البهيمة ؟ هو عدوك أهبل انت وهوه ؟!

فصاح فيه الأفندي :

ـ اخرس ٠٠

وهمس عبد الهادي كأنه يخرج من حلم :

ـ بت ؟٠٠ شفتها فين ٠٠ هيه فين ؟٠٠

ولم يهتم أحد بما قال ٠٠ وعاد الأفندي يقول :

ـ هوا احنا ماعندناش شغل غيركم ٠٠ ايه دا ؟٠٠ حانسهر لكم طول الليل علشان نضبط السواقي دايرا ، يعني نكسر لكم سواقي الجسر كلها من الوقت ونخلص ؟٠٠

فقال عبد الهادي محنقا :

ـ ليه ؟! تكسروا سواقي الجسر ؟ ليه ؟٠٠ وحتى ان لقيتوها دايرة؟ دا لسه قدامنا خمسة أيام ري يا جدع ٠٠ خمسة أيام بلياليهم نروى فيهم على كيفنا وتدور سواقينا على كيف كيفنا ولا حدش له كلمة عندنا ٠٠ ولا وحشكو الريال ٠٠

وثار الافندي على عبد الهادي والتفت الى الرجل ذي الجلباب يسأله عن مسألة الريال ، فهمس في أذنه أن الذى كان قبله كان يأخذ ريالا من الفلاحين ليغمض العين ٠٠ ولكن الحالة الآن تستحق خمسين قرشا عن كل ساقية ٠

اضطرب الافندي وشتم العامل وتوعده عندما يعودان الى الهندسة ٠

فضحك علواني بشماتة وصاح :

ـ دهده ٠٠ دي الحكومة وقعت في بعضها ٠٠

بينما أخذ عبد الهادي يزعق ، ويحاول أن يناقش الافنـــدي وزام الافندي محاولا أن ينهي المناقشة التي دخلها متأففا متقززا ثم صاح في عبد الهادي أن دورة الري ليست ككل سنة فقد أصبحت خمسة أيام بدلا

من عشرة وان المغرب كان آخر موعد يحق للسواقي فيه أن تدور وعنـد العمدة اشارة بهذا المعنى منذ أيام ٠

فصاح عبد الهادي :

ـ عمدة ؟٠٠ عمدة ايه ياجدع صلي ع النبي ٠٠ أنا حنزها بعـد بدره ، جميلة العمدة على اللي في رجلي ٠٠ خليه ييجي يحوشني وأنا ارمهولك في البير ٠

وضج الافندي وعاد يصيح ان هذه هي أوامر الحكومة ٠

فقال عبد الهادي :

ـ حكومة ؟ سلامات ياحكومة ٠٠ ما احنا برضه لنا رجل في الحكومة ٠٠ خد عندك ٠٠ أخويه مصطفى مستخدم في مصر في المساحة مابعتشي يقول لنـا كده ليــــه ؟ قال الحكومة قال ! تعطشوا الأرض وتقـولوا الحكومة ٠٠

وتلطف الرجل ذو الجلباب وقال لعبد الهادي :

ـ راجل انت . . دانا عارفك . . راجل طيب وبتفهم . . كلام الحكومة اهه كده ٠٠ دورة الري في الزمام هذا تكون خمس أيام فقط لا غير ٠٠ وبعد كده لا فيه ري من البحر ولا من الترعة ٠٠ بلاش مناكفة بقى ٠٠ بلا كتره ٠

فقال عبد الهادي متحديا :

ـ لا ياشيخ ٠٠ خمسة ؟٠٠ خمسة أيام ٠٠ ياجدع قول كلام غير ده ٠٠ يعني نعطش الدره ٠٠ يعني تموتوه لنا من العطش ٠٠ طب دا غيها خلق لسه ماطفتشي الشرافي . . يالية غبرا ياخواتي . . هو جرى ايه السنة دي ؟٠٠

وهمس علواني محاولا أن يتدخل :

ـ ياعبد الهادي دا الحكومة بتقول كده ٠٠ خلاص بقى ٠

فصاح عبد الهادي بأعلى صوته وهو يضرب الأرض بعصاه :

ـ حكومة ايه دي يا وله ؟ حكومة ايه دي بس ما تفلقونيش ياخي ؟ تاخد منا نص المية ازاى ؟! مين دا اللي ياخد منا خمسة أيام من العشرة بتوعنه ٠٠ ليه ٠٠ وبقية المية رايحة فين ؟ هه ٠٠ بقى يبطلوا السواقي هنا ويقفلوا الترعة الكبيرة هناك ؟٠٠ ليه بقى ٠٠ مين اللي فوقنا حياخد الميــــه ٠٠ المخروبة أرض الباشا اللي اشتراها جديد وماتسواش كلب ياكلها ٠٠ ياسلام ياسلام ؟؟٠٠ ياسلام كده على الحكومة ٠٠ وحياة النبي الميه ماهي منحاشة منا أبدا ٠٠ تقفلوا الترعة وتبطلوا الســواقي والنبي لتجرى دماها قبل مياها ٠٠ وسع ياجدع ٠٠

وضرب عبد الهادى الأرض بعصاه واقتحم الطريق وتحرك الافندى وزميله ، وعبد الهادى يمشى مسرعا الى القرية وعصاه تشق صمت الظلام وهو يزعق :

ـ سلامات ياحكومة ·· هيه دى بقى أوامر الحكومة ·· سـلامات سلامات ·· طب وايمان النبى لادورها بعد بكره ·· من بكره ·· هه ·· خلى حد ييجى يكسرها بقى وأنا أكسر رقبته وأدفسها فى الطين ·

وكان الرجلان قد ركبا ·· وانطلقا على الجسر فى الطريق الى المدينة عاصمة الاقليم ··

وتحرك الغاب الطويل على حافة النهر وبرزت منه فتاة تلبس السواد ·· وقالت لنفسها بهمس :

ـ رجلى اتهرت من جدور الغاب ·· قطيعة يا أهل البندر ·· مشوار ايه الاغبر دا اللى كانت باعتانى فيه وصيفة لحتة ولد مايحصلش طول رجلها ؟؟·· هو علشان ما بيتعلم فى مصر وفى البندر ·· طب ودا ينفع فى ايه ؟·· آه لو كانت هى اللى طلعت الليلة دى كمان زى ما طلعتليلة امبارح ، وشفوها رجالة البندر دول ··

ولم يشعر بها علوانى ·· فقد كان ما يزال ينظر فى ظهـر الرجلين وحين اطمأن الى أنهما ابتعدا تماما ·· بصق على الأرض قائلا :

ـ هيه خلاص الحكومة ماعندهاش شغلانة غير بلدنا ·· مرة ترفد ومرة تحبس وجايه الآخر تحوش عنا الميـه .. ياللا انجر منك له .. حكومة نجسة ·

وضحكت الفتاة ·· وأحس بها علوانى ·· فالتفت اليها مدققا بينما خرجت هى تتقصع وتقلد لغة الرجلين بسخرية :

ـ دا !· كدا ! أنا · انتا ! قطيعة يا أهل البندر وانتو لسـانكو معـــوج كده زى الغوازى ·· رجالة ايه دول يا أختى ·· دول باين عليهم ···

وقاطعها علوانى :

ـ هس ·· ايه اللى جابك دلوقتى يا خضرة ؟ طب تعالى بقى ·

ثم قال مغازلا :

ـ حاديكى بطيخه ياللى تنزغدى ·· تعالى ·· تعالى ياللى تنحشى ·

وجرت اليه خضرة فرحة وهى تقول :

ـ جايالك ياشيخ العرب أهه ··

وقفزت الى حقله ، وهى تتراقص وتهز ثدييها المترهلين ، وتمسح وجهها الجاف المقدد ·

ولكن خضرة وقفت مكانها متباطئة ثم قالت مترددة :

ـ بس اوعى يا اخويا تعمل فيه زى ما عملت فى ستهم بنت شعبان ابن خالتى ·· اوعى تدحك على زى ما دحكت عليها ··

فقال علوانى :

ـ دهده ·· ومالها ستهم دلوقتى مابيقولوا عليها بقت حاجة كبيرة فى مصر .. وانا كنت دحكت عليها ياخضرة .

ثم سكت قليلا قبل أن يقول :

ـ وحياة النبى كنت حاسرق لها كيلة الدرة لكن ماملكتش .. تعالى ·· تعالى يا مقصوفة الرقبة ·· غيط البطيخ كله قدامك اختـارى اللى يعجبك ·

وسكت علوانى قليلا وأخذ يتحسس بقدمه الحافيـة الحجارة التى تغطى البندقية وأدار رأسه الى حيث كان عبد الهادى يسير قائلا :

ـ والله من يوم شـعبان ما مشى والواحد ماعارف يسلك ماسـورة البندقية ·

والتفتت خضرة اليه ورمت بصرها الى حيث كان يمضى عبد الهـادى وقالت بزهو :

ـ ياسلام عليك ياعبد الهادى ·· راجل بالدنيا ··

فقال علوانى بزهو :

ـ ايوه ·· دكر صحيح ·· يضرب بلد لوحده ··

ثم شد يد خضرة وجلس وأجلسها بجانبه وهو يقول ضاحكا :

ـ الآكادة انتى حلوة ·· زى الحلاوة الطحينية ياللى تنزغدى فى قلبك ··

وشد الحرام عليها ، فقالت خضرة وهى تضربه على صدره بكفيها :

ـ هات البطيخة الاول ··

ولكزها علوانى وهو يقول :

ـ لو كنا نصبح نلاقى الغيط دا كله بتاعنا ·

وضحكت خضرة قائلة :

ـ ياريت .. آه ..

وشدت الحـرام .. بينما كان عبـد الهـادى يدخل القرية راسـخ الخطوات ، الثورة يغلى بهـا دمه ، وعصـاه تحرك صمت الظلمات ..

٥

عندما عاد عبد الهادى الى داره فى تلك الليلة لم يفكر فى وصيفة بعد ــ فقد شغله حديث الرى ــ ورجال الهندسة وما يصنعون وامر الحكومة .

واخذ يلف السجائر ويشعل سيجارة من سيجارة حتى فرغت علبة الدخان .

كان يفكر فى الساقية والترعة ودورة المياه التى نقصت الى النصف

ويحاول تدبير أمر الذرة الصغيرة الغضة التى بدأت تظهر وتكسو الأرض بالخضرة الحلوة التى أحبها عبد الهادى دائما وتمرغ فى طراوتها منذ كان طفلا .. انها أول ذرة خضراء تظهر فى صفرة الشراقى الواسعة من حوض الجسر .

اتراها تذبل وتموت لمجرد ان الحكومة ارادت هذا ؟..

أيترك عبد الهادى أذرته المبكرة لتحكمات رجال الهندسة .. وهو الفلاح الشاطر الذى لم تخب منه زرعة من قبل ؟..

وصمم عبد الهادى على ان يحافظ على زرعه مهما كلفه الأمر .. لن يترك الذرة تموت .. سيدير الساقية بعد عصر الغد ليشرب زرعه ويروى على مهل ..

وعندما أشرقت الشمس على القرية وبدأت البهائم تزحم الدروب فى طريقها الى الحقول كانت النساء الذاهبات الى النهر يتحدثن عن كل ما جرى بين عبد الهادى ورجال الرى .

واخذ رجال القرية يقولون الحكاية لبعضهم وهم يسوقون الحمير والمواشى .

فعلوانى قد ملأ القرية بالقصة .. وروتها خضرة أيضا دون ان تقول لاحد لماذا كانت على الجسر فى الليل .

ومحمد ابو سويلم هو الآخر كان يحكى ما حدث له لكل من قابله .. اذ فاجأه رجال الهندسة فى حوض الترعة وأمروه أن يسد الترعة ، وعندما اعترض هددوه بعقاب شديد ولمحوا بأن المركز كله يعرف أنه رجل مشاغب .. ضد الحكومة ..

وسد محمد ابو سويلم الترعة بالفعل ليقصر الشر .. وترك بقية ارضه الشراقى عطشى تتحرق الى الماء ..

ولكن محمد ابو سويلم عزم على رى الارض .

وخرج محمد أبو سويلم بالفعل الى حوض الترعة قبل ان تلتهب شمس الضحى وفتح السد .

وصنع مثله رجال آخرون .

وخرج عبد الهادى الى الساقية فأدارها .. ومضى يخوض فى حقله بأقدامه العارية ويهوى على الأرض بفأسه ليفسح الطريق أمام الماء وترك على الساقية ولدا صغيرا استأجره بقرش ليدور وراء البقرة المغماة ويدفعها بيده أو بالنداء كلما توقفت من الاعياء .

وظل عبد الهادى فى حقله الى ما بعد العصر ومر رجال الرى ورأى رجال الرى ساقية عبد الهادى تدور فعطلوها وكتبوا اسمه فى ورقة معهم كما كتبوا اسم محمد ابو سويلم من قبل .. وجرى الولد الصغير الذى كان يحرس الساقية باكيا مرتعشا من الخوف .. جرى الى القرية يقول ان الحكومة كسرت كل السواقى على الجسر .

وكان محمد ابو سويلم قد عاد الى داره من الضحى وشاع فى القرية ان رجال الرى كتبوا اسمه فى ورقة .

والقرية تعرف بتجربتها ان الحكومة حين تكتب اسم رجل فى ورقها .. فهو رجل لا سلامة له ابدا ..

وذهب رجال من القرية الى عم محمد ابو سويلم يسألونه ويخففون عنه .

وكانت ابنته وصيفة فى وسط الدار تجلس امام الرحى .. وتديرها على حبات من الذرة وقامت وصيفة ورفعت الرحى على رأسها ثم دخلت بها الى القاعة وعادت تختلط بالناس .. وماجت دار محمد أبو سويلم بالذين يسألونه عما حدث له مع رجال الحكومة .

وازدحم وسط الدار بالنساء والفتيات وجلس الرجال على المصطبة خارج الدار .

وامام المصطبة ثنى بعض الرجال ركبهم وجلسوا مستندين على سيقانهم .

ووقف الاولاد يزاحمون النساء والرجال ، ويدسون رؤوسهم كلما انتظم حديث .. وكان بعض الرجال ينهر الاولاد ويبعدهم لبعض الوقت ولكنهم يعودون ليتمسحوا كالقطط ويصغون لما يقال بذهول ووجل ..

وسأل احد الفتيان عمه محمد ابو سويلم عن هؤلاء الرجال الذين كتبوا اسمه فى ورقة .. أجاءوا يطالبونه مرة اخرى بأن يرسل أسماء الاموات لتوضع أصواتهم فى انتخابات جديدة يجريها حزب الشعب .

ولم يبادر محمد ابو سويلم بالرد عليه .. بل اسرع الشيخ يوسف بقال القرية فقطب حاجبيه وصاح فيه :

ـ جاتك داهية في زناخة عقلك .. احنا فى ايه .. وانت فى ايه .. انت يا واد انت ابن مين ؟..

ـ ابن اخت شعبان ..

ـ ولدن لخاله .. جاتكو شوطة .. مرحتش معاه ليه مطرح ما راح ؟.. هى البلد دى مش حاتخلص من البلاوى .. اشمعنى بتفهم قوى فى الحساب .. ناكفتنى ساعتين فى طلعة النهار على سعر ورقة الدخان .. اقول له بخمس كيزان درة يقول لا بتلاتة .. طب بأربعة .. يقول لى بتلاتة .. بقى دى بلد ؟.. تقول على بتوع الهندزة انهم بتوع الانتخابات ؟ .. لا .. جايين ياخدوا المال بدل الصراف .. هه .. انبسطت .

وتدخل محمد ابو سويلم وبدأ يشرح بصوت هادىء فارقته الرعشة التى سيطرت عليه عندما عاد من الترعة .

واحس شيخ الخفراء السابق بلون من الامتياز الفائق الذى مارسه طويلا عندما اخذ يؤكد للذين من حوله ان رجال هندسة الرى يقبلون من اجل الماء لا من اجل الانتخابات او المال .

على ان حكومة حزب الشعب التى أرسلت رجالا يغصبون الفلاحين على انتخاب رجالها .. هى نفسها التى تحرم ارض الفلاحين من الماء وترسل مستخدمين من اقارب الفلاحين لينفذوا اوامرها على الرقاب .

وتهامس بعض الفتيان ان محمد ابو سويلم سيلقى الليلة فى السجن ما داموا قد كتبوا اسمه فى أوراق الحكومة .

واختلطت غمغمة الناس لبعض الوقت ..

كانوا يجلسون من أول الضحى .. منذ عاد محمدابو سويلم من حوض الترعة ولم يقم منهم واحد الى بيته لياكل .. ولم ياكل محمد ابو سويلم نفسه .. وكان المغرب قد أوشك أن يهبط على القرية .. وهم مازالوا يتحدثون ويفكرون فى طريقة ومحمد ابو سويلم يحنق ويهدأ ويتحدث ويسكت وهو دائما يخبط كفا على كف ليقول فى حيرة وغيظ ..

ـ ياخدوا منا نص دور الميه . ياخدوا منا خمسة ايام بزيهم .. ليه .. ونروى الأرض ازاى ؟..

واقبل عبد الهادى مندفعا قبل ان يهبط المغرب .. كان حافيا قد ترك مداسه وجلبابه عند الساقية وجاء بقميصه ، وقدماه مثقلتان بطين الحقل .

وسلم عبد الهادى وقام له احد القاعدين فجلس مكانه على المصطبة امام الدار .. ومازال وسط الدار يعج بالنساء .

وتهامست النساء باسم عبد الهادى وارتفع صوت خضرة تعيد رواية ما جرى بين عبد الهادى ورجال الرى ..

كانت خضرة تروى وهى تتفصح وتقلد لهجة الأفندى .

والتفت محمد أبو سويلم الى عبد الهادى وقال :

ـ قل لى بقى يا عبد الهادى .. ايه الخبر وايه السيرة .. طب والميه اللى حاياخدوها دى كلها حايهببوا بيها ايه .. حايدردعوها فى بطنهم لا الميه دى رايحة لمين قول لى ؟! يا نهار اغبر ياولاد .. خدوا منا مشيخة الخفر وسكتنا لهم .. ورموا لنا الشيخ حسونة فى آخر الدنيا وسكتنالهم .. وحجزوا على نص البلد وسكتنا لهم .. الله .. ويموتوا لنا الارض من العطش كمان .. هو احنا خلاص كده بقينا هفيه .. هى البلد خلاص كده بقت كلها حريم . مفيش رجاله ؟.

وسكت عبد الهادى وعضلات وجهه تهتز فى توتر .. وعيناه تومضان بالشر .. ودعك صدره العارى المكسو بالشعر الكثيف الأسود المترب .. وترددت الانفاس قوية فى خياشيمه ..

وهمس احد الاولاد لجاره :

ـ شوف شعرة الأسد اللى فى صدر عبد الهادى .. بيدعك الشعرة اللى من الأسد .

واجابه زميله همسا :

ـ دا شرانى خالص .. بص له بص كده! يا نهار اسوح . دا العفاريت بتنط قدامه .. دابعون الله يا ابنى يضرب الهندزة كلها .. يسوقهم بالعصا ..

ونسج الولد الاول بصوت مرتفع :

ـ ياولد ..

فالتقط احد الرجال الجالسين عصا صغيرة وهش بها على الاولاد وهو يصرخ فيهم :

ـ روح يا واد عند امك .. روح أنت وهوه ..

وارتفع صوت الشيخ الشناوى طالبا من الجالسين أن يصلوا على النبى .. بينما كانت وصيفة فى الداخل بقامتها المديدة .. ترفع راسها فى تطلع .. وتختلس نظرات الى الرجال الجالسين .

ولم تستطع ان ترى احدا ..

كانت ظهورهم جميعا الى الحائط بحذاء الباب .. ولم يكن تجاه الباب غير اولاد يتسللون الى الرجال بعد أن ابعدوا ..

وترددت على الأفواه همسات الصلاة على النبى ..



وامسك الشيخ شناوى سبحته .. ورفع يديه بالمسبحة .. وقربها من عينيه وطلب من الموجودين أن يقرأوا عدية يس على من قصر مواعيد الرى : ان ينتقم الله منه بحق جاه النبى !.

فانفجر عبد الهادى يعارض الفكرة ويطلب من سيدنا أن يفكر فى غير هذا .. أو فليسكت هو .. ويترك أصحاب الشأن يفكرون ..

فاحتقن وجه الشيخ الشناوى وصاح فيه :

ــ يه .. يه .. انت حاتخوض يا عبد الهادى .. أنا عارفك ضلالى ومابتركعهاش .. طب .. قوم بنا قوم . قوم بنا دا المغرب قرب يوجب .. قوم بنا عا الجامع .

فقال عبد الهادى :

ــ صلاة المغرب قاعدة يا سيدنا .. ما تخلينا بس نشوف تصريف للمصيبة اللى حطت علينا دى .. وهى صلاة المغرب حاتروح فين ؟.. لازم يعنى نصليها حاضر فى الجامع دلوقت .

ونهض الشيخ شناوى مغضبا وهو يتمتم :

ــ روح الله يلعنك .. ما اكفرك ..

ثم استدار الى الرجال الجالسين :

ــ قوم فز يا واد انت وهوه .. صلوا لكم ركعة .. اياك ربنا يبارك فى رزقكم ..

وقام بعض الفتيان الذين يعملون فى الحقول بأجر .. وكانوا فى هذا الموسم من كل عام لا يجدون عملا منتظما .. فقد انتهى حصاد القمح ومازال القطن صغيرا فى الحقول .

وهمس احدهم فى اذن زميله وهو ينهض :

ــ قوم يا خوية قوم .. اخبط لك ركعتين .. يمكن نلاقى شغلة .. يمكن ربنا يطلع القطن بدرى ويجرى فيه الدودة .. خلينا نهيص ..

ونهض كل الجالسين الى الارض امام المصطبة .. وبعض القاعدين على المصطبة ..

وصاح احد الرجال ــ وهو ينصرف ــ فى النساء :

ــ ياللا روحوا بقى يا نسوان ..

وبقى محمد ابو سويلم جالسا والى جواره الشيخ يوسف وعبد الهادى ومحمد أفندى الذى ظل طوال الوقت صامتا يفكر فى طريقة .

وتفرق النساء .. ولم يعد فى وسط الدار الا وصيفة وامها ..

وامام الطاحونة التى كانت تقابل بيت محمد ابو سويلم جلست فتيات صغيرات يغنين ويرقصن .

وشرد عبد الهادى قليلا .. لقد كانت وصيفة هى الأخرى تغنى وترقص فى هذا المكان بالذات .. ومن قبلها كان جيل آخر يصنع نفس الشىء .. كانت اختها الكبيرة التى تزوجت فى عاصمة الأقليم .. وسيأتى من بعد وصيفة جيل جديد يغنى نفس الأغانى الجميلة الحزينة .. ويرقص بنفس الحركات السريعة .. ويدفع الدقات على طشت صغير مقلوب .

وحاول الشيخ يوسف ان يتكلم ولكن ضجة الصغيرات غمرت صوته فزعق فى البنات :

ـ هو انا سايب الدكان عشان اسمع غناكم يا غجر .. فزى منك لها .. هيه البلد دى يا خويه بقت بلد غوازى والا ايه ؟..

وتحرك الشيخ يوسف الى ناحية الفتيات فقامت فتاة صغيرة وحملت الطشت وجرت .. واسرع وراءها الأخريات ..

وقام عبد الهادى طالبا قلة ليشرب ..

وفى وسط الدار راى وصيفة فقال لها بصوت مرتفع :

ـ اسقينا .. عندكوش قلة ساقعة ..

وانخفض صوته وهو يقول مداعبا :

فايت على حيكم عطشان سقيتونى

ياقلة الشوم .. وانا الخالى شبكتونى

وضحكت وصيفة فى حذر .. فسألها هامسا .. لماذا صعدت الى جسر البحر منذ ليلة .. فاضطربت وصيفة وأنكرت .. .

ولكنه عاد يسأل هامسا .. عن سر وجودها على البحر ليلة مجىء رجال الرى لأول مرة .

فتنهدت بارتياح .. وقالت باهمال وامن ان التى كانت على الجسر فى تلك الليلة هى خضرة ..

ثم ذهبت لتحضر القلة .. وعندما ناولتها له قالت بشجاعة ولم تعد تبالى :

ـ انت حاتقعد تتهمنى فى كلام فارغ .. اسمع يا عبد الهادى .. لما اقولك .. بقى انت لا انت جوزى .. ولا انت أبوى .. مالك ومالى بقه ..

وتضايق عبد الهادى من ارتفاع صوتها . وعاد الى الهمس :

ـ الله .. بس .. حد يسمعك .. هو آنت برضه مش تهمينى يا اللى تنحشى فى رقبتك .. يعنى لو كنته طلعت البحر بالليل وحد من بتوع الهندزة أتعرض لك ـ يعنى كده وللاكده ـ مش برضه فى وشنا كلنا ..

واهتزت وصيفة وشعرت بالندم لانها أغلظت القول لعبد الهادى ..

وفى القرية يتحدثون فى خشونة على الدوام .. وبصوت مرتفع .. حتى عندما تحتدم منهم العواطف .. وهم يستعملون دائما كلمات قاسية فلم يتح لهم أبدا أن يعرفوا لين الحياة الذى ينسكب لينا فى الطبع والمعاملة .. لم يتح لهم ان يكونوا رقاقا .. عذابا !.

ورفعت وصيفة يديها لتضرب بها صدر عبد الهادى .. كاعتذار .. ولكن صوت محمد سويلم ارتفع من الخارج :

ـ دهدى يا عبد الهادى .. انت رحت فين ؟..

فأجابه عبد الهادى باستنكار وخشونة :

ـ يعنى ماشربش ؟.. الله يابا محمد ؟..

فقال ابو سويلم بضيق :

ـ ودا كله شرب ياجدع .. داشىء كان يسقى غيط بحاله .

ورفع عبد الهادى القلة عن الارض وافرغ منها بين شفتيه ثم عاد يجلس الى المصطبة .. وهو يمسح فمه .. ويزوم فى رضا .. واستقبله محمد افندى بنظرة استنكار .. وهز راسه وضرب الهواء بالمنشة الخوص وقال :

ـ عطلتنا يا جدع ..

وصاح عبد الهادى بضيق :

ـ عطلتكوا .. عطلتكوا عن ايه .. عن قطر السكة الحديد ؟ بقى من ساعة انا ماجيت وانت قاعد ساكت .. اول ما تنطق تقول عطلتنا .. عطلتكوا عن ايه بس ؟.. هو مفيش تسريف عند حد غيرى .. مابتشوفش انت تسريفه ليه يامحمد افندى .. ياللى معاك شهادة ..

فقال محمد افندى متحديا بعدم اكتراث :

ـ هو انت اللى حاتصرف لنا أمورنا .. هو انت عندك تسريف .. انت تعرف تتصرف ؟ دا انت سىء التصرف ..

فتلفت عبد الهادى حوله وقال مصطنعا الحلم :

ـ لا اله الا الله .. جرى ايه يا محمد أفندى ..

فوقف محمد أفندى مضطربا .. وامسك المنشة تحت أبطه ..ولوح بذراعيه قائلا :

ـ واد ؟! بتقوللى يا واد ؟. لا .. انت اللى واد .. وواد . وستين واد كمان .. هه ..

ووضع عبد الهادى يده على ركبته فى غيظ ولكنه وقف فجأة وتقدم الى محمد أفندى الذى كان يقف متأهبا مرتعدا من الحنق والمنشة

الخوص تحت ابطه .. ووقف بينهما الشيخ يوسف بجسده .. وتحرك محمد ابو سويلم قليلا في محله وصاح :

ـ اقعد بقى أنت وهو .. احنا في ايه وانتــوا في ايه .. ايه كلام العيال ده ..

ودفع الشيخ يوسف يده في صــدر عبد الهــادي ومحمــد افندي وهو يقول :

ـ الله .. الله .. اضربوا بعض اضربوا .. حاكم البلد فالحة قوى .. اضربوا بعض وبلاش نتكلم ..

وصاح محمد أبو سويلم بضيق واستصغار :

ـ خلصونا بقى .. اقعد ياعبد الهادى .. أقعد يامحمد أفندى .. واهدأ ..

وأكمل الشيخ يوسف وهو يجلس محمد أفندى :

ـ ياسيدى ما كل مولودن ولد .. انت ولد وعبد الهادى ولد .. وأنا ولد .. وكل مولدن ولد .. ياسيدى حقك على ياسيدنا أنت وهوه .. يا اخويا اقعد بقى ..

وجلس عبد الهادى .. وانشغل بلف سيجارة بينما كان محمد افندى يقول وهو يهز المنشة :

ـ أى نعم .. لكن مايقولش يا ولد .. محدش يقول لى يا ولد ..

واشعل عبد الهادى سيجارته .. وتفل قطعة صغيرة من التبغ وهو يقول بصوت هادىء كاظما غيظه :

ـ طيب حقك على يا محمد أفندى .. حقك على .. ما تطولش فى الكلام بقى ..

وتمتم محمد أبو سويلم :

ـ بس بقى ياعبد الهادى .. العقل زينـــة .. أدى انت انحقيت وخلصنا .. بس يامحمد أفندى ..

وعاد الشيخ الشناوى من صلاة المغرب .. ووراءه بعض الرجال .. واتخذوا مكانهم على المصطبة ..

وبدأت الأصوات تختلط وهم يبحثون عن طريقة .. يدفعون بهــا قضاء الحكومة النازل بهم على غير ميعاد ..

واقترح أحد الرجال أن يذهبوا الى العمدة .. فضج الشيخ يوسف:

ـ دا وحى الجامع .. هبط عليــك الوحى بكده فى الجامع .. الله يحب مقامك يا شيخ .. عمدة ايه يا راجل ؟!.. وحياة النبى دا ما يركب دمنى بكوز درة .. عمدة .. عمدة قال .. بعد اللى عملوا فينا ؟؟ بقى دى بلد !؟.

وقاطعه محمد أبو سويلم قائلا :

ـ العمدة .. ماهى كل المصايب جاية من تحت راس النيلة .

وتاذى كثير من الجالسين .. وادهشهم ان يتحدث الشيخ يوسف ومحمد أبو سويلم عن العمدة بهذا الأسلوب وهز الشيخ الشناوى رأسه مستنكرا هده اللهجة .. ولكنه لم يعترض صراحة .

وقال عبد الهادى يقطع الهمهمة :

ـ احنا مش اللى بيتكلوا على عمدة .. عمدة ايه ؟ ..

وكان علوانى قد أقبل يسأل عن الشيخ يوسف ومال على أذنه .. فصاح فيه الشيخ يوسف :

ـ الدكانة مقفولة دلوقتى .. استنى بعد صلاة العشا .. ساعتهــا اشوف رأى وياك .. هو انت ما بتلحقش تلهف الشاى والسكر ..

وجلس علوانى على قدميه دون أن يمس جســده الأرض .. فى مواجهة المصطبة وأرخى يديه على ركبتيه الى جوار أنفار جلسوا مثله ..

وقال متمتما بسخط :

ـ النفر منا مافيهشى الا لســان !.. مافيش قلب ولا رحمــة ولا حنيه ؟!.. يعنى مافيش رحمة ؟؟.

وعاد محمد أبو سويلم يؤكد للنــاس انه لن يستشير العمدة ولن يشركه مع رجال القرية .. فى أمر يهم القــرية .. فهذا العمدة يعرف ان الحكومة أمرت بانقاص مواعيد الرى من عشرة أيام الى خمسة ... ولكنه لم يقل لاحد فى القرية .. ولم يطلق خادم الجامع بطبلة ... لينبه القرية .. كما تعود فى مثل هذه الحالات ... ولم يخطر حتى الشيخ الشناوى .. وكل هذا لكى تفاجأ القرية ـ وهى تخالف أوامر الحكومة ـ فيحكم على رجال فيها بالغرامة .. رجال يعينهم هو ..

وأكمل الشيخ يوسف قائلا ان هذا العمدة هو الذى ساعد الحــكومة فى الانتخابات بعد أن قاطعتها الدنيا كلها .. وكان يكتب بنفســـه الأسماء كما يريد ، وخدع بعض الرجال وقال لهم بثقة ان دستور حكومة الشعب سيجلب معه البركات .. فاذا بالدستور الجديد يحرم القرية من البقالة المفتخرة .. ويجعل أهلها يرهنون الأرض من الفقر ، ويسمــح للحكومة بان تضع يدها على أرض الفلاحين باسم الحجز من أجل الضرائب المتاخرة .. وأخيرا .. اذا بهذا الدستور يحرم القرية من ماء الرى ..

وتدخل علوانى متملقا .. وصاح :

ـ يا سلام على كلامك اللى كله حكم يابا الشيخ يوسف ..

وقطب الشيخ يوسف محاولا أن يخفى اغتباطه وهمهم :

ـ أم ...

وساد الصمت ..

وبعد قليل وضع محمد أفندى المنشة على حجره .. ورفع راحتـه قائلا انه وجد الفكرة الصائبة ..

وتنحنح قليلا وبصق على الأرض .. وهوت بصقته الى جوار قدم أحد الفـلاحين ثم أخرج منديلا أبيض حال لونه فى الزهرة الثقيلة .. ومسح فمه .. وهز رأسه ..

واقترح محمد أفندى أن يكتب عريضة الى وزير الأشغال وقال ان محمود بك يستطيع أن يحملها اليه فهو من معارفه .. وربما استطاع أن يقابل بها رئيس الحكومة اسماعيل صدقى نفسه ..

واعترض محمد أبو سويلم على كتابة عريضة الى الحكومة .. وقال ان التجربة علمته ان الحكومة تخاف ولا تختشى ..

فحاول محمد أفندى أن يشرح فكرته من العريضة ولكن محمـد أبو سويلم صاح مقاطعا :

ـ خلى الحكومة تقول ياجدع .. خليهم يقولوا .. مش نقصوا مواعيد الرى .. حاضر .. خليهم يقولوا بس .. واللى فى القلب فى القلب.. خليهم يتكلموا على كيفهم واحنا نروى على كيفنا ..

ورد محمد أفندى أنه لا مانع أن تروى القرية كما تشاء دون أن تحفل بكلام الحكومة .. ولكن كتابة عريضة بلهجة شديدة مفيد جدا لأنه يهز الحكومة .. وربما عدلت عن رأيها الجديد فى مواعيد الرى ..

واهتزت الرؤوس لهذه الفكرة .. وأبدى عبد الهادى طربه الشديد .. وقال لمحمد أفندى متحمسا كأنه يسترضيه .. وقد فاضت نفسـه بالراحة والحماس :

ـ قوم يا محمد أفندى اكتبها على طول .. قوم اكتبها وهاتها لنا نختم ونبصم عليها .. كده التساريف ولا لا ياجدع .. وحط فيهـا كلمتين من اللى بتقولوهم لبعض يا خوجات المدرسة .. قول فيهـا . لا سيما .. وعندما .. وقبلما . هه .. وحط فيها حاجات من اللى قريتها لنا مرة فى جريدة الجهاد ..

ولكن علوانى وقف معترضا :

ـ طب وعم الشيخ يوسف ماله ؟ ماهو عارف الكلام اللى يعجبك ده ياعبد الهادى وعارف آكتر منه كمان .. ما يكتبها .. اكتبها انت ياعم الشيخ .. وتلم لك من داير الناحية قيمة ريال ولا تلات برايز .. أتعاب كتابة العريضه ..

وابتسم عبد الهادى قائلا لعلوانى ضاحكا .. وقد فهم نوع الرشوة التى يريد تقديمها للشيخ يوسف :

ـ يا شيخ العرب .. يا جدع .. اطلع مالدره ، وخد لك قرقرة .. الشـيخ يوسف مستغنى .. بس حل عنه انت .. أهو محمد أفنـدى حايكتبها خدمه للبلد .

ولكن محمد أبو سويلم قال بهدوء :

ـ والشيخ الشنـاوى مايكتبهاش ليه ؟.. يحط لنا فيهـا آيتين نستبرك بيهم .. يمكن يجيبوا داغ الحكومة ..

فاعترض عبد الهادى مازحا بعبث :

ـ يه .. سيدنا دا بقى حيحط لنا فيها النار والحساب والعقاب .. تعند الحكومة وتحوش الميه كمان وكمان .. وتقول طب خللى الملايكة بتوع سيدنا تنزل لهم الميه من السماء ..

فاضطرب الشيخ الشناوى واهتز كرشه وصدغاه .. ورفع عصـاه الغليظة القصيرة .. وانهال على عبد الهادى يشتمه ويتهدده بعـذاب اليم ..

وكان عبد الهادى وكل شباب القرية .. قد تعودوا أن يتلقوا على رؤوسهم باسمين كل شتائم الشيخ ووعيده فى بعض الأحايين ..

ووقف الشيخ الشناوى ومحمد أبو سويلم يجذبه .. وعبد الهادى يضحك خلسة .. واستمر الشيخ يقول :

ـ وبتدحك كمان .. يا ضلالى .. يا قليـل الدين .. يا منجوس .. بتتمسخر على الملايكة .. بقى لا بتصلى .. ولا حتى تلم لسانك عن الملكوت الأعلى .. دا انت حتى بطلت الجمعة .. دانا بقالى تلات جمع ماشفتكش فى الصلاة ..

فقال عبد الهادى وهو مايزال يضحك :

ـ ندرن على ياسيدنا والندر أمانة ان العريضة دى فلحت ورجعـوا لنا المية تانى زى ما كانت لاعمل مولد لاهل الله يا شيخ .. مبسوط بقى .. والله لاقلب لك فيه جدى .. مش بتحب لحمة اللبلوب .. خلى أهل الله ياكلوا وينبسطوا .. وانت كمان تاكل وتنبسط ..

وهدأ الشيخ قليلا وبدأت الابتسامة تتسلل الى وجهه الملىء الأشيب .. فقال وهو يقعد :

ـ الله يجازيك ياشيخ .. طب اقلب لنا خروف ..

ـ خرواف .. هه .. زى بعضـه .. بس يرجعوا لنـا الميه زى ما كانت ..

ــ طب الفاتحة على كده يا عبد الهادى قدام الرجالة ··
وقرأ عبد الهادى الفاتحة بين راحتيه ·· وعندما انتهى منهـــا مسح وجهه براحتيه تماما كما فعل سيدنا ·· والآخرون ··

قال محمد أفندى بهدوء :

ــ خلاص بقى حا أكتب أنا العريضة ·· حا اكتبها مقنعة ·· تجمع بين الرجاء الهـــادىء والاستنكار الصـــارخ ·· حا اكتبها بأســـلوب المنفلوطى ··

وبهت الناس وهم يسمعونه ·· كلهم حتى عبد الهادى ·· وتهامسوا عن هذا المنفلوطى ، وهذا الأسلوب من يكون ؟! · وماذا يكون ··

ومحمد افندى رجل هادىء الصوت ·· قصير ·· نحيل ·· رقيق الجسم ·· طويل الرقبة ·· يحلق ذقنه بانتظام ، ونصف شاربه بطريقة لا يفعلها أحد غيره فى القرية ··

وهو يقرأ الصحف أحيانا ·· ويقرأ لرجال القرية بعض المقالات التى تعجبه بصوته الهادىء العميق ·

له جلباب نظيف على الدوام ، مخطط ، واضح الخطوط ·· وشبشبه الأصفر فاقع اللون ·· والطاقية المربعة البيضاء على رأسه تميل عن منبت شعره الطويل المنسق : هو الشعر الطويل الوحيـــد المنسق بين رجال القرية ··

وكان محمد أفندى يملأ وجهه بالعطر ·· ويهتم باختيار أنواعـــه الفاقعة من عاصمة الاقليم ·· ويضع فى جيبه زجاجة صغيرة محكمـــة الاغلاق نفاذة الرائحة ··

واخذ محمد أفندى يتأمل وقع الكلمات التى قالها فى الوجوه المحملقة المتعجبة ··

تم تساءل ان كان يبدأ الآن بكتابة العريضة ·· فوافق الجميع ··

وقام محمد افندى الى بيته ليحضر الورق ··

وقال عبد الهادى :

ــ قوم بقى يا شيخ يوسف هات لنا الريشة والدواية ··

وعندما عاد محمد أفنـــدى والشيخ يوسف بأدوات الكتابة ·· كان محمد أبو سويلم قد انتقل الى داخل الدار ·· وأمسك بنفسه اللمبــــة رقم عشرة ·· التى لا يوقدها الا فى المناسبات الكبرى ··

وقف محمد أبو سويلم باللمبــــة على رأس محمد أفندى الذى كان يجلس وحده على دكة خشبية فرشت بحصير مزركش ·· وبقية الرجال يقفون أمامه ·· وهو يقرأ كل كلمة يكتبها ·· وقد اســـند الورقة الى ركبته والمحبرة بيد احد الرجال الواقفين أمامه ··

وعندما انتهت العريضة قرأها محمد أفندى كلها كلمة بعد كلمة ·· وتوقف مزهوا وهو ينطق بعض الكلمات ·· ونظر طويلا فى وجـــوه سامعيه ·· وشرح الكلمات التى اعترض عليها بعض الرجال الواقفين ·

وبعد طلب الشيخ الشناوى من الناس الذين لا يفهمون أن يسكتوا ·· وسكتوا حتى انتهى محمد أفندى من قراءة العريضة كلها ··

ثم قام الشيخ الشناوى وخرج من الدار · واخذ حفنة من تراب الأرض ·· ووضعها على العريضة ·· التى مددها محمد أفنـــدى على ركبته بحرص ··

وعندما تشبع المداد بالتراب ·· وجف ·· قال محمد افندى ·

ــ خلاص يارجاله ··

فقال محمد أبو سويلم بظفر :

ــ خلاص العريضة يا جدعان ··

وأمسك محمد أفندى بهـــا ·· وبدأ الشيخ يوسف يوقع فى بطء واحترام ، واستعاذ الشيخ الشناوى من الشـــيطان ، ودعا بالبركة ·· ومال على ركبة محمد أفندى ووقع على العريضة وهو يكرر الدعاء ·

واخرج الشيخ يوسف من جيبه علبة بها حبر جاف وفتحها بعناية·· وطلب من الموجودين أن يحضروا اختامهم واصابعهم ·· وأخذ هو بنفســه يمسك كل أصبع أو خاتم ويضعه على العريضة فى صرامة ·· وســـط الضجيج الضاحك ··

وعندما انتهى النـــاس من توقيع العريضة وبصمها طلب الشـــيخ الشناوى منهم أن يقرأوا الفاتحة للبركة فقرأوها ··

وأمسك محمد أفندى العريضة وطواها فى عناية ·· ثم غلفها بورقة أخرى ·· وهم بالانصراف وهو يقول انه سيذهب بها الى محمود بك فى الصباح الباكر ·· ولكن يجب أولا أن يحدث العمدة فربما ذهب معه··

واعترض محمد أبو سويلم طويلا وناقشه الشيخ الشناوى وبعض الرجال واختلطت أصواتهم وصمم محمد أفندى على أن يذهب الى العمدة بالعريضة ويعرضها عليه ·· وأخيرا سكت محمد أبو سويلم مذعنا ·

وتحرك محمد أفندى الى الباب بالعريضة ·· وكانت خضرة تقف مع وصيفة ونساء قليلات فزغردت خضرة وبدأت تغنى :

مين يعـــــاندنا واحنا السبوعة
وسيوفنـــا دهب واحنا السبوعة

وصاح محمد ابو سويلم فيها ينهرها فسكتت ·· وسط تفـــاؤل الرجال بنجاح العريضة ··

ومشى محمد أفندى الى باب الدار وهو يقول بصوت مرتفع انه الآن ذاهب الى العمدة وغدا من الفجر ·· سيكون عند محمود بك ··

فقال محمد أبو سويلم :

ـ بس اياك العمدة ما يعملش فيها ملعوب ··

وسكت قليلا ثم أكمل :

ـ حاكم هو ابو الملاعيب ··

فقال الشيخ يوسف :

ـ ملعوب ؟! مايمكنش ·· مايمكنش أبدا ·· ودى تبقى بلد ايه دى بقى ··

وبدأ الرجال يخرجون وراء محمد أفندى ··

ولاحظت خضرة أن وصيفة تابعت محمد أفندى بنظـرة اعجـاب ·· فهمست فى أذنها بكلمات ·· أضرمت فى وجهها النار ··

وخرج عبد الهـادى فاضطربت وصيفة ·· والقى عليهـا التحية فى نظرة سريعة مليئة ·

وازداد اضطرابها ··

وعادت خضرة تهمس فى أذنها ··

فغاض لون وصيفة وابتسمت ··

كانت هذه هى أول مرة تشعر فيها وصيفة بشىء مجهول يزحف الى قلبها ، ويكاد يعصره ··

وهمست لها خضرة وهى تتحسس قلبها متعاتبة :

ـ عبد الهادى !··

فتنهدت وصيفة وسكتت ، فقالت خضرة :

ـ يبقى سى محمد !·· يبقى محمد أفندى ·· عبد الهادى وللا محمد أفندى ·· مشى تقولى ؟··

فانتبهت وصيفة على نفسها فجـأة ·· وتضرم وجههـا ·· ونهرت خضرة بعنف ·· وارتعش بدنها ورأسها فى حيرة وتلاحقت أنفاسـها وكادت تخنقها الدموع ··

٦

مر اسبوع كامل على كتابة العريضة ، والقرية تنتظر ·· وبعد صلاة الجمعة ، رفع الشيخ الشناوى من على أرض المسجد كتابه العتيق الأصفر الذى يقرأ منه كل جمعة خطبة ، ودسه فى جيبه ·· ووقف فى مكانه من المسجد عند القبلة وطلب من الناس أن ينتظروا ··

وسار فى خطوات بطيئة ·· وهو يمسح كرشه الضخم ولحيتـــه الشيباء تهتز على وقع تمتمات التسبيح ·· حتى بلغ الدكة التى يجلس عليها مقرىء الجمعة فى قلب المسجد ·

ووقف الشيخ الشناوى على دكته بقامته المديدة وجلبابه النظيف التى لا يلبسها الا كل جمعة ، وأمامه على الحصير الممزق المتآكل جلس الفلاحون: بعضهم يحك القدم بالأظافر والآخرون يمدون الرؤوس متطلعين ·

وقال الشيخ الشناوى ان الله ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ··

وسكت الفلاحون ·

انهم منذ أيام ينتظرون هذا الماء بالتحديد ·· ولم يحـدث بعد شىء على الاطلاق يطفىء الأرض المسكينة من العطش : لا أمر من الحكومة ، ولا معجزة من السماء ·

واستمر الشيخ الشناوى يلوح بيديه ويتحدث عن حكمة الله وعن لعنته التى أنزلها على القرية لأنها تعصاه فلا تصلى ·· كما أنزل لعنته على عاد وثمود ·

وفى كل مقطع قبل أن يستريح كان يذكر الفلاحين بأن الله قادر على ان ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض ··

وتحـرك أحد الفلاحين فى ضجر وتســاءل آخر فى همس ·· ماذا يعنيهم الآن من عاد وثمود ·· ان كل ما يعنى القرية هو الماء وما تصنعه حكومة حزب الشعب بالأرض ·

وتململ رجل فى آخر الجامع ووقف قائلا :

ـ ده كلام ايه ده ياسيدنا ؟ بقى يعنى هو ربنا حاينزل النطرة فى

الصيف علشان خاطرك ؟! وهوه ربنا يعني كان هوه اللي حاش الميه ؟ هوه خلاص مفيش حد فسدان غير بلدنا .

وهاج سيدنا ومد يده في الفراغ .. كأنه يبحث عن عصاه .. ولم تكن معه عصاه بالطبع ، فأمر الجالسين بأن يخرجوا هذا الولد الكافر الذى ركبه ابليس فوجوده في الجامع نجاسة ولم يتحرك أحد من الفلاحين ..وقام الفلاح الشاب وحده وهو يكتم ضحكة قائلا :

ـ ياسيدى بركة يا جامع .. أنا كان حاينوبني ايه من الوعظ ده غير قطع الرزق ؟ طب دا أنا مستأجز من البيه قيمة ما اهف الركعتين وارجع على طول ..

وأسرع خارج الجامع وركض الى عزبة محمود بك .

أما الشيخ الشناوى فقد اشتد حنقه وصاح :

ـ ياك تتهف بالمرزبة في جهنم وبئس المصير .

ثم تتابعت من فمه آيات العذاب والنار وأحاديث لا نهاية لها تصف الجحيم وحكايات عن فرعون وموسى ، كان يروى الأحاديث بلغة أهل القرية ولا يعنى أبدا بأن يقول الكلمات الصحيحة التى أوردتها كتب الأحاديث . وكان مولعا بقصص موسى وفرعون وعاد وثمود يرويها كما لو انها كانت قد وقعت فى القرية تماما بنفس اللغة ونفس الاشارات .

وتململ عبد الهادى وهو يسمع .

وانسحب في هدوء فازداد غضب الشيخ ولم يقل شيئا .. لم يكن عبد الهادى خالى البال ولم يكن لديه وقت للصلاة أكثر مما راح في المسجد .

وعندما التقى بالشيخ الشناوى بعد صلاة العشاء على مصطبة محمد أبو سويلم كما تعود عاتبه سيدنا لأنه ترك الجامع قبل أن ينتهى الوعظ ولم يجبه عبد الهادى ولم يحاول استرضاءه .

وعاد سيدنا على المصطبة يكرر ما قاله في الجامع وما قاله على نفس المصطبة منذ أيام :

ـ ان اللعنة تحل على القرية لأنها لا تصلى وتعصى أوامر الله .

على ان عبد الهادى لم يحاول أن يناقشه .

لقد تعود أن يسمع نفس الحكايات والأحاديث في كل ليلة وهو صامت ..

وعبد الهادى مشغول بمسألة الماء حقا .. ولكنه قد بدأ يشغل بشيء آخر جديد ..! لاحظ ان خضرة التى تعيش في القرية بلا ارض ولا أمل ولا سمعة والتى تستطيع أن تقول أى كلام وتصنع أى شيء .. خضرة

هذه الضائعة قد بدأت تتردد على منزل محمد أبو سويلم أكثر مما ينبغى وتهمس في اذن وصيفة وتطلق ضحكات يسمعها الرجال الجالسون على المصطبة ..

وعبد الهادى يعرف أن محمد أفندى يستعمل خضرة أحيانا لتدبر له لقاء مع بعض الفتيات والنساء المخبآت .

وقد لاحظ عبد الهادى أيضا أن وصيفة تحرص على أن تحمل القهوة بنفسها الى الرجال حين يكون محمد أفندى جالسا معهم أما عندما لا يكون محمد أفندى موجودا فهى ترسل خضرة بصينية القهوة .. أو تنقر على الصينية بفنجان فيقوم أبوها ويعود بالقهوة ، ومع ذلك فعبد الهادى ليس فارغ القلب تماما ليراقب هذه الأشياء ويتابع ما يمكن أن يقع بين وصيفة وخضرة ومحمد أفندى .. ان مسألة الماء الذى قطعته الحكومة عن القرية تطارد فكره بالنهار وبالليل .

وكان عبد الهادى يسمع ما يقوله الشيخ الشناوى ويعجب .

من الحق أنه لم يحاول على الاطلاق أن يناقشه ولكنه كان يفكر دائما في كل ما يقوله سيدنا .

ان الشيخ الشناوى هذا يتحدث بلا انقطاع عن اللعنة التى حلت بالقرية لأن أهلها لا يصلون ، والشيخ الشناوى أحيانا يتحدث في اجلال عن أمر الله الذى قضى بأن تحرم القرية من الماء خمسة أيام لينعم به الباشا قريب محمود بك جزاء وفاقا لأنه يؤتى الزكاة والقرية تمنع الزكاة ..

ولكن الباشا لا يصلى تماما كالقرية .. ولئن كان يخرج الزكاة فما ذلك الا لأنه يملك الكثير ، أما القرية فكم من الرجال فيها يملك ما يدفعه الزكاة ؟! انها ليست كالقرى البعيدة التى سمع عنها عبد الهادى .. هذه القرى التى لا يملك أهلها من أرضها شيئا وانما يشتغلون أنفارا لحساب مالك الأرض .. الذى يملك أحيانا أراضى عدة قرى ..

ومع ذلك فان أهل قرية عبد الهادى لا يملكون ما يدفعونه للزكاة .. وفى تلك القرى البعيدة التى سمع عنها لا يدفع صاحب الأرض زكاة ولا يؤدى صلاة .. ومع ذلك فالماء يجرى في أرضه والحبوب تتكدس في مخازنه وغضب الله لا يعرف طريقا اليه .. وهذا الرجل يسرق من الأنفار ويشرب الخمر في نهار رمضان .. ويغتصب الفتاة التى تعجبه ويظل بعد كل هذا بعيدا عن غضب الله .. ولا تحجز الحكومة على أرضه وتغدق عليه الماء ..

ظل عبد الهادى يفكر في كل هذا .. ويعجب لهذا الذى يقوله سيدنا الشيخ الشناوى .

ولقد همس عبد الهادى لنفسه ذات ليلة قبل النوم بأن الشيخ الشناوى لو كان يملك أرضا فى القرية لما قال هذا الكلام ··

لو أن للشيخ أرضا يختلط عرقه بترابها ·· ولو انه رآها تتشقق من الجفاف تحت عينيه بعد أن شقى فيها ·· ورأى أذرته الصغيرة الغضة تذوى كأطفال يموتون ·· لو عرف الشيخ الشناوى كل هذا ·· لسكت·

لو كان سيدنا يملك قيراطا واحدا على الأقل ·· ولو أنه أعمل فيه الفأس ، وانحنى عليه وحفر له القنوات ·· لما اعتقد أن أمر الله هو الذى حرم القرية من الماء لينعم به الباشا ولروى أحاديث أخرى ·· ولآمن ان الحكومة ـ لا الله ـ هى التى تحرم أرض الفلاحين من الماء وتميت أعواد الذرة الغضة ·· ولتأكد ان الحكومة وحدها ـ لا الله ـ هى التى تصنع المصائب ·

ان سيدنا هو الآخر كخضرة : لديه شىء يبيعه للذين يملكون المال والجاه والكلمة ·· ولا يعنيه الا أن يبيع الشىء الذى يملكه ·· ولتهلك بعد هذا أرض القرية ·

ان الذين يملكون أرضا فى القرية يضعون أيديهم فى النار ·· أما سيدنا فهو كخضرة يده فى الماء ·· ولهذا فهو يقول كما يشاء ولو كان له أرض لالتهى !·

وهكذا كان عبد الهادى يفكر فيما يقوله الشيخ الشناوى والحت عليه أفكاره هذه عن الشيخ ـ ويوما بعد يوم ـ لم يعد يحتمل أن يسمع من الشيخ حديثا عن الجنة والنار والصلاة واللعنة والعقاب والزكاة والزنا والخراب والجزاء الوفاق ··

كان كلما استعاد وحده كلام سيدنا تخايلت أمامه صور فاجعة من الأرض الملتهبة من العطش والأذرة التى اصفرت ، ويزحف على صدره كابوس ثقيل ·· وتملأ الأفكار المخيفة رأسه وترهق منه الأعصاب ··

ومع ذلك فقد ظل عبد الهادى يجلس مع الشيخ الشناوى بعد كل عشاء على مصطبة محمد أبو سويلم ومعهما محمد أفندى ، وكان عبدالهادى يختلس النظرات الى وصيفة حينما تقدم لهم القهوة ·· نظرات فيها القلق والبحث عن الطمأنينة ، والحلم الواسع بأن يزرع أرضه فى أمان ويملك زوجة وأولادا ··

وذات ليلة قدمت وصيفة صينية القهوة الى أبيها ليوزع القهوة على الرجال فأسرع محمد أفندى فى خفة رشيقة وتناول منها الصينية وعطره يفح أمام المصطبة ·

وابتسم عبد الهادى ·· وسأل محمد أفندى فى صوت مرتفع واضح الضيق عن مصير العريضة ، وعيناه تلمعان فى مكر ··

وسكت محمد أفندى قليلا قبل أن يقول انه سمع من العمدة أن محمود بك ثار عندما قرأها واتهم لغتها بقلة التهذيب ووعد البيه أن يكتب بنفسه عريضة أخرى ·· فقاطعه عبد الهادى بصوت أكثر ارتفاعا ·

ـ ما احنا عارفين ده كله ·· أنا باسأل عن العريظة اللى حيكتبها محمود بك ·· ما احنا عارفين حكاية العريظة الأولانية ياسى محمد ·· وعارفين ان محمود بك قال ازاى الفلاحين يقولوا كلام زى ده ع الحكومة ·· وقال كمان مين ابن الحمار اللى كتب العريظة ؟ ·· عارفين يا أخويا عارفين ·· وراسيين قوى على الدور كله ··

وامتقع وجه محمد أفندى واختلج ··

كان صوت عبد الهادى يصل الى داخل دار محمد أبو سويلم حين عادت وصيفة لتجلس بثوبها الملون على قالب الطوب الى جوار خضرة وتصغى الى همساتها المتلاحقة العابثة ·

واحس عبد الهادى بحرج محمد افندى فامتلأ بنشوة غامضة وهو يراه مرتبكا أمامه ·

فعبد الهادى قد فطن الى أن محمد افندى ربما كان قد أرسل خضرة الى وصيفة لتقودها اليه ·· وفضل عبد الهادى أن لا يتكلم وظل يراقب وصيفة وكل شىء من بعيد ·

لم يتح عبد الهادى لوصيفة أن تخرج من دارها فى الليل ·· فقد تعود أن يظل جالسا على المصطبة بعد أن ينصرف الشيخ الشناوى وحتى بعد أن ينصرف محمد أفندى الى أن يغلق محمد أبو سويلم باب داره عامه هو وابنته وزوجته ·

وشعر عبد الهادى أن محمد أفندى يوشك أن يتزايل من الخجل والضيق فهجم مزمجرا فى ضحكة باردة :

ـ يعنى لسه ماعرفتش ان محمود بك قال عليك ابن الحمار . . والا يعنى ماعرفتش . . ده العمدة حكى الدنيا كلها . . والست ماحكى لك كمان والا ايه ؟·· يامحمد افندى ده أنا فاهمك قوى ·· فاهمك قوى يا أخويه وفاهم الدور ·· أنا فاهم الدور ·· فاهم قوى وحياة النبى ·· قوى قوى ·· حاكم المسالة طينت ··

واكمل عبد الهادى لنفسه هامسا :

ـ دول ماكانوش أربعه جنيه ·· بيقبضهم كل شهر ·· وبيدوس بيهم على الدنيا . . ابن الحمار ده كمان . .

وقبل أن يجيب محمد أفندى ·· وقبل أن ينتهى عبد الهادى من همسه لنفسه تدخل الشيخ الشناوى فى الحديث ·

وعاد الشيخ الشناوى يقول نفس الكلام الذى ما برح يقوله عن اللعنة والحساب والجزاء الوفاق ..

وانفجر عبد الهادى :

ـ دهده ياسيدنا ؟ ما بلا وجع دماغ بقى .. قلقتنا من الكلام ده .. هو ربنا كان هو اللى حاش الميه عنا .. والا المهندز والحكومة هم اللى حاشوها ؟ .. طب ماهى بتجرى فى أرض الباشا زى الحلاوة .. اطلع كده لحد المركز وانت تشوف أرض الباشا على طول السكة بتروى بالراحة .. من غير ما يدور ساقية ولا يشقى بهيمة ولا يشغل وابور الميه .. هو ربنا مش فاضى الا لأذية بلدنا ؟.. اسكت .. اسكت .. بقى والنبى ياسيدنا .. قطعت سبحنا بالكلام بتاعك دا اللى لا بيودى ولا بيجيب .. حاكم انت بتمرح فى قته محلولة زى بغل الوسية .. لا مال ولا عتبة .. باكى على ايه كده ؟..

وانفجر الشيخ الشناوى يشتم عبد الهادى ويلعن قلة حيائه ويتهمه بالكفر والمروق .. بينما ارتفع صوت محمد أبو سويلم :

ـ دهدى .. هيه .. ماتصلوا بينا على النبى يا جدعان .. وتقولوا لنا بس نعمل ايه ؟.. البيه محمود لا هو اللى خد العريظة وسافر بيها مصر .. ولا هو اللى كتب واحدة جديدة والذرة أهوه حايموت والحمد لله .. حانقعد كل مرة نخطف الميه ونستحمل رزالة شيخ البلد ؟ عايزينها تنحل قبل دور الميه الجاى .. والشيخ يوسف أهوه مرزى فى دكانه من يوم البيه ما هاج ع العريظة .. باين عليه خايف .. كانت شورته غايرة .. وشورتك ياسى محمد .. قلت لكم بلاش العمدة .. نطيت لى يامحمد أفندى انت والشيخ يوسف ، أقول لكم العمدة راح يعمل فيها ملعوب .. ده أبو الملاعب .. وأنا عارفه .. تقولوا لا مايمكنش أبدا .. آدى آخرتها .. ما قولك بقى ياسى محمد أفندى .. أديك طلعت ابن الحمار .. أهو قالوا عليك ابن الحمار .. ويا عالم .. يمكن العمدة هو اللى مطلعها من عنده . تلاقى العمدة الكهن هو اللى قايلها من عنده علشان يهزأك فى وسط البلد .

وسعل محمد أفندى واستكثر أن يقول العمدة عنه شيئا كهذا وبدأ يشرح سر غضب محمود بك على العريضة .. وأخذ محمد أفندى يقول أنه كتب العريضة بفصاحة وانه من فرط الفصاحة قال : « ان الفلاحين اذا قطعت عنهم خمسة أيام رى فانهم سيفترشون الغبراء ويلتحفون السماء » . وهذه الجملة من أساليب المنفلوطى البليغة .. غير أن محمود بك لم يفهمها كما يجب فاعتبر الجملة تحديا للحكومة واهانة لوزير الأشغال ولشعرا المنفلوطى ..

فاعترض محمد أبو سويلم :

ـ أساليب من ؟.. من ؟.. وايه اللى قالك تكتب بأساليب ؟.

واسترسل محمد أفندى يشرح ما دار بين العمدة ومحمود بك فقال ان محمود بك قذف بالعريضة فى وجه العمدة وشتمه لأنه يحمل ورقا فيه كلاما كهذا .. ثم تساءل ان كان الفلاح ينام على الأرض أم على السرير ، وهل يلتحف بلحاف ؟..

وعندما وصل محمد أفندى فى شرحه الى هذا المدى قاطعه عبد الهادى فى شماتة ساخرة :

ـ هى الغبراء دى اللى انت كتبتها فى العريضة .. يعنى الأرض؟.. يا عيشتك غبرا يا محمد أفندى .. طب على كده بقى .. ده محمود بيه له حق فى اللى قاله عنك .. ده انت تبقىصحيح كدهبقى .. زى ماقال محمود بيه .. هو الله يرحمه عم رضوان كان بينام عالسرير ، احنا بننام على سراير ياسى محمد يابو رضوان .. يابتاع لا سيما ..

وضحك محمد أبو سويلم وقال الشيخ الشناوى ضاحكا :

ـ جاتك الغم يا واد ياعبد الهادى فى طولة لسانك ..

ثم التفت الى محمد أفندى مستمرا فى ضحكاته وهو يحاول أن يصنع نكتا من القرآن :

ـ أيوه يامحمد أفندى صحيح .. هو احنا يعنى بننام على سراير .. على سرر مرفوعة .. والا على نمارق مبثوثة .. والا يمكن على أرائك مصفوفة ؟ داحنا نبقى فى الجنة بقى ..

وغمرت ضجة الضحكات زفرات الضيق التى أطلقها محمد أفندى فى صمت ..

وتحرك محمد أفندى واستدارت رأسه كأنما يريد أن يقتحم بعينه دار محمد أبو سويلم ليطمئن الى أن وصيفة لا تسمع .

وكانت وصيفة من داخل الدار تتابع أحاديث الرجال موزعة النفس ..

لقد روعها أن عبد الهادى ظل يلوح لمحمد أفندى بأنه يفهم الدور كأنما هو يعرف سرا خاصا مفزعا .. لا يريد أن يبوح به ..

وخشيت وصيفة أن تكون خضرة قد باحت لعبد الهادى بشىء ، وسألتها فأجابت خضرة مسرعة وهى تدق صدرها فى استنكار :

ـ ياحوستى ! ينقطع لسانى ان كنت قلت لعبد الهادى حاجه عن محمد أفندى والا حتى اسمه جه على لسانى .. وأنا بكلم عبد الهادى .. ان شاالله يارب ينقطع لسانى من اللغلوغة ان كنت قلت حاجة لعبدالهادى

.. ياحسرتي ياوصيفة دي تبقى فتنة والفتنة حرام .. دي الفتنة أشد من القتل ..

واطمأنت وصيفة الى ما قالته خضرة ..

وكانت خضرة تعطى نفسها حقا لفتيان القرية بأى ثمن يقدمونه حتى بخيارة طرية فى يوم حار ، وكانت تقوم بخدمات كثيرة لمحمد أفندى ولعبد الهادى مع أخريات .. ولكنها مع ذلك كانت تعرف أن الفتنة أشد من القتل وتحرص الى آخر حد على أسرار الفتيات والنساء اللواتى تتوسط عندهن لمحمد أفندى أو لغيره من شباب القرية ..

وفى الحق ان عبد الهادى هو الذى فطن وحده الى شىء مابين وصيفة ومحمد أفندى .. ربما لأنه احس بانصراف وصيفه .. واهتمامها المفاجىء بمحمد أفندى .. هذا الاهتمام الذى كان يتخذ مظهره دائما فى عنايتها بالقهوة وخروجها بالصينية الى الرجال حين يكون معهم محمد أفندى .. واستطاع عبد الهادى أن يخمن كل ما حدث ..

ادرك أن خضرة فهمت بممارستها للنساء والرجال ان وصيفة معجبة بمحمد أفندى . ويمكن أن يكون محمد أفندى حدثها عن وصيفة فكلمت هى وصيفة عنه فنهتها وصيفة عن الخوض فى حديث كهذا .. فمالت عليها خضرة وقالت لها كلمات مفضوحة صريحة عن علاقات الرجال والنساء ومست فى يسر كل الرغبة التى تعانيها وصيفة والاضطرام الذى تخفيه وراء ستار ثقيل من الحياء والخوف والجزع . ربما حدث هذا فتلعثمت وصيفة وهزتها المباغتة واضطربت وهى تجد روحها عارية تماما أمام خضرة فطردت خضرة من دارها .. غير أن محمد أفندى كان قد وعد خضرة بخمسة قروش لو انها نجحت فى تدبير خلوة بينه وبين وصيفة وأعطاها بالفعل قرشين كمقدم أتعاب . وعادت خضرة تحتال على وصيفة .. وما زالت بها تحدثها وتقلب دماغها حتى تعترف لها وصيفة بأنها تريد محمد أفندى ولكن فى الحلال .. وفى الحلال وحده .. فان عاز محمد أفندى الزواج منها فهى تحب أن تلقاه فى خلوة .. ولكنها تخاف من عبد الهادى ومن أبيها .. وقالت خضرة كل هذا لمحمد أفندى فبدأ يشعر بضيق من عبد الهادى ويفكر فى طريقة مأمونة للقاء وصيفة دون أن يتورط فى خطبتها من أبيها .

كان عبد الهادى قد أدرك هذا كله من معرفته الخاصة لطريقة خضرة مع نساء أخريات أرادهن هو .. ومن مراقبته الخاطفة لمحمد أفندى وخضرة ووصيفة .

وادرك عبد الهادى مع كل هذا ضيق محمد أفندى به وحرجه كلما

تكلم اليه ولم يكن عبد الهادى على أية حال يخفى عن محمد أفندى نفس المشاعر .

غير أنه فى تلك الأيام كانت القرية لا تستطيع أن تفكر طويلا فى شىء غير الماء الذى منعته الحكومة .

وفى تلك الأيام بالذات كان أهل القرية جميعا قد عرفوا ان مياه الأيام الخمسة أخذت منهم لتعطى لأرض الباشا القريبة من المركز عاصمة الاقليم .

ومع ذلك فقد كان الفلاحون يحاولون أن يرووا أرضهم من النهر الصغير أو الترعة الكبيرة بطريقة ما فى ساعات الظهر التى لا يمر خلالها رجال الرى متعرضين أثناء هذه المحاولات لاهانات شيخ البلد الذى أقسم لهم أنه بصفته « نائب الحكومة » سيوقعهم كلهم فى مصيبة ويكتب أسماءهم فى ورقة ويرسلها باشارة تليفونية الى المركز ليحبسهم الحكام هناك .

وعلى الرغم من هذه التهديدات فقد كان الفلاحون يضحكون ساخرين بنائب الحكومة ويسألونه لماذا تأخذ الحكومة منهم ماء النيل لتعطيه للباشا الذى يملك ماكينات تجلب الماء من بطن الأرض ! .

وفى تساؤل الفلاحين عن سر تصرف الحكومة معهم لم يصدقوا أبدا ما كان يقوله الشيخ الشناوى عن اللعنة والجزاء الوفاق ..

انهم يعرفون بتجاربهم وحدها ان الحكومات التى تقبل فتعتمد فى الانتخابات على رجال المركز واصوات الموتى والغائبين وتفصل عمدة من قرية وشيخ خفراء من أخرى وتنقل مدرسا من هنا وناظرا من هناك .. هذه الحكومات نفسها هى التى تمنح الباشا دائما كل ما يريد .. ولقد اوشكت احدى هذه الحكومات منذ اعوام قلائل أن تنتزع الأرض من ايدى الفلاحين فى عشرين قرية لتنشىء طريقا يمر بعزبة الباشا القريبة من المركز ويصل بين المركز وطريق القاهرة رغم ان الجسر هو الطريق الطبيعى القديم الذى تأتى منه عربات الحكام فى أيام الانتخابات وحينما تقع الجرائم ولو انهم اصلحوه لما نزعوا سهما واحدا من فلاح ..

الفلاحون يعرفون هذا كله .. ويعرفون أن الباشا قد بنى لنفسه قصرا كبيرا على حدود أرضه على الطريق الذى كان يريد شقه .. ولكن تلك الحكومة سقطت فلم يفكر احد فى شق هذا الطريق مرة أخرى .. وعاد التفكير القديم فى اصلاح طريق الجسر وانزوى الباشا ولم يكمل بناء قصره .. ولم تعد له كلمة فى القاهرة .. وانزوى قريبه محمود بك هو الآخر ولم تعد له كلمة عند الحكام فى المركز عاصمة الاقليم .

ويعرف الفلاحون مع كل هذا ان الحكومة التى لم يكن للباشا عليها كلام نافذ .. قد أجرت الانتخابات معتمدة عليهم هم الاحيـــاء لا على اصوات الموتى ورجال المركز .. ولكنها ذهبت لأن الانجليز ارادوا ان تذهب .

الفلاحون يعرفون هذا ويعرفون ان الحكومة الجـــديدة قد جاءت فصنعت حزب الشعب وبدأ العمدة يعد كشوف الانتخابات ويكتب أسماء الأموات والغائبين عن القرية ويحشد الرجال بالقوة وعلى الرغم من ان القرية قاطعت الانتخابات فقد اصبح لها نائب هو الباشا .. واصـــبح من رجالها اعضاء فى لجنة الثلاثين التى كانت تختار النـــائب ورغم ان البلد كلها قاطعت الانتخابات ولم يدخلها الا حزب الحكومة والمنتفعـــين به ،فالحكومة تقول أنها تمثل مصر وان حزبها يمثل الشعب.. والفلاحون يعرفون ان الشيخ يوسف كان من بين الأعضاء الثلاثين ومع هذا فقـــد كان يسخط على العمدة فى النهار والليل ويسخط فى سره على البيه محمود وعلى الحكومة والنائب وحزب الشعب .. ولقـــــد ندم على اشتراكه فى الانتخابات وظل شهورا طوالا يشعر بالخجل وعاد يقف مع القرية .. وعندما امتنع عن دفع المال .. كما امتنع اهل القـــرية ، وحجزت الحكومة على بعض ما يملك .. اعلن سخطه وتعود ان يجلس فى دكانه ويشتم حزب الشعب والعمدة والباشا النائب والحـــكومة جميعا .. واخذ يعدد الفظائع والبشاعات التى ترتكبها الحكومة ..

وكان الفلاحون يدركون أنه فى غمار كل هذا فصل محمد أبوسويلم ـ الرجل الشهم ـ من مشيخة الخفراء .. ونقل الشيخ حســـونة خال محمد أفندى واصبح مدرسا فى آخر الدنيا .. بعد ان كان النـــاظر المحترم فى المدرسة الأولية بالقرية المجاورة .. بينما ارتفع صـــوت العمدة من جديد وعاد محمود بيه يزعق ويخبط فى الناس من يمـــين وشمال ويضرب الفلاحين بالكف والرجل ويرسل من لا يروقه من أهل القرى المجاورة الى المركز ليذوق العذاب ..

وما زالوا يذكرون أن رجالا من قرى أخرى مروا عليه فى عزبته الصغيرة وهم يركبون الحمير قائلين « دستور » دون أن ينزلوا فلم يقل لواحد منهم « دستورك معك » كما هى العادة وانما أرسلهم الى المركز واقام كل واحد منهم اياما فى الحبس حيث شرب بول الخيل بعد ان حلقوا له نصف شاربه وظل يضرب ويضرب .. ثم ما برح بعـــد ذلك يضرب .. حتى قال لهم كما طلبوا منه انه امرأة ..

كان الفلاحون يعرفون هذا .. ويعرفون ايضا ان الباشا قد شرع يتمم بناء قصره الكبير وبدأوا يتوقعون منذ انضم هذا الباشا لحـــزب



الشعب ان يشق الطريق الزراعى الذى يريده وان ينزع لأجل هـــذا الطريق ما بقى لهم الأرض .. الأرض التى هى عندهم كل الامس واليوم وكل الغد ..

وكان الفلاحون حين يتذكرون كيف بدأ الأمر بحرمانهم من الماء من اجل الباشا يهزون الرؤوس وفى النفـــوس منهم تختنق الحسرات وقلوبهم تخفق بالوجل وبخوف حزين قلق من المخبأ فى الغيب ..



٧

ظل الشيخ يوسف فى دكانه لايبرحه وكلما حاول بعض الفتيان أن يقفوا امامه نهرهم الشيخ يوسف .

حتى الأولاد الذين كانوا يلعبون أمام الدكان فى الفضاء كان الشيخ يوسف يضـيق بهم ويلعن آباءهم ويصـــرفهم ..

ولم يعد يحتمل ان يجلس احدهم على جذع الجميـزة الملقاة امام دكانه مستندة الى التراب المتراكم على مر السنوات .

كان الشيخ يوسف خجـلا من نفســه فقد عرف ان محمود بيـه مزق العريضة ..

وفى الحق انه مع خجله هذا كان مسرورا لأن محمود بك قال عن كاتب العريضة محمد أفندى ابن الحمار . لقد كان هو يشـعر فى أعماقه بأنه اجدر من محمد افندى بكتابة العـريضة فقـد درس فى الأزهر بضع سنين بينما لم يذهب محمد أفندى الى مصر ام الدنيـا اكثر من مرة .. لأنه درس فى عاصمة الاقليم وابوه – أبو محمـد افندى – لم ير مصر على الاطلاق .

وكان الشيخ يوسف يشعر بضيق هائل من محمد أفندى فهو منذ حين يلوح له بأن يتزوج من ابنته ولكن محمد افندى لا يهتم بهـذا الأمر .. ثم ان محمد افندى هذا قد اقرضه مرة عدة جنيهات ليواجه بها حاجات التجار الكبار فى عاصمة الاقليم .. ولم يشـأ محمد افندى أن يقرضه لله فى لله كما كان يريد الشيخ يوسف وانما صمم على ان يرتهن جزءا من أرضه . وبالفعل ترك له الشيخ يوسف حيازة الجزء الباقى من ارضه وركبها محمد أفندى بلا حياء ..

وسمع الشيخ يوسف رجالا فى القرية يهمسون بأن محمـد ابو سويلم كان على حق عندما تخوف من العمدة والاعيب العمـدة .. وسمعهم يلومونه هو ومحمد أفندى والشيخ الشناوى لانهم صمموا على ان يذهب العمدة بالعريضة الى محمود بك .. فمحمود بك لايمكن ان يسعى فى الغاء قرار لهندسة الرى صدر لفائدة ارض الباشا !.. فما مصلحته هو فى الغاء هذا القرار ؟ ان كان من اجل ارضـه التى



تقع فى زمام القرية فيمكن ان تروى على الرغم من قرار الهندسة .. وكذلك ارض العمدة والبركة فى كلمة محمود بك التى لا ترد ..

هكذا كان يتحدث الفلاحون ويرن كلامهم فى اذن الشـيخ يوسف فيملاه بالندم والحسرة والفلاحون يعرفون ان العمدة هو رجل محمـود بك ورجل حزب الشعب ..

والشيخ يوسف نفسه مقتنع بكل هذا .. وبكل مايقوله الفـلاحون .. ومع ذلك فلم يستطع أن يذهب ليلقى محمد أبو سويلم ويعترف له بغلطه .. لقد خاف أن تذله البلد كلها لهذه الغلطة ..

وذات مساء ذهب عبد الهادى للشيخ يوسف يسأله عن الخبـــر والسيرة وسر انقطاعه ..

وتردد الشيخ يوسف قبل أن يتكلم .. فقـــد كان علوانى اذ ذاك واقفا يحاول أن يشترى منه الشاى والسكر ..

ولكن الشيخ يوسف اعترف بأنه محســـور وان حسرته قوية .. وسكت قليلا .. ثم قال انه جر البلد الى مصيبة .. وانهم اخطـــأوا جميعا حتى اطمأنوا الى العمدة ومحمود بك .. ثم أقسم أن محمـــد أبو سويلم رجل مجرب يفهم ــ رغم انه لايقرا ــ أكثر من الذين قرأوا ..

وصمت قليلا ثم اكد ان قرار الهندسة لم يطبق على محمـــود بك بالطبع .. وان محمود بك لا يمكن أن يسعى الى الغاء قرار صدر من أجل الباشا .. تماما كما يقول الفلاحون ..

فقال عبد الهادى متحمسا :

ــ يا أخى اذا كنا احنا قدرنا ناخد شوية ميه لحقنا بهم الأرض .. وشيخ البلد أهه .. هاص له شوية واتخمد .. يبقى محمود بك والعمدة ما يقدروش .. بقى ده كلام يخش عليك يا شيخ يوســـف ؟.. دول ياخدوا الميه من عين الجن يا عم .. طب هى الهندزه رايحه تعمل ايه لمحمود بيه ؟.. قل لى كده .. ما تقول .. واهو محمود بيـه يدارى العمده والعمده راجله .. يا راجل ده من يوم الحكومة الغـــبرا دى ما حكمت البر .. ومحمود بيه تقولشى مدير المديرية .. جاب عربيـه بجوز خيل داير بها من العزبة للمركز ومن المركز للعـــزبة وقاعد لك مجعوص كده .. ركبه .. ركبه صحيحة .. ركبة ميتين فدان . مش تلاتين فدان عمى ..

ولكن الشيخ يوسف كان شاردا بعض الشىء ..

ولم يكد عبد الهادى ينتهى من حديثه حتى انقض الشيخ يوسف يقول وكأنه وجد طريقا للخلاص من ندمه:

ـ واحنا بس مشينا ليه ورا محمد افندى ابن الحمار ده ؟. ياراجل سيبك من ذوات الاربع دول .. ولو انهم من يوم ما جه صدقى بقوا ياخدوا اتنين جنيه مفيش غيرهم .. اسألنى انا اللى عارف .. سيبك من الأفندية .. كل الموظفين ماهياتهم قلت .. اللى كان بياخد ١٥ بعد ما يطفح الكوته فى التعليم ويتخرج من المدارس العليا بقى ياخد ١٢ مفيش غيرهم ..

وهز الشيخ يوسف راسه قليلا فى رضا عن الكلام الذى قاله ثم استمر يقول :

ـ الا قوللى .. محمد افندى جاب الفهم منين ؟.. من ابوه والا يعنى جاب الفهم من ابوه .. يا راجل والله ده ابوه قلبه انقطع من اكل المش والعيش الدرة لحد ما مات . وقال ايه جاى حضرته يشترى من عندى حلاوة طحينية .. يا سلام يا اولاد .. والله يا شيخ ده انا لو كملت فى الأزهر لكنت فقت عليه خالص يا جدع .. كنت بقيت لك مفتش عليه .. والا ناظر .. ده انا زملائى اللى جاوروا معاية وفلحوا كلهم دلوقت نظار ووعاظ ومفتشين ومدرسين فى الابتدائى الميرى .. قال محمد افندى .. قال .. يكتب عريضة واحنا نمشى وراه .. يا أخى قول له يروح يدور على بنت صايعة يدخل عليها بقرش ..

واهتز عبد الهادى الى اعماقه وتذكر كل المشاهد التى اختلسهامن خضرة وهى تستضحك مع وصيفة ..

ولم يقل عبد الهادى شيئا ..

ونظر طويلا الى الشيخ يوسف واخذ يرفع عينه من صدر الشيخ وراء بنك الدكان الى عمامته الصغيرة ذات الشال الابيض المتسخ .. ووجهه المقدد السقيم المتغضن الذى لا يبتسم وكان عليه غبار سفر طويل ..

وعاد الشيخ يوسف يقول :

ـ حاكم احنا بلد خايبة ..

وهز عبد الهادى راسه موافقا .. وشعر الشيخ يوسف أن عبد الهادى راض عنه وانه من الممكن ان يعود فيتحدث مع محمد ابو سويلم ويسمع منه محمد أبو سويلم وعبد الهادى والآخرون .. فطاب نفسا .. وابتسم ..

وشاع فى وجهه النحيل الأسمر المليء بالغضون سرور طاريء ومسح شاربه الرمادى الذى يغطى شفته العليا المتقوسة فى اشمئزاز دائم ..

وانتهز علوانى الفرصة وشجعته ابتسامة الشيخ يوسف فانفجر بعد طول الصمت ليقول وهو يلوح بذراعيه :

ـ يا سلام يا عم الشيخ يوسف .. كلامك حلو .. كله حكم .. بس يا خسارة .. يا ابا الشيخ يوسف لو كنت انت .. يعنى آه .. يا ابا الشيخ .. لو تبطل .. يعنى لو تخلينى ..

وقاطعه الشيخ يوسف ضاحكا قائلا لعلوانى ان المعاملة لا علاقة لها بكلامه الحلو ، هو لن يعطية الشاى والسكر على كل حال ما لم يدفع المتاخر عليه .. فالكلام نقرة .. والدفع نقرة ..

وضحك عبد الهادى واخرج قرشا رماه على البنك الذى كان الشيخ يوسف يقف امامه من داخل الدكان .. ثم ضرب عبد الهادى كتف علوانى بيده مطمئنا وقال للشيخ :

ـ ادى لشيخ العرب طلباته ..

ومضى الشيخ يوسف يفتح الادراج ليحضر لعلوانى الشاى والسكر بينما تهلل وجه علوانى وانبسطت نفسه واخذ يروى كيف اخذه مخدومه شيخ البلد وامره ان يسحب معه البندقية المقروطة ومرمفه على السواقى التى تدور خلسه . وبعد ان انتهى شيخ الخفراء من الطواف على سواقى الجسر امر الناس أن يوقفوها وشتم هدد .. ثم مضى الى الترعة الكبيرة يفتش .. وفى الطريق قال لعلوانى انه يرى الناس معذورين،وطلب منه آخر الأمر أن يذهب وحده ليقطع الترعة التى أجرت هندسة الرى الماء فيها لتسقى ارض محمود بك وحده ، فتمر المياه المثقلة بالطمى فى الترعة عبر ارض القرية دون أن يسمح للقرية بالرى منها .

وهنا انخفض صوت علوانى ثم اوشك ان يهمس وهو يروى كيف انتفض شيخ البلد حين طلب منه أن يذهب دون أن يراه احد فيقطع جسر الترعة حتى اذا ارتوت ارضه سدها كأنها لم تنقطع .

وهز الشيخ يوسف راسه وزفر وهو يسمع هذا الكلام ..

ولم يقل شيئا لبعض الوقت وظل يدير نظره بين عبد الهادى والفراغ ..

ثم رفع عمامته ذات الشال المتسخ وحك الشعرات الرمادية القصيرة فى مقدمة راسه وهو يقول :

ـ سامع يا عبد الهادى ؟ .. سامع .. شايف شيخ البلد بيعمل ايه ..

فاجاب عبد الهادى ساخرا فى مرارة :

ـ والا العمدة اللى بيفتح الترعة عينى عينك .. حاكم المية دى مية ابوه .. هو والبيه وارثينها ..

ولم يعلق الشيخ يوسف وانما وضع عمامته ونظر بعبوس الى رجل يقف وراء عبد الهادى وقال له بغضب ودهشة وخوف :

ــ عايز ايه يا وله .. لابس رسمى كده وجاى هنا تهبب ايه ! .. ايه يا واد يا عبد العاطى ..

والتفت عبد الهادى وراءه فوجد احد الخفراء يلبس طربوشنه الاسود الطويل وجلبابه الغامق ويقف مشدودا : البندقية على كتفه وقدماه عاريتان ..

ورفع الخفير وجهه . وعيناه تنظران فى غير شىء وطلب من الشيخ يوسف وعبد الهادى ان يكلما حضرة العمدة لأمر هام .

فقال عبد الهادى فى استخفاف :

ــ طب غور يا عبد العاطى .. غور انت ..

ولكن عبد العاطى لم يتحرك وظل يلح فى ثبات ورجاء ان يذهبا الى الدوار معه ليكلما حضرة العمدة ..

وتردد الشيخ يوسف قبل ان يجد كلاما ..

ولكنه قال آخر الأمر انه لا يستطيع ان يذهب الساعة ويترك الدكان .. غير انه بعد أن يغلقه سيذهب الى الدوار على الفور ..

ثم تساءل عما يريده العمدة .. فقال له الخفير عبد العاطى انه لا يعرف من الأمر شيئا .. وعاد يلح عليهما أن يذهبا الى الدوار ومع كل واحد ختمه .. ووقف كأنه مسمر أمام الدكان .

فصاح الشيخ يوسف مستنكرا :

ــ ختم ؟.. ختم ؟.. ايه ياعبد العاطى ؟.. ده انا قارى فى الازهر اكتر من العمدة بتاعك .. بقى دى بلد ؟ .. ثم تعالى هناقوللى يا وله .. هوه جنابه عايز الاختام ليه .. رايح يختم البلد على ايه؟..

وترك عبد الهادى دكان الشيخ يوسف ومضى فى صمت الى محمد ابو سويلم .

اما الشيخ يوسف فقد ظل يصفق بيديه متعجبا .. ويشتم الخفير .. بينما الخفير يلح عليه فى ان يذهب الى الدوار ..

وانصرف الخفير بعد قليل ، وبقى علوانى يسأل الشيخ يوسف عما يريده العمدة منه .. ويلمح له بخدمات يمكن أن يؤديها ليريح الشيخ يوسف من العمدة .. والشيخ يوسف صامت ترتفع يده الى عمامته فينحيها الى امام ثم الى خلف ويرفعها احيانا ليحك راسه ثم يعود فيضعها وهو صامت على الدوام .. وفى الحق ان الخفير عبد العاطى كان يعرف من الأمر شيئا ولكنه لم يكن يعرف الأمر كله ..

فقد مر رجال هندسة الرى فى منتصف الليلة البارحة فوجدوا آثار مياه فى القنوات الممتدة تحت بطن الجسر وتاكدوا ان الحقول

حديثة عهد بالرى فعادوا الى عاصمة الاقليم واتصلوا بالمركز .. ولم يكد يصبح الصباح حتى كان المركز يتصل بالعمدة فى التليفون وسمع العمدة كلاما قاسيا من المأمور بعد ان سمع من ملاحظ البوليس تعريضا صريحا بطراوته وليونته وأبيه وامه أيضا ..

وامتلأ العمدة بالحنق .. ولكنه حمد الله بينه وبين نفسه لان احدا لم يسمع ما قاله له الملاحظ او المأمور ..

كان العمدة رجلا أصفر صغير الجسد ، دقيق التكوين ، خفيض الصوت .. وكانت لحيته القصيرة بيضاء نظيفة .. تضفى مهابة خاصة على ما حفرته الشيخوخة فى وجهه .. وكانت الابتسامة تشيع دائما على محياه . حتى عندما يغضب .

والعمدة هو أحد الذين ذهبوا الى الازهر قبل ان يذهب اليه الشيخ يوسف بسنوات طوال واقاموا فى القاهرة حينا حتى اذا لحق بهم جيل آخر عادوا .. وتركوا احلامهم فى القاهرة المدينة الضخمة .. واقبلوا ــ فى هذه القرية أو تلك ــ على حياة تلهبها المطامع ولكن بلا احلام ..

ولم يكد العمدة يستريح من حمد الله لأن احدا لم يسمع شيئا من كلام المأمور او الملاحظ وبصفة خاصة الملاحظ حتى وصلته اشارة تليفونية فيها تنبيه الى وجوب مراعاة لائحة الرى الجديدة والى أنه سيكون مسئولا عن المخالفة فى المرة القادمة مالم يقدم أسماء الذين خالفوا .. وقام العمدة من فوره متحمسا ليذهب الى محمود بك فى عزبته المجاورة ليشكو له ملاحظ البوليس وليوسطه عند الحكام فى المركز فلا يحملونه مسئولية مخالفة القرية للوائح الرى .

ركب العمدة الى محمود بك ووراءه عبد العاطى الخفير المفضل .

وعندما عاد العمدة كان يدس فى جيبه ورقة ويضع فى قلبه رضا كبيرا ..

ان العمدة رجل يعرف كيف يعيش فى اى زمان .. ومنذ عين فى مكانه وهو ينحنى للحكام فى المركز وللذين يملكون الكلمة على هؤلاء الحاكمين .. ويسمع أى شىء وهو يبتسم ..

وكان هم العمدة كله هو أن ينفذ أوامر الحكومة مهما تكن .. اما ما يمكن ان يصيب القرية من هذه الاوامر فلم يكن يعنيه على الاطلاق .. فهو كما تعلم فى الأزهر يطيع أولى الأمر ويؤمن ان هذا من أركان الدين ..

ولئن طلبوا منه أن يسلمهم اهل القرية جميعا لضربهم بالرصاص لما تأخر لحظة .. ولقدمهم بنسائهم ورجالهم .. وضميره مطمئن الى انه ارضى ربه .. ولاانتظر من ربه بعد هذا أن يرضيه ..

وهكذا دفع بكثير من الفلاحين الى المركز ليعذبهم عندما قاطعوا انتخابات حكومة حزب الشعب وامتنعوا عن دفع ضريبة الارض .

وهكذا تسبب فى فصل محمد ابو سويلم من مشيخة الخفراء.. وكان العمدة فى عهد الحكومات التى تستخدم رجال المركز واصوات الموتى فى الانتخابات .. كان يعتمد على محمود بك ..

وفى عهد الحكومات الاخرى كان ينحنى لمحام كبير فى عاصمة الاقليم تنتخبه الدائرة نائبا عنها عندما يذهب الفلاحون الى الصناديق احرارا لا يسوقهم العساكر ولا يزيف ارادتهم احد .

وفى عهد الحكومات التى لا يعرف لها العمدة لونا بعد .. كان يعتمد على الله . وفى الحق أن العمدة حين وصلته أول اشارة لتحديد مواعيد الرى لم يسكت وانما ارسل عبد العاطى ليطوف على الذين يملكون ارضا ويبلغهم اوامر الهندسة .. غير ان عبد العاطى لم يعقل الأمر وظل يقلبه بينه وبين نفسه وقال للعمدة كذبا انه ابلغ الناس .. بينما مضى يؤكد لنفسه ان العمدة شاخ وخرف .. واصبح يقول كلاما غير معقول .. فقد أتعبته زوجته الشابة السمينة البيضاء ..

وحين رجع العمدة من عند محمود بك امر الخفراء ان يلبسوا الزى الرسمى وان يقفوا صفا واحدا فى الفناء المتسع امام سلالم الدوار واستعد الخفراء بالفعل ووضعوا الفوانيس الكبيرة ورشوا ارض الحوش بالماء وانتظروا العمدة حتى اذا فرغ من عشائه خرج عليهم بالجبة والقفطان والشال الشاهى والحذاء الأسود وكل هيئته التى يقابل بها الحكام .. ووقف العمدة على سلم الدوار ووراءه عبد العاطى ببندقيته وامامه الخفراء بالطرابيش السوداء الطويلة : البندقية على الكتف والاقدام الحافية تدب التراب المبلل بماء الرش ..

واخذ العمدة يشتم الخفراء لانهم لم يبلغوا أهل القرية اول اشارة حددت مواعيد الرى الجديدة .. ولاحظ ان عبد العاطى وراءه يكرر كلامه وشتائمه فالتفت اليه ونهره قائلا بصوته الهادىء وكلماته البطيئة:

ـ هو انت الوكيل بتاعى .. انجر من ورايه .. خش فى الصف.. هو انته العمدة والا انا ..

وقفز عبد العاطى الى الصف وحشر نفسه وسط الخفراء وقد سرت فيهم همهمة التغامز والضحك المكتوم ..

واحتدم غضب العمدة وتزايدت شتائمه واخذ يتهم الخفراء بانهم تركوا الفلاحين يسرقون الماء ، فالرى فى غير مواعيده يعتبر عند الحكام سرقة للماء .. وسكت العمدة قليلا .. ثم عاد يقول فى صوت

رهيب ان اللوائح والقوانين وشئون الضبط والربط تعتبر الرى فى غير المواعيد المحددة جريمة .. جريمة سرقة ..

وتعالت همهمة الضحك المكتوم والعجب .. فانفجر العمدة قائلا ببط وهو يمط الكلمات :

ـ طب روحو كلكم مرفودين ..

وانطلقت الضحكات المكتومة وقال احدهم وهو يحاول ان يخفى ضحكه :

ـ ده ده .. طب ما احنا روينا ارضك يا حضرة العمدة .. دى برضه اسمها سرقة عند الحكام وعند اللوائح والقوانين اللى بتقول عليها ؟.. والا الميه لما تروح أرضك ما يبقاش اسمها سرقة .. مادام فى ارض الحكام ..

وقبل ان يتكلم العمدة استطرد خفير آخر يقول منفعلا بلا ضحك:

ـ سرقة ايه وهباب ايه يا جدع ؟.. الميه ماهى ماشية فى البحر والترعة .. يعنى حاتخلص ؟ .. هو احنا كنا نقبنا عليها حيطة ؟.. الا سرقة دى يا جدعان .. سرقة ليه .. ماهى مية ربنا .. هى السرقة فى الميه كمان .. هى نقب حيطة ؟..

واضطرب صف الخفراء ونزل العمدة سلالم الدوار وصوته يرتفع صارخا :

ـ الله .. الله .. اياك تنحط عليكو حيطة .. يا بلد غجر .. يا بلد مالهاش شيخ خفر .. هيه بلد من غير عمدة يا واد انت وهوه.. كلام ده ايه ده ياخويه .. ياواد الميه دى بتاعت الحكومة والحكام بس .. الحكومة تدى منها زى ما هى عاوزة وتدى اللى هى عاوزاه كمان .. مفهوم ؟..

ولم يكن هذا مفهوما ..

ووضح ان من المستحيل ان يصبح هذا مفهوما .. فقد وجم الخفراء وتطلعت عيونهم فى اشفاق الى هذا الذى يقوله العمدة . وتلفتوا الى بعضهم كأنما يتساءلون ان كان هذا حقا .. وان كانت حياتهم نفسها يمكن أن تصبح ملكا للحكومة والحكام .. انهم يعرفون ان الماء ملك للأرض وللزرع الذى يأخذ منه .. وله ان يأخذ منه كما يريد بلا حساب حتى يروى تماما ..

واخذ العمدة يقلب عينيه فى الوجوه وهو يلهث من تعبه .. وانسكبت قطرات العرق فى فجوات الشيخوخة من وجهه .. بينما تقدم عبد العاطى .. يتساءل ان كانت الشمس والهواء ايضا ملكا للحكومة ؟.. وماذا عن ماء المطر ؟.. وانبثق من الوجوم ضحك

مجلجل .. واضطرب الصف واخذ الخفراء فى ضحكاتهم يضربون الارض الموحلة بارجلهم وتطاير منها الطين وابتعد العمدة قليلا كيلا يصيبه رشاش من تحت اقدام الخفراء .. وصاح .. وظل يصيح حتى سعل ونظرت امراته الشابة السمينة من الشباك ووقفت قليلا تبتسم .. وهزت راسها وتحسست رجهها وهبطت يدها على ذقنها ونحرها وصدرها وانصرفت الى داخل الدوار .. وعندما هدات الضجة قليلا تقدم العمدة من الخفراء واستعاد هدوء صوته وهو يقول فى بطء وعمق :

ـ الله .. الله .. يا سى عبد العاطى .. طب على راى الشاعر .. ومن انباك ان اباك ديب ؟.. هه هه .. قل لى يا عبد العاطى يا ربابة محمد ابو سويلم بقى يا واد بعد ما نزلتك فى الفقر وعملتك خدام خصوصى وكشفتك على حريمى تيجى تتمسخر قدامى على الحكومة ؟..

فقال عبد العاطى بثبات :

ـ ما انت كل حاجة يا حضرة العمدة تسألنا مفهوم ؟.. يعنى حايبقى مفهوم من غير ما هو مفهوم .. قصدنا نعرف .. يعنى ايه قول الحكومة فى الشمس لما تسوى الزرع تسويه باللوائح رخره والا ايه .. يعنى الشمس وضحاها اللى يقراها سيدنا الشيخ الشناوى دى .. دى يعنى مش هى اللى بتسوى الزرع ؟..

وعاد الضحك من جديد وحاول العمدة ان يتكلم ولكن صوت عبد العاطى ارتفع قائلا :

ـ وكمان يعنى النطرة حكمها ايه ؟.. المطر يعنى اللى بيقول سيدنا عليها ان ربنا هو اللى منزلها يعنى .. يعنى ..

واخذ العمدة يصيح فيه :

ـ انت يا واد بتحلقمنى .. تتكلم وانا باتكلم .. وتعلى حسك على حسى .. الله .. الله .. يا بلد ..

ولكن عبد العاطى ظل يتحدث .. وعندما هدات ضجة الضحك المختلطة بتعليقات الخفراء سمعه العمدة يقول :

ـ والميه بتاعة البحر والترعة دى .. بتاعة انهى حكومة .. مش بتقول بتاعة الحكومة .. يعنى بتاعة ايها حكومة بتحكم البر ان شاءالله حتى تكون حكومة خواجات .. والا بتاعت الحكومة اللى راحت والا بتاعت الحكومة الجديدة دى اللى اسمها حزب الشعب ؟.. ويعنى الحكومة دى يعنى كانت جابت الميه من دارها ..

وصاح العمدة :

ـ بس يا بهيم .. انت بتتمهزا ؟..

وشعر العمدة بانه يهان ابلغ اهانة .. وكان يغلى وكل بدنه النحيل يرتجف .. فتهدج صوته وهو يكاد يزار :

ـ الله .. الله .. الله يا بلد .. ارقد يا ولد .. انجر هات العصايا من جوة .

وذهب عبد العاطى الى داخل الدوار وعاد بعصا من الخيزران وقد لفت عليها اسلاك محكمة ووضع عبد العاطى بندقيته على السلم ثم هبط ببطء وهو يزفر ومن حوله الصمت ووقف ينظر الى الارض المبللة فى احتجاج صامت ثم انفجر قائلا :

ـ الارض هنا مبلولة .. بدلة الحكومة تتطين .. والا اقلع لك

فضحك الخفراء واجابه العمدة بضيق :

ـ ارقد مطرح ما ترقد .. اياك ترقد ما تقومش ..

وذهب عبد العاطى الى اعلى السلم ورقد على البلاط ومشى اليه العمدة ببطء ثم امسك العصا باحكام ورفعها وهو ينظر الى ظهر عبد العاطى وانهال عليه بالعصا وظل يضرب وعبد العاطى يتلقى العصا فى سكون .. وشعر العمدة بيده تؤلمه ووقف الخفراء ينظرون الى عبد العاطى باشفاق ونفوسهم تجيش بالالم .. ولم يصرخ عبد العاطى ابدا .. وراى العمدة يرمى العصا بعيدا ويصيح :

ـ قوم بقى غور .. نازل فيك ضرب وكانى بالف لك سيجارة .. كانى باهرش لك فى حتة بتكلك .. جاتكو الغم .. روحوا كلكم مرفودين ..

وابتسم عبد العاطى ثم قام ووقف مع زملائه منتصبا ..

وعادت الضحكات تتردد فى الحلوق دون ان تنطلق ..

ومشى العمدة قليلا ليدخل الدوار وتحسس جيبه واخرج بحرص بالغ ورقة مطوية .. كانت هى الورقة التى عاد بها من عند محمود بك وكانما تذكر انه جمع الخفراء ليقول لهم شيئا من هذه الورقة فالتفت اليهم وناداهم بغضب :

ـ تعالوا هنا .. روحوا لموا اختام البلد .. حتم .. ختم .. اياك تنسوا ختم .. وهاتولى الشيخ الشناوى .. ياللا .. ياللا .. انجرو من قدامى .. اخفوا من وشى .. واياك تغيبوا وللا ترجعوا من غير الشيخ الشناوى .. وللا تنسوا ختم .. وهاتولى عبد الهادى والشيخ يوسف كمان .. وابو سويلم .. وكل رجالة البلد .. مفهوم .. هاتوا الاول شوية دكك دخلوهم الحوش .. مفهوم .. وغور معاهم يا واد يا عبد العاطى ..

ودخل العمدة الى الدوار .. واخذ الخفراء يتغامزون ثم ذهبوا متضاحكين واخذوا يجمعون من الدور بعض الدكك الخشبية وكل الأختام .

حمل الخفراء دكة من منزل محمد افندى ودكة اخرى من منزل الشيخ الشناوى وثلاثة من دور الناحية البحرية .. ولم يفكر واحد منهم أن يطلب دكة من محمد ابو سويلم او عبد الهادى أو الشيخ يوسف .

ولكن عبد العاطى وهو يجمع الأختام الح على الشيخ يوسف وعبد الهادى ان يذهبا لمقابلة العمدة .

وانصرف عبد الهادى الى محمد ابو سويلم وترك علوانى مع الشيخ يوسف وعاد الخفراء بالشيخ الشناوى وببعض الذين يعرفون القراءة.

وقال العمدة للشيخ الشناوى ان محمود بك اعطاه عريضة جديدة وهى احسن الف مرة من العريضة القديمة التى مزقها . ومحمود بك يطلب توقيعات اهل القرية على هذه العريضة .. ثم ترسل بعد هذا الى محمود بك ليجمع عليها توقيعات كل القرى التى يؤذيها نظام الرى الجديد .

وبعد هذا يحملها محمود بك بنفسه الى مصر ويقابل بها الحكام هناك .

واضاف العمدة ان محمود بك يطلب ان تفرغ القرية الآن من التوقيع ووضع الاختام لتصل اليه العريضة على الفور ليستطيع تعديل المواعيد قبل دور الرى الجديد .

ووقع الشيخ الشناوى على ورقة بيضاء دون ان يسأل .. ووقع وراءه بعض الذين يعرفون القراءة واخذ الفلاحون يضعون الأختام تحت امضاء الشيخ الشناوى .. والشيخ الشناوى يستعجلهم ويشتم من يطلب قراءة العريضة .. وبعد ان جمعت عدة اختام على العريضة قام الشيخ الشناوى من عند العمدة وانطلق فى القرية بجسده المليء المكرش وسبحته يهمهم بالدعوات ويزعق فى كل من يقابله أن يسرع بختمه الى دوار العمدة للتوقيع على العريضة الجديدة .

ومر بمنزل محمد ابو سويلم فلم يجد احدا على المصطبة ولم يلحظ نورا من شباك المندرة ، ووقف على الباب نصف المغلق يقول :

ـ يا ساتر .. يا اهل الله .. يا ساتر .. يا اهل الله ..

وصر الباب عندما دفعه الشيخ الشناوى وتقدم الى ظلمات وسط الدار وهو ينادى على محمد ابو سويلم ..

ومن باب فى ركن الدار خرجت وصيفة وهى تحمل على راسها لمبة الصفيح الصغيرة بلهبها الهزيل الأصفر الذى يتراقص مرسلا مع الشعاع الباهت خيطا من الدخان وطلبت من سيدنا أن يتفضل بالدخول الى المندرة لتعمل له القهوة ولكنه سألها بعجب عن ابيها فقالت له وصيفة ان عبد الهادى ايضا فات يسأل عنه .. يمكن أن يكونا معا فى دار عبد الهادى أو دكان الشيخ يوسف .

فقال سيدنا بضيق ان الدكان مغلق ، ودار عبد الهادى بعيدة وهى على كل حال مظلمة ، فاطرقت وصيفة لحظة واسندت بيدها لمبة الصفيح على راسها واقترحت عليه أن يتفضل بالجلوس فى المندرة لتذهب هى تنادى اباها من جرن عبد الهادى ..

وتردد سيدنا قليلا ولكن وصيفة سبقته الى المندرة فاوقدت المصباح الكبير واحكمت عليه وضع الزجاجة .

وجلس سيدنا وهو يقول :

ـ دى ليلة بحق وحقيق .. ليلة ما يعلم بيها الا ربنا .. دورى عليهم يا بنتى وهاتيهم .. والله انا ما انا قادر الف بقى .

وخرجت وصيفة من المندرة وهمست لأمها بكلمات ثم تركت الدار .

وعندما خرجت الى السكة سمعت الشيخ الشناوى يقول انه لا يطيق المندرة فى الحر والهواء على المصطبة احسن ..

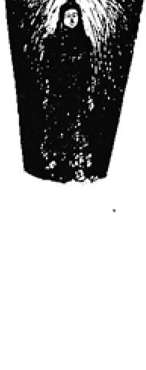
وقعد خارج الدار فى انتظارهم وهو يهمهم :

ـ دى لينة بحق وحقيق ..

وابتعدت وصيفة ومصباح الصفيح على راسها يسكب على وجهها وكل بدنها شعاعا هادئا يخالطه ظلال الدخان ..

كان قلبها يدق بخوف غامض وهى تسمع كلمات الشيخ (دى ليلة بحق وحقيق) ..

. فى الحق انها كانت ليلة ..



٨

سارت وصيفة تقرع ارض القرية بشبشبها وترسل رناته المتوالية الرتيبة فى الليل الصامت ، وراسها يرتفع فوق بدنها المنتصب محملا فى حذر باللمبة الصفيح ..

وكانت الانسام هادئة فاترة والطريق بين البيوت المغلقة لا يغمره غير نباح الكلاب .. لم يكن فى الطريق احد من الخفراء .

ومن حين الى آخر لاحظت وصيفة دون أن تحول راسها مرور بعض الفتيان ..

وكانوا يتهامسون عندما صادفوها وهم عائدون من دوار العمدة الى دورهم بعد ان وضعوا الاختام ..

وتتبعها بعضهم بنظراته وهمس انها تمضى الى دار عبد الهادى وربما كانت قد خطبت له بالفعل ، بينما قال رجل ثان انها ذاهبة لتقابل محمد افندى عند المقابر القديمة المخيفة .

فقال آخرون ان هذا لا يمكن ..

وانتهى الطريق الضيق الذى كانت تمشى فيه وصيفة بلا تفكير .. بين الدور الواطئة الداكنة المغلقة الأبواب .

وانفسح امامها الطريق ومال ..

وبدات تمشى فى صف واحد من البيوت وعن يسارها الحقول ..

وتمهلت وصيفة وهى تستقبل هواء الحقول بالمصباح على راسها وهبت نسمات طلقة فاطفات المصباح ..

وفوجئت وصيفة قليلا ولكنها التفتت حولها فوجدت القمر يغمر المكان بضوء قوى باهر وسخرت من نفسها فى ضحكة مكتومة لانها حملت المصباح !.

وسمعت همهمة تاتى من ناحية دار عبد الهادى فلم تمل الى الجرن وواصلت سيرها الى بيت عبد الهادى الذى تترامى امامه حقول حوض الترعة المؤدية الى المقابر القديمة والمقابر الجديدة .

وعلى كوم مستو من التراب وجدت عبد الهادى يجلس على حصير ومعه ابوها محمد ابو سويلم والشيخ يوسف .. وسمعت اباها يقول بضيق :

ــ دهدى .. كل حبة تقول لى كل لقمة .. جاك زقمة .. ماقلت لك اطفح انت بالهنا والشفا ..

وسمعت وصيفة ضحكات عبد الهادى تختلط بصوت البصلة التى يقضمها ورغيف الذرة الجاف يتكسر فى يده ..

واقتربت وصيفة فشمت رائحة المش والجبن القديم ..

ان أم عبد الهادى بارعة فى صناعة الجبن القديم ولجبنها ريح قوى يثير الشهية ..

لو كانت أم عبد الهادى تبوح لها بسر الصنعة !!.

واخذ محمد ابو سويلم ينظر الى الحقول الممتدة امامه فى ضوء القمر .. كانت تترامى وراء النخيل تحت الضوء الأزرق الداكن وفى وسطها تقوم القبور السوداء ..

وهز محمد ابو سويلم راسه وهو ينظر الى الأديم الواسع العريض الذى يخفق بعيدان صغيرة من الذرة والقطن .

وقال فى حزن :

ــ بقى عايزين يعطشوا لنا العيدان دى ؟ دى لسه صغار ومحتاجة للمية !

ولكن محمد ابو سويلم قطع التاملات ، واستأنف حديثا كان قد بداه عن العريضة الجديدة التى سمع ان العمدة عاد بها من عند محمود بك ، واخذ يجمع لها الاختام والتوقيعات .

وبلغت وصيفة باب بيت عبد الهادى ووقفت على حافة الكوم تقول فى حياء :

ــ سالخير .

واهتز عبد الهادى ، والتفت الشيخ يوسف ومحمد ابو سويلم على المباغتة .

فلم يكن احد قد شعر بها وهى مقبلة .

وحين سالها ابوها عما جاء بها فى هذا الوقت المتاخر بعد صلاة العشاء ، قالت له انها خرجت من لحظة لتبحث عنه ، فالشيخ الشناوى ينتظره فى الدار .

ورفع عبد الهادى يده عن الطعام ، وحرك ضروسه ببطء وهو يقضم ، ليخفى ارتفاع صوت الخبز الجاف ويسمع كل كلمة تقولها وصيفة .

ورآها وضاحة الوجه ، وضيئة ، لدنة العود .

واخذ عبد الهادى ينظر اليها ، وقلبه يدق ، وفى اعماقه يسيل النغم .

كانت تقف امامهم بقامتها المديدة،وشعرها الأسود الحالك الكثيف،، ومحياها الناصع تشيع فيه الحيرة .. ومن ورائها ظلال النخيل والشجر الداكن عند الأفق ، والشعاع الهادىء الأزرق ينسكب فى هدوء حزين !.

وجاشت نفس عبد الهادى وارتفعت نبضاته وتمنىلو دخلتوصيفة الى داره ولم تخرج منها ابدا .

ليتها تعيش معه الى آخر الزمان !

وقال فى صوت حنون :

ـ اتفضلى يا وصيفة . اتفضلى العشا .

فقالت بحياء :

ـ بالهنا لك .

واشرقت نفس عبد الهادى على الفور باشياء عديدة ، ودهمته الرغبة التى لا تقاوم بأن يعيش سعيدا يملك أرضه بلا قلق ، ويملك فى داره امرأة حانية كوصيفة .. وصيفة .. لا اية امراة اخرى !

واوشك ان يقوم فيكوم جسدها البديع ، ويضعها فى الأعماق من صدره او يلقيها فى داخل داره لتظل فيه ولا تخرج من عنده .

وقام محمد ابو سويلم مستأذنا ليلحق بالشيخ الشناوى ، ولكن عبد الهادى اعترض فى ضيق وطلب من وصيفة ان تدخل الى داره لتستريح ، ويروح هو ليحضر الشيخ الشناوى .. وتردد محمد ابو سويلم قليلا ثم طلب من وصيفة ان تدخل لتسلم على امعبدالهادى، وتعود .

ودخلت وصيفة الى دار عبد الهادى ، فترقرقت امامه الاحلام من جديد ، وشعر فى دمه بشمل لذيذ ، واضاء وجهه بغمرة من السعادة.

وتحرك عبد الهادى ليحضر الشيخ الشناوى ولكنمحمد ابوسويلم اقترح ان يذهب هو فقد تاخر الوقت . والح عبد الهادى عليه فىالبقاء فصمم محمد ابو سويلم ان يرجع الى داره بعد ان تسلم وصيفةعلى ام عبد الهادى .

وقطع الشيخ يوسف المناقشة بسؤال لا مناسبة له عن محمد افندى اين اختفى الليلة ؟ .

وبهت عبد الهادى وتسمر فى مكانه !

ولكنمحمد ابوسويلم قالببساطة ان محمد افندىفىالدوار بلاشك.

وقال الشيخ يوسف انه ليس فى الدوار ، والخفراء كانوا يسألون عنه فى كل ناحية .

واحتقن وجه عبد الهادى .

وخرجت وصيفة من عند امه فبدا يتأمل فى كل بدنها ووجهها .. ايكن أن تكون مقبلة من عند محمد أفندى ؟ أيكن ليده الثقيلة الناشفة ان تكون قد عبثت بجسدها هذا النقى الشريف ؟!

وتمنى عبد الهادى لو ان كل لمسة من يد رجل لبدن امراة تترك فى مكانها حفرة شائهة واضحة كيلا ينخدع بها رجال آخرون بعد ؟ او يتعذب قلب عاشق طيب من الظنون !.

لماذا لا يصنع الله شيئا كهذا .. بدلا من ان يسمح بحرمان الفلاحين من الماء ؟ !

ووقفت وصيفة امام الرجال تنتظر ان يقوم ابوها .. وتحرك محمد ابو سويلم لينهض ، ومن وراء وصيفة ينسكب نور القمر بالسكينة على الحقول ، ويلقى على وجه وصيفة هدوءا نبيلا رائعا يهز القلوب .

وسألها عبد الهادى منفجرا عن محمد افندى .

وروعت هى من لهجته التى تحمل اتهاما مخيفا ، فأجابت بغضب واستنكار انها لا تعرف ولا يهمها ان تعرف ! .

وشعر بها عبد الهادى تكاد تتزايل ، واحست هى بما يملؤه .

فعاد يسال ان كان محمد افندى لم يمر على أبيها بالدار .

اصحيح انها هى كانت فى الدار ؟ ! .

فلم تجب ..

ورد محمد ابو سويلم فى غلظة ان ابنته قالت مرة انها كانت فى الدار فلا داعى للكلام الكثير ..

ومضى ، ومن ورائه وصيفة .

ولم يستطع عبد الهادى ان يجلس فى مكانه ، واحس الشيخ يوسف بقلقه ، فطلب منه ان يقوم معه الى دار محمد ابو سويلم ليقابل الشيخ الشناوى ويعرف ما حصل فى « العريضة » الجديدة .

ولكن عبد الهادى كان مثقل النفس فقال باسترخاء :

ـ يعنى حايحصل ايه ؟! على كل حال انا مش ماضى عاالعريظة ، واهو الصباح رباح بقى ! .

* * *

وفى الصباح كانت العريضة مازالت فى دوار العمدة يجمع عليها ما بقى من الأختام والتوقيعات .

وكان عبد الهادى يمشى فى الطريق من حقله الى القرية ، فقابل بعض الفتيان ، وسمع منهم ان العمدة ثائر يتعجل بقية الأختام ليذهب بالعريضة الى محمود بك .. فقد اوصاه محمود بك ان تنتهى التوقيعات

واخيرا لوت راسها وبدات تسير في الطريق .

وصاح عبد الهادي يستوقفها وهو يقول في حنق

ـ خبر ايه يابا محمد يا ابو سويلم ؟ يانهار أزرق ياجدعان ! تبعت وصيفة لمحمد افندي ؟ دي العشا قربت تدن ! دي دهولت ايه دي اللي انت بتدهولها ، وزرواط ايه ده اللي انت بتزروطه ؟ ! يا سنة سودة ! !

ودهش محمد ابو سويلم لانفعال عبد الهادي المفاجيء ، وقال متعجبا :

ـ عشا ؟ عشا ايه ؟ سلامتك ! ايه ياعبد الهادي ؟ انت حصل عندك لطف ؟ ! انت ...

كان الضحى يملأ القرية .. ولكن الكلمات انفجرت من فم عبد الهادي بلا حساب . وقبل ان يفرغ محمد ابو سويلم من كلامه ، قال عبد الهادي بصوت اقل ارتفاعا :

ـ خليكي انت مرزية ياوصيفة . لما اروح انا اشوف الخبر ايه

وعادت وصيفة الى دارها ، وهي ما تزال مضطربة وقد امتزج في نفسها سرور خفي بخيبة أمل غامضة .

وقام عبد الهادي ومشى قليلا وهو يتلفت وراءه ..

كان امامه في الطريق من بعيد ولد يركب حمارا ويجري به ، وناداه عبد الهادي فلم يسمع الولد ..

ورأى عبد الهادي خلفه ولدا آخر يسوق حمارا محملا بالسباخ فامسك بالحمار وجره الى جوار الحائط وطلب من الولد ان يذهب الى الدوار لينادي محمد افندي من هناك . وجرى الصبي مسرعا ، وعاد عبد الهادي يجلس في مكانه على المصطبة صامتا لا ينظر الى أحد . وبعد قليل كان الصبي امامه يلهث قائلا أن محمد افندي ليس في الدوار ، والعمدة يسأل عليه ايضا ، والخفراء لم يجدوه لا في الغيط ولا في البيت .

وصاح عبد الهادي وعيناه تقتحمان مدخل دار محمد ابو سويلم وتستقر على كيان وصيفة :

ـ امال راح فين سي محمد افندي دلوقت ؟ راح فين ياناس ؟ !

واخذ يصر على أسنانه ..

وشحب وجه وصيفة وازداد اضطرابه ..

وخرجت بطة سمينة تتهادى على عتبة الدار ، ومن ورائها اوزة .. ونقرت قدم محمد ابو سويلم . وتبرم ودفعها بقدمه وطلب من وصيفة ان تاتي لتأخذ البطة والأوزة . وقام عبد الهادي يهش البطة والأوزة

وادخلهما الدار . والقى نظرة ثابتة على وصيفة وهي ترمي كل ثقلها على يد الرحى ، وتديرها طاحنة بين شقيها حبات من الذرة ، وكان طنين الرحى يملأ اذنيه ، بمثل مايملأ صدره من طنين ..

وكاد يصرخ بأعلى صوت ليسألها ان كانت امس قد خرجت من بيتها بعد العشاء لتلقى محمد أفندي ، وان كانت على موعد معه هذا الصباح. ولكن عبد الهادي وقف محتدما في صمت وظل واقفا في الباب خارج الدار .

ونهضت وصيفة من امام الرحى ثم اختفت عن عيني عبد الهادي في ركن من الدار وعبد الهادي واقف الى جوار المصطبة !

وطلب محمد ابو سويلم من عبد الهادي ان يجلس فلم يسمع كلامه ، وقال وهو مايزال واقفا يحملق داخل الدار :

ـ يمكن خضرة تعرف .

فزعق فيه محمد ابو سويلم :

ـ الله ! ماتقعد !. مالك مش على بعضك كده !.. طب روح انت شوف ايه اللي في العريظة !

ورد عليه عبد الهادي بغيظ :

ـ اصلك ماانتش عارف يابا محمد .

ثم مضى في الطريق مسرعا دون ان ينتظر كلمة من محمد ابوسويلم.

* * *

وأمام دكان الشيخ يوسف ، رأى علواني يستند على بنك الدكان والشيخ يوسف ينهر بنتا صغيرة ويؤكد لها انه اعطاها زهرة غسيل بما يعادل خمس بيضات لا ثلاث ..

وانصرفت البنت مستسلمة ، وارتفع صوت الشيخ يوسف ينادي عبد الهادي وهو يفوت امام الدكان مندفعا في طريقه .

ووقف عبد الهادي ، واتجه الى الدكان فبادره الشيخ يوسف قائلا :

ـ البلد ما خلاص كلها ختمت عاالعريظة ! والعمدة استغنى عن اختامنا وامضانا وبعت العريظة لمحمود بيه ! العريظة راحت ولا حد يعرف ايه اللي فيها ! عجبي عليكي يا بلد !

وقبل ان يجيب عبد الهادي قال علواني متحمسا في عتاب :

ـ يعني يا عبد الهادي لو كنتو سمعتو شورتي من الاول وخليتوا عم الشيخ يوسف كتب العريظة ، مش كان احسن ؟ اهه كتابة محمد افندي ماالدتشي على البيه ! شوفتو بقى ؟ واهه العريظة طلعت من البلد ولاحد عارف ايه اللي فيها .. ده عم الشيخ يوسف محسور قوي !

والله يا عم الشيخ يوسف ما حد عارف مقامك ومقدارك فى البلد دى غيرى انا !

فقال الشيخ يوسف غاضبا :

ـ بس ياواد انت ياعرباوى ! اخرس ! جاك حسرة فى بطنك مانقوم. مقامى ايه يا ولد ؟ يا واد دا البلد كلها عارفانى وعارفة مقدارى . وانا مفهوم ومعلوم فى العب ده كله . يا واد دا اللى قروا معايه فى الازهر . .

ثم سكت قليلا ، وبلع ريقه ، وارتفع صوته ليكمل :

ـ اللى قروا معايه فى الازهـــر ، واللى انا اقريت اكثر منهم ، بقوا دلوقتى كلهم قضاة ومفتشين ومدرسين واخيبها واحد فيهم بقى عمدة !

وحاول علوانى انيعتذر وان يوضح وجهة نظره ، ويؤكد احترامه له ولكن الشيخ يوسف لم يلتفت اليه ، وانجه الى عبد الهادى يساله :

ـ فين ياخويا محمد افندى ؟ الواد دياب اخوه فات من قيمة شوية يسال عليه هنا ، والغفر قالبين الدنيا عليه .

فقال عبد الهادى بغيظ :

ـ اهوه انخفى ! اياك امال ينخفى من البلد قبل مايشطب عليها !

وضحك الشيخ يوسف طويلا ، فنظر علوانى بدهشة ورضا وضحك هو الآخر . .

والشيخ يوسف رجل لايكاد يضحك ، وان كان يقول كلاما تضحك له القرية فى بعض الأحايين .

وعلى اية حال فقد هزه غضب عبد الهادى على محمد افندى . .

ومحمد افندى هو فى القرية الرجل الوحيد الذى يقبض اربعـــة جنيهات فى الشهر ، ومع ذلك فلا ينفق منها شيئا . . فهو يذهب الى الحقل مع اخيه دياب الذى يشاركه فى معاش واحد ويعملان معا وياكلان معا مما تنتجه الارض ويدخر محمد افندى بعد هذا مرتبه كاملا : الجنيه على الجنيه ، حتى اصبح مشهورا فى القرية بانه يملك مالا !

وقد تعود محمد افندى ان يقرض الفلاحين عندما تلح عليهم الحاجة، او يشتد الصراف فى طلب المال ، ولـكنه يرتهن الارض فى مقابل الدين وربكها ، حتى اذا عجز مدينه عن السداد اشترى الأرض المرهونة .

وهكذا اقتنى باسمه واسم اخيه فدانا وعشرين قيراطا غير القراريط الخمسة عشر التى ورثها عن أبيه هو واخوه .

ومازال محمد افندى يرتهن تحت يده نصف الأرض التى يمتلـكها الشيخ يوسف .

والشيخ يوســـف يضـــع القرش على القرش من ارباحه القليلة لاستخلاص ارضه من تحت يد محمد افندى بعد ان ضاع من ارضـــه جزء كبير اخذته الحكومة لعدم دفعه ضريبة المـــال .

وفى الحق أن قلبه امتلأ بالمرارة منذ أخذت منه الحكومةهذهالارض ولـكنه يمتلىء بالـكبرياء ، فقد هز الحكومة حقا حين امتنع ـ كآلاف غيره من الفلاحين ـ عن دفع ضريبة المال لحكومة تصنع الأزمة للمصريين وتضعهم فى السجون وتصنع الجوع لتتعاون مع الانجليز . .

اما عن الارض التى أخذها محمد افندى فللشيخ معه شأن آخر ، وهو يحلم بأن يستعيد ذات يوم حيازة ما أخذه منه محمد أفنـــدى ، ولـكن محمد افندى معجب بهذه القطعة ، وهو يعلق الآمال عليها ويلح كل يوم على الشيخ يوسف أن يبيعه هذه القطعة !

ولم يشك الشيخ يوسف لأحد أبدا ، وان كان ليحتفظ فى اعماقه بحنق هائل على محمد افندى واخيه دياب . . ومن اجل ذلك فلم يكد عبد الهادى يتحدث بغيظ وصراحة عن محمد افندى حتى شعر الشيخ يوسف بانه يرسل ـ على الضحكات ـ زفرات متراكمة من كابوس ثقيل.

وقال الشيخ يوسف من خلال ضحكة :

ـ آه يا اخى ! ده بارد برود ! ابوه مات من اكل المش والعيش الدكر وهوا قال داير ياكل ملبن ويشترى أرض ! لو كان أمال يخفى من البلد خالص قبل مايشطب عليها على رايك ! بقى يا ناس ينقلوا خاله الشيخ حسونة فى آخر الدنيا ، الشيخ حسونة الراجل العاقل الأمير يتنقل ، والمخفى ده يقعد لنا ؟ صحيح ما يقعد عا المرابط غير شر البقر ! اناعارف برود ايه ده يا اخوانى ؟ نصايب ايه دى ؟ !

ثم قطع ضحكاته قليلا وزفر بشبه همس :

ـ ده يا عبد الهادى عايز يسرقنى سرقة ! ناوى يخطفنى خطف ! والله يا اخويا عايز ياخد بنتى علشان يركب على الأرض كلها ! داوشنى كل يوم ، قال عايز يتجوزها من بكره ! عايز يورثنى ابن الحمار !

وكان الشيخ يوسف يعرف انه يكذب !

فمحمد افندى لم يفاتحه أبدا فى الزواج من ابنته . . وعلى العكس كان الشيخ يوسف دائما يلف حول الموضوع ويدور ويغرى به محمـــد افندى ، ولـكنه لم يكن يجيبه الا بابتسامة تحمل كل الخيلاء والزهـــو الاعتـــذار !

على أن الشيخ يوسف عندما قال هذا الكلام لمح الراحة تشـــيع فى وجه عبد الهادى ، وانبسطت نفسه لأن عبـــد الهادى صدق كلامه عن محاولات محمد افندى للزواج من ابنته !

وقال عبد الهادى وهو يبتسم :

ـ حـــكم . . .

فتدخل علواني ، ومال على الشيخ يوسف قائلا بعد طول الصمت ، كأنه وجد الحل :

ـ تحب اضربه لك يا عم الشيخ يوسف ؟

وانزعج الشيخ يوسف من الفكرة .. وباغته روع كبير ان يفكر علواني ـ او واحد من امثاله الضائعين ـ فى ضرب رجل لهمقام كمقام الشيخ يوسف ، وله فى القرية ارض ، وكلمة ! فصاح فى علوانى مشمئزا :

ـ اخرس يا عرباوى يا خطاف يا بتاع السكك ! هيه ياواد كلابها سابت على ديابها ؟.. تضربه ؟ تضربه ازاى ؟ اعوذ بالله من الشيطان !. ياواد سيبك بقى من شغل العرب ده يا واد !

ودهم الشيخ يوسف استنكاف مفاجىء لانه ترك علوانى يقف معه ، ومال الى عبد الهادى يطلب منه ان يدخل الدكان ليجلس قليلا فشمس الضحى اخذت تحمى ..

ولكن عبد الهادى اعتذر لأنه منصرف الى الغيطان ، فالح الشيخ يوسف .. وقطع علوانى حديث الشيخ فاعتذر عما قاله عن محمد افندى ، والح على عبد الهادى ان يدخل دكان الشيخ يوسف .

وسكت الشيخ يوسف ووقف يتأمل علوانى ..

ولاحظ عبد الهادى حيرة علوانى وخجله وضعفه امام الشيخ يوسف فباسطه ضاحكا وهو يقدم اليه سيجارة ملفوفة :

ـ خد ! خد محروقة ياشيخ العرب ! خد عفر الهبابة دى ..

وتناول علوانى السيجارة وهو يطلب من عبد الهادى فى تأثر ان يؤكد للشيخ يوسف انه شيخ عرب حقا وليس خطافا وانه من نسل الامام على ..

وخبط الشيخ يوسف كفا بكف ، وصاح فى علوانى :

ـ آه ؟ ! انته ؟ ! انت من نسل الامامو على ؟ ! بقى انت من الاشراف يعنى ؟ يا اخى اياك تنشرم فى قلبك !

وضحك عبد الهادى فابتسم علوانى وقال للشيخ يوسف متملقا :

ـ والنبى يا عم الشيخ يوسف دا انا عايز اخدمك وبس .. ده كل مقصودى .. انا احب اللى تحبه واعادى اللى تعاديه بس ! طب هات سيجارة .. هات علبة دخان علشان خاطر عبد الهادى وحياة النبى ده انا لما اللميه انقطعت مابقتش حامل هم حد فى البلد قد همك انته .. هات امال ! ده انا اللى رحت رويت ارضك ومهمنيش .. ماتجيب ورقة

الدخان امال !.. ربنا يزود لك القيراطين اللى فضلوا لك ويخليهم لك فدانين .. متجيب الدخان بقى ..

وابتسم الشيخ يوسف واعطاه علبة الدخان ، واخذ يكتب فى دفتر الحسابات الطويل وهو يقول :

ـ ايوه يا واد اتدحلب ! اتدحلب زى التعلب !

وضحك علوانى برضا ، وهو يضع علبة الدخان فى جيبه ..

وعاد عبد الهادى يحاول أن ينصرف ، ولكن الشيخ يوسف استبقاه ، فقد كان يريد ان يتكلم معه فى الحالة التى اصبحت لا تطاق . وحدثه طويلا عن القطن الذى بدات لوزاته تترنح على الأعواد القصيرة الغضة .

واخذ الشيخ يوسف يبدى مخاوفه من ان تعطش حقول القطن على الترعة كما عطشت حقول الذرة على النهر الصغير فان حدث هذا فهو الخراب !

ثم هز راسه واكمل :

ـ والبلد مش ناقصة خراب ! القطن ماراح ياولاد ! ده التراب بقى اغلى منه يا عبد الهادى ! ومن يومها وسوق البنات وقف . البنات حاتبور ، والأرض رخره حاتبور ! يا دى السنة اللى زى بعضها يا اخواتى !

واحس علوانى بأن الحديث لا يعنيه ولا يحتمله ـ وكان يقف شاردا فى صمت ـ فتحرك دون ان يشعر به احد ، وانصرف الى حقل البطيخ الذى يحرسه .

وشعر عبد الهادى بقلق غريب يلفحه ، ولم يجد كلاما يرد به على الشيخ يوسف .

وكان كل ماقاله الشيخ يوسف صحيحا : فالقطن كالتراب بلا قيمة، ولو ظلت مواعيد الرى كما حددتها الحكومة فمن الممكن ان تبور الارض وتبور البنات !

وسيطرت عليه الكآبة الغامضة ولبث فى مكانه بعض الوقت بلا كلام ، ثم تحرك لينصرف فلم يقل الشيخ يوسف شيئا .. وكان هو الاخر جالسا داخل الدكان ينظر فى دفتر الحسابات بشرود .

ومضى عبد الهادى ، ووجد نفسه يتجه الى دار محمد ابو سويلم ..

وفى الطريق فاجأته فكرة ازعجته ، فلربما كان محمد ابو سويلم قد ارسل ابنته وصيفة لتبحث عن محمد افندى ..

وعلى الرغم من انه يصدق ان محمد افندى تكلم فى زواج ابنة الشيخ يوسف ، فقد زحف الحنق فى دمه .. وكانت الشمس تلفح اقفاه ، واحس بضيق واضطراب .. وتوالت دقات قلبه واسرع فى مشيه ..

وعلى مصطبة محمد ابو سويلم وجد الرجل جالسا ومعه محمد افندى ووصيفة تصب القهوة .

وذهل عبد الهادى !

كان يلاحظ منذ زمن ان وصيفة حينما تقدم القهوة الى الرجال ، لاتظهر امامهم ، وانما تمد يدها من الباب بالصينية ، وكل جسدها داخل الدار .. ولكنها هنا بنفسها ! بكل جسدها تقدم القهوة ، وتصبها ايضـــا !

وكانت هذه اول مرة يرى فيها وصيفة تصب القهوة على المصطبة لرجل غير ابيها ، ومن الواضح انها انما تصنع هذا لمجرد أن محمد افندى موجود ..

وسعل عبد الهادى بشدة والقى السلام باقتضاب ..

واهتزت وصيفة عندما راته امامها فجأة ، ومال منهـا الفنجان ، فتركته يقع على جلباب محمد افندى ، وأسرعت الى داخل الدار تهرب من وجه عبد الهادى ..

وضحك محمد افندى بتؤدة وهو يدفع بيده الفنجان المنسكب قائلا:

ــ خيرا ! طب وانكسفتى ليه ؟ ده معناها اننا حننكسى ان شاء الله !

وشعر عبد الهادى بثقل يهبط على قلبه ، ولاح له محمد افنـدى مرهقا الى آخر حد ونظر فى وجهه بضيق ، وكأنه اكتشـف انه ثقيل الظل معذب .

وتمنى أن يطرده !

ولم يكن عبد الهادى قد جلس بعد ، فقد ظل واقفـا فى الشمس امام المصطبة المغمورة وحدها بالظل بينما اشعة الشمس تتوقد فى كل مكان . وطلب محمد ابو سويلم من عبد الهادى الا يقف فى الشمس ، وافسح له مكانا بينه وبين محمد افندى ، وابتسم محمد افندى وهو يقول متلطفا لعبد الهادى انه يقف فى الشمس لأنه يمكن أن يكون عليه ذنب !

ولم يبتسم عبد الهادى ونقرت نظراته وجه محمد افندى .

كان معطرا حليقا وشعره يلمع تحت طاقيته البيضاء المتأخرة الى الوراء عن منبت الشعر .

وانحط عبد الهادى على المصطبة بين محمد ابو سويلم ومحمدافندى وتنهد ، وامامه مع الشارع يرتفع صهد النهار

وفجأة ارتفع صوته جافا غليظا :

ــ كنت فين يا محمد افندى من ليلة امبارح ؟ بتفطس فين كده ؟.. لا امبارح بالليل ولا النهارده من صباحية ربنا حد شافك والدنيا كلهـا بتدور عليك !

ولم يجب محمد افندى ..

وارتعدت يده وهو يمسح صدره بحركة تحاول أن تكون مطمئنة ..

وتوالت الدقات فى صدر عبد الهادى حتى خيل اليه ان محمـد افندى الجالس الى جواره يكاد يسمعها دقة بعد دقة ..

واوشك عبد الهادى ان يصرخ فى وجه محمد ابو سويلم ليسأله ان كان قد ارسل وصيفة فعادت بمحمد افندى ..

ولـكن محمد ابو سويلم كان يشرب قهوته فى هـــدوء ، دون ان يلتفت الى عبد الهادى .. وسكت محمد ابو سويلم لحظة ثم قال :

ــ تعرف ياعبد الهادى عترنا فيه ازاى ؟ فى دكانة المزين ! البت خضرة جت هنا من قيمة ساعة قلت لها انجرى دورى لنا على محمـد افندى ، غطست شوية وقبت به ... يا اخى البت دى زى العفاريت الزرق ..

وتمتم عبـد الهادى :

ــ خضرة ؟ !

وسكت عبد الهادى ، والتفت بهدوء الى محمد افندى فوجده يحك ذقنه المعطرة بحركة رشيقة ..

وهز عبد الهادى راسه ، وبدات الظنون تثقله : ان معرفة خضرة بمكان محمد افندى ، وظهور وصيفة على الباب لتصب بنفسها له القهوة .. كل هذا جعل عبد الهادى يفكر فى اشياء مرعبة ..

ثم خروج وصيفة فى ليلة البارحة بحجة انها تنـادى اباهـا .. ما هـذا ؟ !

الم يكن بينها وبين محمد افندى موعد دبرته خضرة ــ وخافت ان يعود ابوها الى داره فجاة فلا يجدها ــ فلفقت حكاية اللف على ابيها لتقول له فى النهاية انها انما غابت عن الدار لانها كانت تبحث عنه ؟ !

وفكر عبد الهادى أن يترك الدنيـا وما فيها ، ويقوم الى عاصمـة الاقليم فيزور اخت وصيفة ، ويحكى لها ، ويتكلم مع زوجها فى الموضوع .

وتحرك فى مكانه بالفعل .. ولـكنه عاد فشعر بنفسه مقيـدا ..

انه لايستطيع ان يترك الدنيا وما فيها هذه الايام ، والشغل كثير ، واعواد القطن والاذرة مهددة بالجفاف .

وقرر أن يدخل الآن دار محمد ابو سويلم فيمسك بيـد وصيفة ويسألها عن سر خضرة ، ويظل يضربها بالكف على صدغها ، وبالرجل فى بطنها حتى تتوب وينعدل حالها المائل !

تتوب ؟ ؟ ! .. تتوب عن ماذا ؟..

انه لايعرف بالضبط ان كانت خضرة قد سحبتها الى محمد افندى، ام ان محمد أفندى كان مع بنت اخرى امس !

وعلى كل حال فالشيخ يوسف يقول ان محمد افنـدى يخطب منه ابنته ٠٠ فهل يخطب محمد أفندى من هناك ومن هنا ؟ ٠

ومد عبد الهادى رجله على المصطبة وهو يقول فى زفرة قوية :

ـ هيه ٠٠ دول ! دول يا سيدى دول ! الايام دول ٠٠

ونظر اليه محمد ابو سويلم ليقول له ان محمد افنـدى وافق على السفر الى مصر مع محمود بك حين يذهب بالعريظة الى مصر .

ولم يجب عبد الهادى ٠

ومات الحديث شيئا فشيئا على شفاه الرجال الثلاثة ٠٠

وتحرك عبد الهادى فجأة ليقول بصوت مرتفع :

ـ حاجات !! أنا غويط يا سى محمد أفندى ! فاهم حاجات كتير قوى ، الناس اللى يخطبوا هنا وهناك ويعشموا البنات هنا وهناك ! حاجات باردة ٠

ودهش محمد أفندى ومحمد أبو سويلم ، وتساءلا عن الحكاية ، ولكن عبد الهادى لم يقل شيئا ..

واحس بندم كبير لانه لا يستطيع أن يقول شيئا ٠

وقال له محمد أبو سويلم متعجبا :

ـ خبر ايه ياعبد الهادى ؟ انت جرى لك ايه الأيام دى ! زى مايكون جالك لطف ٠٠ ٠٠ باقول لك محمد أفندى مسافر مصر مع البيه علشان العريظة ، بعد البلاد اللى حوالينا ماتختم عليها ٠٠ باقول لك كده تقوم تقوللى بنات وهبابات ؟؟.. قطيعة تقطع البنات وخلفة البنات ياشيخ !.

والح الندم على صدر عبد الهادى .

وارتاح محمد أفندى بعض الشىء حين سمع هذا الكلام من محمدابو سويلم ٠

ولكن عبد الهادى وقف وهو يصطنع الابتسام وقال متحديا شامتا :



ـ لكن محمد أفندى حا يسافر ازاى مع البيه ؛ حيسافر معاه ازاى بعد ما قال عليك ابن الحمار ياسى محمد ؟ .

وارتعش محمد أفندى من الغيظ والمفاجأة ووقف يصرخ فى صوت يائس جريح :

ـ اسمع بقى يا عبد الهادى ؟ انت داير تعملى شنعة بالكلمة دى من زمان يعنى غرضك ايه يعنى ؟ قولى كده غرضك ايه ؟ غرضك تخلينى مسخة ؟ أما برود .

ـ انت اللى عامل نفسك مسخة وداير ورا خضرة

ـ سامع الكلام يابا محمد ؟ غلطش انا فى حقه دلوقتى ؟.

ـ سامع يعنى ؟ بقى دى مرجلة دى والا دى مصغرة وقلة حيا كمان ! .

وزعق محمد أبو سويلم فى ضيق ، وهو يقف بينهما يأمرهما أن يكفا عن هذا الكلام الفارغ .

وبدأ يؤنب عبد الهادى على طريقته فى الكلام مع محمد أفندى ، وهزهما واجلسهما وهو يقول :

ـ خبر ايه ؟ مالكو مع بعض كده زى الديوك ! هوه فيه تاربايت؟..

ـ هوه اللى عامل ديك ! ! هو اللى عامل فى البلد ديكا .. على راى امة العريظة المنيلة اللى كتبها ! العريظة اللى قال البيه على اللى كتبها دا ابن ....

وعاد محمد افندى الى هياجه فشخط محمد ابو سويلم فى عبد الهادى مقاطعا وطلب منه ان يصفى قلبه من ناحية محمد أفندى .

ولم يكن فى قلب عبد الهادى شىء ..

وقال عبد الهادى انه لايحمل شيئا لمحمد افندى ولكنه لايرضى عن سيرته ..

واكد محمد ابو سويلم لعبد الهادى انه يغلط فى حق محمد افندى كثيرا وطلب منه ان يعامله كأخ .

ومال على محمد افندى وطلب منه أن يصفى ما فى نفسه واكد محمد افندى أن نفسه صافية وانه يحب عبد الهادى ويفخر به ،ولكن عبد الهادى هو الذى يتعمد اهانته من حين الى حين .

وقال محمد ابو سويلم لعبد الهادى :

ـ طب قوم ياعبد الهادى حب على راسه قوم .. جاتكو الغم .. دانتو اخوات !

وقام عبد الهادى متثاقلا ..

وظل محمد ابو سويلم يكرر :

ـ العبارة بسيطة .. دا انتو اخوات !

ورن كلام محمد ابو سويلم ونبراته الحانية المفعمة فى أعماق عبد الهادى .. ووقف بعض الوقت حائرا لايعرف ماذا يصنع ، وتقدم منه محمد افندى ، وعينه تفيض بشعاع حزين .. ومال عبد الهادى على راس محمد افندى فقبلها معتذرا ..

وقال محمد افندى فى طيبة وهدوء :

ـ استغفر الله ! انت اللى حقك عليه ؟ ! انا اللى محقوق لك ..

والتصق الجسمان وتعانقا .

واذ كانا يرتميان على بعضهما فى اعتذار متبادل ، شعر عبد الهادى بحب مفاجىء لمحمد افندى يغمره ، واحس محمد افندى كأن قلبه لم يحمل لعبد الهادى غير الحب ابدا .

وكانت شمس الظهر قد غمرت المصطبة ، والصهد يتوهج فى كل مكان ..

فاستأذن محمد افندى قائلا انه سيذهب الى العمدة الآن وبعده الى محمود بك من فجر اليوم التالى ليعرف موعد السفر ..

وقال عبد الهادى بصوت رقيق مشحون بالعطف والامل :

ـ تروح وتيجى بالسلامة يا محمد ياخويا .

وانصرف محمد افندى ووراءه عبد الهادى ..

ودخل محمد ابو سويلم الى داره ، ونفسه تفيض بشعور حنون ..

وعندما ابتعد الرجال الثلاثة عن بعضهم كان فى أعماق كل واحد منهم احساس كبير بأن قلبه عامر بدفء خارق يمنحه القوة والكرامة ، والأمن ، والسلطان ، والمقدرة !

٩

فى الصباح .. لم تكد الشمس تشرق ، حتى كان محمد أفندى يسير الى محمود بك فى عزبته المجاورة .

لم ياخذ طريق الجسر الطويل الذى تسلكه الحمير عادة وانما مشى على رجليه فى طريق ضيق ، خلال الحقول المحصورة بين حوض الجسر وحوض الترعة ..

وعلى جانبى الطريق الضيق كانت بقرة هزيلة او ثور اعجف يجر المحراث متثاقلا ببطء فيهوى المحراث بسكينه الكبير على الأرض السوداء ويقلبها .. ومن وراء المحراث امراة او رجل ينثر الحبوب ، وفى القلب دعاء وأمل يخالجه الخوف من المجهول !

وفكر محمد افندى بأسف ان هذه الحبوب يمكن أن تموت فى الأرض ان لم تعدل الحكومة مواعيد الرى !

اتموت هذه الحبوب قبل أن تتمدد فى الأرض ، وتخرج منها الأعواد الجميلة الخضراء المثقلة بالكيزان والخير ؟ !

ولكن العريضة التى يحملها معه ربما سمحت لهذه الأعواد بأن ترى الشمس وتنمو وتزدهر وتمتلىء بالكيزان الجديدة .

ان حياة القرية وحياته هو نفسه الآن فى يد محمود بك ..

ايمكن ان تكون حياة الناس والزرع كلها فى يد رجل واحد ؟ هكذا ؟ .. حكم !!

وهز محمد افندى راسه وقلب يديه وخطواته تبطىء على الارض ، ولكنه تذكر فجاة انه يجب ان يكون عند محمود بك قبل ان يقوم البك من نومه ..

واسرع محمد افندى .. وكاد يعدو فى الطريق الضيق بين الحقول واوشك عدة مرات ان تقع قدمه فى الأرض المبذورة فتماسك حتى لا يفسد بزلة من قدمه ، مستقبل عدة حبات ستصبح فيما بعد أعوادا تحمل الكيزان ..

ولم يكد محمد افندى يصل الى العزبة حتى استقبله محمود بك ..

وقبل ان يسأله محمد افندى عن موعد السفر قال محمود بك انه جمع عددا طيبا من التوقيعات طوال نهار امس ، ومن الممكن ان يسافر اليوم فى قطار الظهر لتقديم العريضة الى رئيس الوزراء فى مصر ..

واهتز محمد افندى وهو يتخيل نفسه ذاهبا مع محمود بك لمقابلة رئيس الوزراء ! واستهال الأمر ، فعاد يسأل محمود بك ان كان سيقابل رئيس الوزراء حقا ! فرد عليه محمودبك بجفاف مؤكدا أن العريضة مقدمة لرئيس الوزراء .

وسكت محمود بك قليلاقبل أن يطلب من محمد أفندى أن يدبر له اجر السفر والأتعاب ، فما دام سبب سفره هو قضاء مصلحة لعدة بلاد ، فعلى كل بلد أن تدفع شيئا وعلى بلد محمد أفندى أن يتحمل عشرة جنيهات من مصاريف الرحلة ..

وتردد محمد افندى قليلا قبل ان يقول شيئا .

وظل يفكر ومحمود بك يكلمه بتردد تقطعه الخشونة ولهجة الامر فى بعض الاحايين ..

وبعد قليل نهض محمد افندى من عند محمود بك ، بعد ان اتفق على المقابلة فى محطة السكة الحديد بعاصمة الاقليم فى موعد قيام قطار الظهر .

وأسرع محمد أفندى بالعودة الى قريته واخذ يجرى هذه المرة بالفعل ، فاذا تعب استراح على المشى الـ ريع . ومر على اخيه دياب وهو يعزق القطن فى الحقل بحوض الترعة ، وصاح فيه بعجلة :

ـ هات الركوبة يا واد والحقنى عاالدار .

وتابع محمد افندى سيره الى القرية مستعجلا ، وامام عينيه تتخايل سور غريبة مبهمة عن القاهرة التى لم يرها منذ سنتين ، وعن رئيس الوزراء الشيخ الذى يصب الموت على الآلاف وهو جالس فى مكتبه بهدوء يأكل « الساندويش » ، لفرط ما لديه من اعمال .

اما دياب فقد ترك فأسه ، وهرول الى راس الحقل ، ودخل الزريبة التى يبيت على ظهرها يحرس البهائم فى الصيف ، ففك رباط الجحشة الصغيرة البيضاء بحذر واهتمام ، وامسكها من رقبتها فى رفق ، واخرجها من الحظيرة .

ودياب يدرك تماما الى اى حد يهتم اخوه محمد افندى بهذه الجحشة ..

فمحمد افندى يشترى لها الفول من البندر ، ويقدم اليها العلف بنفسه ، وهو احيانا يضع فى فمها قطعا صغيرة من راس السكر ! ومحمد افندى ياخذها بنفسه كل أسبوع فيغسل ظهرها فى النهر بالصابون .

ومازال دياب يذكر لنفسه ـ بخجل ـ انه منذ سنوات حاول ان ينشىء بينه وبين هذه الجحشة علاقة من هذا النوع الذى ينشا فى القرية



احيانا بين بعض المراهقين والطيور والحيوانات الصغيرة .. وضبطه محمد افندى مع الجحشة فضربه بالكف والرجل وصاح فيه ان الجحشة ليست كحمير السباخ !

وعلى اية حال فلم يعد دياب يحاول شيئا كهذا الآن .. فقد كبر ، ووفرت عليه خضرة كثيرا من هذا العناء ! ولم يعد منذ دخلت خضرة معه الزريبة يفكر فى الطيور او الحيوانات الصغيرة .

ساق دياب امامه الجحشة البيضاء ، فقفزت فى حركات رشيقة وركضت ، وهو وراءها يركض .

لم يحاول ابدا ان يركبها .. فقد كان يعرف انها ليست كحمير السباخ ..

وكان يعرف ان مشيتها الجميلة ربما خسرت لو تعدد على ظهرها الراكبون فقد رباها اخوه وهى طفلة على مشية تريحه ودرجت عليها ..

ولم يكد دياب يصل الى الدار حتى وجد محمد افندى يغلق على نفسه باب الحجرة التى بناها فوق سطح الدار ، منذ اشتغل مدرسا ، بعيدا عن الزريبة التى تلم البهائم فى ليل الشتاء وعن القاعة التى تعيش فيها امه ودياب .. وكانت امه تسمى هذه الحجرة « مقعد الافندى ».

ونادى دياب على محمد افندى فقالت له امه :

ـ اطلع يا واد اخوك فوق فى مقعده . اطلع له المقعد .

ولكن محمد افندى ناداه من وراء الباب المغلق قائلا :

ـ شد عالركوبة ياواد يادياب وروح ناديلى ابوك محمد ابو سويلم قول له انا مسافر مصر مع البيه دلوقتى .. قل له السفر النهارده .. دلوقت اهه ..

ووضع دياب قطعة من اللباد على ظهر الجحشة وحط عليها بردعة من القطيفة ، وادخل فى فمها اللجام ، وثبت طرفه الجلدى الانيق فى حلقة دقيقة من النيكل على راس البردعة ، وشد خيطا من التيل المفتول فى ارجل الجحشة وربطه قائلا لها بصوت خفيض وهو ينصرف :

ـ خليكى واقفة هنا يا مديوبة انتى . اوعى تتنقلى ولا ترمحى بقى كده ولا كده !

ثم صاح وهو يخرج من الباب :

ـ خلى بالك من الجحشة يا امه .

ومشى يهز طوله الاعجف الى محمد ابو سويلم ، تاركا امه تحاول ان تمسك الديك البلدى لتذبحه .

وفوق السطح كان محمد افندى قد فرغ من ارتداء ملابسه ، واخرج

زجاجة العطر من اول درج فى « البوريه » وسكب من الزجاجة على راسه ويديه ، واخذ يدعك ذقنه وكل راسه ووجهه ..

وتناول محمد افندى طربوشه ووضعه على راسه فى عناية بميل قليل على الجبهة .

واتجه الى دولاب خشبى صغير غائر فى الحائط وفتحه ورفع كومة من الأوراق البيضاء ، ثم طاقية من الصوف ، ورفع من تحتها كتابا كبيرا ، ودس يده فى داخل الدولاب ، فاخرج كيسا كبيرا من الجلد واخرج منه ورقة مالية .

وتوقف وهو يقول لنفسه :

ــ كفاية الجنيه ده .

وفكر قليلا ثم سحب ورقة مالية اخرى .

ــ برضه الواحد ينزه نفسه فى مصر شوية !

ثم اخرج ورقة كبيرة ذات عشرة جنيهات ، وتاملها طويلا .. ثم فك قميصه الافرنجى ، وحشر الورقة المالية فى جيب الصديرى البلدى المخطط ، واحكم اغلاق زراير القميص ثم زراير الجاكتة ، وهو يقول بزهو :

ــ ادى يا سيدى فلوس محمود بك بس اياك نعرف نحصلها من البلد ! .

ودس الجنيهين فى محفظته ووضعها فى جيب الجاكتة الداخلى وهو يكمل :

ــ وآدى يا سيدى فلوسك انت .. ياللا بر نفسك !

وبعد ان اعاد كل شىء الى مكانه بالدولاب اغلقه بالمفتاح ، وامتحنه جيدا ، ثم وضع مفتاحه فى جيب البنطلون ، ومشى مطمئنا .

وقبل ان يغادر حجرته ، تحسس صدره وبدلته وجيوبه وطربوشه برضا ، وتنفس بصوت مرتفع ، واتجه الى باب الحجرة فأغلقها بالمفتاح وخرج ..

وهبط السلم المصنوع من الطين وراى امه تذبح الديك فقال لها ــ وهو يقف على احدى الدرجات الضيقة الملتوية ــ ان الوقت تأخر ومحمود بك ينتظره ليقابل معه الحكام فى مصر ويتحدث معهم فى ماء الرى .

ثم هبط الدرجات الباقية ووقف الى جوار امه ..

وعادت امه وسالته ان كان يستطيع ان ينتظر ليحمل معه الى خاله الشيخ حسونه هذا الديك وبعض الفطائر والرز المعمر .

فضحك محمد افندى وكرر لها ان الوقت راح ومحمود بك ينتظره فى المحطة على قطار الظهر ..

وقبل يد امه .

وقالت له وهى تقبل يده :

ــ روح يا بنى مع السلامة ربنا ينجح مقاصدك ! ربنا يجعل لك الهيبة والمال بالويبة يا محمد يا ابن بطنى ..

وفك محمد افندى قيد جحشته وامسك بلجامها وخرج بها من الدار ، ووقف على الباب ينتظر عودة اخيه ، وامه تسأله ان يذهب الى خاله الشيخ حسونة فى شبرا ليبيت عنده .

ولمحت له امه ان يطلب من خاله ان يزوجه احدى بناته ، وقبل ان يجيبها محمد افندى مرت به احدى جاراته وهو واقف على باب الدار بالبدلة والجحشة فى يده .. فسألته جارته ان يشترى لها شيئا ان كان ذاهبا الى المركز .. فقال لها باقتضاب وضيق :

ــ انا رايح مصر ..

وابدت جارته دهشتها لسفره هذا المفاجىء ، وطلبت منه ان ينتظر حتى تحضر زواده لابنها الذى يعمل فى مصر على عربة حنطور ..

وبدأت تعاتبه لأنه لم يقل لها قبل السفر بوقت كاف .

وتذكر محمد افندى ان كثيرين يمكن ان يحملوه اشياء لأولاد البلد الذين يعملون فى مصر ، وتصور نفسه يذرع القاهرة من بولاق الى شبرا الى الناصرية الى الجيزة بأحماله هذه وملأه الارتباك وهو يفكر فى انفة محمود بك وسرعة غضبه .

كيف يسافر معه ويركب الى جانبه وهو يحمل المقاطف والقفف ؟.

وكيف يستطيع أن يدبر وقته ليلقاه فى مقهاه المفضل بالعتبة الخضراء ومعه كل هذه الأحمال ؟

وفجأة صرخ فى جارته :

ــ يا وليه هو انا رايح ازور السيدة زينب ؟ ده انا رايح اقابل الحكام !

وبوغتت جارته وقالت فى ضحكات متكسرة :

ــ شى لله يا ست ! انت رايح تزور الحكام ؟ الحكام اللى فى مصر ؟ طب وماله تاخد معاك زوادة . ان شاء الله تصبح من الحكام يا محمد يا ابن قطايف .

وقالت امه فى ضراعة وتوسل :

ــ ان شاء الله يا اختى من حنكك لباب السما .

واذ ذاك اقبـل دياب ليقول لمحمد افنـدى انه لم يجد محمد ابو سويلم .

وسكت دياب قليلا قبل ان يقول متمتما ان وصيفة لا تعرف اين ذهب ابوها ، ولكنها تدعـو الله لمحمـد افندى ان يبلغه مصر بالسلامة

وتأمل محمد افندى فى وجه اخيه وهو يتكلم وحسبه يعرض به .

وكان وجه دياب منكسـا ، ولـكنه كان جامدا .. اغبر كالارض لا يختلج بشىء !

ونظر محمد افندى فى سـاعة يده بحركة متكبرة ، متأنقة وهـو يقول :

ــ ياه !! الساعة بقت عشرة و١٢ دقيقة والبيه حايستنانى قدام شـباك التذاكر .. حايكون هنـاك فى محطة المركز السـاعة الواحدة بالضـبط ..

وتحرك محمد افندى مسرعا وتحرك اخوه وراءه ممسـكا بلجـام الجحشة ، وانطلقت الدعوات بسـلامة الوصـول من فم امه وجاراته اللواتى تجمعن ووقفن على ابواب الدور .

وسألته بعض النساء ان يقرأ لهن الفـاتحة عند السـيدة زينب او الحسين ، او الامام الشافعى .

وفى الطريق مال محمد افندى على دكان الشيخ يوسف ، فسـلم عليه وطلب منه ان يحمل السلام الى عبد الهادى ومحمد ابو سويلم .

وتمنى له الشيخ يوسف ان يوفق فى مهمته ، وأن تنتج العريضـة ثمرا ، وسأل الله له السداد بحق الست الطاهرة السيدة زينب .

وتحرك محمد افندى لينصرف ، وكان الشـيخ يوسـف ما يزال ممسكا بيده وقال له مداعبا وهو يترك يده :

ــ حاسب على نفسك من مصر يامحمد افندى ! انا عشت فيهـا وعارفها اوبيس ! حاسب على نفسك دى بلد باكسة وبحرها غويط ! ارجع اوام ! .. اوعى تجيب معاك حاجة من مصر !

وادرك محمد افندى دعابة الشيخ يوسف ، ولم يتقبلهـا ، فقـد كان يضيق بالذين يعرضون علاقاته بالنساء .. فقـال ضاحـكا وهو يتعمد ان يجرح الشيخ يوسف :

ــ يمكن اجيب عدل لبنتك يا شـيخ يوسف ! ارجع لوحدى ليه ؟ يمكن اجيب لها عريس !.

ولم يضحك الشيخ يوسـف ، وابتسم ثلاثة من الرجال كانوا يقفون بلا عمل امام دكانه وعندما غادر محمد افندى الدكان ، التفت الشيخ يوسف الى من حوله قائلا فى شبه همس :

ــ عجايب ! بقى مش عاجباه بنتى ؟ بينقرز عليهـا .. هو حضرته فاكر انى انا ارضى اجوزها له ؟ والله دى لو كمـلت حتى ٢٥ سـنة من غير جواز ما ارضى اديها له ! .

وكان الذين يقفون امام الدكان ، يعرفون على الرغم من كلامه الكثير انه يحلم بان يصبح ويمسى فيجد محمد افندى زوجا لابنته الشاحبة الجافة العود التى تحمل سقم وجهه النحيل العابس ..

غير ان احدا من الواقفين لم يقل شيئا .

واستمر الشيخ يوسف يقول كالهامس :

ــ دى بنت متربيـة على الغـالى يا جدعان ! ده انا مخبيهـا من سن ١٢ .. دى متربيـة على الغـالى قوى والله ! دا انا مخلفهـا ايام ما كنت باكل ثلاث ارطال لحمـة فى اليـوم ! ايام العز الاولانى ! فى الهيصة بتاعة الزمان الاولى !

كان الواقفون امام الدكان يعرفون أن نسـاء بيت الشـيخ يوسـف لا يخرجن الى الطريق كالقرويات بل يخرجن فى الليل والحجاب على الوجوه .

وقال احد الواقفين :

ــ اه ! .. دى بنت اصول يا عم الشيخ يوسف .

وارتاح الشيخ يوسف لهذا الكلام فاكمله :

ــ امال ؟ مش تقولى اجوزها لـى محمد افندى بتاعكم !

ومسح وجهه النحيل براحتيه ، ثم هز راسه وعيناه تلقيان نظرات ساخرة على الطريق امام الدكان :

ــ جحشة معتبرة ، وبردعة قطيفة ، وركبة ملوكى ! والله عال ! بقى انت يا واد يا محمد افندى يا ابن الحمار رايح تقابل الحـكام فى مصر ؟ حكام ايه يا اخواتى ؟ حكام ؟ يقـابل مين يا عم ؟ بقى انت اللى حاترجع لنا الميه ؟ . طيب لما نشوف آخرة العريظة دى يا بلد ! . هوه حد عارف العريظة فيها ايه ؟ حد عارف مختمين البلد على ايه ؟ يمكن مختمينها على كمبيالة ؟ . حد كان قرأ العريظة ؟ ما يمكن تكون مفرز وانعمل فى البلد ! آه يا بلد ! ..

وتلفت الواقفون على باب الدكان الى بعضهم فى رعب مفـاجىء ، وبدأت تساورهم الشكوك المخيفة الغـامضة ، والـكلمات تنفجر من اعماقهم تحمل كل الحيرة والاضطراب : من يعرف ؟ من ؟ .

هل يستطيع محمد افندى ان يقابل الحكام فى مصر ؟.

هل يعرف احد ما فى العريضة ؟

ان احدا فى القرية لم يقرا العريضة ، وحتى الشيخ الشناوى الذى كان يجمع الناس والاختام بحماس بالغ .. لم يقرا هو نفسه كلمة واحدة من العريضة .

انه يعتقد فقط انها طلب الى الحكومة لتعدل مواعيد الرى .

ولكن الشيخ الشناوى هذا جمع الناس ذات يوم من الحقول ليعطوا اصواتهم لهذه الحكومة ، وقال لهم ان بيدها الخير ، وان قدومها قدوم سعد !!

وكانت الحكومة نحسا على القرية :

فصلت محمد ابو سويلم من مشيخة الخفراء ونقلت حسونة الرجل الفاهم وسجنت بعض الرجال وحجزت على ارض الكثيرين نظير الضرائب ، واخيرا حرمت مياه الرى على الفلاحين ! ومن قبل امتنع الفلاحون عن اعطاء اصواتهم لها وسمعوا كلام الشيخ حسونة ومحمد ابو سويلم وحسبوا انها ستمشى .. ولكنها بقيت مع هذا على قلوب الناس كالحمل الكريه ! اتراها ستظل باقية تحرم الفلاحين من ماء الرى ، وتميت الأعواد الخضراء التى ستحمل الكيزان والطعام ذات يوم الى الدور ؟ !

على اية حال سيبين كل شىء بعد عودة محمد أفندى من مصر .. لقد اوشك دور المياه الجديد ان يقبل وستعرف القرية الى اى حد افادت العريضة : أيظل خمسة ايام كما تشاء الحكومة فتعطش نصف الأرض ، او يعود — كما كان من قبل — عشرة ايام .

ولئن لم تفد العريضة فماذا يستطيعون هم ان يصنعوا ؟

ايمكن ان يتركوا الحكومة تأمر كما تشاء ، ويبقى ما فى القلب فى القلب كما قال لهم محمد ابو سويلم يوم كتابة العريضة ؟

ولكن .. لو انهم رووا الأرض على الرغم من أوامر الحكومة فماذا يكون ؟ امن الممكن ان تلم الحكومة رجال القرية وترميهم فى السجن !

وماذا بعد ؟ لا احد يعرف !

ماذا يصنعون اذن ؟

لا الشيخ يوسف ، ولا عبد الهادى ، ولا محمد ابو سويلم ، ولا احد على الاطلاق يعرف ماذا يجب أن تصنع القرية !

اتترك لوزات القطن تذبل امامها بالآمال ، واعواد الاذرة الغضة تصفر وتموت عودا بعد عود ؟ .

اتترك تعبها وعناءها وعرقها كله يجف على الأرض العطشى ؟

ام تراها ترافع الفؤوس على الرغم من كل شىء ، وتقطع الترعة وتدير السواقى على الجسر ، وتضرب رجال الحكومة حين يقبلون ؟!.

ان الحكومة تستطيع دائما ان ترسل رجالا آخرين ! تستطيع ان ترسل رجالا يلبسون الطرابيش والبدل الصفراء المخيفة ويمسكون البنادق !

ومازالت القرية تذكر ما صنعته الحكومة فى أيام الانتخابات عندما رفضت القرية أن تنتخب حزب الشعب .

* * *

وحين كان الشيخ يوسف والرجال يتحدثون فى كل ذلك كان محمد افندى قد بلغ آخر القرية واول الطريق الضيق الى الجسر ... وقف على حجر مرتفع فى الطريق ووثب على ظهر الجحشة ، واخوه يحاول ان يسنده وأن يضع حذاءه فى ركاب البردعة ..

وانطلقت الجحشة بمحمد أفندى تركض متوثبة وعنقها الرشيق الملىء يتثنى فى اللجام ، ومن ورائها يجرى دياب .

والتفت محمد أفندى وراءه فوجد القرية بمئذنتها وبيوتها الصغيرة السوداء تبعد عنه فى بطء ، فزحف عليه احساس بالوحشة وبدا يشعر حقا انه سيغترب !

وهز رأسه ، وحرك قدميه ، كأنما يريد أن يهرب من زحف مشاعره . واسرعت الجحشة تجرى .

وعاد محمد افندى ينظر الى الوراء ، فرأى اخاه دياب يجرى فى سرعة شديدة حافى القدمين فشد محمد افندى اليه لجام الجحشة لتبطىء وبدأ دياب يخفف من سرعة العدو .

وقابل محمد أفندى فتاة تحمل جرة فارغة فى طريقها الى النهر ، فاستدارت الفتاة ، وتنحت عن الطريق ، ودخلت أحد الحقول ، ووضعت جرتها على الأرض ، واحنت راسها الى الجرة ، وظهرها الى الطريق ..

واغتبط محمد أفندى لما صنعته الفتاة ، وتفاءل خيرا بينه وبين نفسه . ثم سأل أخاه عن الفتاة فقال له دياب انها ابنة الشيخ الشناوى.

فاستطرد محمد أفندى يمدح تربية الفتاه : فقد خافت ان يقابل محمد أفندى فى الطريق جرة فارغة ، فتكون الجرة الفارغة دليل شؤم وهو ذاهب يسعى فى حاجة له وللناس ..

وابتسم دياب راضيا .

كان دياب — كغيره من اهل القرية — يستشعر مخاوف كثيرة غامضة من المجهول ، ويتشاءم ويتفاءل من اشياء عديدة لايفهمها .

وقال دياب انها ابنة سيدنا الشيخ الشناوى : تحسن الفهم ، وتدرك أسرار الأشياء ، كأبيها !

ولم يجب محمد افندى ، واخذت قدماه تبتعدان عن جانبى الجحشة ثم تلتصقان بهما ..

وقفزت به الجحشة وهى تصعد الى الجسر مسرعة ثم استقامت فى الطريق الواسع الى عاصمة الاقليم .. واسرعت الجحشة فى جريها الى الجسر ، ومحمد افندى يلتفت عن يمينه وشماله ليلقى السلام على كل من يلقاه .

وقال دياب لنفسه وهو ينظر الى الحقول وراءه :

ــ احنا خلاص طلعنا من البلد .

كانت هذه حقيقة واضحة ، فالجحشة قد جاوزت زمام القرية ، وبقى امامها خمسة قرى حتى تصل الى عاصمة الاقليم .

وارتفعت الشمس قليلا ــ وقدما دياب تغوصان فى تراب الطريق ــ وبدأ يلهث وهو يتابع الجحشة فى ركضها المتوثب . الذى يثير على عينه حبات الغبار .

ولم يعد دياب يقول شيئا ولم يكن محمد افندى هو الآخر يكلمه .

نظر محمد افندى الى النهر الصغير : يستدفع فيه الماء على موجات هادئة مترعة بالطمى .

وقال محمد افندى لنفسه وهو ينظر الى الماء الذى كاد يبلغ الجسر :

ــ الفيضان جامد !

فرد دياب :

ــ امال حايشين منا اللميه ليه ؟ اياك تنحاش روحهم .

وسكت محمد افندى وسكت دياب ..

واخذ دياب ينظر امامه على الجانبين .

وكان يشعر بالارتياح كلما راى شجرة على الطريق ، فالسخونة قد بدات تسرى فى التراب وتلفح قدميه ، والصهد يشوى كل بدنه ووجهه .

وكان يتمهل كلما ظللته شجرة ويمتع قدمية بملمس التراب البارد الرقيق .

وسرح دياب يفكر فى امر طريق الجسر هذا . انه يشوى الاقدام لكثرة التراب الدقيق فيه ! لو ان الحكومة اصلحته ، واهتمت بهذا الموضوع بدلا من اهتمامها الفارغ باخذ ماء الرى من الحقول العطشانه !.

وهز دياب راسه وهو صامت .

وكان اخوه صامتا .

والشمس تلهب الطريق ، ودياب مشغول بالتفكير فى هذا الطريق الى المركز .. انه صعب كالمركز نفسه !

انه يشعر بسخونة تؤلمه فى هذا الطريق ، هو الذى لا يكاد يشعر بالسخونة فى ارض قريته السخية بالتراب الدسم .

ولم يكن محمد افندى ملتفتا اليه .. كان لديه زاده من الافكار !

وفى منتصف الطريق قال محمد افندى :

ــ نجوزكشى بنت سيدنا يا واد يا دياب بعد ما نبيع القطن ونخلص ! .

فسكت دياب قليلا ثم قال بجفاف :

ــ قطن ؟ وان ما بعناش القطن .. يعنى مافيش جواز ؟ هيه قلة فلوس ؟

ولم يجب محمد افندى.

وعاد دياب الى صمته ، ثم اسرع فى جريه وراء الجحشة حتى اصبح الى جوارها وهو يقول :

ــ ويعنى انا لما آجى اجوز مالاقيش غير بنت سيدنا ؟ هيه حيلتها اللضى ؟ دهدى !.. ماتتجوز واحد فقى زى ابوها !

فالتفت اليه محمد افندى قائلا :

ــ يعنى حانجوزك بنت السلطان ياخى ؟ جاتك الغم فى كبر نسك .. ومالها بنت سيدنا ؟

وسكت دياب .

وتنحنح محمد افندى قبل ان يقول مبتسما :

ــ وللا يعنى ما ينفعشى معاك الا خضرة ! نجوزك خضرة ؟ !

وزم دياب شفتيه فى احتجاج ولوى راسه قائلا :

ــ دهدى !

وسكت دياب من جديد .

وظلت الجحشة تجرى ، والمراكب المحملة بالقال والبلاليص والاحجار والتبن تخطر على صفحة النهر من حين الى حين .

كان الصمت اللاهث يخيم على كل شىء .. والحقول تمتد تحت حرارة الشمس الى جوار الجسر ، وعلى راس الحقول تتناثر اشجار هجرتها العصافير .

وبعد ان جاوزت الجحشة ثلاثة بلاد بدات الحياة تدب على الجسر . فالسواقى تدور ، والاصوات المختلطة ترتفع ، والرجال يعملون .. واخذ محمد افندى يلقى عليهم السلام وهم يمهدون القنوات للماء فيسيل بالراحة من النهر الى الحقول .

وقال دياب متعجبا فى حنق :

ــ الله ! يعنى السواقى دايره هنا اهيه بتروى ارض الباشا ؟ يعنى ارضـــنا احنا هى اللى كفرت ؟ ماهى الميه عاليـة ودول حتى بيرووا بالراحة من غير سواقى ! اشمعنى هنا ؟

ولم يجب محمد افندى وهز راســه ، وتحسس جيوبه ، وهز قدميه على جانبى الجحشة ، وظلت الجحشة تجرى وتجرى .

وعندما اقتربت الجحشة من مدخـل المركز كانت الشـمس تكاد تتوسط السماء وترسل وهجا يلفح الحقول واجساد الناس وانفاس الحر تشوى الفضاء .

واحس دياب بتراب الجسر كانه رماد نار ما زالت تشتعل ، وباعد قدميه عن الارض وهو يثب عن الارض ، وارتفع صوته فجأة :

ــ ومحمد ابو سويلم ماله ياسى محمد افندى .

فقال محمد افندى دون ان يلتفت الى دياب :

ــ ماله ؟

وجرى دياب حتى اصبح الى جوار الجحشة ــ وحاول ان يضـع يده على ذيلها ، واستمر يقول فى صوت مرتفع :

ــ يعنى ماله محمد ابو سويلم يعنى ؟ يعنى مش نسبه احسن من سيدنا ؟ يعنى لما تنـاسبه يجـرى ايه ؟ ما آخـد بنته ! د ى بنت بالمعنى صحيح ! حلوة وزى لهطة القشـطة ! ماتخدلى وصـيفة من دلوقتى . وانا لسه حا اسـتنى القطن ؟ ده انا دافع بدلية الجهـادية عامنول ؟ الواحـد كبر ومالوش يسـتنى كده من غير جواز ! ما تقرا لى فاتحة وصـيفة ياسى محمد افندى واهى ارض الشــيخ يوسـف اللى احنا راكبينها جنب ارض ابو سويلم سوا ! ومسير ارض الشيخ يوسف تبقى بتاعتنا والواحد يعنى يبقى يحرث بالطول وبالعرض ..

وضحك دياب وهو يتـكلم واشرق وجهه على احـلامه ؛ اما محمد افندى فقد فوجىء بكل ما يقوله اخوه دياب .

ونظر الى دياب يسأله متمهلا باستنكار خفى واستكذار :

ــ عاوز تتجوز وصيفة ؟ ..

فقال دياب ببساطة ووجهه فى الارض :

ــ اى نعم .. قشطة .. زى اللبن .. زى مترد اللبن الصـابح !

وبلع ريقه وزم شفتيه ولم يقل شيئا بعد .

فسكت محمد افندى هو الآخر وهز راسه وشرد .

وتقدمت الجحشة ، وبدات ارجلها تقرع ارضا ممهدة . وامتلات

اذن محمد افندى بقرعات حوافر جحشة على ارض المدينة واحس بالكبرياء والسـكينة .

ولم يعـد دياب يحتمل لذعات الطريق على قدمبه العاريتين .

كان الطريق مسودا بالأسفلت والصـهد الحارق يرتفع منـه كأنه فرن محمى ..

ولم يكتم دياب ضجره واخذ ينظر فى الطريق الأسـود المتوهج والعرق يسيل من جبهته ووجهه وكل جسده ، واللسـعات ترهق قدميه وصاح :

ــ دى السكة بقت ولعة ! قطيعة تقطع المركز على أصـحابه ، انا عارف الناس بيمشوا ازاى عالولعة دى .

ثم همس لنفسه :

ــ يا ريتنى جبت البلغة !

واخذت الجحشة تضطرب فى سيرها والعربات تزاحمها . واربكتها ابواق السيارات واجراس الحناطير وقرقعة السـياط ، واجفلت عـدة مرات واوشكت ان تقذف بمحمد افندى على الأرض .

واضـطربت نظرات دياب بين صـفوف البيوت والدكاكين على الجانبين ، وامتلأت خياشـيمه برائحـة الطعمية ، فانتشى . واعجبه منظر ارغفة القمح المعروضة أمام واجهة الدكاكين .

وظل يلتفت حوله وأوشكت رأسه أن تدور من ازدحام المناظر .

وقطع محمد أفندى تأملات دياب فقال وهو ينظر فى سـاعة يده بعظمـة ..

ــ لسه فاضل ساعة على ميعاد محمود بك . خذ الجحشة بقى انت وارجع يا دياب وأنا حاأكمل على رجليه .

ومال الى أحد جانبى الطريق وهبط من على ظهر الجحشة وهو يوصى اخاه بها وبحجرته الخاصة فوق السطح .

وعندما سلم عليه عاد محمد أفندى يقول :

ــ ابقى اركب الجحشة وانت راجع ..وما أوصكشى تانى عليها وعا المقعد . خليه مسكوك على طول وخد بالك من الشغل ياذياب . انت سنك عشرين سنة . يعنى مابقتش صغار . انا راجع بعـد حسبة يومين تلاتة . سلم على أهل البلد واحد واحد . سلم على عبد الهادى وأبوك محمد أبو سويلم . وخد بالك من امك يادياب . اوع تزعلها والا تتخـانق وياها وانا مسافر ! اوع تناكفها وأنا غايب .

ومرة أخرى سلم محمد أفندى على دياب ، وقبل دياب يده .

ومشى محمد أفندى يتحسس بدلته وجيوبه ..

وثنى دياب لجام الجحشة ، وسحبها حتى خرج تماما من المدينة وهو يمشي على حذر ٠

وعندما وجد الحقول أمامه ، وثب على ظهر الجحشة ، وشعر بجسده يرتاح على البردعة القطيفة السخنة .

وأخذت الجحشة تنطلق على الطريق الواسع ٠

وأدار ظهره الى المدينة ، فملأته الرهبة ٠٠ وحاول أن يتبين أخاه فى شوارع المدينة ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا غير البيوت العالية ذات الطوابق والعربات والزحام ..

ووجد نفسه وحيدا والمدينة تبتعد عنه فصاح فجأة كأنما تذكر شيئا مهما :

ـ الله !! يعنى ما خدتش منك عقاد نافع يا محمد أفندى ؟ الله يعنى ناوى تحوشلى وصيفة والا لا ؟ عاوزين نقرا فاتحة وصيفة يا اخواتى .

وتخايل على الجحشة فى كبرياء ، وعيناه تمتلئان بصورة وصيفة ، وجسدها الأبيض الطويل الربراب كالقشطة ، ووجهها الرائق كالفل ، وفكره يسرح فى أرض الشيخ يوسف التى تجاور أرض أبيها ٠ وأمامه يمتد الطريق الواسع الى القرية ٠

وظلت الجحشة تعدو وتعدو على طول الجسر ٠٠ نفس الجسر الذى كان دياب يجرى حافيا على ترابه الملتهب منذ لحظات ٠

وكان دياب يعيش لساعته فى مشاعر سعيدة واحساس فائق بالامتياز وهو فوق ظهر الجحشة الفارهة المطهمة التى تشبه الحصان العربى الأصيل ٠

ولكنه لم يكد يبتعد قليلا عن مدينة المركز ، حيث ترك أخاه محمد أفندى حتى دهمه شعور مباغت بالوحدة والفراغ ٠

واخذت الوحدة الداكنة تلح عليه ، وهو يضرب فى صفرة النهار ذى الصهد .

وتمنى لو أنه استطاع أن يمنع أخاه من السفر ٠

ومع ذلك فقد ظل يهز قدميه الحافيتين ، ويهمز بطن الجحشة بكعبه الجاف ، فتجرى الجحشة وتجرى ٠

كانت الشمس تتوسط السماء الزرقاء المفرغة من الغيوم ، وفى وهجها يذوب كل شىء حتى الظلال ! ٠

ومر دياب برجال على مسافات متباعدة يستريحون تحت أشجار على الجسر ، فحياهم واحدا بعد واحد وكانوا يردون التحية بفتور ٠٠ لم ينشطوا للرد عليه كما فعلوا مع محمد أفندى ٠٠٠

وفى تلك الساعة من النهار لا ينبض الجسر بحركة على الاطلاق ، ولا يستطيع العابر الغريب أن يتلقى حلاوة الأصوات تحييه وترحب به فى احتفاء ، مؤكدة ـ فى خشونتها وصدقها ـ أن الانسان على الرغم من كل شىء ، ليس وحيدا فى عالم الحقول ! ٠

وظلت الجحشة تعدو بدياب من أرض قرية الى أرض قرية أخرى ، وما زالت الكآبة تخنقه ٠

وتذكر أنه فى هذه الساعة الهامدة المتوهجة من سكون النهار ، يظهر الجن الاحمر الذى سمع عنه طويلا وهو طفل ٠

وحاول أن يصفر نغما من موال حزين ولكن همساته لم تنطلق ، وفاضت فى نفسه سكينة الموت ، والجحشة تقترب به من أرض قريته ٠

وعندما بلغ من الجسر أول الطريق الضيق الذى يفضى الى دور قريته شد لجام الجحشة باحكام ، فتوقفت به قليلا ، وألقى نظرة سريعة على صفحة النهر التى تسطع فى بريق خاطف تحت قرص الشمس ، وتعبت عيناه من سطوع الضوء الخاطف على الماء ، فأرخى لجام الجحشة ثم انحدر الى طريق القرية وهو يفكر فى أخيه محمد أفندى وفى وصيفة التى يستطيع أن يتزوجها على الفور لو أن أخاه قال لأبيها كلمة واحدة ٠ ولمح دياب من بعد فتاة تنحدر على الطريق الضيق ٠٠ لم تكن مجرد فتاة من القرية تعود من على الجسر بجرتها المملوءة .

كانت تتمايل وتهز خصرها على غير عهده بنساء القرية ..

وكانت على غير عهد بالقرويات أيضا : تلبس جلبابا ملونا ، وتسند جرتها المائلة بيد مكشوفة بضة تلمع فيها أساور من زجاج أخضر ٠

وخفق قلبه ، وزايلته وحشته لبعض الوقت ، وهمس لنفسه بفرح :

ـ وصيفة !! يا وعدى !

وشد جسده بخيلاء على الجحشة ، وفتح صدره بفروسية ، ولكز بطن الجحشة بكعبه فى قوة ، ومد يده تحت البردعة فقرص ظهرها ٠

ووثبت الجحشة فجأة ، ورفعت رأسها ، ونهقت ، وأخذت تجرى كما لم تجر من قبل ، وتثير الغبار الكثيف ٠

وشعرت الفتاة بضجة الجحشة ، فاستدارت ـ بحركة بارعة حاذقة لتلقى بعض الماء من فوهة الجرة فى دلال ، وغندرة ٠

ورفعت عينيها مبتسمة ٠

واذ رأت دياب على ظهر الجحشة المطهمة ، أطلقت ضحكات متوالية ، ثم قالت بصوت مرتفع ، وهى ما تزال تضحك :

ـ هوه انت يا دياب ؟ وجاى ترمح ورايا وترهون كده ليه يا منيل ؟٠ يعنى دياب ابن غانم يا خى ؟ وللا يعنى فاكرنى السفيرة عزيزة جاى كده بالهرجة والمرجة ؟ ٠

وفوجىء دياب بصوتها وهو يقترب منها فقال بجفاف وخيبة أمل :

ـ الله ! خبـــر ايه يابت يا خضرة ! ايه الجـلابية دى ! خيلتينى داهية تخيلك ؟.

واستمرت خضرة تطلق قهقهات خشنة بذيول خليعة،وامسكت لجام الجحشة واوقفتها ، لتقول لدياب أنها أرادت أن تغسل جلبابها اليوم ، وحاولت أن تقترض جلبابا تخرج به لتملأ جرة زوجة شيخ البلد فلم تجد فتاة أو امراة فى القرية ترضى باعارتها الجلباب ٠٠ الا وصيفة ! ٠

وسكتت قليلا وحاول دياب أن ينحى يدها عن لجام الجحشة فتمسكت به ، وسألت دياب وهى ما تزال تضحك :

ـ جبت لى حاجة من البندر ؟ ما جبتش رغيف قمح والا طعمية ؟ ماجبيتش حاجة ؟ ٠

فهز قدميه على بطن الجحشة لتنطلق ، وقال وهو ينحى يدها عن اللجام :

ـ حاجة ايه ، ياك تنحوجى ٠

ثم ضحك ، وتوقفت خضرة عن الضحك بغتة ، وتركت اللجام بهدوء وتراخت يدها الى جانبها ودهمها الكدر وغشيت وجهها صفرة وانخفض صوتها وقالت بمرارة :

ـ ليه كده يا دياب اخص عليك !! ما كفاية حوجة ٠

وتنهدت . ولاحظ دياب تغيرها فاراد أن يصالحها وقال ببرود :

ـ تيجى العصر عند الزريبة تاخدى لك زرين خيار ؟.

فقالت باهمال وما زالت المرارة فى حلقها :

ـ يعنى عايز منى الشىء الفلانى ؟!

واضطرب دياب أمامها ، وداری اضطرابه فى قهقهة متكسرة جافة بلا رنين ، وهز اللجام لتنطلق به الجحشة ٠

وعندما تحركت الجحشة أمسكت خضرة جرتها بيد ثم تقدمت من دياب مسرعة ومالت على ظهره بقبضة يدها الأخرى فضربته ضاحكة ثم تركته يمضى ٠

وسارت به الجحشة وخضرة تشيعه بكلمات خارجة أخجلته ٠

وعادت خضرة تضحك فى استسلام وتطلب منه أن يحضر لها الخيار وبعض القثاء . وتابعت مشيها تهز عودها الجـــاف وتهز معه صدرها المستهلك الضامر المترهل ، والضحكات تشيع بلا معنى فى وجهها الأصفر الذابل ٠

وظل دياب يسمع كلماتها الجارحة والجحشة تدخل به القرية ٠

لم يجد فى الطريق احدا على الاطلاق الا وهج الشمس والدجـــاج : لا ظل ، ولا ناس ! ٠

ورأى من وراء أبواب الدور المفتوحة بعض العجائز يستلقين عـــلى الأرض تحت العتبات يتثاءبن ويعبثن فى شعور نساء أخريات ويفلين الصغيرات ٠

وكان دكان الشيخ يوسف مغلقا والمصاطب على طول الطريق تتوقد فوقها الشمس ٠

وهكذا ظل دياب راكبا حتى وصل الى داره فنزل أمام العتبة وسحب الجحشة ٠

وقامت اليه أمه تسأله فى لهفة ان كان محمد أفندى قد ركب القطار ، فاجابها فى صوت خشن هادىء :

ـ آه ركب ! ٠

ورفع البردعة عن الجحشة ، وأخذ يمسح العرق من على ظهرها بيده دون ان ينظر الى أمه .

وقامت أمه تسأله من جديد ان كان أخوه قد ركب القطار حقا أمام عينيه ، فقال دون أن يلتفت اليها :

ـ ما قلت لك ركب ! دهدى ؟! ٠

فقالت أمه فى سكينة :

ـ طيب يا ابنى ربنا يكفيكو شر المخبى فى الغيب ٠

واهتز دياب أمام كلمات أمه وأحس بالشوق الى أخيه يلح عليه ٠

ووضع أمام الجحشة كمية كبيرة من الفول والتبن أكثر من المعتاد ، ووضع أمامها طشتا فيه ماء نظيف ، ثم ربت على ظهـــرها فى عطف ، وتركها ٠

ورفع ذيل جلبابه ومسح به عرق وجهه ، وطلب من أمه أن تحضر له الغذاء ٠

وجلس على المصطبة الكبيرة فى مدخل الدار فأكل فى صمت ،

لم يرتفع طوال الأكل غير صوت أرغفة الذرة التى تتكسر ، وصوت البصل عندما يقضم ٠٠ وبعد أن أكل دياب مسح فمه بيده ، وتكرع ، وساق أمامه الجحشة الى الحقل ٠

لم يكن دياب طفلا صغيرا بعد ، ومع ذلك فقد ظل فى الحقل وحده : يعانى الخواء الرهيب الذى يعذب طفولة الصغار ، عندما يغيب عنهم فجأة أب أو أخ كبير يقودهم فى كل طريق ، ويعرفون من خلال نظراته المشجعة الحانية كثيرا من أسرار الحياة !.

وفى الحق أن دياب لم يكن يصنع شيئا غير ما يأمره به أخوه الأكبر محمد أفندى ٠

محمد أفندى هو الذى يفكر دائما ، وهو الذى يهتدى الى حلول تبهر دياب عندما لا يستطيع فهم شىء .. حتى فى سوق المدينة المليء بالمؤامرة والمناورة ، يشترى هو البهائم ، ويبيع بسهولة وبلا اكتراث ، وهو الذى يقترح على دياب أن يزرع الفول بدلا من البرسيم أو البرسيم بدلا من القمح ، وهو الذى يشترى السماد ويعرف أنواعه ومزايا كل نوع منه ٠

هو الذى يعرف كل كبيرة وصغيرة فى الحقل والدار ٠٠

ومن أجل ذلك فقد بدأ دياب يشعر بخوف ، عندما وجد نفسه وحده فى البيت ، والغيط ، والقرية ٠

كان محمد أفندى هو الحقيقة الكبرى فى حياة دياب : هو الذى يبر الأرض ويشترى عليها المزيد ، ويعرف مزاج كل قطعة ويرضيها ٠

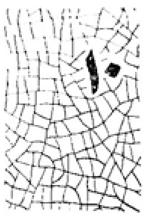
ولو لم تكن لمحمد أفندى هذه القدرة ، لما استطاع دياب أن ينتج شيئا ، ولما كانت زراعته هى أجود زراعة فى القرية ٠٠ أجود من زراعة عبد الهادى نفسه فى بعض الأحايين ٠

لكم تألم دياب عندما أحس فجأة بغياب أخيه ٠٠

ان محمد أفندى عند دياب هو كل شىء :

هو الكبرياء ، والقدرة التى يمنحها امتلاك المال ، والجاه الذى توفره المعرفة ٠

هو المستقبل ، وهو كل ما يثير الزهو فى نفس انسان ! ٠



جلس دياب بعد العصر على رأس حقله فى حوض الترعه ، وانتظر ٠

واخذ يتأمل الطريق الضيق، وفى يده الخيار والقثاء ٠

وقضم خيارة وتململ ٠٠ ان خضرة لن تأتى الآن ، فالبهائم أوشكت أن تعود من الحقول الى القرية ، وخضرة تعتبر هذه الساعات فرصتها للكسب ، فهى تمشى وراء البهائم وتزاحم الاخريات وتلتقط ما تسقطه البهائم من روث لتصنع منه أقراصا كبيرة تجفف فى الشمس وتوقد بها الأفران .. وصناعتها هذه تكفيها حاجتها من الطعام .

وانتظر دياب حتى بدأت الشمس تغيب ،فرمى الخيار والقثاء ، واغلق الزريبة على البهائم ، وعاد الى القرية ليبيت مع أمه ٠

لقد فرغ من عزق القطن ، ولكن أتراه ينزع كل ما بين الاعواد من شجيرات الخيار والقثاء ؟ لقد شاخ الخيار الآن ، ولبلابه الأخضر يسرق طعام أعواد القطن التى بدأت ترتفع باللوز الصغير ، أينزع هذا المبلاب من الأرض ؟ انه لا يعرف !

لقد نسى أن يسأل محمد أفندى قبل أن يسافر ! ٠

ومحمد أفندى وحده هو الذى يعرف كل شىء ، وهو الذى يحسب متى تعزق الأرض ومتى تحرث ، وهو الذى يحسب متى تروى أرض الجسر ، وحوض الترعة ٠

هو وحده ٠٠٠

ولم يحدث من قبل أن وجد دياب نفسه مضطرا الى تدبير الأمر أو التفكير فيه ٠

ومحمد أفندى يصنع أكثر من هذا ، فهو أحيانا يخلع جلبابه النظيف وحذاءه ، ويقطع القنوات ليسيل الماء فى الأرض بالقدر الذى تحتاج اليه كل زراعة ، وكان فى يده ميزان المياه .

وفكر دياب فى أن يسأل عبد الهادى عما يصنع بحقل القطن ٠

ولكنه خجل ٠

ولم يكد يصل الى داره ، حتى طلبت منه أمه أن يعود الى زريبة البهائم ليبيت مع البهائم ٠٠ أما هى فلن تخاف من المبيت وحدها فى الدار ٠



وعاد دياب الى الزريبة بالفعل ومعه عشاؤه ، وبات عليها ·· وفى الصباح واصل عمله فى الحقل . وفى الظهر حين كان يفكر فى أن يعــود الى الدار ليأكل لقمة ، رأى خضرة مقبلة تحمل اليه الطعام من عند امه ·

وتناول طعامه مع خضرة فى الزريبة ، وظلت معه خضرة الى العصر · وقامت من عنده تحمل على رأسها ربطة من الخيار والقثاء ·

ومشت مغتبطة تقضم خيارة ، وقالت لدياب وهى تسير ضاحكة أنه يجب أن يكتفى بزيارتها هى ، ولا يوجع دماغها بالكلام عن وصيفة فنجوم السماء أقرب اليه من وصيفة ! ·

وابتسم دياب ، وقام الى ظل شجرة فتمدد فوق الزريبة ، ولم يقل شيئا ·

وعاد يشعر بالوحدة بعد أن انصرفت خضرة ·

عاد يفكر فى أخيه الغائب ، ويحاول أن يدبر أمر الأرض ·

أيقلع لبلاب الخيار أم يتركه ؟ أيغيب محمد أفندى حتى تأتى دورة الأرض فى الرى ؟ وهل يروى ارض الجسر هذه المرة أم يروى حــوض الترعة ؟ ·

وأكد دياب لنفسه أن الأرض كلها لن تساوى شيئا ولن تنتج شيئا بدون محمد أفندى ·

وتقدم النهار بدياب ، وهو متمدد فوق الزريبة وغابت الشمس ·

وسيطر على دياب فى مهبط المغرب حزن ثقيل ·· ونزل من عــلى الزريبة ، وأخذ يمشى أمام بابها ، وأحس كأنما هو يريد أن يبكى ·

وفى الحق أنه لم يحتمل مشاعره ولا أفكاره ، فأغلق الزريبــة على البهائم ومضى من فوره الى القرية ·

وأمام دكان الشيخ يوسف ، وقف دياب يفكر فى أشياء كثيرة :

ان أخاه محمد افندى قد أمره منذ عامين ألا يقف أمام الدكان ··· وهو يقف الآن لأول مرة منذ أمره أخوه ، ولكنه على أية حال لن يغضب أخاه ·· فلن يشرب الدخان ، ولا المعسل ، ولا الشاى ، ولا كل الأشياء التى تعلمها هنا من وقفته أمام الدكان ·

انه قد تحدث الى خضرة لأول مرة ـ منذ عامين ـ هنا أيضا ·

ومال دياب على الدكان فوجد علوانى يقف كعادته كل مساء ليأخذ نصيب الليل من الشاى والسكر والدخان قبل أن يمضى الى حقل البطيخ الذى يحرسه . ووجد الشيخ يوسف يهز رأسه وهو يشرح للواقفين أمام دكانه مخاوف عديدة من العريضة التى حملها محمود بك الى مصر ·

كان الشيخ يوسف ما زال يتعجب لأن العمدة أعاد العريضة الى «البيه» دون توقيعه هو وعبد الهادى ومحمد أبو سويلم .

وكان ما يزال يصرخ :

– بقى فيه فى الدنيا كلها بلد تختم على عريضة من غير ما تعرف أيه اللى فيها ! هى دى كانت تجرى ! جالنا منين انهـا علشـان الميـه ! آه يا بلد ! .

وكان الواقفون يبدون موافقتهم وحماسهم لما يقوله الشيخ يوسف .

وأقسم أحدهم أنه لم يكن موافقا على ارسال ختمه الى دوار العمدة ولكن البنت امرأته هى اللى جعلته يغلط .

وأكد آخر أنه لم يذهب بختمه الا لأن الشيخ الشناوى طلب منـه الختم على حب النبى .

وقال ثالث ان الجن الأزرق كان لايمكن ان يأخذ منـه الختم ،ولكنه خاب وأرسله ، فكان ما كان ! .

سمع دياب كل هذا ، فانتزعه الكلام من أفكاره المختلطة . وفتـح فمه ليقول شيئا ، ولكن عبد الهادى أقبل بنشاط قائلا :

– السلام عليكو يا رجاله .

وضاع كلام دياب وسط عبارات الترحيب بعبد الهادى .

ونظر عبد الهادى الى دياب طويلا ولم يقل شيئا ، ولم يشعر دياب بنظرات عبد الهادى .

وكان عبد الهادى مضطربا بعض الشىء ، مكفهر الوجه .

وسمع دياب رجلا يهمس بأن الشر بائن فى عينى عبد الهادى الليلة، فتقدم دياب الى عبد الهادى يسأله ماله ، فلم يجب عبد الهادى ، ولـكنه أمسك بيد دياب فجأة ، وسار به بعيدا ليقول له أن محمد أبو سويلم سمع خضرة الآن تمزح مع وصيفة بكلمات قبيحة مفضوحة واسم دياب يتردد على ضحكاتهما ، فقام من فوره وضرب ابنته وخبط خضرة بالكف وطردها من داره ، وهددها بأن يقطع رجلها ان مدتها الى داره مرة أخرى.

ولم يجب دياب ، وظهر عليه ارتباك واضح وأخذ يبلع ريقه .

فتركه عبد الهادى وعاد الى الدكان يسأل الشيخ يوسف بسرعة ان كانت دورة الرى القادمة تحل بعد ثلاثة ايام .

فقال الشيخ يوسف بيأس أنه قد بقى يومان لا ثلاثة ، وتبدأ الدورة بأيامها الخمسة المشئومة .

وصرخ دياب من بعيد :

– يومين ؟؟ يومين بس !! ومحمد أفندى يلحق يروح ويرجع فـى اليومين دول ؟ .

وأقبل مسرعا يندس فى وسط الرجال أمام الدكان .

وزعق عبد الهادى :

– «الحكومة رايحة تعدل المواعيد فى يومين ؟ حاتلحق تقرأ العريضة وتنفذ اللى فيها فى يومين ؟ .

فقال احد الرجال الواقفين :

– حكومة ايه ياعم ؟! داحنا لازم نعرف شغلنا احنا . ان ما كنـاش نشوف لنا تسريف لرى الأرض من ورا الحكومة يبقى ان شا الله عمـرنا ما روينا ! على رأى اللى بيقول : خلى الحكومة تتحكم واللى فى القلب فى القلب !! حانمشى ورا الحكومة والعرايض ؟ .

وخلع الشيخ يوسف عمامته ذات الشال الأبيض المتسخ المفعم بلون زهرة الغسيل ، وأخذ يصلح من العمامة وينسق زرها الأزرق القـاتم وينظف بأظافره طربوشها المغربى ، وهو يقـول أنه من المستحيل أن يستطيع محمود بك ومحمد أفندى تقديم العريضة فى يومين ولئن أمكن هذا فالحكومة فى مصر لن تصلح الأمر قبل شهر على الأقل .

وشرد دياب قليلا ثم ارتفع صوته يسأل عن مصر هذه وما تكون ، وكيف لا يستطيع محمد أفندى أن يقابل حكومتها فى يومين كاملين . اليست الحكومة هناك فى دوار كدوار العمدة ؟

وقبل أن يجيب الشيخ يوسف اقترح عبد الهادى حين يحل موعـد دور الرى ان تدور كل السواقى على الجسر ، وان يقطع الجسر ليتـدفق الماء ويروى الحوض كله فى خمسة أيام .

واضاف أحد الرجال الواقفين أن الترعة أيضا يجب أن تقطع فى أكثر من مكان ليمكن رى حوض الترعة هو الآخر فى الأيام الخمسة المقررة .

ووضع الشيخ يوسف عمامته على رأسه ونظر الى دياب بعمـق قائلا :

– سألتنى عن مصر ؟ .

ثم هز رأسه واستمر يقول ان مصر الآن لم تعد تطاق .. لقد كانت مصر هى مصر بحق فى الايام الجميلة الماضية عندما كان الشيخ يوسف يعيش فيها يتعلم بالازهر .. كان لا يذهب اليها اذ ذاك الا الكبار أما الآن فقد هانت .. وأصبح أى انسان يملك جنيها أو جنيهين يستطيع ان يسافر اليها ويقعد فيها !

وابتسم عبد الهادى ونقل عينيه بين دياب، الذى لم يفهم، وبين الشيخ يوسف الذى استطرد فى رنة ساخرة :

– وعلى كل حال يا سيدى اهه على رأى الشاعر :

ولا كل من لبس العمامة يزينها
ولا كل من ركب الحصان خيال
ولا كل من قال يا فلان أنا صاحبك

فأكمل عبد الهادى ضاحكا :

ـ أى والله يا شيخ يوسف ..

والسن يضحك والقليب مليان !

وحاول علوانى ان يتحدث متملقا الشيخ يوسف فقال بطرب :

ـ يا أخويه عارف كل حاجة..عارف شعر العرب كمان . عارف كل حاجة وفاهمها زى القرد !.

فغضب الشيخ يوسف وزعق فى علوانى :

ـ قرد لما ينطك خطاف من سلسال خطافين ، امشى انجر من هنا واوعى تهوب ناحية الدكان تانى ! ايه الملافظ دى ! قرد ؟ ياك تنقرد !.

وبهت علوان ووقف يعتذر ، ويحاول أن يشرح وجهة نظره غير أن الشيخ يوسف قطب وجهه ولم يفرجه تلك الليلة .

وابتعد علوانى آسفا فجلس وحده على الجميزة الملقاة فى الفضاء أمام الدكان . واراد دياب أن يغير الحديث .. وفى الحق انه اراد أن يريح قلبه فسأل الشيخ يوسف ، ان كان من الممكن ان يتسلم فى الغد خطابا من محمد افندى ، فقال الشيخ يوسف بضيق ان هذا مستحيل ، فالخطاب يصل من مصر الى القرية بعد ثلاثة أيام بالقليل !.

فاعترض دياب على هذا ، وهز الشيخ يوسف راسه واخذ يفسر له الأمر فى عصبية وضيق .

ولكن دياب عاد يصيح فى الشيخ يوسف ان محمد أفندى يجب ان يرسل اليه خطابا بسرعة ويجب عليه أن يتسلم هذا الخطاب قبل بدء دورة الرى ليعرف راسه من رجليه ، ويفهم أن كان يبدأ فى رى ارض الجسر او حوض الترعة .

ولم يجب الشيخ يوسف وتململ بصوت مرتفع ..

وانتهز علوانى المناسبة فعاد الى مكانه امام الدكان واعترض على دياب، قائلا :

ـ يا اخى افهم الكلام الحلو اللى بيقوله أبوك الشيخ يوسف ! يا اخى اسمع الكلام !.

وسكت الشيخ يوسف ، ونظر علوانى بحيرة ..

اما دياب فلم يسمع الكلام ، ولم يصدقه ، ولم يرد أن يناقش فيه .

وفى اليوم التالى،لم يكد الضحى ينفض من على الحقول ندى الصباح،

حتى كان دياب يقف عند صندوق البريد الكبير المثبت فى سور دوار العمدة .

وبعد ساعة من الانتظار ، انفقها جالسا على الارض يلعب «السيجة» مع عبد العاطى .. رأى ساعى البريد مقبلا من بعيد .

وتحرك عبد العاطى ـ وهو الخفير المكلف باستلام البريد ـ ووقف الى جوار الصندوق تاركا خطوط السيجة على الأرض ، وقطع الطوب الحمراء التى اختارها لنفسه ثابتة فى أماكنها وقام دياب من لعبة السيجة وهو يرمى آخر نظرة على قطع الطوب السوداء التى اختارها لنفسه ، مغتبطا بقدوم ساعى البريد فى هذه اللحظة بالذات ، لان كلاب عبد العاطى الحمراء ، كانت قد اكلت معظم كلابه السوداء ، واوشك عبد العاطى أن يغلبه دورا يسقط مكانته فى لعبة السيجة بين الرجال .

وقام الصغار الذين كانوا يشاهدون السيجة ـ باهتمام ـ فالتفوا حول الصندوق كما تعودوا أن يصنعوا كل يوم .

وتقدم الحمار العجوز الأزرق بساعى البريد ، مطاطىء الراس ونزل الرجل ببدلته الصفراء المتربة ، وحقيبته الكبيرة المهلهلة ، وطربوشه المتسخ المتآكل الحواف يستقر فوق منديل كبير مخطط يغطى قفاه وجبهته .

وطوى الرجل شمسيته المرقعة السوداء واعطاها لعبد العاطى واقبل على حقيبته المترهلة فدس فيها يده ، وبدأ يتحسس الأوراق فى بطء وأناة .. وساله دياب قبل أن يخرج يده بالمظروف :

ـ ما عندكش جوابات من محمد أفندى ؟.

ورفع ساعى البريد راسه ، ونظر الى دياب فى غيظ .

ثم تنهد واحنى راسه على الحقيبة واخذ يخرج منها بريد القرية

كان لساعى البريد وجه معفر ملىء بالغضون ، وكانت شفتاه تتقوسان تحت شارب رمادى غليظ ، وأنف أفطس متكور مسدود الفتحات بالشعر الكثيف ، وكان كل هذا يرسم مع عينيه العكرتين وذقنه المعقدة ، صورة رجل يتألم ، ويبكى بلا دموع .

وكان شكله الجاف العابس ، ومقدمه كل يوم من المركز ، يقيم بينه وبين الفلاحين حائطا كريها من الريبة والرهبة والحذر .

وتقدم منه دياب فى وجل يساله مرة اخرى :

ـ حضرتك يعنى يا سيدنا الافندى .. جنابك يا حضرة البوسطجى .. ما معكش جواب من محمد افندى ؟.

واجابه ساعى البريد بحنق مكظوم وهو يزم شفتيه ويضغط على اسنانه :

ــ والله لسه ماحطناش نفسنا جوا الجوابات كمان ؟

فاستسلم دياب قائلا بهدوء وبساطة :

ــ طيب ..

واخذ ساعى البريد يقرأ العناوين المكتوبة على الظروف .

وتسلم الصبيان الواقفون بعض المظاريف والخفير يتمم عليهم ودفع ساعى البريد بباقى المظاريف الى الخفير عبد العاطى ليوزعها بمعرفته ، ثم اخذ منه الشمسية ، واتجه الى حماره العجوز ذى الراس المطاطىء، وركب .

وتضـايق دياب .

ورأى الرجل يتحرك بحماره دون ان يقول له كلاما صريحا ، ولم يطق ان يخطىء خطابا من محمد افندى بهذه السهولة ، فاتجه الى ساعى البريد وامسك بحماره وصاح فيه بغلظة :

ــ يعنى ما قلتش فيه جوابات من محمد افندى وللا لا ؟! فين جواب محمد افندى ؟. اقرا الظروف اللى فى الشنطة دى كويس . مكتوب عالظرف يصل ويسلم لاخونا دياب .

فصرخ فيه ساعى البريد انه سلم البوسطة كلها وانه لا يوجد ظرف باسم دياب ولا يمكن له ان يعرف ان كان محمد افندى قد كتب خطابا أو لم يكتب ، فالخطابات داخل ظروف مغلقة ، وهو يعمل ساعيا للبريد لا منجما ..

ثم لكز حماره بملل وهو يكاد يعوى :

ــ ربنا يتوب علينا من الشغلة المهببه دى !! بقى لنا فيها تلاتين سنة لا عرفنا نوفر قرش ولا نربى عيل ولا ..

وضاعت كلماته وهو يبتعد فى صيحات دياب :

ــ دهدى ؟ طب ماتزهقش قوى كده ! انت خلقى كده ليه ؟ يعنى مافيش جوابات ولا هبابات ؟؟ طب ماتقول كده من الصبح ! جاتكو الغم يا بتوع البندر فى كبر نفسكو ولماضتكو ! .

وفى مساء ذلك اليوم كانت القرية كلها تروى قصة ساعى البريد ودياب ..

وعندما ذهب دياب الى دكان الشيخ يوسف ــ قبل صلاة العشاء قال له احد الواقفين ضاحكا :

وبعت له جوابات .. ولا جواب جانى

خف المنزول درجات . . . . .

وضحك الشيخ يوسف طويلا .

واضحك الناس على دياب .

وغضب دياب وتحرك لينصرف قائلا :

ــ دهده يا عم الشيخ يوسف ؟! يعنى طول عمرك مقنب واسمعى غزالتك رافت دلوقت ؟. لا ياسيدى .. انا بقول لك اهه .. ما تشدش عليه المسخرة بعد كده وتخلينى دحكه فى البلد ! بقى انت تقدر تعمل كده ومحمد افندى هنا ؟

كان يقول هذا الكلام وهو يبتعد .. والشيخ يوسف يشيعه بالشتائم وبالسخرية منه ومن محمد افندى ..

ولم ييأس دياب من وصول خطاب من محمد افندى .. وذهب فى الصباح التالى فلعب السيجة وانتظر ساعى البريد .. وسأله نفس السؤال فثار فى وجه الرجل وشتمه ، ورفع عليه الشمسية فانصرف دياب حائرا ، وهو يقول :

ــ دهدى ! هو كل واحد يشتم فيه من ناحية ؟ جاتكو شوطة فى الجوابات وسنين الجوابات .

وعندما سخر منه الشيخ يوسف مرة اخرى فى مساء ذلك اليوم ، صاح دياب فيه :

ــ جرى ايه يا شيخ يوسف ؟ مولع منى انا واخويا سى محمد افندى ؟! البلد كلها مولعة منا ليه ؟ يا بلد غياره ! يا بلد بتهرى وتنكت وما حواليها غير الكلام الفاضى ! انا عارفك مفلوق من ايه ؟ ما تشقى يا شيخ يوسف زى ما بنشقى ! انت فاكر ان الزراعة الحلوة دى جاية بالساهل .. هيه ارضنا بترمى احسن من احسنها ارض ليه ؟ هه .. عارف ليه؟ دا شقانا يا جدع . دى خدمة عالفالى يا جدع !! بنعرف نعزق فى الأرض ونديها حقها ! يا راجل دالحتة بتاعتك اللى احنا راكبينها كانت حاتبور فى ايدك لولا لحقناها منك .. ايش عرفك انت بالفلاحة . وحياة النبى دا انا بازرعها برجلى . فالح لى بس تولع من الخلق وتتمسخر عليها .. آه يا بلد غياره يا بلد سو ..

كان دياب ينفجر ولا يكاد يترك فرصة للشيخ يوسف وقد اخذ يلوح بيده حتى أوشكت احدى يديه أن تدخل فى عين الشيخ يوسف .

ولم يحتمل الشيخ يوسف ما يقوله دياب .

واصفر لونه ، وانكمشت غضون وجهه وتتابعت أنفاسه ، ووجـ الذين يقفون أمام دكانه .

ورفع الشيخ يوسف كفه المعروقة النحيلة فهوى بها على صدغ دياب .

ورنت الصفعة ، فى اذن الشيخ يوسف ، فهوى بكفه على الصدغ الآخر .

وتحسس دياب وجهه وذهل لبعض الوقت ، وساد الصمت تماما ..



وتوترت اعصاب الواقفين .

ودارت نظرات دياب بينهم .

وزحفت على حلقة غصة فقال يغالب نفسه بصوت خفيض :

ــ بتضربني على خلقتني يابا الشيخ يوسف ؟ وبتقول انك انت قريت في الازهر ؟ تضربني على خلقة ربنا ؟ معلش يابا الشيخ يوسف.. انت برضه راجل كبير وزى ابويا ..

وصمت قليلا .. ثم قال :

ــ الله يسامحك .

وزلزل الشيخ يوسف وانفلتت منه اعصابه ..

واهتز كل بدنه على خوف مفاجيء من كلمة « الله يسامحك » وصاح في انهيار :

ــ غور من قدامي !! ايه اللى جابك هنه ؟؟ خدوه من قدامي ياناس .. ربنا يسامحني ؟! انت بتدعي عليه يا وله ، انت بتدعي عليه ..

وجذب الواقفون دياب وابعدوه عن دكان الشيخ يوسف ، وأخذوا يهدئون من غضب الشيخ يوسف .

ولكنه اغلق الدكان على الفور ، ومضى وهو يغلي ويرتعد واتجه الى دار محمد ابو سويلم . فوجده يجلس على مصطبته مع عبد الهادى وضوء القمر يملأ المكان بالهدوء والسكينة .

كان عبد الهادى على طرف المصطبة يجلس الى جوارالباب. يتسمع كل حركة ويصطنع اية مناسبة ليلتفت باحثا بعينيه فيداخل الدارعن وصيفة .

كان يريد ان يراها ..

وكان يعاني لفحات الم خفي كلما تذكر ان وصيفة لم تعد تحمل القهوة اليهم منذ سافر محمد افندى ..

ايكون محمد افندى وحده هو الذى يستحق منها ان تعمل القهوة وتقدمها بنفسها .. وتصبها ايضا ؟!..

وتمتم عبد الهادى وهو ينظر الى السماء الساكنة الرائقة في ضوء القمر :

صاحبت صاحب واتارى صاحبى مصاحب
وصاحب اتنين مايثبت على صاحب

وابتسم محمد ابو سويلم قائلا :

ــ آي والله يا عبد الهادى سدقت يا ولدى ..
وصاحب اتنين ما يثبت على صاحب

ياهنترى البيه حايثبت على صحوبية البلد ولا صحوبية الحكومة !.
وكان عبد الهادى شاردا عنه فأكمل تمتمته :

والصاحب اللى سبب ذلى مخاصمنى ..

فقاطعه محمد أبو سويلم ضاحكا :

ــ دهدى !.. انت قلبته موال أخضر .. دا انت قلبك اخضر قوى .. خلاص يعنى حبكت يا عبد الهادى .. عدلنا مواعيد الرى وروينا وزرعنا وجمعنا مافاضلشى غير المواويل الخضر ؟ .

وضحك عبد الهادى ، ونظر الى الشيخ يوسف مستجديا بعينيه ضحكات منه .

ولكن الشيخ يوسف لم يبتسم ..

وساله عبد الهادى عما به ، فمضى يروى لعبد الهادى عن دياب وقلة ادب دياب وما قاله له دياب فى وجهه .

وعندما وصل فى الحكاية الى انه ضرب دياب كفين على صدغه ، ضحك عبد الهادى ، وشعر براحة صغيرة تغمره .

ولكنه شرد قليلا،ونظر فى السماء وتنهد وقطبواحس بحنانجديد واشفاق فأكمل :

ــ بس الواد ده غلبان ! مخه ديق وغلبان ومنكسر ! والله دا غلبان يا شيخ !.

واشاح الشيخ يوسف بوجهه فى رفض ، ودمدم بكلمات لميسمعها احد ..

وساد السكون لحظة .

وبعد قليل اقبل الشيخ الشناوى يسبقه صوت المسبحة وتمتمة التسبيح .

واذ راى عبد الهادى عاتبه بغضب لأنه لم يصل العشاء الليلة ، وانقطع تماما عن المسجد مع انه بجوار داره .

فقال عبد الهادى ضاحكا :

ــ بقى يعنى هو الجامع دا معمول علشانى لوحدى يا سيدنا ؟ كل ما تحط وشك فى خلقتى تقول لى الجامع ؟ الله ! ما عندك أهو الشيخ يوسف ، وعم محمد أبو سويلم .

فضحك الشيخ الشناوى متحرجا وقال :

ــ بقى انت يعنى دايما محضر الجواب كده ؟ الأكادة انك لمض !

وضحك الجميع ..

وقام عبد الهادى من مكانه قائلا انه راجع الى داره لينام حتىيقوم قبل الفجر ليدير الساقية . فدورة المياه تبدأ من الغد .

واقترح الشيخ يوسف انهيقوم الجميع مع عبدالهادىليرووا ارضهم مادامت دورة المياه لم تعدل .

وقال محمد ابو سويلم ان حوض الترعة لا يحتاج الى الرى قبل خمسة ايام . وبعد خمسة ايام تكون الدورة قد انتهت .

وتنهد عبد الهادى قائلا :

ــ تتعدل !.

ووقف الشيخ الشناوى يسلم على عبد الهادى قائلا :

ــ تتعدل ازاى يا عبد الهادى ؟ من غير صلاة ؟ ابقى حودعلىالجامع فى الفجر اخطف لك ركعتين خللى ربنا يبارك لك فى الأرض .

فانصرف عبد الهادى وهو يقول مبتسما :

ــ يا سيدنا دانا على ما أخطف ركعه واحدة تكون الميه انخطفت.. لما نبقى نروى الأرض الأول والصلاة اهى ملحوقة .

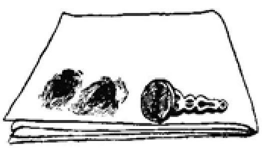
وانصرفوا جميعا وهم يضحكون والشيخ الشناوى يقول :

ــ والله الواد عبدالهادى ده عمره ما هو وارد على جنة..لابيصلى ولا لسانه بيبطل .

واغلق محمد ابو سويلم باب بيته وهو يقول ضاحكا :

ــ يا خبر يا سيدنا ؟! دانت خليت واقعته غبره ! بقى يعنى نار فى الدنيا ونار فى الآخرة كمان ؟!

ودخل لينام وهو يحلم بالجنة .. جنة الدنيا !..



١١

فى الفجر كانت الشمس مازالت مختفية وراء الافق الشرقى وضياؤها يملأ العالم بالنور .

وارتفع صوت الشيخ الشناوى من على مئذنة المسجد، متهدجا حزينا متثائبا .

وفى الحقول .. كانت الأعواد الصغيرة الخضراء تتمايل مثقلة بحبات الندى والانسام الرطبة تسرى خفيفة لينة مفعمة بعطر الحقول .

كان الفضاء ساكنا بديعا ، والسماء والنهر والأشجار وكل شىء يبدو كأنما هو جديد تراه العين لأول مرة .

وقبل ان ترسل الشمس اول شعاع فى اليوم الوليد كانعبدالهادى يغوص بقدميه العاريتين فى ماء القناة الصغيرة التى تنحدر من تحت الجسر ، ويهوى بفاسه على قاع القناة ، ثم يزيح طينها بيديه ليمهد الطريق للماء خلال حقل الأذرة .

كانت بقرته تدور فى الساقية والى جوارها غلام صغير يدعك عينيه .

وغير بعيد منه كان فلاح آخر يهوى بفاسه على الارض ليفسح طريقا للمياه ، وكان دياب يقطع بيديه مروى لحقله .

وهنا وهناك فى حوض الجسر تناثر الفلاحون ، انصاف عراة . القامات منحنية على الماء ، والأيدى تدفع به فى حماس الى الحقول العطشانة ..

اما علوانى الذى كان يحرس حقل البطيخ الوحيد فى حوض الجسر فقد بدا ينام بعد ان سهر الليل كله يحرس ..

ووجد عبد الهادى ماءه يجرى متلكئا فى القناة .. ولاحظ انه قليل لا يكاد يكفى حاجة حقله .. ورفع راسه وجسده مايزال منحنيا .

فوجد الساقية تدور على الجسر بلا توقف ..

ونصب طوله ، وفتح صدره ، ووضع يديه بطينها فى خصره ونظر الى السماء ..

لم يعد فى السماء ظلال من الليل بعد ، وقد انطلقت العصافير من على الأشجار تزقزق وتتصايح ، والطيور البيضاء الرشيقة ذات

المناقير الطويلة تنطلق الآن فى مواكب ، وتحط على الارض فتعبث فى الماء ، وتنقر وتلتقط اشياء ثم تطير وتعود فى امن .

ومشى عبد الهادى الى الساقية ليتبين السر فى قلة الماء ..

ومر فى طريقه بفلاح يجاوره فقال عبد الهادى :

ـ شد حيلك دا الشمس طلعت ودلوقتى الدنيا تولع .

فقال الرجل :

ـ اللمية شحيحة قوى النوبة دى ياجدع ..

فقال عبد الهادى وهو يمشى :

ـ ما انا رايح اشوف الخبر ايه ..

وانطلق عبد الهادى الى الجسر وهو يهمهم لنفسه :

قاضى الغرام فوق جبل عالى ينادينى
يقول يامين مفارق حبايبه ، قلت آدينى

وكان صوته قد ارتفع منه دون أن يدرى ، ورنت نغماته فىصمت الحقول .. فقال له رجل من بعيد :

ـ أيوه يا عبد الهادى أيوه ! سلامتكمن الفراق ياخويه !.

واستمر عبد الهادى فى سيره حتى بلغ الجسر ، والشمس تنفض حبات الندى الفضية عن أوراق الشجر والنهر يجرى هادئا بلا صوت ومركب صغير تجرى على صفحته التى تعكس كل الوان السماء وشباك الصيادين من بلاد بعيدة تقرع جوانب النهر من على شاطئيه .

وكان ضباب الصباح قد بدأ يذوب فى حرارة النهار الجديد .

وفى الصمت اخذت اصواتمختلفة تنشرنينها النشط، فيختلج بالأنين الذى ترسله السواقى خلال دورانها الرتيب .

وعندما وقف عبد الهادى امام الساقية ، راى على البعد رجلا يجلس على حافة القناة التى تمتلىء من الترعة ، وقد غاصحتى ركبته فى الماء ، وانحنى على الطنبور ، واخذ يميل الى أمام ووراءوهو يمسك يد الطنبور الحديدى وصوته يرتفع بغناء حزين :

هديه .. يا هادى !..

وادرك عبد الهادى أن الماء جرى فى الترعة ، مادام الطنبور يدور، فهز راسه بارتياح قائلا :

ـ عال !..

ومال الى الساقية .

وفحص عبد الهادى الساقية جيدا ..

نظر فى البئر وفى القواديس التى تهوى الى البئر فارغة وترتفع مشدودة الى بعضها ممتلئة بالماء الدسم : قادوسا بعد قادوس .

ونظر الى النهر .. ومشى قليلا الى الجسر ليتامل القناة التى تستقبل الماء المنسكب من قواديس الساقية ، فوجد الماء ينصب بقوة من الساقية الى القناة الصغيرة ، ثم يتدفق تجاه حقله فى موجة مندفعة .

وتبع القناة فى سيرها تحت بطن الجسر فى محاذاة حقول جيرانه حتى تصل الى حقله فوجد موجتها القوية مازالت تندفع .. وفجأة .. يبطىء الماء فى جريه ويهبط .. ويشح ثم يمشى قليلا قليلا يتسكع الى حقله وحقل الجار الذى يليه .

وفحص القناة جيدا فوجدها مقطوعة فى اكثر من موضع والماء يتسرب منها ليتجمع فى خيوط تسيل الى بعيد .. الى الحقل الذى تهوى عليه فأس دياب !.

وتضايق عبد الهادى لان دياب يصنع معه هكذا . انه يسرق منه الماء لمجرد انه يملك حقلا يمر به ماء الساقية قبل ان يمر بحقل عبد الهادى .

ايريد دياب ان يصنع معه كما فعل الباشا مع القرية ؟.

والنهر الصغير والترعة يمران بأرض الباشا ايضا قبل ان يمرا بالقرية . ومن اجل هذا اباح لنفسه ان يأخذ نصف الماء الذى يحق للقرية ان تأخذه !.

ولكن هذا الباشا .. باشا !.

الباشا .. باشا ، ووراءه وحوله فى عاصمة الاقليم رجال يحكمون بالسجن ، ويضعون الناس فى حبس المركز ليشربوا بول الخيل ..

ولو فكر احد فى ضرب هذا الباشا لضربوه واهل بلده ولم يتركوهم حتى يموتوا جميعا من الضرب !.

ولكن دياب هذا ؟.

لماذا يسرق الماء بلا اذن .. كالباشا ؟.

لابد من منعه من الرى وطرده الى القرية ادبا له ؟.

ووصل عبد الهادى الى الحقل الذى يملكه دياب تحت حوض الجسر .. فسأله عبد الهادى بعنف لماذا يسرق منه الماء على الريق ؟.

لماذا يعكر له دمه على الصباح ؟.

لماذا يروى هذا الحقل اليوم .. ولم يحدث من قبل ابدا ان روى حقله هذا الا فى آخر دورة الرى ؟!.

ولماذا لا يروى الأرض البعيدة فى حوض الترعة كما تعود حتى اذا انتهى عبد الهادى من رى ارضه فى حوض الجسر امكن لدياب ان يدير الساقية بجاموسته هو ويأخذ من الماء كما يشاء ؟!

ورفع دياب راسه ، ويداه على فاسه وقال بغلظة :

ـ يا فتاح يا عليم .. ابعد عنى يا عبد الهادى ..

وانحنى على الفاس .. يضرب بها الأرض وقدماه فى الماء .

وصاح عبد الهادى فى دياب ان يذهب بنفسه ليسد القناة التى قطعها وسرق منها الماء ثم يعود الى القرية ويترك الخلق لحالهم .

ولكن دياب رمى فأسه ووقف يلوح بيديه ويزعق فى وجه عبد الهادى ..

وعاد دياب يتحدث مع عبد الهادى كما تحدث مع الشيخ يوسف عن الغيرة والنار التى تأكل قلوب الناس فى القرية غيظا منه ومن أخيه محمد افندى !..

وانهمرت من بين شفتى عبد الهادى شتائم عديدة لدياب ولاخيه محمد افندى .

ثم اسرع عبد الهادى بنفسه الى الجسر وامسك بيده قطعة من الطين وسد القطع الذى يسيل منه الماء الى حقل دياب .

وبعد هذا عاد الى حقله مطمئنا وانحنى على الأرض يدير فأسه ويديه فى الماء .

وانقطعت خيوط الماء التى كانت تتسلل الى حقل دياب والى جاره الذى كان يقف عارى الصدر والقدمين حتى الفخذ .

واحس الرجل ـ جار دياب ـ بالماء يشح بين يديه .. فلوى راسه الى دياب واخذ يزوم .

ـ ام .. دا ايه ياأخويا ده ؟ ايه الافترا بتاع عبد الهادى ده ؟ هوه ايه اصله ؟ هوه عبد الهادى حيعمل زى الحكومة ؟ يعنى حيفترى زى الحكومة ؟ دا ناقص يكسر السواقى ؟ دا ايه الشغل ده ؟ يحوش عنا اللميه ؟.

وانتصب دياب وشد جسمه ، ووضع الفاس على كتفه واقسم بصوت مرتفع ان يقطع ماء القناة بالفاس وعلى من لايعجبه هذا العمل ان يشرب من البحر او من البرك !.

وجرى دياب بلا تفكير الى الجسر ، وبلا كلمة هوى دياب بفأسه على حافة القناة فقطع منها جزءا كبيرا طوح بطينه الى بعيد ، فتدفق الماء كله الى حقل دياب وجاره .

ووقف دياب يزعق قبل ان يتحرك من مكانه وفى صوته مغالبة للرعب .

ـ مسمع ياعبد الهادى لما اقول لك !! انت فاكر ايه يعنى ؟ انا ليه فى الساقية يوم وجارى مسعود ابو قاسم يوم !! آخد مبه على كيفى! آه ! آه ! باقولك اهه ! اعرف كده يعنى ! وللا علشان ما اسمها ساقيتك؟ ساقيتك قال ! احنا لنا فيها يوم .. ومحمد ابوسويلم له يوم ،ومسعود

ابو قاسم والناحية الشرقية يومين . وانت بقيت العشرة ايام ! انا جاحد يومنا فى الساقية النهاردة .. ياللا حل بهيمتك واهى مرات مسعود ابو قاسم جايه اهى ومعاها البهيمة !.

هكذا كان الفلاحون قد وزعوا ماء ساقية عبد الهادى ..

وهكذا كانوا يوزعون ماء السواقى القليلة على الجسر . كل له من الأيام على قدر ما ساهم فى تكاليف بناء الساقية التى صنعها نجار مشهور فى البر الثانى من النهر .

ولكن هذا كله حدث عندما كانت ايام الرى عشرة .

ولم يتوقع احد أن تقل ايام الرى ابدا عن عشرة !.

اما لآن فلم يفكر احد من القرية فى تقسيم ايام الساقية من جديد على ايام الرى الخمسة التى لم تسمح الحكومة بغيرها .

ولم يكد دياب يفرغ من زعيقه على الجسر ، حتى كانت امراة مسعود ابو قاسم مقبلة تسحب جاموسته ..

وكانت تلتفت وراءها احيانا لتشتم او ترد على شتائم فلاحين آخرين من الناحية الشرقية سحبوا جاموسة وبقرة وجاءوا الى الجسر ليأخذوا يومين كاملين فى أول الدور ..

ورآهم دياب مقبلين ، فنادى عليهم كالمستغيث ليروا شغل عبد الهادى الذى يريد ان يأخذ وحده ماء الساقية .

وبدات أصوات الاحتجاج ترتفع ..

وصعد عبد الهادى الى الجسر ومازال دياب يزعق ، وعبد الهادى يبتسم متلطفا ويغصب على نفسه ويكتم غيظه .

وبلغ عبد الهادى مكان دياب ، فطلب ان يصلى به على النبى ،ويقصر الشر ، ويرجع الى القرية .. او يروح الى حوض الترعة ليروى ارضه هناك كما تعود بدلا من وقوفه هنا يسرق الماء ويجلب النكد ويعكر دم الناس !.

واحتج دياب على عبد الهادى قائلا انه لايسرق الماء ولا غيره ولكن عبد الهادى هو المفترى .. دائما !.

وتدخل فى المناقشة رجال الناحية الشرقية . ونساؤها . لقد سحبوا الجاموسة والبقرة ليديروا الساقية اليوم .. وهم أهل ناحية بحالها من القرية .. ويجب ان يأخذوا نصيبهم من ايام الساقية فى اول ايام الرى ..

وحاول عبد الهادى أن يغير عزمهم ، فقد كان لهم يومان عندما كانت ايام الرى عشرة .. اما الآن فلو انهم تمسكوا بيومين فلن يجد بقية الشركاء فى الساقية مايكفى لرى الارض العطشانة !.

وبدأت مناقشة اخرى بين اهل الناحية الشرقية وبعضهم : من الذى يروى ارضه اولا بعد ان قلبت الحكومة الحال وجعلت ايام الرى خمسة ؟.

وعاد عبد الهادى يقول ان الناحية الشرقية كان لها يومان من عشرة وايام الرى الآن خمسة فلها يوم واحد .

واختلطت اصوات الرجال والنساء فى رفض لما يقول عبدالهادى.

وارتفع زعيق دياب فى مناقشة ثانية مع عبد الهادى .. وكان دياب كلما زعق ورن صوته ، وجد نفسه يقتحم الكلمات بلا خوف ويرمى بها ، وقلبه تتوالى دقاته واحساس جديد بالشجاعة يسيطر عليه .

وارتفعت الشمس قليلا والمناقشة تحمى بين اهل الناحية الشرقية وبعضهم ، وبينهم وبين عبد الهادى ، وبين عبد الهادى ودياب .

واحس كل واحد من الواقفين كانما الآخر يريد ان يسلبه الحياة نفسها !.

وتذكر عبد الهادى فجاة ان ساقيته تدور وتصب الماء فى حقله ولا احد يحكم توزيع الماء على الأرض .

وخشى ان يفيض الماء فيغرق الحقل فصرخ فى الناس ان يتركوه ليرى ماحصل للماء .

ولكن امراة قالت له فى صوت حاد ساخر ان الساقية لا تدور من وقت ماجاءوا هم !

والتفت عبد الهادى الى الساقية فوجدها معطلة ، وبقرته تدلك راسها فى الجميزة ، بينما وقفت امراة وصبى وعدة رجال يتناقشون فى مدار الساقية وبينهم جاموسة على راسها غماء ! .

واطلق عبد الهادى صيحة غضب واستنكار .. فقهقه دياب بشماتة وقال ساخرا :

ـ عامل دكر وناصح قوى ! اهى مرة وقفت لك الساقية !.

ودون ان يشعر عبد الهادى ، هوى بكفه على وجه دياب ، ورنت الصفعة ، حامية تطق الشرر !.

وارتجف دياب وترنح .. واهتز الفاس فى يده لحظة ثم هوى بها فجاة على راس عبد الهادى .

وتلقى عبد الهادى بيد ثابتة عصا الفاس الهاوية عليه قبل ان تفلق راسه بحدها الصلب اللامع .

وفى سرعة خاطفة مفاجئة ارتفعت العصى ، وصرخت النساء .

وجرى عبد الهادى الى الساقية فانتزع منها العمود الخشبى الغليظ الذى تربط اليه البهائم فى مدار الساقية ..

وعاد عبد الهادى يحمل العمود المربع الثقيل بيديه ، ويخبط به الرءوس دون ان يرى ما امامه ودون ان يدرى ماذا يفعل .

وفى تلك اللحظات لم يكن احد يدرى ما يفعل ! .

كانت طاقات هائلة من الضيق تنفجر من كل نفس ، وتضرب كل من يتعرض لحرمان الأرض من الماء .

وباسم الدفاع عن حياة الأرض — عن الحياة نفسها — مضى كل فلاح يضرب ويضرب بلا توقف كل من يريد ان يناقش حق الأرض فى الماء ! .

كان الرجال يضربون بعضهم بلا حساب وبلا مراعاة .. كأنهم لم يعرفوا بعضهم ابدا ، ولم يحبوا بعضهم من قبل .

وكأنما قد اصبح من المستحيل أن يتحدثوا الى بعضهم مرة اخرى .

كان من الممكن ان يصنع كل واحد بجسد اخيه اى شىء : ان يقذف به الى اعماق الماء .. ان يقطع منه .. وحتى ان ياكله !

والنساء ايضا كن يفعلن نفس الأشياء ، ويحتدمن بنفس القسوة فى المعركة ! .

وشجت النساء رءوس بعض الرجال بالحجارة وسال الدم .. واختلط على الأجساد ، وسال فى عرق كل واحد دم من عروق اخيه ! .

وسقط رجل ، وامراة ، ثم سقط دياب ورجل آخر ، وامراتان ، ثم رجل ثالث ، ورابع ، وخامس ..

والعصى مازالت تدور ، والنساء يصرخن ، ويقذفن فى الفضاء بكل صوت يائس رهيب .

ولاح على الجسر اطفال ورجال ونساء آخرون اقبلوا على الصراخ .

وظلت النساء تقبل من بعيد فيرددن الصراخ دون ان يعرفن السبب ! .

ولاح بين القادمين شيخ البلد يهرول بقامته النحيلة ويتعثر فى جلبابه الطويل .

واستيقظ علوانى من حقل البطيخ على صراخ النساء وزعيق الرجال فاقبل يجرى مروعا ..

ووقف علوانى بالقرب من الرجال ، وحاول ان يقنعهم ان يكفوا ايديهم عن بعضهم ، فلم يحفل به احد ! . ودخل وسط الرجال ليفض المعركة ولكن بلا جدوى .. فالتقط عصا .. واخذ يضرب على العصى ، ثم يثب ،

ويقف شاهرا عصاه على راس عبد الهادى ليحميها ممن يحاول ضربها من الخلف .

وعندما وصل شيخ البلد لم يستطع ان يقترب من العصى والفؤوس التى تتشابك فوق الأجساد .

فاخذ ينادى على الرجال من بعيد ، ويشتمهم ويهددهم .. ولكن العصى ظلت تخبط ، وصوت النساء ينطلق حادا حزينا متتابعا ..

ولم يستطع شيخ البلد ان يبعد احدا من المعركة غير علوانى فامره ان يجرى ليحضر الخفراء .

وجرى علوانى الى القرية من بين الحقول ليختصر الطريق .

ووصل الشيخ الشناوى يلهث من التعب واخذ يمسح عرقه بيده وكرشه يهتز وهو يلعن كفر الرجال وافتراءهم وفجور النساء ! وامسك عصاه القصيرة الغليظة التى تعود ان يضرب بها .. وتقدم الى المتعاركين يضربهم على الأكتاف ثم يبتعد وعيناه على العصى الطويلة المتشابكة .. ثم يعود فى حذر ليضرب الأكتاف بسرعة وهو يميل براسه بعيدا عن مواقع العصى ، ومازال يصيح فى الجميع انهم يرتكبون الحرام ، فدم المسلم حرام على المسلم . ولكن العصى ظلت تهوى والنساء يصرخن .

واخيرا اقبل الشيخ يوسف وكانت الأيدى قد تعبت وما برح الرجال يتساقطون .. ودخل الشيخ يوسف بعصاه الخيزران الرفيعة بين الرجال وهو يلعن البلد واهل البلد ويهدد بأن يرحل من هذه البلد ويترك اهلها ياكلون بعضهم كالوحوش .

وهدات الأصوات بعض الشىء ومازالت العصى والفؤوس تهوى وتخبط ومازال الرجال يتساقطون على الأرض .

وانطلقت اصوات استغاثة من ناحية الساقية .

اصوات مروعة رهيبة ، كانما هى انفجار يأس ..

كانت مدوية عريضة وكانت نفاذة اليمة خاطفة كالأنهيار !.

والتفت الشيخ يوسف وهو يلعن هذه الصرخات التى تطرب الجن نفسه وتقدم الى الساقية قليلا ثم صاح هو نفسه :

— يادى الداهية السوده يا رجاله .. الحقوا الجاموسة .. الجاموسة وقعت فى بير الساقية !!.

وبغته تراخت الأيدى بالعصى المشتبكة على الجسر ، وسقطت الفؤوس والشماريخ على الأرض واتجه الرجال والنساء كلهم الى بئر الساقية . وهم يلهثون .

واختلط الصياح بالاستغاثة وحاول شيخ البلد ان يتقدم الى حافة

الجسر حيث وقعت الجاموسة وزعق . ولكن الصرخات غمرت ضجيجه وبرز الشيخ الشناوى بقامته المديدة المتكرشة وهو يصيح :

ـ حاسب يا واد ! حاسب منك له .. اوعوا تقربوها لاحسن تفرقوها .. اقروا الفاتحة ان ربنا ينتع الجاموسة .. الفاتحة لها يا أولاد .

ـ وحاول الشيخ الشناوى أن يروى حكاية تشجعه فاستطرد قائلا :

ـ دا مرة بقرة سيدنا موسى ..

ولم يكمل فقد اندفع مسعود ابو قاسم فنحى الشيخ بعيدا ، واوشك أن يوقعه فى البئر ، ويصيح :

ـ ما تغور بقى يا سيدنا . يا شيخ غور . فاتحة ايه وبقرة سيدنا موسى ايه .. اجروا يا جدعان .. انزلوا يا رجاله .. حوشوا يا أولاد .. يا خراب بيتك يا مسعود يا ابو قاسم .. يا حش وسطى يانه .. يا ضياع شقا العمر كله .. يا كسرتى يانه ..

واخذ يلطم خديه فى جزع هائل .. وتحدرت دموعه واختلطت بعرقه المتصبب ، وصوته المتهدج يرسل انينا فاجعا ..

وقعد مسعود أبو قاسم على الأرض لا يقوى على الحركة واخذ يضرب التراب بيديه فى حسرة مخيفة . ولم يستطع ان يقف كانه انكسر حقا ..

غير أن عبد الهادى قفز الى البئر لاهثا واسند رجليه الى القواديس ووضع يده تحت بطن الجاموسة وهو يسند قدميه الى غور فى البئر ..

وزحف الرجال الذين كانوا يرقدون على الجسر بجراحهم منذ لحظات .. ووقف بعضهم امام البئر .. وحاول دياب ان ينزل الى البئر فزعق فيه عبد الهادى بحنان كبير :

ـ خليك انت يا دياب .. انت دمك لسه سايح .

وهب من ناحية عبد الهادى رجل ثالث .. واوشك ان يسقط فى البئر ، واسنده عبد الهادى ورجاه ان يصعد هو ويستريح بعيدا .. كان عبد الهادى منذ لحظات يضرب هذا الرجل .. وكان من الممكن ان يقذفه فى هذا البئر نفسه .. كان على الاقل مستعدا لهذا .. وكان الرجل هو الآخر مستعدا لان يصنع بعبد الهادى اكثر من هذا . ولكنهم الآن أمام ضياع جاموسة مسعود ابو قاسم يحسون فجاة انه عندما تنزل الكارثة برجل او امراة فكأنما نزلت بهم جميعا .. ويجب عليهم جميعا ان يدفعوا الكارثة متساندين ! وكل واحد منهم يطالب الآخرين بان يقنعوا معه ويساعدوه حين يقع له شىء كهذا الذى يقع لمسعود !.

وهبط الى البئر رجال آخرون ووقفوا كلهم يتساندون وارجلهم الى القواديس او الى غور فى البئر ، وكانوا كلهم يسندون بعضهم حين تقلق الارجل .. وكانوا كلهم يشجعون بعضهم وايديهم جميعا تحت بطن الجاموسة يحاولون دفعها بكل ما يملكون فى اجسادهم من قوة لدفع الكارثة . كانوا كلهم يعانون فى وقت واحد لحظات خاطفة من نفس اليأس المخيف . وتلمع لهم معا ومضات بهيجة من نفس الأمل . كانوا ينحنون ويعرقون وتقدح عيونهم وتتابع انفاسهم داخل البئر ، وخارج البئر على مدار الساقية يتدافع الرجال والنساء . وشيخ البلد يزعق باوامر لا يصغى اليها احد .. والشيخ الشناوى يستنجد بقوة الله .. اما مسعود ابو قاسم فكانت عيناه على عبد الهادى ويداه تضرب الأرض وتلطم . وهو قاعد يدير رأسه الى الرجال فى داخل البئر والى امرأته التى جلست امامه صفراء كالموت ، بلا حيلة ولا قوة على شىء حتى الجزع والصراخ .. ورأى مسعود ابو قاسم جاموسته ترتفع قليلا من مكانها فى البئر ولكنها عادت فسقطت والرجال مازالوا يتصايحون ويتساندون من داخل البئر والأيدى كلها تحت بطن الجاموسة تحاول ان ترفعها بلا تفكير فى الفشل ، وعاد مسعود يصيح وهو ينظر بين امراته وعبد الهادى والسماء :

ـ ضاعت الجاموسة ! انقسم وسطى ! ضيعتيها يا مرة ! يا ريتك انت اللى وقعتى فى البير ، اعوض الجاموسة ازاى يا اخواتى ؟ اجمد يا عبد لهادى ! اجمدوا يا رجاله ..

وزعق الشيخ الشناوى :

ـ اجمد انت يا واد وقل يا رب .. اجمد الله يلعنك .. قل يا رب .

والرجال يتساندون فى داخل البئر وفى كل لحظة يصعد رجل يلهث ليهبط رجل جديد .

وعادت امراة مسعود تطل على الجاموسة وروحها فى حلقها توشك ان تطلع .

واخيرا رفعت الجاموسة على أيدى الرجال .. ونزع عن عينها الغماء ، فمدت رجليها الى المدار وسحبها الواقفون .. ومدت رجليها الخلفيتين وتحركت ثم مشت على مدار الساقية والواقفون يسحبونها ويتحسسونها ..

وردت الروح على امراة مسعود وزغردت .

ووقف مسعود فجاة .. وانتفض كأنما صبت فى عروقه دماء حياة جديدة فتية بكل الدفء والأمل .

وارتفعت زغاريد النساء .. فصرخ شيخ البلد ليسكت النساء ..

وارتمى مسعود على جاموسته فتحسسها ووجهه يفيض بالدم ثم التفت الى عبد الهادى فجذبه بين ذراعيه وعانقه طويلا . ثم التفت الى سيدنا فقبل يده واعتذر .

وكان عبد الهادى يلهث .. فمشى فى صمت حتى قعد تحت الجميزة على الجسر ، ومسح عرقه بيديه . ودعك وجهه .. واخذ يهز راسه فى حزن ..

وارتفع صوت شيخ البلد يأمر النساء ان ينتهين من الزغاريد والكلام الفارغ ، فهو رجل جد لا يعجبه الحال المائل .. ولوح بعصاه ثم هزها ومضى الى الجسر .

ولم تسكت النساء ..

وقف شيخ البلد على الجسر واستند الى عصاه ويده فى وسطه وسيطرت عليه فكرة انه الآن كأحد حكام المركز .. واخذ يقول – بهدوء ، وفى بطء – وهو يحاول ان يكون بليغا كرجال البندر :

– نرجع لمرجوعنا بقى .. بقى يعنى مافيش لا حيا ولا كسوف .. بقى يعنى يابلد .. مالكيش لا كاسر ولا كسار ؟! يعنى تضربوا بعض قدامى كده عينى عينك !! دانا نايب الحكومة .. انتوا مش عارفين ان شيخ البلد ده يعنى نايب الحكومة ؟ يعنى الحكومة !! يعنى .. يعنى كأنكوا ضربتوا بعض قدام الحكومة .

وكأنما سرت على الوجوه نسمة طيبة .

فمرت ابتسامة ساخرة بكل الشفاه .. نفس الابتسامة ونفس السخرية .

واحس الرجال الذين وقفوا على الجسر وتحت الجميزة والذين قعدوا من اعيائهم .. احسوا جميعا ان شيئا حبيبا يجعلهم الآن اكثر قربا لبعض .. شيئا آخر غير اختلاط عرقهم ودمائهم وهم يرفعون الجاموسة .

كانت سخريتهم الصامتة المشتركة من شيخ البلد قد اضاءت فجأة جانبا آخر من كل نفس ، واكتشف كل واحد منهم ان اخاه قريب اليه اكثر مما يظن .

لقد اكتشفوا هذه الحقيقة دون ان يقولوا شيئا وهم يرفعون الجاموسة واكدتها لهم محاولة شيخ البلد ان يحكم ويتحكم .

وتذكر احد القاعدين ما كان يقوله شيخ البلد وهم يحاولون رفع الجاموسة فهمس بسخرية مقلدا شيخ البلد :

– تعال هنا .. انزل انت فى البير من الناحية دى وانت من الناحية دى ! ايوه كده ! ! شيل بقى !

واستطرد رجل آخر :

– واهو حضرة شيخ البلد لا فاهم حاجة ولا محتاجة .. ولو حد سمع كلامه ماكانتش الجاموسة طالعة فى سنتها .. ولو كان هوه هوب بس ناحية البير كان انسقط زى الجاموسة .

وتعالت ضحكة ، قطعها زعيق شيخ البلد .. غير ان صوت الشيخ يوسف غمر زعيقه ورنت كلماته فى دوى حاد وهو يقول :

– بتدحكوا كمان ؟ بتدحكوا على ايه ؟ على خيبتكو ؟.. يا بلد .. تى دى عمله تنعمل .. حتموتوا بعض علشان اللميه .. طب أمال نطروا على الحكومة .

واحتج شيخ البلد قائلا :

– انت بتوزهم على الحكومة ؟ يعنى كأنك بقى بتوزهم عليه انا

ولم يحفل الشيخ يوسف باعتراض شيخ البلد .. واستمر يصيح بغضب صادق :

– انجروا ، انجر انت وهو اغسلوا دمكم اللى سيحتوه عالفاضى..

وكان بعض الرجال يترنحون هنا وهناك فى طريقهم الى القناة يغسلون الدم من على وجوههم والرؤوس .. وجر دياب نفسه قائلا :

– كده يا عبد الهادى .. كده ؟.. علشان ما أنا وحدانى ؟ ! يعنى تستفرد بى بعد محمد افندى ما سافر ! ماكانش العشم ياعبد الهادى!

كانت كلمات دياب جريحة معذبة .. وكانت نغمات صوته مذعنة ..

وشعر عبد الهادى بطوفان حزن غامض يرتفع من اغوار نفسه ، ويزحف ، حتى ليملأ حلقه بالمرارة والندم والدموع .

وتنهد ، ثم هوت راسه بين يديه فى بكاء كالعويل .

وذهل الجميع ، واسرع دياب فقعد الى جانب عبد الهادى وحاول ان يسكته .. واخذ يقبل راسه ، ولكن الشيخ الشناوى صاح فيه بصوت بارد :

– بتعيط على ايه بقى .. اياك يعيطوا عليك من بدرى ؟ يعنى تقتل القتيل وتمشى فى جنازته ، قال يضرب البلد بزيها ويقعد يعيط عليها .

جاتك الغم وانت عافيتك ماجرتش . يكونش راكبه عفريت .. دا اقوى من فرعون .

وضحك بعض الرجال ، والشيخ الشناوى .

وشعر عبد الهادى كأن ريحا لطيفة تهب على قلبه . فابتسم .

ورأى شـيخ البـلد انه يجب ان يقول شـيئا وكان ما يزال متكئا على عصاه بيده ويده الأخرى فى وسطه .

وتنحنح شيخ البلد قليـلا ثم طلب من الرجال الذين جرحوا أن يحشوا جروحهم بالتراب ، فالتراب شفاء .

واعترض الشيخ يوسف محتجا :

ــ تراب ؟ يا جدع خليهم يحطوا بن ... وفيها ايه يعنى لما كل واحد يشترى بكوزين ولا ببيضة ويسد الجرح بشوية البن .. الا التراب .. تراب قال ؟ جرى ايه ياشيخ البلد .. خبر ايه يا بلد ..

وضحك بعض الرجال واقترح احدهم ساخرا :

ــ دهدى .. طب مانروح للمستشفى فى المركز ..

فقال آخر وهو يضحك :

ــ لا ولا للداكتور ..!

فرد ثالث وهو يكتم ضحكة :

ــ ولا نجيب الداكتور هنا ..!

فوقف رابع يقـول وهـو يقذف الجمل : جملة ورا جملة على رنة ضحكة ساخرة :

ــ يمكن حصان الباشـا ؟ ! ولا يمكن ولاد البنـدر ؟ ! ولا يمكن فواحش مصر ؟ !

وانفجرت الضحكات ..

وقطع الشيخ يوسف انسياب الضحكات بقوله وهو مقطب ، ان من يريد ان يخف جرحه سريعا ، فعليه أن يشترى البن ليضعه فى الجرح .

وبعد قليل استطرد الشيخ يوسف قائلا فى تأنيب ان عليهم الآن ان يتفقوا على توزيع المـاء فى الأيام الخمسة ..

واقترح هو طريقة ، ولـكنه قبل ان يكمل شرحها عدل عنها ، وعاد يقترح حلا آخر ، ولـكنه لم يكمله ..

وفجأة تذكر اقتراح عبد الهادى ان يقطعوا الجسر .

وهز عبد الهادى رأسـه مؤيدا ان يقطعوا الجسر ، ويرووا الارض كلها بالراحة ولا حاجة الى السواقى وتوزيع الماء ووجع الدماغ ..

وقال دياب بصوت مبحوح :

ــ دى احسنها حاجة ، على راى عبد الهادى بدل مانزعل من بعض .

واعترض الشيخ الشناوى على قطع الجسر ..

فقال عبد الهادى للشيخ الشناوى معاكسا انه لايفهم فى هـذا الموضوع ، فهو ليس موضوع جنة ونار وهو على كل حال لا يزرع ولا يقلع ولا شأن له بالارض .

وسخط الشيخ الشناوى على عبد الهادى واخذ يرميه بطول اللسان وقلة الانسة ، واكد للجميع ان قطع الجسر آخرته سوداء ، وعلى كل فسيأتى الخفراء ويمنعون الفلاحين من قطعه .

فقال عبد الهادى باستخفاف :

ــ الغفرا ؟ وطب وايه يعنى ؟ مايجوا ؟ يتفضلوا ياسـيدنا يشربوا قهـوة .

وتدخل الشيخ يوسف فقال متحمسا :

ــ اسمع ياسيدنا .. اسمعوا ياولاد .. مادام قطـع الجسر مش حرام يبقى خلاص بقى يا شيخ شناوى مالكش كلام عندنا .. ماحدش له كلام عندنا .. وماحدش له دعوة بالغفرا ؟ غفرة ايه يا اخويا ؟ ! هم الغفرا عارفين يرووا .. هو حد منهم عارف يروى ارضه ، ولا حتى لاقى ياكل .. ماهى الحكاية من بعضها .. والا ايه ياشيخ البلد ؟.

ثم أكمل مغيظا :

ــ ماتفتى للبلد ياشيخ البلد وانت واقف مركون على العصـا كده وايدك فى وسطك ولا مدير المديرية .

واعتدل شيخ البلد ، واعجابه بفكرة قطع الجسر يغمر ضيقـه من لهجة الشيخ يوسف .. وتمتم وهو ينسحب :

ــ اعملوا اللى تعملوه بقى بعيد عنى ..ابعدوا عنى واقطعوا الجسر زى مايعجبكم انشا الله تقلبوا البحر كله عالغيطان .. انا اللى عليـه .. انى احوش الغفر عنكم !

وصاح الشيخ يوسف فى النساء اللواتى يقفن عند الساقية أن يعدن بالبهـائم .

ومشى شيخ البلد عائدا الى القرية ومن ورائه النساء والبهائم بينما كانت الفؤوس تضرب ارض الجسر فى قوة ونشاط .. وتشق قناة كبيرة فى عرض الجسر بين النهر والحقول .. وتدفق المـاء من القناة الـكبيرة الجديدة الى القناة الطويلة فى بطن الجسر مارا بكل الحقـول ، وهلل الفلاحون وهم يرون المـاء يتدفق فى موجات صغيرة سريعـة مثقلة بالطمى .

وانصرف الشيخ الشناوى مع الشيخ يوسف وبقية النساء والأولاد والبهـائم .

وبعد قليل كان كل فلاح يروى حقله بالراحة .

وقال عبد الهادى وهو يترك حقله بعد ان رواه :

ــ خليهم يكسروا السواقى على كيفهم بقى .. اهيه الميه راكبـة وابرك من عشر سواقى .

واجابه مسعود ابو قاسم :

ــ بس هو دا حايدوم .. احنا حنقعد ناخد رزق المية يوم بيـوم ..

وانحدر عبد الهادى على الجسر .. والى جواره دياب الذى انتهى هو الآخر من رى أرضه .

وقال عبد الهادى لدياب فى حنان كبير :

ــ اوعى تنسى يا دياب تحط شوية بن على الجرح .

فهز دياب راسه ، وظل على طول الطريق الى القرية يقول :

ــ بس اوعى تكون انت لسه زعلان .. اهى كانت نفس وراحت .. دى المصارين فى البطن بتتخانق مع بعضها .. داحنا عزوة بعض يا عبد الهادى .. والدم مش ميه يا جدع ..

ــ دى البلد كلها من دم واحد برضه . والدم مش ميه على حـد قولك .

وفى الطريق الضيق بين الجسر والقرية كان محمد ابو سويلم يقبل مضطربا وهو يسأل عبد الهادى من بعيد عن الشيخ يوسف .

كان محمد ابو سويلم يبدو منزعجا ، وقد بانت عليه شيخوخة مبكرة وكآبة ، وكان من الواضح انه يغلى فى اعماقه .

وحسب عبد الهادى ان محمد ابو سويلم غاضب من اجل المعركة على الجسر فبادره بقوله :

ــ ما احنا خلاص اتصالحنا يا ابا محمد .. ماهو احنا خلاص يعنى..

واكمل دياب مسترضيا :

ــ ما هو الضفر مايخرجش من اللحم يا أبا محمد .

ولـكن محمد ابو سويلم قال فى انفعال :

ــ بلا لعب صغار .. بلا ضفر بلا لحم بلا كلام فاضى .. اتصالحتو ايه ؟ وكان دا وقته .. روح ياشـيخ روح .. روح ياواد يادياب انده لمحمد افندى من الدار ، اجرى بلاش امور صغار .

وتحسس دياب جراحه ثم قفز ، وجرى مبتهجا ليلقى اخاه الذى عاد لساعته من السفر .

وأستدأر محمد ابو سويلم ، ليعود الى القرية مع عبد الهادى ..

وسكت قليلا وهو يخبط كفا بكف ويقلب يديه فى عجب .

ثم وقف مرة واحدة ، وامسك بذراع عبـد الهادى بقوة . ومضى يقول له فى حسرة وحيرة ان العريضة التى سافر بها محمد افندى مع محمود بك لم تكن هى عريضة ماء الرى . وانما كانت عريضة للزراعية . فالعمدة ضحك على القرية باتفاق مع محمود بك وجمع أختامها واختام القرى المجاورة ، ووضع كل هذه الأختام على عريضة جاء فيها انالأهالى الموقعين يحتاجون الى شق سكة زراعية .. تمر فى ارض الذين وقعوا على العريضة ، وتمزقها ، وتصل بين عاصمة الاقليم وطريق القاهرة مارة بحدود ارض الباشا ، حيث يكمل بناء قصره الـكبير .

وفتح عبد الهادى فمه ، واتسعت عيناه ولم يعرف ماذا يقول ..

وانطلق محمد ابو سويلم يؤكد لعبد الهادى ان هذا الذى يسـمعه صحيح كله .. وانه علم لا حلم .

واتقدت عينا عبد الهادى وقال كالذى يفيق من كابوس :

ــ محمود بيه ؟ !

فقال محمد ابو سويلم منفجرا :

ــ ماقلت لـكم ! شفتوا بقى ملعوب العمدة والبيه والحكومة ؟.. تلاقيهم متفقين عالملعوب ده ، يبقى اسم الزراعية جايه برغبة البلاد مش غصبن عن حبايب عينيها ! هزأونا وسكتنا لهم ورفدونا من مشيخة الغفر وسكتنالهم .. كسروا لنا السواقى وقطعوا الميه وسكتنالهم .. ولسـه يا عبد الهادى ياما حانشوف طول ما احنا ساكتين .

وسأل عبـد الهادى وقد اختلجت نبـرات صوته كأنه خارج من حلم مخيف على واقع بشع :

ــ طيب وايه العمل يا ابا محمد ؟..

ووجم محمد ابو سويلم .. واحس بحيرة مباغتة !

انه هو نفسـه لم يكن قد فكر فى هذا من قبل ..

ولم يكن يعرف ما العمل ! !

١٣

اخذت القرية كلها تتحدث باعجاب عن كل ماحدث على جسر النهر .. كيف قامت المعركة وكيف انتهت .. وكيف وقعت الجاموسة فى البئر .. واخذت تتحدث عن بطولة الرجال الذين رفعوا الجاموسة بأيديهم .. وبسالة الذين شقوا الجسر ، اما الأطفال الصغار فقد ملأهم الكبرياء .. وهم يستعيدون ذكر ماصنعه عبد الهادى : فقد ضرب وحده كل رجال الناحية الشرقية ، وعندما سقطت فى البئر جاموسة من اهل هـذه الناحية رفعها وحده من البئر .

ووقف طفل يمسك فرعا صـغيرا جافا من التوت ، ويحـاول أن يديره ببراعة وسط زملائه كما كان عبد الهادى يصنع على الجسر ، وكما تعود ان يصنع وهو يلعب العصا فى الأفراح .

ومضت الفتيات يتهامسن بزهو عن عبد الهادى الذى رفع فاسـه وقطع جسر الحكومة ، وترك المـاء يتدفق بالراحة من النهر الى الحقول ، متحديا سلطان الحكومة ، ورجالها الذين يعيشون فى المركزبالطرابيش الشاهقة والبدل الصفراء .

ولمعت عينا وصيفة واشرق محياها وهى تسمع من هنا ومن هنـاك قصة عبدالهادى مع رجال الناحية الشرقية والجسر والجاموسة ، ولكنها حين سمعت ماحدث لدياب ازدردت ريقهـا واختلجت رقبتها المليئة البيضاء وهمست لنفسها فى رثاء وغضب :

ــ كده ياعبد الهادى .. طيب ودياب ماله ؟ هو دياب ذنبه ايه ؟..

على ان عبد الهادى لم يكد يعود من على الجسر ، ويقابل محمـد ابو سويلم حتى ذهب معه الى داره .

كانت الشمس تملأ بوهجها مصطبة محمد ابو سـويلم فدخل الى المندرة ، وتبعه عبد الهادى .

وكانت المندرة فى بيت محمد ابو سويلم لا تفتـح الا لضرورة أو للضيوف الكبار ، ومع ذلك فقـد دخل الرجل الى مندرته مسرعا دون ان يفكر ، فلم يكن فى وسعه على اية حال ان يجلس فى الشمس فوق لهب المصطبة .

وكانت وصيفة ، قد فرغت لساعتها من كنس حصير المندرة ، وسوت قطع اللباد فوق الدكة الخشبية ، واغلقت النافذة الوحيدة ، وشـعر عبد الهادى بطراوة الجو فى المندرة .. فتنهد بارتياح وهو يمسح وجهه بيديه .

ونادى محمد أبو سويلم ابنته وصيفة وطلب منها قلة ماء ، فأضاف عبد الهادى متلطفا انه يريد قهوة من يديها .

وخلع محمد ابو سويلم مداسه .. ورفع قدمه ووضعه على الدكة الخشبية ، ومضى يقول لعبد الهادى ان محمد افندى مر عليه منذ لحظة مقبلا من القاهرة فى اول قطار يغادرها الى عاصمة الاقليم .

ولمح عبد الهادى خيال وصيفة ..

كانت تذهب وتجىء وسط الدار بقلة فارغة .. وتتلـكأ امام باب المندرة لتسمع كل مايقوله ابوها عن محمد افندى بصوته المرتفع العريض.

واحس عبد الهادى بضيق غامض فقال متململا :

ــ ما انا عارف هو مستعجل على رجوع البلد ليه .

وازداد صوت محمد ابو سويلم ارتفاعا وهو يقول لعبد الهادى ان البلد خربت .. والحكومة ستنزع الارض لتشق السكة الزراعية التى يريدها الباشا من عاصمة الاقليم الى طريق القاهرة مارة بقصره الذى يبنيه على حدود عزبته .

ورفع عبد الهادى حاجبه وتضامت خطوط جبهتـه دون أن يقول شيئا ، شعر براسه تدور وريقه يجف .

ودخلت وصيفة تحمل القلة الى ابيها ، كانت القلة فى يديها تلمـع والمـاء مفعم برائحة الزهر .

واخذ محمد ابو سويلم القلة من يد ابنته وكرع منها ، واعادها اليها ، فمد عبد الهادى يده الى وصيفة وحياها .. وتناول منها القلة وهى ترد تحيته بابتسام ، وعيناها تلقيان عليه نظرات ثابتة .

وخطف عبد الهادى نظرة الى قامتها المديدة المليئة البضة وشـعر بالسكينة تفيض على قلبه .

وشرب ببطء وعيناه تتدحرجان اليها فى نظرات اعجاب .. ثم رفع القلة بسرعة كانما تذكر شيئا وتساءل لماذا لم يحضر محمد افندى ليعرفوا منه الخبر .

واعاد القلة الى فمه ..

فقال محمد ابو سويلم فى ضيق :



ـ مابعت له دياب .. روحى يا بت يا وصيفة شوفى الخبر ايه .. الواد دياب اتلوا ليه كده أ..

ورفع عبد الهادى القلة من فمه بغتة .. وسال على خديه خيط الماء البراق الذى كان ينسكب في كركعة من فوهة القلة الى شفتيه . واوشك ان يشرق بالماء . وسعل قليلا وهو يعطى القلة لوصيفة قائلا :

ـ استنى .. استنى ..

كان عبدالهادى طول الوقت ينظر الىوصيفة ولكنها لم تختلج ابدا.

ظلت ساكنة بقامتها المديدة ووجهها يشرق بالابتسام الهادىء فى الحجرة المغلقة ذات الظلال الطرية .

وغاضت الابتسامة من وجه وصيفة واستدارت وهى تحمل القلة وخرجت وعبد الهادى يعيد عليها طلب القهوة .

ولم يقل محمد ابو سويلم شيئا .

وبعد قليل سأله عبد الهادى ان كانت الحكومة ستنزع بالقوة ملكية الأرض فى حوض الترعة .

فرد محمد ابو سويلم ان الحكومة تفعل كل شىء بالقوة .. وعلى كل حال فالقرية تستأهل كل مايحصل لها .. فهى تعرف ان العمدة يعمل لها فى كل سنة ملعوبا جديدا ومع ذلك ارسلت اليه الأختام ليضعها على كلام لم يقراه أحد .

وحين عادت وصيفة بالقهوة ، صبتها بسرعة وخرجت ، دون أن يشعر بها احد .. حتى عبد الهادى نفسه ..

وتناول عبد الهادى فنجان القهوة واخذ يرشف منه كالمأخوذ وعاد يسأل محمد ابو سويلم عما تستطيع الحكومة ان تصنع بالقرية لو أن القرية كلها وقفت امام الحكومة بالعصى والفؤوس .

ولم يجب محمد ابو سويلم وانما غمره شعور بالدفء والقوة ..

وشاعت فى نفسه طمأنينة مبهمة لايعرف من اين انبعثت ، والتمعت عيناه ، وهز راسه ، وهو صامت لايتكلم .

وتلفت عبد الهادى حوله وسأل فى ضيق عن سر تاخر محمدافندى.

واجابه محمد ابو سويلم بشتائم عديدة لدياب الذى لم يرد عليه للآن ..

على ان محمد افندى كان اذ ذاك فى داره ينتظر اخاه دياب فى قلق وهو يصغى لأمه تروى له كل ماسمعته من انباء الجسر .

وفى الحق أن دياب قد تأخر مضطرا عن محمد افندى على الرغم من انه كان يجرى على طول الطريق فى لهفة ليستقبل اخاه ..

ذلك انه وجد خضرة تقف فى مدخل احدى الدور مع بعض الفتيات تروى لهن ماحدث على الجسر ، وتطلق بلا تحرج اشارات قبيحة من يديها والفاظا لاتحتملها الفتيات .

وكانت الفتيات يتضاحكن على استحياء وهن يخفين وجوههن فى ظهور بعضهن .. وواحدة منهن تجرى الى هنا او هناك .. ثم تعود مقطبة والضحك يغالبها فتنهر خضرة ، وتطلب منها أن تكف عن كلامها واشاراتها ولكن خضرة تجيب باشارة او كلمة اكثر صراحة ، فتضحك الفتاة وتخفى وجهها فى ظهر احدى الفتيات .

وعندما كان دياب يركض فى الطريق الى داره ليستقبل اخاه محمد افندى مر بخضرة والفتيات ، فنادته خضرة باستهزاء يخالطه الاشفاق.

وتوقف دياب محنقا وشتم خضرة وتابع سيره ، غير انها قالت له ساخرة بعد أن شتمته :

ــ كنت امال اشطر كده عالجسر يا سيد الرجال.

واحس دياب بحرج هائل ، فعاد اليها ، وانقض عليها بيديه ، ثم دفعها برجله فى بطنهـــا ، ووقعت خضرة على الأرض تتلوى واطلقت صرخة :

وذهلت الفتيات من حولها .

بينما افاق دياب من غيظه ، وتذكر اخاه محمد افندى ، وداهمته الحيرة وشعر بندم مفاجىء لانه يتشطر الآن على امراة ضائعة بلا اهـل ولا قوة ولا عزوة ، وهى بعد امراة التصق بدنه بجسدها واختلط منهما العرق اكثر من مرة .

ومال عليها دياب يسألها قلقا :

ــ مالك يا بت ؟ مالك ؟..

كان صوته مضطربا ، يشيع فى جفافه الخوف والحنان الصادق .

ورفعت خضرة راسها وقالت لدياب بنفس لهجتها المريرة الساخرة التى تعطى صوتها خشونة خاصة :

ــ كده يا دياب ؟ تعمل كده فى خضرة الشريفة ؟..

واسترد دياب انفاسه ليضـحك ، وضحـكت الفتيـات من حوله والطمانينة تعود الى القلوب .

وقال دياب متظرفا وهو يهز راسه :

ــ شى الله يا سيد يا بدوى .

ثم همست خضرة لمن حولها وهى تكتم الضحك .. ان دياب حاول ان يجهضها .

وجرت الفتيات بعيدا عنها فى خجل واضطراب وقالت لها واحدة :

ــ قطيعة ! كل حاجة عندك ضحك كده .

وصاحت خضرة بالفتيات تشتمهن لانهن تصنعن الخجل بينمـا هى تعرف فيهن العين الزائغة .

وحاولت خضرة ان تقف ، وعيناها على دياب . كان الدم من جراحه قد بدا يتجمد على راسه . فطلبت خضرة من الفتيات ان يجئن بقليل من المـاء والبن . واخذت تشتم دياب لانه لايخفى جراح راسه بالبن ويترك الجرح للشمس تبطحه .

وضحك وهى تشتمه وتمد يدها لتضربه على كتفه ..

وقامت خضرة ووقفت تتعجل كوز المـاء .

واقبلت فتاة تحمل كوزا من الصـفيح فيـه ماء وتناولتـه خضرة فصبت منه على يد دياب ، واخذ هو يغسل راسه ويدعك وجهه والدم المتجمد يتساقط ..

وعادت الفتاة بالكوز فملأته واخذت خضرة تصب على راس ديـاب وهى تقول :

ــ دمك سايح ليه كده ياوله ؟! امال ايه فايدة أكل اللحمةوالعيش القمح ؟! امال بقى اللى ما بيدوقوش اللحمة الا من العيد للعيد جرحهم عامل ايه ؟ كل لحمة كتير خللى الجرح يلم ..

واخيرا جفف دياب وجهه بطرف قميصه الطويل المزدحم ببقع الطين وتناولت خضرة بين اصابعها الغليظة الجامدة بعض البن وحشت جرح دياب .

وقالت فتاة من وراء خضرة :

ــ يا ترى محمد افندى حايقول ايه ؟ .

والتفتت اليها خضرة وهى تملأ الجرح بالبن وقالت ببساطة :

ــ عينك من محمد افندى ليه يا ...

وقبل ان تكمل خضرة جرت الفتاة ضاحكة محمرة الوجه وهى تدعو على خضرة بقطع اللسان .

ومضى دياب .

ظل يجرى ويده على راسه فوق البن حتى بلغ داره . فوجد أمه فرشت حصيرة نظيفة على المصطبة الكبيرة فى مدخل الدار وعليها محمد افندى الذى كان مازال يلبس البدلة والحذاء والطربوش بينما قعدت هى على الارض قدامه . وتحت فخذها اوزة تلقطها حبات الذرة

واقبل دياب على اخيه محمد افندى بسرعة وارتباك فشد يده وقبلها.

ووقف محمد افندى ينظر الى جراح دياب فى الم مباغت . واضطربت الانفعالات فى صدر دياب ، فطوق اخاه بذراعيه واحتضنه. وشعر ببدن اخيه يملأ صدره فضغط عليه وقبله ثم ابعده قليلا وعاد فاحتضنه بحرارة وعنف وشوق .. وبكى !

وجلس محمد افندى واجلس الى جواره اخاه .

وفاضت نفس محمد افندى بالحنين ، وشعر برغبة جارفة فى ان يظل دائما الى جوار اخيه دياب يحميه من قوى الخفاء .

وقال دياب وهو يجهش :

ــ الهى ما يبعدك عنى ابدا يا شيخ .. الهى يا راجل يجعل يومى قبل يومك .. يانهار اسود .. دا الواحد من غيرك فى البلد مايساويش عود حطب .

واختلج محمد افندى واهتزت امه قائلة :

ــ الهى يجعل لكو العمر الطويل يا اولادى .

وسال دياب اخاه محمد افندى لماذا لم يرسل له لينتظره بالجحشة على محطة المركز .

فأجابه محمد افندى بانه لم يجد وقتا . وعلى اية حال فقد استأجر حمارا من المركز وجاء به من الطريق الضيق على شط الترعة بعيدا عن جسر النهر لأن صاحب الحمار طلب هذا !! .

ومضى محمد افندى ــ وهو يضحك متعجبا ــ يروى لأمه ولدياب حكاية رجل من المركز يتكلم بلغة اهل البندر ويفهم كما يفهمون هناك . ويؤجر حماره فى الساعة بقرشين ، ولا يعرف طريقا للقرى الواقعة على جسر النهر الا هذا الطريق الضيق الخلفى على شط الترعة !! .

وضحكت امه ، وضحك دياب طويلا ، وضرب ركبته بيده وهو يقاطع اخاه محمد افندى من حين الى حين ليقول له :

ــ سلامات كده ..

وفجاة . التفتت الام الى دياب وسالته عما حدث على الجسر .

كان فى لهجتها محاولة لحصار دياب وتضييق خفى ..

فأجابها دياب فى غلظة تدارى خجله ان ما حصل خير .. ولا داعى الكلام فيما حصل لأنه تصالح هو وعبد الهادى .

فقال محمد افندى لدياب انه علم بكل شىء .

واخذ يعنفه لانه تحرش بعبد الهادى .

وفرغ من كلامه قائلا ان دياب يستاهل ما حدث له لانه يغلط دائما مع الناس .

ولكن الام انفجرت تلعن دياب .. وتذكره بأن احدا من القرية لم يجرؤ ابدا على ضرب ابيه ، لأن اباه كان يعرف كيف يكسب احترام النـاس . ولقد حاول احد الفلاحين ان يتحرش به يوما ورمى عليه كلاما غليظا . فلم يغضب وانما ذهب الى العمدة وشكا له المعتدى فحبسه العمدة يومين فى حجرة التليفون .

وتضـايق دياب من حـديث امه ، وادرك انه لن يخلص منها طول النهار . فزعق فيها لتسكت .

وتدخل محمد افندى قائلا :

ــ صلو بينا على النبى ، بس يا دياب اخرس .. ما تزعقش فى امك كده يا وله .

وسكت دياب ..

ونهض محمد افندى الى حجرته التى يتكون منها وحدها الطابق الثانى . فخلع ملابسـه وارتدى جلبابه الافرنجى والشبشب والطاقية المخططة العالية .

وهبط فوجد امه تمسك بعلبة صفيرة من الخشب الابيض وتقول لدياب :

ــ خد افتح حلاوة مصر يا دياب .. وشـوف حد يحمى الفرن علشان اعمل لكم فطيرتين تاكلوا بيهم الحلاوة الطحينية .

وفكر دياب من فوره فى ان يذهب فيسـتدعى خضرة ، ولـكنه قبل ان يخرج تذكر ان يقول لمحمد افندى ان محمد ابو سويلم ينتظره فى داره ومعه عبد الهادى منذ وقت طويل .

وتحرك محمد افندى ليلحق بهما وهو يلوم دياب على نسيانه كلاما كهذا .

وخرج دياب من الدار منكس الراس ووراءه محمد افندى ، ولكن مه استوقفته قائلة :

ــ اقعد شوية يا محمد افنـدى يا ابنى مع امك . دانت واحشنى قوى .. والنبى لك وحشة جامدة قوى .. بقى خالك الشيخ حسونة قابلك فى مصر ؟ وجاى البلد امتى ؟ هو خلاص بقى . والله وحشنا قوى حضرة الناظر ، ، وهو مش عارف منزلته عندنا .

وقال لهـــا محمد افنـــدى وهو واقف ، انه اتأخر عن محمد ابو سويلم وعبد الهادى . ثم اضاف ان خاله الشيخ حسونة فى طريقه بعد ايام الى عاصمة الاقليم ليجد حلا هناك لموضوع الزراعيةالجديدة. فمرورها فى حوض الترعة يمزق ارضه التى تقع كلها فى حوض الترعة .

والشيخ حسونة رجل فى الخمســين من عمره اشرف على تعليم محمد افندى ، وعندما كان والد محمد افندى حيا كان الشيخ حســونة بشير عليه بكل ما يصنعه ، ولم يحسب محمد افندى لاحــد حســابا كالشيخ حسونة .

كان يخافه اكثر مما يخاف من ابيه . وفى الحق انه كبر ودخــل مدرسة المعلمين ولم يعد يخاف اباه !.. ولم يكن يقبل يده وانمــا كان يقبل يد الشيخ حسونة . ويلقى باله الى كل ما يقوله من كلام .

وعندما كان محمد افندى يتعلم بمدرسة المعلمين فى عاصمة الاقليم كان الشيخ حسونة يزوره فجأة . ويقف على الباب الخارجى للحجرة التى يسكنها ليتصنت ويرى ماذا يصنع محمد افندى ويحاسبه . وكان يسأله دائما فيما يدرس . ولا يتردد عن ضربه بلا شفقة ان وجد فى سيرته ما لا يسر . او ان وجده متخلفا عن دروسه .

ولم يكن الشيخ حسونة مع هذا شقيق امه وانما كان ابن عمهـــا وكبير عائلتها ، وقد ترك الأزهر منذ زمن طويل . واشــتغل مدرســا بالصعيد ، وعاش فى بلاد لم تكن القرية تسمع بها من قبل . ونام هناك على سرير من جريد النخل تزحف من تحته العقارب . وهو منذ زمن بعيد يعمل ناظرا للمدرسة الأولية فى احد القرى المجاورة ، وقد ظل يعمل بهذه القرية ويحظى باحترام اهلها واحترام اهل القرية . ثم جاءت حكومة حزب الشعب ، فقاومها ؛ واعلنت حكومة حزب الشعب انهــا ستجرى الانتخابات ، ودخلت وحدها الانتخابات بعد ان قاطعتها كل الاحزاب وقاطعها الناس .

وطلب الشــيخ حســونة من اهل القرية ان يقاطعوا الانتخابات ، واذن للمدرسين ان يتركوا المدرسة ليشجعوا على مقاطعة الانتخابات .

ومع ذلك فقد اجريت الانتخابات ووضعت اوراق فى الصناديق تضم اسماء الموتى والذين لم يذهبو لينتخبوا .

وزار نائب حزب الشعب القرية التى يعمل بها الشيخ حســونة ، فرفض الشيخ حسونة ان يستقبله فى المدرسة،وصرف التلاميذ واغلق الابواب وانصرف هو نفسه .

وعندما قابله النائب صدفة فى الطريق ، حذره الشيخ حسونة من زيارة قريته التى فيها ارضه ، وهدده ان هو زارها بأن يقطع الفلاحون رقبته بالفؤوس .

وشيعت القرية المجاورة النائب الزائر بالطوب وصراخ النســاء . فلم يكد يعود الى عاصمة الاقليم حتى طالب بنقل الشيخ حسونه الى مكان بعيد .. او بفصله ان امكن .

فنقل الى بلد بعيد جدا عن قريته ليعمل مدرسا بجوار القنــاطر الخيرية حيث لا يستطيع ان يصل الى المدرسة الا فى « وابور البحر » .

وطالب الشيخ حسونة أهل قريته والقرية المجاورة بأن يثوروا كما صنعوا عندما نفى الانجليز زعماءهم .. ولكن احد رجال القرية المجاورة قال لنفسه ساخرا :

ــ يعنى سعد زغلول يأخى ؟ ! ولا يعنى وليم مكرم ! .

وعلى اية حال ففى القريتين لم يتحرك أحد .. ولم يتجمع الفلاحون فى الطرقات ليقولوا يحيا العدل كما كان يحدث فى تلك الأيام المجيدة الباهرة .

وامتلأ الشيخ حسونة ضيقا بالقرية التى كان فيها ، وبالقرية التى هو منها ، فأجر ارضه لرجل من اعيان قرية مجاورة . واقسم الا يعود الى قريته ابدا ..

واخذ معه زوجته واولاده الخمسة ، واســتأجر لهم بيتا من بابه فى شبرا البلد ، واقام هو فى حجرة بالمدرسة ، ورتب نفسه على ان يعود الى اهله فى شبرا كل ليلة جمعة وفى ايام الأجازات .

وعلى الرغم من أن الشيخ حسونة قد نقل مدرسا ، فقــد ظلت قريته والقرى المجاورة تسميه « حضرة الناظر » .. وحتى المدرسون فى مدرسته الجديدة كانوا يطلقون عليه « حضرة الناظر » فى نوع من الاصرار ، والمقاومة للذين نقلوه مدرسا .

وقد استطاع محمد افندى حين وصل الى القاهرة مع محمود بك ان يعثر على عنوان خاله من بعض أهل القرية المقيمين فى شبرا .

وعندما التقى محمد افندى بخاله الشــيخ حســونة ، روى له حكاية ماء الرى والعريضة ، وقال له ايضا ان محمود بك اخذالعريضة ووضعها فى جيبه ، واعطاه عدة مواعيد فى مقهى بالعتبة الخضراء ، وفى كل مرة كان يقبل متأخرا عن الموعد ، ثم ينصرف على عجل ، ويحدد موعدا آخر .. وهكذا عاش يومين فى القاهرة دون أن يستطيع الكلام مع محمود بك ، واخيرا جلس محمود بك معه على المقهى ، ولاحظ محمد

افندى ان محمود بك شخصية معروفة : « الجرسون » يحييه بترحاب ، وماسح الأحذية يهمس فى اذنه وهو يغمز بحاجبيه ! .. ولقد استطاع محمد افندى ان يلتقط من همسات ماسح الأحذية كلمة بنت تركية صفيرة .. ومرة اخرى التقط كلمة تلميذة ومرة كلمة « فرنساوية » و « بنات افرنج » و «ست انجليزية » ! .

وكان محمود بك ينصرف عن محمد افندى تماما الى همسات ماسح الأحذية ، ولكن محمد افندى ساله مرة بتردد ووجل ان يخلصه ، ليعود الى بلده ! .

واخرج محمود بك علبة سجائره ، وتناول سيجارة واشعلها ونفخ دخانها بسرعة فى وجه محمد افندى وساله عما يريد منه !

وعاد الى محمد افندى وجله فطلب من محمود بك ان يقرأ له العريضة لان اهل بلده استحلفوه ان يقراها قبل ان تقدم الى الحكومة ، وقرا محمود بك العريضة باهمال وثبات .

فوجدها محمد افندى التماسا بشق طريق زراعى ..

بهت محمد افندى واخذ يمسح عرقه وانفه ، وينظر فى عربات الترام التى كانت تسير امامه على خطوط متقاطعة ، تزاحم الناس — فى ميدان العتبة الخضراء — تحت وهج شمس الظهر ..

وعندما حاول ان يناقش فى الموضوع ثار محمود بك واهانه وقال له :

— انت عارف الحكاية كويس ؟ جاى تستعبط هنا ؟ عمدتك قال لى انك فاهم ! .. امال دفعت فلوس على ايه ؟! هو لعب عيال ؟ .

ثم انصرف محمود بك دون ان يدفع ثمن القهوة وهو يتمتم بالفاظ جرحت محمد افندى حقا .

ولقد روى محمد افندى كل هذا لخاله ، عندما زاره بعد العصر فى بيته بشبرا البلد .

وساله خاله ان كان حقا يعرف مكيدة العريضة، فاكد محمد افندى لخاله انه لم يكن يعرف شيئا .

وعاد الشيخ حسونة يسال بهدوء لماذا اعطى محمود بك نقودا ؟ وكم من النقود ؟.

فارتبك محمد افندى . واقسم لخاله انه لم يدفع مليما .

وضاق الشيخ حسونة ، واتهم محمد افندى بالكذب ، وصاح فيه ان ذيل الكلب لا ينعدل ابدا ! ..

وسكت الشيخ حسونة قليلا . وهو ينظر الى محمد افندى قاعدا فى ارتباك على الكرسى المغطى بالقطيفة الحمراء الباهتة وعيناه مفتوحتان على صور كثيرة معلقة فى الحجرة التى يسميها خاله «أودة المسافرين» . تماما كأهل مصر .

وخفض محمد أفندى رأسه . وتنهد عندما لاحظ نظرات خاله ترسل اليه الشرر .

وخبط الشيخ حسونة كفا بكف وهو يقول :

— هيه دى تجرا ؟! هوه فيه حد يآمن لمحمود ابن انجه هانم ؟! والله عال .. عملتوه بيه وخليتوه ريس عليكو ! طيب شوفوا بقى .. ذوقوا بقى بما كنتم غافلين ! بكره يذلكوا ذل الكلب فى الطاحونة .. دا ان كان هوه ولا عمدتكم ، لو واحد من الجوز دول طال يبيعكوا بقرش مش حايتأخر !.

ولم يستطع محمد أفندى أن يعلق على كلام خاله .. وعلى اية حال فقد شعر براحه لأن خاله لا يخصه بالكلام اللاذع .

غير أن محمد أفندى لم يسترح طويلا ، فقد فاجاه خاله بقوله :

— وانت ماشى ازاى فى البلد ؟ داير تشرب شاى هنا وهناك ولاعقلت وبقيت تحترم نفسك وتعرف قيمتك كمعلم .

وغمر الحياء وجه محمد أفندى فقال :

— الحمد لله يا خال ! ..

وساد بينهما صمت قطعه الشيخ حسونة بقوله ان الحكومة لا تستطيع ان تشق الزراعية غصبا عن اصحاب الارض . ولئن شقتها الحكومة ، لهو الخراب العاجل للقرية والقرى المجاورة من اجل ترف الباشا عضو حزب الشعب ! ..

ثم هز الشيخ حسونة راسه ، وعض شفته السفلى وهو يتمتم فى حسرة : لو القرية والقرى المجاورة تقف فى وجه الحكومة فان يستطيع احد ان ينزع منها أرض حوض الترعة .. ولو ان القرية والقرى الاخرى المجاورة وقفت فى وجه الحكومة عندما نقلته هو الى بعيد لما طمعت الحكومة الى هذا الحد .. ولكن الناس سكتوا للحكومة فدخلت بحمارها ! ..

وعاد الشيخ حسونة الى صمته ..

واخذ يقلب كفيه طويلا قبل ان يقول ان معظم الذين يملكون ارضهم فى حوض الترعة ، يصبحون بلا ارض ، او نفذت الحكومة مشروع الزراعية كما يريد الباشا ! ..

واخيرا .. وقف ، ونصح لمحمد افندى ان يسافر من عنده ليقول هذا الحبر الاسود لاهل البلد ! .. اما هو فلاحق به بعد ايام .

وتحرك الشيخ حسونة الى الباب يودع محمد افندى ، طالبا منه ان ينام حيث ينام فى الايام السابقة ، لان بناته اصبحن كبيرات ، وهو لايسمح لاحد غير المحارم بأن يبيت فى بيته .

وعلى الباب الخارجى سأله الشيخ حسونة ان كان يملك اجر فندق، ثم دس يده فى جيبه ليخرج حافظة النقود ، غير ان محمد افندى شكره بخجل ، واكد له انه يملك مالا ..

***

وهكذا عاد محمد افندى الى القرية مثقل الصدر من حكاية العريضة ومحمود بك وخاله حضرة الناظر الشيخ حسونة .

ولقد روى كل هذا لامه باختصــار وهو يتحــرك ليروح الى محمد ابو سويلم وعبد الهادى فى دار محمد ابو سويلم .

وعندما حكى لها كل ما دار بينه وبين خاله قالت بفرح :

ـ هم البنات كبــروا ؟ اى والله ! دا بقى لهم متغــربين فوق عن سنتين .. البت مابقوا عرايس .

ثم اخذت تحسب على اصابعها قليلا متهامسة .. وفاجات محمد افندى بقولها :

ـ زينب اتولدت سنة ما بنينا الساقية .. وفاطمة فوق راسها على طول .. هيه البكرية ! ونجاح بينها وبين زينب سقط .. تبقى فاطمة عندها كام سنة بقى ؟

وسكت محمد افندى قليلا ثم قال :

ـ اربعتاشر سنة يا امه .

واســتطرد مشــيرا الى اغنيــة ســمعها من فونوغــراف فى مقهى بالقاهرة :

ـ البنت سن اربعتاشر والوجه بدر اربعتاشر ..

وهمس لنفســه :

ـ يا سلام يا مصر .. عمار يا مصر !

فقالت له متحمسة :

ـ آى والنبى طول عمرها من صغرها قمر اربعتاشر .. البت دلوقت

ما خرطها خراط البنات واحلوت حلاوة مصر ، وبقت مصرية خالص ! .. لو كنت تتجوزها .. دا تلاقى زينب رخرة بقت عروسة .

فقال بحسرة :

ـ وهو خالى يرضى .. دا دايما يقول عليه واد خسران .

فقالت له امه بغضب وفخار :

ـ خسران ؟ دا انت تقعد على البساط وتختار ست البنات ؟ طب انوى انت بس وانا عليه الباقى .. طيب والنبى ان رجع البلد زى ما قال لك لاخطبها لك منه حلاوة رجوعه البلد بعد ما طلع منها زعلان مهزوم .

وضحك محمد افندى ، وخرج الى منزل محمد ابو سويلم .

وفى الطريق كان يفكر فى خاله ، وفى الجنيهات التى دفعها من ماله لمحمود بك ليعدل مواعيد الرى .. انه لا يستطيع الآن ان يتحدث بفخر كما كان يتهيأ ، لو ان ما دفعه اعاد ماء الرى الى حقول البلد ؟ .

ولم يكد محمد افندى يصل الى دار محمد ابو سويلم ويقف على الباب قائلا « يا ساتر » ، حتى ارتفع من الداخل صــوت عبد الهادى مختلطا بصوت محمد ابو سويلم :

ـ اتفضل ! داحنا مستنظرينك من الصــبح .. الله فتــكد عليــك يا دياب .

ودخل محمد افندى فوقعت عيناه على وصيفة ..

كانت قد غسلت وجهها عشرين مرة ، مزدهرة ريانة .. يتهلل محياها وترقص فيه الغمازات .

وقال لها محمد افندى وهو يمد يده اليها :

ـ ازيك كده يا وصيفة ! .

فوضعت يدها الدسمة فى يده المعروقة قائلة بصوت دافىء :

ـ الحمد لله عا السلامة يا محمد افندى .

وانفجر عبد الهادى من داخل المندرة يصيح بجفاف :

ـ دهدى ؟ مادخل على طول ! تعال هنا يامحمد افندى .. تعاله .

وفوجىء محمد افندى ، فاسرع الى المندرة .

واستقبله عبد الهادى مرحبا ببرود .

ولم يكد يجلس حتى بادره عبد الهادى بالاعتذار عما كان بينه وبين دياب .

واسرع محمد ابو سويلم يتفادى المناقشة المنتظرة فقال ببساطة وسرعة :

ــ العبارة بسيطة ياجدعان .. خالينا فى الملعوب الجديد .

فعلق محمد افندى بتؤدة وتأثر :

ــ على كل حال حصل خير .. بس ما كانش العشم يا عبد الهادى ! انت برضه اسمك كبير وعاقل عن دياب . ما كانش ظنى تستفرد بالواد وتبهدله كده وتهينه الاهانة دى كلها ! ..

وشعر عبد الهادى بحزن .. وغامت عيناه .. واختلط فى أعماقه الضيق بالندم ، وصر على أسنانه ، وتتابعت أنفاسه .

واوشك على ان يخلص نفسه بالانفجار فى الزعيق .

غير ان محمد ابو سويلم ، غمر المكان بضحكاته وهو يقول فى محاولة لتغيير الجو :

ــ الا الجدع بتاع البندر ده اللى جايبك على الحمار من ورا الغيطان ، وحاكم عليك تمشى على شط الترعة فى وسط الشراقى ! .

واسترسل محمد ابو سويلم يروى لعبد الهادى حكاية صاحب الحمار الذى استأجره محمد أفندى من محطة عاصمة الاقليم

وضحك عبد الهادى من أفانين اولاد البندر ، وراق .

ومن خلال الضحكات ، ارتفع صوت محمد ابو سويلم :

ــ تشربوا قهوة ؟ قهوة يا وصيفة .

ولاحظ عبد الهادى ان وصيفة اقبلت الى الباب وقالت :

ــ حاضر ..

وليست هذه هى عادتها عندما يطلب منها أبوها القهوة الضيوف ، فهى عادة لا تحضر ، ولا تجيب ، انما تعد القهوة فى صمت .

وتوقفت ضحكات عبد الهادى الرائقة ، وتنهد قليلا .

وطلب محمد أفندى من وصيفة بالحاح الا تعمل قهوة .. ثم سكت قليلا ليقول بصوت مرتفع نشيط موجها حديثه الى محمد ابو سويلم :

ــ حضرة الناظر بيسلم عليك .

واشرق وجه محمد ابو سويلم بفرحة مفاجئة .

وسأل محمد افندى ان كان قد قابل حضرة الناظر حقا فى مصر وما رأيه فى مسألة الزراعية .

وأكد محمد أفندى أن خاله قادم الى القرية بعد ايام ، فصاح ابو سويلم متحمسا :

ــ يا سلام يا جدعان !! اهو دا الراجل اللى ينفع دلوقت صحيح ! .. جاى فى وقت عوزة تمام ! .. دا احنا ياما شفنا مع بعض ايام السلطة ! .

وزاغت نظراته ثم تاهت فى ظلال الفراغ من الحجرة ، كأنما يسترجع اياما جميلة لم تذهب تماما فى النسيان .

وقال عبد الهادى بنبرة ترعشها الذكريات المخيفة :

ــ السلطة !؟ ..

فاستطرد محمد ابو سويلم :

ــ أيوه السلطة ! كنتوا انتو ايامها لسه عيال .. كانوا بيلموا الخلق من السوق ! . وهوه انتوا شفتوا ايه من اللى شفناه احنا يا عبد الهادى ؟! انتوا يا دوبك شفتوا العساكر بياخدوا الرجاله والجمال والحمير والبهايم .. لكن احنا شفنا الويل يا عبد الهادى ! كان معايا ايامها الشيخ حسونة وكان لسه مدرس . خدونا مع بعض وحطوا الحديد فى ايدينا ولبسونا عساكر ، وقالوا علينا متطوعين ! لكن هو وقف لهم قاموا حطوه فى الحبس .. وبعتونا احنا على الشام .. رحت انا فى بلاد الشام .. وفى بر الشام شفت الموت بعينى دى الف مرة .. زحفنا على التلج .. تعرف التلج ؟ كانت الارض كلها تلج فى تلج ، واحنا بنزحف على بطننا ونطق بارود .. زحفنا فى الطين .. ولما كنا بنستريح ونتلفت لبعض نسأل بعض : احنا هنا بنعمل ايه يا ولاد ؟ احنا مالنا ومال دا كله ؟ .. ما حدش يعرف يرد .. بنحارب مين ؟ . بنحارب ليه .. ليه الحرابه دى ؟! ماحدش عارف .. يقولولنا العدو .. عدو مين ؟ وعدو ليه ؟ ولاحد منا عارف .. كان الرصاص يفوت من جنبنا ومن فوق دماغنا . والاقى اللى بيسألنى وقع ميت بالرصاص من غير ما يحط منطق ! .. يا سلام يا اخواتى على دى ايام .. الله لاعاد يعودها ، ولا يكسب اللى لمونا ورمونا هناك .. ما حدش رجع من النواحى دى غيرى ! ولسه هناك الجثث مرمية عالجبال ، اللى مات فى الشام ، واللى مات فى بلاد معرفش اسمها ايه ، واللى رجله انقطعت ، واللى عينه عميت ! .. ايام .. الله لا يرجعها يا شيخ ! ياما لموا رجاله وحطوهم فى سلاسل وقالوا عليهم متطوعين .. الله لا عاد يعودها يا أولاد ! .

وسكت عبد الهادى ومحمد أفندى وسيطر على القلوب شعور رهيب .

كان صوت محمد ابو سويلم يرتعش بنبرات غريبة يحمل الى خيال محمد افندى وعبد الهادى ذكريات مشتركة مرعبة من تلك الأيام : عندما اختطفت « السلطة » رجال القرية وسط الصراخ والعويل .

وانتبه محمد ابو سويلم كأنه يفيق من كابوس ، ودعك جبينه ووجهه بيديه .

ونظر الى محمد افندى قائلا :

ـ بقى كده ؟! بقى حضرة الناظر جاى ؟! سلامات ياشيخ حسونة !

ثم استمر يقول وهو ينظر فى ظلال الحجرة :

ـ سايبنا وقاعد فى مصر على طول ليه . . تعالى شوف اللى بيجرى تعال شوف ! .

وشيئا فشيئا ذاب الحديث .

وانصرف محمد افندى ليستريح ، وهو يلتفت وراءه الى وصيفة . .

وعندما غادر عتبة البيت ، كان وجه وصيفة يسطع فى خيالاته ضاحكا بين تموجات كثيرة من وجوه حزينة باكية . . وجوه من تلك الأيام السوداء . . أيام السلطة .



١٣

مر يومان والقرية تنتظر أن يعود حضرة الناظر الشيخ حسونة . وكل رجل فيها يبحث عما يجب أن يعمل . لم يكن من السهل على رجال القرية ان يصدقوا ان الحكومة تستطيع ان تنزع من ايديهم الأرض لتشق فيها طريقا زراعيا لمجرد أن الباشا يريد ذلك .

كانوا كلهم يعرفون ان الجسر هو الطريق الذى يجب ان تهتم به الحكومة . . وما عليها الا ان تصلحه فيصبح واسعا كطرقات المركز ، ولا حاجة بعد الى انتزاع الأرض من ايدى الذين يعيشون عليها ! لقد عرفوا بالتجربة ان كل حكومة حاولت ان تشق السكة الزراعية وسط حقولهم ، لم تعمر لتكمل المشروع ! .

ولكنهم يعرفون ـ بالتجربة ايضا ـ ان الحكومات التى تفكر فى اصلاح الجسر ليصبح طريقا زراعيا ، لم تكن تعيش . . فقد كانت البوارج الانجليزية تقبل من البحر فاذا بهذه الحكومات تقال من الحكم ! .

على ان الأمر يبدو خطيرا هذه المرة . . فالباشا لا يشرع فى اتمام قصره الا اذا كان على يقين من ان الحكومة التى ستشق الطريق ، باقية ! .

وقد اوشك قصره أن يتم ، والبناءون يعملون فيه بنشاط عجيب . .

ومادام البناءون ينشطون فى بناء قصر الباشا ، فحكومة حزب الشعب باقية ! .

وحكومة حزب الشعب تعيش منذ عامين : على الرغم ان العمال والطلبة يتظاهرون ضدها فى القاهرة ويضربون بالرصاص ؟.

والقرية تتلقى من حين الى آخر واحدا او اثنين من ابنائها الذين يشتغلون عمالا فى مصر ، وهم يروون كيف تطردهم المصانع ، وكيف يمتنعون عن العمل ، ويهتفون بسقوط الحكومة فتسلط عليهم الحكومة انابيب المياه الساخنة . وهم يتحدثون عن جزع حكومة حزب الشعب من التقاء الطلبة بالعمال والناس فى شوارع القاهرة ، فتصدر القوانين الحكومية باسم حماية الصحة العامة وتنشىء مكتب العمل ، لتغلق بعض المصانع بحجة انها مقلقة للراحة وتنقلها بعيدا عن المدينة وعن القرى . . حيث يفصل العمال عن اهل القرى مسافات واسعة من الأرض الخراب ،



ويفصلهم عن اهل المدينة عديد من الكبارى التى تستطيع الحكومة ان تفتحها فى وجه العمال المتظاهرين متى شاءت !.

وكان بعضهم يقول انه لا فائدة : فحكومة حزب الشعب ستبقى على انفاس مصر الى آخر الزمن ! .

وكان آخرون يقولون ان العمال لو ظلوا ممتنعين عن العمل والطلبة فى الشوارع فالحكومة لن تعيش بعد هذا شهرا واحدا !

اما الشيخ يوسف بقال القرية فقد كان يقول دائما ان هذا كله كلام فارغ وان الحكومة لا تسقط الا اذا هاج الموظفون ضدها وقام الفلاحون كما قاموا ضد الانجليز ! .

وقد حكى له العجائز عما صنع الفلاحون الفقراء بالانجليز ايام عرابى ، وهو نفسه يذكر عندما كان طالبا فى الأزهر سنة ١٩١٩ ، ان الموظفين فى القاهرة احسنوا البلاء وان الفلاحين فى هذه القرية وفى غيرها من القرى استطاعوا دائما ان يزعجوا الانجليز .

ولكن الشيخ يوسف يقطع كلامه دائما ليقول انه عندما كان طالبا كان الطلبة طلبة بحق،وكانوا يوجهون ضرباتلاتهدأ ضد اعداء البلاد،أما الآن فقد خسر الزمن !.

وذات يوم وقف يناقش فتى ـ وكان يعمل خادما بالقاهرة وعاد منها ـ فطلب منه الفتى أن يتشطر اليوم ويعمل شيئا بدلا من ان يلوم الطلبة الذين يموتون بالرصاص فى مصر .

فهاج الشيخ يوسف وصفع الفتى وطرده من امام الدكان .

ومر على القرية يوم ثالث .. ولم يقبل الشيوخ حسونة .

وبعد صلاة العشاء جلس الشيخ يوسف على دكة امام دكانه ، وجلس الى جواره محمد ابو سويلم .

وابتعد الفتيان الذين تعودوا ان يقفوا امام الدكان ، واقبل علوانى يطلب من الشيخ يوسف حصة الليل فى الشاى والسكر وكان الشيخ يوسف لا يريد أن يتحرك حتى ولو دفع علوانى فورا .. كان الشيخ يوسف يريد فقط ان يتكلم طويلا مع محمد ابو سويلم ..

ووقف علوانى امامهما قليلا ، ثم جلس على الأرض .

ومال الشيخ يوسف على محمد ابو سويلم يساله رايه فى أن يكتب هو عريضة من انشائه .. وهو وحده يعرف كيف يكتب للحكام بطريقة تقنعهم ! .

ولم يكد ينتهى من اقتراحه ، وقبل أن يهتم محمد ابو سويلم بالرد عليه ، صاح علوانى وهو ينهض متحمسا :

ـ آى كده !.. مايجيبها الا رجالها .. وايمان النبى عريضة منك لتهز الحكومة هز يا أبا الشيخ يوسف .

ومارس الشيخ يوسف احساسا بالامتياز .. ومسح صدره وبطنه بكفه ، وهو يزم شفتيه :

ـ هم .. امال ايه يا واد ؟ ! ولا كل من كتب ! .

غير ان محمد أبو سويلم قال باستخفاف :

ـ ما كفاية عرايظ بقى .. آدى احنا جربناها .. عايزين نشوف لنا سكة تانية .

وقال علوانى متحمسا ان عريضة من الشيخ يوسف ليست ككل العرايض .. فهو يستطيع أن يكتب كلاما باردا يغيظ الحكومة ، ولا أحد يجاريه فى الكلام البارد ! .

واعترض الشيخ يوسف محتجا على علوانى ، وشتمه ، وطرده .. فابتسم محمد ابو سويلم ، بينما فوجىء علوانى وبدا يعتذر ويشرح قصده .

ولكن الشيخ يوسف طلب من علوانى ان يخرس ، وينزاح بعيدا عنه ، ثم التفت الى محمد ابو سويلم ، واستطرد قائلا ان هناك الطريق الآخر الذى يبحث عنه محمد ابو سويلم فأحد العائدين من مصر ـ كان يشتغل فى شبرا البلد ـ وعرف من هناك ان الشيخ حسونة يسعى عند الحكام فى مصر ليعدلوا عن شق الزراعية .

فهمس محمد ابو سويلم لنفسه ان الحكام فى مصر لن يعدلوا من انفسهم عن شق الزراعية ، ولن يصنعوا شيئا مفيدا للبلد ! .

يجب ان يعرف الشيخ حسونة هذا ! .. وماذا يريد الشيخ حسونة ان يحصل ليتأكد من هذا بعد أن نقل هو مدرسا ، وفصل محمد أبو سويلم من مشيخة الخفراء ، وقطعت الحكومة ماء الرى لتعطيه للباشا ! .

وحين انتهى محمد ابو سويلم من همساته هذه اقبل دياب .. فلم ينهض له احد .

واستقبله الشيخ يوسف باهمال .

ودس دياب يده فى يد محمد ابو سويلم مسلما .. وسلم على الشيخ يوسف ، ثم سلم على علوانى ، ووقف الى جوار علوانى صامتا ولم يطلب منه احد ان يجلس .

واراد دياب ان يقول شيئا ، وكأنه اراد ان يشعرهم بأن له أهمية ، فقال فجأة :

ـ خالى جه ! ..

وتحرك محمد ابو سويلم فرحا ، وهو يقول فى دهشة :

ـ حضرة الناظر ؟ ! .. هوه فين؟ ! فى داركم ؟ ! وساكت ليه ليه ياوله .

فقال دياب مستدركا :

ـ لا .. جاى يعنى .. زمانه جاى من مصر دلوقت .

وبادره الشيخ يوسف بقوله :

ـ بقى طول عمرك حمار كده ! طيب ما احنا عارفين انه جاى .. يبقى اسمه جه .

وضحك علوانى وقال للشيخ يوسف :

ـ انت فاهم ان كل الناس عندهم فهم زيك يا أبا الشيخ يوسف ؟.. وللا يعرفوا يتكلموا زيك ؟! أصل احنا يعنى زى ما انت راسى .. يعنى لا قرينا ولا حد رضى يقرينا ! .

ثم التفت علوانى الى دياب فوجده يبتسم ، كأن الأمر لا يعنيه ! .

وهز محمد ابو سويلم يديه متعجبا من غباء دياب .. ثم لمح فتاة مهرولة فى السواد مقبلة من ناحية داره ؟ ورآها تدخل مسرعة الى دار الشيخ يوسف فصاح فيها :

ـ بت .. بت يا خضرة .. انت كنت عندنا .. ايه اللى جابك هنه ؟ انا مش قلت لك خليكى فى ناحيتكم واوعى تخطى الناحية دى ؟ .

ولم تجب الفتاة وغابت وراء باب دار الشيخ يوسف .

فقال دياب بحرارة انها ليست خضرة ، ولا احد يستطيع ان يحصل على اثر خضرة فى هذه الساعة بعد صلاة العشاء ، فهى دائما مشغولة مع هذا الفتى او ذاك من فتيان مصر الذين عادوا مطرودين من اعمالهم ومعهم بقية من مال مصر ، يستهوى فتيات كخضرة ، وهم يقيمون فى القرية بلا عمل الا مغازلة النساء ، ولا يستطيعون بعد هذا ، ان يمسكوا فأسا ، ولا حتى أن يحملوا حمارة سباخ .

وابتسم محمد ابو سويلم وهو يعجب لغيظ دياب ، ويتساءل ضاحكا ان كان هؤلاء الفتيان قد اخذوا منه شيئا عزيزا ..

ثم مال على الشيخ يوسف ، ونصحه الا يسمح لخضرة بدخول بيته ، وقال انه هو نفسه منعها من دخول داره ، وطردها ليلة البارحة وضربها عندما رآها فى وسط الدار تسأل عن ابنته وصيفة .

وهز الشيخ يوسف راسه باقتناع ، ورأى دياب يقترب منهما بوجهه ليسترق الحديث فزعق فيه أن يفور بعيدا .

وطلب محمد ابو ســويلم من دياب ان يحضر محمد افندى ولو من تحت الأرض ، واوصاه الا يغيب .

وانصرف دياب يهمس لنفسه :

ــ لو ماكانش الشيخ يوسف دا خلقى ؟! طب وانا عارف محمــد افندى فين دلوقتى .. اجيبه منين يعنى ؟!

ولم يكد يسير قليلا فى تباطؤ حتى قابل عبد الهادى .

وكان عبد الهادى حزينا مضطربا .. واستوقف دياب ليساله عن محمد افندى ، فقال دياب وهو يواصل المشى ، انه ذاهب الآن ليبحث عنــه .

واقبل عبد الهــادى فقعد بين محمد ابو سويلم والشــيخ يوسف دون ان يلقى السلام . وكان واضح الاضطراب والقلق والحزن .

ولم يساله احد عن سبب اضطرابه .

ربما كان يفكر كالآخرين فى ماء الرى الذى لا يســيل الا اذا قطع الجسر .

ربما يفكر فى السكة الزراعية الجديدة التى ســتأخذ الأرض من حوض الترعة .

وعاد علوانى يطلب من الشــيخ يوســف ان يتفضل عليه بقليل من الشاى والسكر . وقبل ان يجيب الشيخ يوسف التفت الى عبد الهادى فى رجاء ليساعده عند الشيخ يوسف .. فطلب عبد الهادى من الشيخ يوســف ان يقــوم ليحضر لعلوانى ما يريد لانه يود ان يقول كلام سر لمحمد ابو سويلم .

ونظر اليه علوانى بامتنان .

وقام الشيخ يوسف متثاقلا . ومشى الى الدكان يسبقه علوانى .

ومال عبد الهادى على محمد ابو سويلم يسأله عن محمد أفندى .. فقال محمد ابو سويلم ببساطة انهم أرسلوا دياب ليبحث عنه .. وتساءل ان كان هذا هو السر ! .

ووقف عبد الهادى واستأذن محمد ابو ســويلم فى ان يقوم معه ليحدثه على مصطبته ..

ونهض محمد ابو سويلم وحيا الشيخ يوســف وانصرف ، والى جواره عبد الهادى يلهث ويلقى فى ظلمــات الطريق الســاكن بنظرات حادة .

وقال محمد ابو سويلم :

ــ خبر ايه ؟ سر ايه ؟ ! مالك ؟ .

فسكت عبد الهادى وتابع سيره .

وعندما وصل الى مصطبة محمد ابو سويلم قعد ، وقعد الى جانبه محمد ابو سويلم .

وقال عبد الهادى بلهجة تدل على الخطر :

ــ وصيفة راحت فين ؟ .

فقال محمد ابو سويلم ببساطة :

ــ اهى متلقحة جوه .

ثم استطرد :

ــ لكن سؤالك دا لازمته ايه ؟ لزومه ايه يعنى .. هو دا السر ؟.

فأجاب عبد الهادى بنفس النبرات التى تحمل الخطر .

ــ لا ! .. اسمع لما اقول لك يابا محمد .

والتفت اليه محمد ابو سويلم ليسمع ما يقول .

وفى كلمة مشحونة كلحظات الانقضاض ، طلب عبد الهادى الزواج من وصيفة قائلا انه يتكلم فى هذا الموضوع لآخر مرة !

فأجاب محمد ابو سويلم بهدوء وصبر :

ــ ودا وقته ياعبد الهادى ؟ يا اخى طول بالك شوية !! حد عارف ايه اللى حايجرى .. بقى جايبنى من هناك ، وتقول لى سر .. علشان تتكلم فى كده ؟ ! .

ثم توقف محمد ابو سويلم قليلا بهيئة من يستعد لمتابعة الحديث .

واخذ قلب عبد الهــادى يخفق وانتظر ما يمــكن ان يقوله محمد ابو سويلم ..

ولكن محمد ابو سويلم لم يقل شيئا آخر ..

فالتفت اليه عبد الهادى بصبر نافذ وهو يقول :

ــ قلت ايه بقى يا أبا محمد ؟.

فقال محمد ابو سويلم بنفس هدوئه :

ــ طب يا سيدى بس احنا فى ايه وانت فى ايه ؟ ! بس يعنى ..

ولم يقل عبد الهادى كلمة فى انتظار بقية كلام محمد ابو سويلم .

ولكن محمد ابو سويلم عاد الى توقفه عن الكلام ..

ثم قال :

ـ تتعدل يا عبد الهادى .. بكره تتعدل ! .

ولكن عبد الهادى لوح بيديه قائلا :

ـ دهدى !! انا عايز عقاد نافع .. ايه اللى كل ما أكلمك ، تتعدل ، وتقول كلمة وتأكل عشرة ؟ .

وابتسم محمد ابو سويلم وهو يقول لعبد الهادى بطيبة وهدوء :

ـ بس طول بالك .

ولم يقل عبد الهادى شيئا .. وظل ينظر الى محمد ابو سويلم فى انتظار كلام منه ، وليس فى باله طول !! .

غير ان الشيخ الشناوى أقبل مروعا .

كان كرشه يهتز ، وحبات مسبحته ترتطم ببعضها ؛ وصوته يختلج بهمهمة يبين منها من حين الى آخر كلمة :

ـ باسم الله الحفيظ .. أعوذ بالله !.

واستقبله عبد الهادى بضيق ، وسأله عن سبب اضطرابه . فألقى السلام وجلس قائلا ان خضرة النجسة وجدت الآن مقتولة : ووجهها مدفون فى طين القناة الصغيرة التى تروى الحقول بجوار الجسر ! .

واستمر الشيخ يقول ان حياتها طين وآخرتها طين .

فقال عبد الهادى بضيق ان الناس كلهم من طين .. خضرة كالشيخ الشناوى تماما ! .

ولكن الشيخ الشـــــناوى كان مروعا الى حد أنه لم يفطن لما قاله عبد الهادى . واستمر يقول ان علوانى هو الذى قتلها ..

واعترض عبد الهادى مستنكرا :

ـ علوانى ؟ ! علوانى كان معانا دلوقت ! وعلوانى يقتلها ليه ؟

فقال الشيخ الشناوى :

ـ حاكم هو كافر وقليل الدين وقتال قتلا . دا عمره ماركعها . عرباوى يا سيدى .. « قالت الأعـراب آمنا قل لم تؤمنوا .. » ربنـــا قال كـده !.

واستطرد قائلا :

ـ الناس لقوها جنب الغيط اللى بيحرسه علوانى .. حد عارف ايه الحكاية .. والله ما حد غيره يعملها .. ما حدش غير الواد العرباوى يعمل العملة الغبرا دى . لا اله الا الله باسم الله الحفيظ . كانت بطالة صحيح

لكن يا ناس القتل حرام . وأكبر الكبائر عند الله .. دى بلد ايه دى .. اعوذ بالله من الشيطان .. قتل ؟ كدهه ؟ تنقتل قتل !.

وتململ محمد أبو سويلم :

ـ يا ناس جرى ايه بس ؟ احنا فى ايه ولا فى ايه ؟ ! ماهى غارت بقى مطرح ما راحت ! .

ولكن الشيخ الشناوى ظل فى اضطرابه ، يرسل كلمات متناثرة عن اللعنة والانتقام وسوء المصير ! وعندما هدأ ، تساءل أين يمكن أن تدفن خضرة هذه .. فاقترح محمد أبو سويلم أن تدفن على الفور قبل ابلاغ المركز بأن فى الأمر جناية قتل .

فقال عبد الهادى متعجبا ان احدا لايعرف ان كانت هناك جناية قتل، وربما كانت خضرة قد ماتت وحدها فجأة: انكفأت على وجهها فى الطين وهى تحاول أن تشرب من الماء القليل الذى تبقى فى القناة .. وهى أحيانا تفعل أشياء كهذه ! .

ولم يعلق الشيخ الشناوى على هذا ، فقد كان مشغولا بما قاله محمد أبو سويلم عن ابلاغ المركز .

وأكد الشيخ الشناوى أنه عندما كان عند العمدة ، علم ان العمدة لم يبلغ المركز بمسألة خضرة .. وانه على أية حال لم يحاول أن يعرف من القاتل .. وقد أمر العمدة بأن تبلغ الصحة بحادثة وفاتها كانما هى أمر طبيعى ، وان تدفن بعد هذا فى صباح اليوم التالى ، بعد أن يأتى تصريح الصحة ـ بالتليفون ـ كالمعتاد .

وسكت الشيخ الشناوى قليلا ، وقد استعاد هدوءه من كثرة ما تكلم وفضفض ! .

وعاد يتساءل أين يمكن أن تدفن خضرة ..

واقترح عبد الهادى باستخفاف أن تدفن فى مقابر الشيخ الشناوى ، لانه أقرب انسان لها يملك مقبرة ؟ .

ولم يكن الشيخ الشناوى يملك فى كل أرض القرية غير المقبرة ..

وثار الشيخ الشناوى على عبد الهادى ، وقال انه نجس كخضرة .

وأقسم الشيخ أنه لن يلوث عظام الموتى بجثة خضرة التى عاشت وماتت فى معصية الله ، ولن يسمح لها بأن تدفن فى مقابر المسلمين .

وسكت قليلا .. وعبد الهادى يغالب ضحكه .. ثم عاد يصرخ فى عبد الهادى ويشتمه ويقسم أنه ليس قريبا لخضرة .

وقال عبد الهادى بهدوء ان خضرة ليس لها أقارب فى القرية الآن

الا ابن عمها الذى يشتغل طباخا عند محمود بك ٠٠ وهذا الطباخ هو ـ فى الوقت نفسه ـ ابن عم من بعيد للشيخ الشناوى ! ٠

وقبل أن يسمح عبد الهادى للشيخ الشناوى بمقاطعته استرسل يقول ان شعبان قريبها الآخر لم يعد أحد يعرف عنه شيئا منذ هاجر من القرية ، أما أختها زنوبة فهى تشتغل فى مصر وتملك خمارة وراء حديقة الأزبكية ، وقد أصبح اسمها الآن احسان هانم ، كما يعرف الشـــــيخ الشناوى ! وهى لم تعد الى القرية منذ غادرتها الا مرة واحدة منذ خمسة أعوام ! ٠ أقبلت بعد أن أصبحت امرأة سمينة تضع الأحمر على الفم والذهب على الذراع والرقبة والأذنين ، وعلى وجهها لون جديد نحاسى ! ٠

جاءت اذ ذاك فى عربة حنطور من المركز ، فأقامت ليلة لله واشترت عجلا ووزعته على الفقراء ٠ وأقامت مولدا للنبى ، وأعطت للشيخ الشناوى جنيهين فقرأ الفاتحة على أرواح موتاها ، ودعا الله لهـا أن يوسـع عليها فى الرزق ٠. ورزقها من الخمارة كما يعرف الجميع ! ٠٠

ولم يكد عبد الهادى يفرغ من حديثه هذا ، حتى صاح فيه الشـــــيخ الشناوى ان احسان هانم ليست كخضرة ، وقد غفر الله لها لأنها تصدقت وأقامت ليلة لأهل الله ومولدا للنبى ، وتبرعت للجامع ٠٠ وهم الشيـــخ الشـــــناوى بأن يروى حديثا عن امرأة مثلها دخلت الجنة ٠٠ غير أن عبد الهادى قاطعه وهو يضحك :

ـ فاهم !! مادام عندها دهب ومساغ وبتعمل مولد وبتدفع للفقها ، والجامع ٠٠ دى طبعا يبقى لها فى الجنة سراية وجنينة كمان ! ومافيش مانع تبقى قريبتـك ٠٠ يعنى لو خضرة راحت مصر وعملت زى أختهـا ، ودارت مع رجالة مصر ، كانت تبقى من التائبـــات الصالحات ! ويا عالم كانت تبقى ايه كمان ! لكن ما دام قعدت فى بلدنا بقت نجسة !٠

وقبل أن يجيبه الشيخ الشناوى استمر يقول مستنكرا وهو ينظـر الى وجه الشيخ :

ـ ياشيخ ؟ ياسيدنا ٠٠ بقى دا كلام ؟ مين اللى نجسة فى الأختين ؟ اللى بتشقى علشان اللقمة والا اللى دايرة وفاتحة خمارة علشان تلبس دهب ؟! بقى بلدنا مكتوب عليها الشقا فى كله كده !؟.

وحار الشيخ الشناوى أمام كلام عبد الهادى فلم يجد غير عصـــاه : حاول أن يرفعها ويهوى بها على عبد الهادى ٠٠ ولكن عبد الهادى لم يكن فى حالة تمكنه من المزاح ٠٠ فتلقى العصا بيده ، ونحاها بغلظة قائلا :

ـ اسكت يا سيدنا والنبى ! فلقتنا من وعظك الخايب ٠٠ ايه رأيك فى

الزراعية اللى حاتبلع أرضنا علشان الباشا يتنزه وتبقى الســكة قدام سرايته سالكه على المركز وعلى مصر ؟! دى كمان نعمة جاياله من كتـــر صلاحه ؟!٠٠ هه ٠٠ مش كده ؟٠

وضرب الشيخ الشناوى كفا بكف ونظر الى محمد أبو سويلم وهـو يدارى عجزه وخجله فى الضحك قائلا :

ـ الواد عبد الهادى ده كفره ما وردش ! روح يا شيخ ٠٠ الله يلعنك فى كل كتاب !٠

ونظر محمد أبو سويلم الى عبد الهادى وقطع المناقشة ٠٠ طالبا منه أن يبحث عن حفار القبور ليرمى بجثة خضرة فى أية مقبرة عندما يأتى اذن الصحة بالدفن فى طلعة النهار ٠

وقبل أن يتحرك عبد الهادى ، سأل بفروغ صبر عن سر غياب محمد أفندى ٠

ولم يجبه محمد أبو سويلم ٠

وقال عبد الهادى وهو ينصرف ، انهم يريدون الليلة أن يبحثـوا فى مسألة السكة الزراعية قبل أن تشقها الحكومة ، وتهد الدنيا ٠

ومشى عبدالهادى بضع خطوات،ولكنهلاحظ قدوم موكبمن الخفراء الى دار محمد أبو سويلم ٠٠ وتقدم عبد الهادى يستوضح الأمر ٠٠ ولكن صوت الشيخ الشناوى ارتفع ـ من ورائه ـ مروعا يسأل الخفراء :

ـ خبر ايه ؟ خبر ايه يا اولاد ؟.

وتقدم الخفراء وطلب أحدهم من عبد الهادى أن ينتظر قليلا ٠ وخيل لعبد الهادى أن العمدة سيتهمه بقتل خضرة !..

ونهض محمد أبو سويلم من على المصطبة صائحا :

ـ خبر ايه يا واد يا عبد العاطى ٠ جايين كلكم تنيلوا ايه ؟ هوا الراجل النجس بتاعكم عامل ملعوب جديد ؟ ٠٠ هه ؟ زق له واد صايع يقتـــل خضرة وناوى يتهمها فى واحد منا ؟ ايه ياواد يا عبد العاطى ايه ؟ قول لى جايين هنا ليه ؟ وشرف النبى لو حصلت لكده لأقطع رقبته ٠٠ أنا وانت والزمن طويل يا عمدة ٠

غير أن عبد العاطى قال لمحمد أبو سويلم باحترام أن خضرة ماتت لوحدها ، ولم يقتلها أحد ٠٠ فقد كانت عائدة من على الجسر ، ومالت على القناة تغسل وجهها من بقايا الماء فداخت ، كما كان يحصل لها دائما، وكما يحدث لبنات واولاد كثيرين فى البلد..وحين داخت خضرة على حرف

القناة ، انكفأ وجهها على الماء ٠٠ فانغرس فى طين القناة ، وكتم نفسها ، وماتت على الفور ٠٠

فتمتم عبد الهادى لنفسه :

ـ يعنى ما حدش زقها ؟ يعنى ما حدش حط رأسها فى الطين ؟ ! طب الحمد لله .. مالكش فى دى ملاعيب ياعمدة !.

وتقدم خفير من عبد الهادى فقال له بتردد ان العمدة يريده ، هو ومحمد أبو سويلم ٠

وصرخ محمد أبو سويلم فى الخفير يسأله عما يريده العمدة منه فبلع عبد العاطى ريقه ، وقال ان رجالا مروا الليلة على الجسر بعد المغرب ٠ فوجدوه مقطوعا من عدة جهات ٠٠ فارسلوا اشارة الى العمدة يشتمونه ويهددونه بالجزاء ٠٠ وكلمه المأمور بالتليفون وطلب منه أن يعطيه أسماء من قطعوا الجسر ، فأملى أسماء الذين يملكون حقولا على الجسر ٠٠ واسم محمد أبو سويلم أيضا مع أن أرضه كلها فى حوض الترعة !! ٠

وكان الخفير عبد العاطى يتعثر فى كلماته من فرط الخجل .

ولم يكد ينتهى حتى زعق محمد أبو سويلم :

ـ حط اسمى فى اللى قطعوا الجسر ؟ ! الهى تنقطع رقبتك يا عمدة ٠٠ طب دانا أرضى كلها فى حوض الترعة ياولاد ٠٠ يعنى يزور عليه ؟ ٠٠ طب والله لاثبت عليه انه بيزور واحطه فى الحديد .. آه يا عمدة يا نجس .. انا وانت والزمن طويل .

ولم يسترح عبد الهادى لكلام محمد أبو سويلم ٠٠

فهو يعرف أن الحكومة لا يمكن أن تضع العمدة فى الحديد من أجل محمد أبو سويلم ٠٠ ولكنها تسجن محمد أبو سويلم ورجال القـــرية كلهم من أجل العمدة الذى خدمها فى الانتخابات وزور لها أصوات الأحياء والأموات فى القرية ٠٠ وجمع المال باسم الاشتراك الاختيارى فى جريدة حزب الشعب !

ولم يشأ عبد الهادى أن يناقش محمد أبو سويلم ٠٠ فعبد الهـادى يدرك هو الآخر ان العمدة والحكومة وكل رجال المركز يدبرون لهم أمرا ليرموهم فى داهيه !

وتمتم أحد الخفراء فقال ان المــــأمور أمر بالقبض على كل من أملى العمدة أسماءهم ٠٠

وتحرك الخفراء الى الدوار وهم يقولون :



ـ معلهش يابا محمد .. معلهش يا عبد الهادى ، حكم الزمن كده ..

فقال عبد الهادى ضاحكا متعمدا التظاهر بالاستخفاف :

ـ دا حكم العمدة ..

ومشى محمد أبو سويلم وعبد الهادى مع الخفراء الى الدوار .

وهناك وجدوا دياب ورجالا كثيرين ..

وأمام باب الدوار أخذ المكان يزدحم بالناس ويمتلىء بالصخب والضجيج ، ومحمد أبو سويلم وعبد الهادى يملآن الدنيا بالشتائم ، ويوجهان الى العمدة كلمات قاسية شجعت الآخرين على المزيد ..

وبعد قليل ، وقد أوغل الليل كانوا جميعا ومن ورائهم الخفراء ـ مدججين بالسلاح ـ يسيرون فى طريقهم الى المأمور فى عاصمة الاقليم تحت ظلمات الليل الداجى !

وحين انصرف الرجال ، تعالت صرخات النساء ..

وكان الشيخ يوسف قد انصرف الى داره منذ تركه محمد أبو سويلم مع عبد الهادى .. وفتح الشيخ يوسف باب داره فى هلع وسأل النساء عن الخبر ..

وعرف القصة كاملة فوقف على باب داره يقول فى حسرة :

ـ ولسه ياما حايجرى وياما حانشوف .. آه يابلد !

وفى تلك الليلة باتت القرية مروعة !

وحاول محمد أفندى أن يقابل العمدة .. ولكنه رفض أن يقابل كل الناس حتى الشيخ الشناوى .

وأخذ بعض النساء يذهبن الى الدوار ، فيصرخن ، ثم يعدن الى الدور والدموع على الخدود ، ليجدن الصغار يبكون وعيونهم مفتوحة بلا فهم فى رعب متشنج من المجهول !..

١٤

فتح الشيخ يوسف دكانه فى الصباح الباكر .. وجلس فى داخله ، وبيده منشة طويلة من الخوص يطوح بها الذباب .

كانت القرية قد استيقظت ، وما زالت فى عينيها الدموع .

لقد قبض بالأمس على كثير من الرجال ، ومع ذلك فقد ذهب الآخرون الى الحقول ، لأن الأرض لا تستطيع أن تنتظر الذين ذهبوا ..

وأقبل على دكان الشيخ يوسف صبى يبكى وهو يقول :

ـ أمى بتقول لك الحكومة خدت أبوى .. روح شوف خدوه ليه ؟ وحا يرجع امتى ؟

وأحس الشيخ يوسف بوخزات تعذب قلبه ، على بكاء هذا الصغير من الناحية الشرقية ..

ان الشيخ يوسف يعرف القصة كاملة .. ويعرف أن الحكومة أخذت من هذا الصغير ـ غير أبيه ـ عمه وخاله ورجالا عديدين هم أيضا آباء ، وأعمام ، وأخوال ، وأخوة وأبناء !

ولكن الشيخ يوسف لم يكن يعرف على التحقيق ما يصنع هو نفسه !

لو أنه ذهب الى عاصمة الاقليم فلن يستقبله أحد هناك ، فلا أحد هناك يعرفه !.

ولئن عرفوه وعرفوا من أية قرية هو .. فربما قبضوا عليه !

فهكذا كانوا يصنعون أيام قاطعت القرية الانتخابات .. وهكذا يصنعون دائما كلما شعروا بأن القرية تريد أن تملك الرأى أو النبضات أو الكلمة أو .. الأرض !.

وزحفت على ضلوع الشيخ يوسف مشاعر مبهمة .. وأخذ يحدق أمامه فى الطريق الذى يضطرب من حين الى حين بامرأة باكية أو غلام منكس الرأس ..

لقد امتلأ أمامه هذا الطريق ذات يوم بالرجال .

كان ذلك منذ أربعة عشر عاما ·· عندما أغلق الأزهر فى سنة ١٩١٩، وعاد هو الى القرية فى مركب شراعى عن طريق النيل ، بعد ان قطعت السكة الحديد بين القاهرة وعاصمة الاقليم ·

كانت الحياة اذ ذاك أكثر بهجة ،والنفس أكثر فتوة..وكانت زوجته هى الأخرى أكثر صبا !

وفى طرقات القرية المزدحمة بالنـاس والفؤوس والغبار واللهثات ، كان صديقه الشيخ حسونة يلوح بيده ويصرخ :

وبالاســتقلال أبشر   رغم أنف الانجليز

وانتبه الشيخ يوسف فجاة على نحيب امرأة تقول من خلال وجههـا المبلل المتشنج :

ـ والنبى ياعم الشيخ يوسف ، تعال اقرالى عدية يس على الحكومة اللى خطفت منى الواد ابنى امبارح بالليل ··

ونظر اليها الشيخ يوسف كالمذهول ، ولم يقل شيئا ··

وظل يحملق فى الطـــريق أمام دكانه دون أن يختلج وجهـــه بأى تعبير ··

لكأنه ينظر الى عالم آخر !··

انهم فى تلك الأيام الرائعة من سنة ١٩١٩ لم يقرأوا ابدا « عـــدية يس » على الانجليز ، كانوا يعملون بلا توقف ··

وفى لحظات العمل المضطرم ، لايجد الانسان وقتا للتفكير فى عـدية يس !··

وكانوا اذ ذاك يملأون القرية بالهتـــاف والعمل ·· ويهزون صمت الحياة بسواعدهم ··

وأوشك أن ينفجر فى المرأة ويشتمها ، ولكن صوته لم ينطلق من بين شفتيه ··

كان حزينا ·· يشعر بالوحدة والضعف ، والفراغ ، وقليـــل من الضياع ··

وكان مهزوما ··

وقال لها بصوت كسير :

ـ ربنا يعدلها ·· روحى ربك يعدلها يا ولية ·· روحى !

ولكن المرأة لم ترح ، وظلت تبكى أمامه وتمسح أنفهـــا وعينيها بكمها الواسع الأسود ·· وقالت له انها لم تجد الشيخ الشناوى ليقرأ عدية يس على الحكومة ، وانها كنست تراب ضريح ســيدى رمضـــان ، ودعت الله ـ ويداها على عينيها ـ أن ينتقم لها من الحكومة ، وممن كان السبب فى رمى ابنها للحكومة ··

واضافت وهى ما تزال تبكى ، انها لا تملك مالا تشترى به الشمع لضريح «سيدى رمضان» فليترفق بها الشيخ يوسف ويقرأ لها عـدية يس بلا مقابل ، أو فليعرها من دكانه بعض الشموع حتى تحضر له البيض الذى يضعه دجاجها هذا المساء ·

ولم يستطع الشيخ يوسف أن يغالب ضيقه بعد فانفجر :

ـ روحى بقى ·· روحى يا شيخه روحى ··

ولكنه عاد فارتعد ، وهو يسمع صوته يدوى فى أذنيه ، كمـا ترن لخطوات الثقيلة الغريبة فى بيت خرب مهجور !·

وهز رأسه وهو يمص شفتيه ، وتمتم :

ـ عدية يس ؟! ضريح سيدى رمضان ؟ الشيخ الشناوىّ ؟!

لقد كان الشيخ الشناوى نفسه فى تلك الأيام الماضية من سنة ١٩١٩ يقف الى جانبه فى طرقات القـرية ، ويهز يديه هو الآخر ويقول « يحيـا الوطن » ·· كانت له نفس اللحيـــة الشيباء والوجه الأبيض الملىء ·· وكان يروى نفس الأحاديث والحكايات عن الأنبيـــاء ·· ولكنه فى تلك الأيام كان يروى مع الأحاديث ، حكايات أخرى سمعها عن التل الكبير وكفر الدوار ، ومعارك عرابى ضد الانجليز وحتى ضد الخديوى من أجل الدستور الذى كان اسمه اللائحة !

وعلى أية حال فلم يفكر أحد فى أيام سـنة ١٩١٩ فى أن يطلب من الشيخ الشناوى قراءة عدية يس ، ولم يكن أحد اذ ذاك يفكر فى سيدى رمضان ، ولا فى الشموع ··

ولم يفكر أحد فى سيدى رمضان غير محمد أبو سويلم ··

كان عائدا من الحرب مسرحا من الجندية ·· فاقترح أن تخفى القرية كل ما تملك من سلاح فى ضريح سيدى رمضان ··

كان هذا كل ما اتجه به فكره الى الضريح ··

ولكن أين أبو سويلم الآن ؟·· أين ؟!

وتزايل الشيخ يوسف فى أغوار نفسه على هذه الذكريات ·

وطافت برأسه صور بشعة عن أرضه التى ستموت من العطش فى حوض الجسر ، والأرض التى اضطر تحت ضغط الأزمة والحاجة الى

هنها تحت يد محمد افندى ، والأرض التى يمكن أن تنتزعها الحكومة تقيم عليها السكة الزراعية ..

وهو بعد لا يعرف كيف يرد هذا كله !

ولا أحد فى القرية يعرف على الاطلاق ..

وهمهم الشيخ يوسف بصوت ضعيف مختنق يراوده البكاء .

ـ ربنا يلطف ..

وسرت فى صوته الجاف رنة حزينة ، وأحس فجأة أنه يحب كل رجل وامرأة وغلام فى القرية .. حتى الذين عادوا من « مصر » بلا عمل ، وتعودوا أن يضايقوه بكلامهم أثناء وقوفهم أمام الدكان ..

وشعر بالحاجة الى رؤية علوانى ..

ونادى صبيا كان يسير فى الطريق مطاطىء الرأس ، ولكنه تذكر أن علوانى ينام فى مثل هذه الساعة من الصباح بعد سهر الليل كله ..

وصرف الصبى ..

وابتعد الصبى .. ولم يعد فى الطريق احد .. !

وعاد الشيخ يوسف ينظر أمامه فى الطريق الخاوى ، والوحدة الهائلة تلح عليه ..

ثم رمى المنشة فى ضيق ، وهب واقفا كأنه ينفض عن نفسه حملا ، وفتح صدره .. ثم دس يده تحت صندوق ، واخرج كتابا كبيرا من الورق الأصفر الداكن .. وأخذ يقلب صفحاته وهو يهز رأسه ..

كانت قصة « عنتر » .. عنترة البطل الأسود العبد الذى هزم كل السادة فى مصر والشام وبلاد العرب !

وظل الشيخ يوسف يقرأ لنفسه بصوت مرتفع كيف كان عنتر يدافع عن الديار ..

وعادت الحياة تهب فى صوته وهو يتلو شعر عنتر الذى كان يتحدى به القضاء ، ولعنة المقادير والسلطان ..

واخذت الوحشة تفارق نفس الشيخ يوسف شيئا فشيئا وبدأ صوته يتهدج بالحماس ..

ورن فى أذنيه صوت يقول :

ـ صباح الخير ياشيخ يوسف ..

ولم يرفع الشيخ يوسف عينيه عن الكتاب ، واستمر يقرأ .

واشار بيده لصاحب الصوت أن ينتظر ..

ـ .حمره فى السمرة المعفرة من وجه الشيخ يوسف وبدأ كيانه له ينبض بالدفء ..

وعاد الصوت يقول :

ـ باقول لك صباح الخير ياشيخ يوسف ..

ورفع الشيخ يوسف عينيه وابتسم ثم أغلق الكتاب ووجهه يشرق..

وقام من مكانه مرحبا بصوت مطمئن فارقته الرنة الحزينة :

ـ صباح النور يامحمد أفندى .. يسعد صباحك ياسيدى أهلا وسهلا ..

كان الشيخ يوسف فى تلك اللحظة يشعر بالسكينة تغمر كل أرجاء نفسه .. وبأمل غامض يخفق منه فى الأعماق ..

رفاض قلبه بحب مفاجىء لمحمد أفندى ، واهتز فيه اشفاق على دياب ..

وتساءل الشيخ يوسف :

ـ لا بس الطربوش والزكتة ورايح على فين ؟.

فأجابه محمد أفندى أنه فكر فى أن يذهب الى عاصمة الاقليم ليرى ما حدث لدياب ورجال القرية .. ولكنه عاد فرأى أنهم فى المركز لن يسمحوا لأحد من القرية بأن يتكلم ، وربما قبضوا على من يذهب ليطمئن على الآخرين .. ومن أجل هذا فهو يرى أن يزور محمود بك ويحدثه فى أمر دياب ومحمد أبو سويلم وعبد الهادى وبقية الرجال ..

وقاطعه الشيخ يوسف فى نصح صادق :

ـ بقى يا سى محمد مش كفاية اللى جرا من محمود بيه ؟ ! .

فقال له محمد أفندى بيأس :

ـ وحيلتنا ايه نعمله يعنى ؟ طب نعمل ايه ؟ ايه الحيلة ؟ وفيه سكه غيردى ؟.. وعلى كل حال خلينا ورا الكداب لحد باب الدار ..

فقال الشيخ يوسف مستنكرا وقد عاد الى وجهه الجاف جموده المكتئب :

ـ دار ايه .. وهباب ايه !؟ كلام ايه اللى بتقوله ده يا جدع .. ما خربوا الدار .. ماخدوهم من الدار للنار .

ولكن محمد أفندى مال على الشيخ يوسف ليقول له فى همس انه أعطى محمود بك عشرة جنيهات عندما كان فى القاهرة ليسعى فى موضوع الرى ولم يعمل محمود بك للقرية شيئا بهذه الجنيهات .

وهو الآن يحمل عشرة جنيهات أخرى يعطيها لمحمود بك ليطلق سراح أهل القرية وسيعطيه الآن خمسة جنيهات والباقى بعد الافراج عن الرجال ..

وابتسم محمد أفندى بذكاء وهو ينصرف ، ولم يجب الشيخ يوسف .. وانما سحب الكتاب بسرعة ووضع رأسه بين الصفحات ، وعاد يقرأ قصة كفاح عنتر بصوت خفيض مرتعش كان يثبت ويرتفع ،وتسرى فيه الحرارة صفحة بعد صفحة ..

***

انطلق محمد أفندى بالطربوش والجاكتة فوق جلبابه الأبيض النظيف، وهو يسحب جحشته الفارهة المطهمة ..

ومر ببيت محمد أبو سويلم ، فوجد الباب مغلقا ..

لقد كانت وصيفة ليلة البارحة تبكى أحر بكاء ..

ذهبت اليه فى بيته تبحث عنه بعد أن أرسلوا أباها الى المركز .. ثم القت راسها على كتف أمه .. وغاض صوتها واختلج بدنها كله .. وهى تذرف الدموع ..

وأمه أيضا ظلت تبكى من أجل دياب ..

وهو نفسه !

انه لم يذق النوم طول الليل .. وعندما عادت « وصيفة » الى دارها ظلت تتراقص أمام عينيه أطياف عديدة لجلساته على المصطبة مع محمد أبو سويلم وعبد الهادى .. وأحس بالخواء الرهيب بعد غيابهما ..وأدرك أنه يحب عبد الهادى أكثر مما كان يظن ، وكأنه لم يغضب منه أبدا ..

ثم انتفضت فى ذهنه قصة حياة دياب دفعة واحدة .. كأن دياب قد مات .. وألقى محمد أفندى وجهه على الوسادة وكتم البكاء ..

كان يعرف أنهم فى المركز لن يحكموا بالطبع على رجال القـــرية بالاعدام لمجرد أنهم قطعوا الجسر ورووا الارض !

ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمنع نفســه من البكاء .. وقد ظل يتشنج فى أنين حزين ، وهو يرى نفسه عاجزا عن استرداد أخيه من يد الرجال فى المركز .. ومن يدرى ؟

ربما كانوا يعذبون الولد الصغير ، والرجال الكبار ..

ربما كانوا يضطرونه الى أن يشرب من بول الخيل ..

فهكذا كانت حكومة حزب الشعب تصنع بالفلاحين ، منذ رفض الفلاحون أن يسيروا وراءها ، والفلاحون يرفضون السير وراءها على الرغم من كل شىء ..

وتابع محمد افندى سيره فى الطريق الى الحقول مارا بأبواب الدور المغلقة .. باب محمد أبو سويلم ، باب مسعود ، باب عبد الهادى وستهم .

كل الأبواب مغلقة فى الصباح لأول مرة .. فالقرية لا تغلق أبواب دورها الا فى الليل .. ولكن الحال تغير ، وأغلقت الأبواب يوم ذهب الرجال ..

ومن وراء الأبواب المغلقة يعيش الرعب والقلق ، وتضرم اللهفة والخوف من المصير ، كل قلوب النساء والأطفال ! .

وظل محمد أفندى يمشى وهو يسحب جحشته حتى جاوز الدور، ووجد أمامهالحقول تمتد بأعوادالذرة الصغيرة الخضراء،وأعوادالقطن..

ووثب على ظهر جحشته .. وانطلقت الجحشة تتعثر به فى طريق مختنق متعرج بين الحقول والترعة ..

ومن حوله حبات الندى تهتز وتلتمع فوق أطراف الزرع ، والأشعة الحانية ترسلها فى الفضاء العريض شمس اليوم الجديد وأخيرا بلغ ضيعة محمود بك .

وفى غرفة على الترعة بعيدة عن سراى محمود بك لبث محمد افندى طويلا ينتظر ، وقدمت له القهوة فشربها بعد تردد ، وظل ينتظر ، وهو يرتب فى راسه الكلام الذى يجب ان يقوله وشعر بنفسه يتهيب مقابلة «البيه» . وسالت انفه عدة مرات وهو يمسحها فى عناية بمنديل كبير ،ويتنحنح ويراجع فى عقله الكلمات التى يحسن أن يبدأ بها الحديث مع « البيه » وتهيأ له أن انفهتسيل من جديد فأعادمسحها باتقان فى منديله وتحسسها بشفته العليا وأصابعه ..

وطال انتظاره ..

واخيرا اقبل محمود بك عارى الراس منفوش الشعر .. فى جلباب واسع أبيض ..

وكان يتثائب ، ويدعك عينيه وقال فى غلظة :

ــ ايه ؟! جاى لى من الفجر ليه ؟ .

فأجاب محمد أفندى وهو يخطف نظرة الى ساعة يده :

ــ دى الساعة بقت عشرة يا ســعادة البيه .. وأنا هنا من ستة ونص ..

وعاد محمود بك يسأله بغلظة عما يريد ، فروى له قصة القبض على أخيه ورجال من القـــرية • وكان محمود بك يسمع له باهمال ، وهـو متثاءب • ويزفر دخان سيجارته الأمريكية ••

واسترق محمد أفندي نظرة الى باب الغرفة •• ثم سحب بسرعة من جيبه خمسة جنيهات وأعطاها لمحمود بك ولم يقل شيئا •• وقد نسى كل الكلام الذى كان قد أعده في مخه ! •

ونشط محمود بك ولم يقل شيئا •• ثم طلب من محمد أفندي أن ينتظر أياما •• ولكن محمد أفندي أعطاه ورقة أخرى بخمسة جنيهات وذكره بالمبلغ الذى أخذه منه من أجل ماء الرى ولم تستفد القرية شيئا •• ثم قال ان الاعتماد على الله وعليه وحده لاخراج الرجال •• والقرية دائما مستعدة لطلباته ••

وبينما كان محمد أفندي يرتب في ذهنه كلاما آخر ليشحذ همة محمود بك الى العمل ، وقف محمـود بك •• وباغتـه بالنداء على أحـد الفلاحين ليعد الفرس ••

ثم التفت الى محمد أفندي وقال بثقة :

ــ روح استناهم فى البلد •• مبروك ! •

وقام محمد أفندي من فوره وهو يكاد يطير من الفرح •• وركض بالجحشة فى الطريق المختنق بين الحقول والترعة •• ولم يبال بتعثراتها فى حفر الطريق ••

كان الضحى يملأ الدنيا •• والحرارة قد بدات تلفح الحقول •

رلم يكد يقترب من دار محمد أبو سويلم حتى وجد الباب مفتوحا ••

وخفق قلبه فجأة •• ونزل عن ظهر جحشته بسرعة •• وســـعل وتنحنح •

وبرزت « وصيفة » فى وسط الدار .

كانت بشرتها البيضـــاء محتنقة ، وعيناها الواسعتان الصافيتان تلهبهما الحمرة ، وفى جفنيها الذبول الذى يخلفه البكاء ..

وحين رات محمد افندى قالت بصوت متهلل :

ــ اتفضل ••

ثم تقدمت منه فى أمل ••

كانت ما تزال ريانة على الرغم من كل شىء •

وتقدم محمد افندى داخل الدار ..

انه الآن وحده وجها لوجه مع وصيفه . . وهى على الرغم من كل ماحدث تبتسم له ••

وكانما كل ما حدث لابيها واخيه •• وحتى لعبد الهادى قد جعل قلبها يتفتح لاستقبال قلبه ، وجعل بدنها الشهى فى حاجة الى بدن آخر شقيق يمنحه الدفء والسعادة ، ويبسط عليه الحماية والأمن ••

والتمعت عينا محمد أفندي وتوالت نبضاته ، وتتابعت أنفاسه ، وشعر بخدر لذيذ يتدفق فى كل جسده ••

وتقدم من وصيفة حتى بدأ يشعر بأنفاسها ..
وسألها ان كانت وحدها فى الدار ، وأين ذهبت أمها ••

وكان يهمس وفى صوته بحة ، ومن عينيه ينبثق ومض غريب •

وتراجعت وصيفة الى الوراء خطوة •• دون أن تدعه يفهم أنها أدركت ما يريد ! وأجابته على سؤاله الغامض اللاهث بصوت مرتفع مطمئن . . قائلة ان أمها راقدة وسألته عما صنع لابيها ولأخيه ولعبد الهادي وكل الذين رمتهم الحكومة فى المركز •

وغامت نفس محمد أفندى قليلا ••

وشعر بالخجل وبوخزات تلدغ راسه وانفه واذنيه وقفاه .

وحك شعره وقفاه وذقنه ، وقال ببرود أنهم سيخرجون اليوم وشهقت وصيفة من الفرح •• وقفزت ، ورفعت يديها وصفقت ••

ورأى محمد أفندى وجهها يتألق والغمازات تتراقص فيه ، وتأمل نهديها يختلجان وهى تثب وتتقدم منه ، ووجهها كله يشع بالنور وسألته :

ــ صحيح ؟ صحيح ؟ والنبى ؟! •

وأطلق محمد أفندى ضحكات متكسرة وتقدم الى وصفية بلا كلمة وقد احمر وجهه ونظراته النهمة تستلقى على صدرها الملىء •

وجرت وصيفة ناحية الباب . وهى تفهم تماما ما يريده محمد أفندى وصاحت عليه ببساطة وهى تقف بالباب الخارجى للدار :

ــ الحق الجحشة يا محمد أفندى ، الحق جحشتك جريت ••

ونظر محمد أفندى وراءه فى ضيق ، فوجد الجحشة التى تركها واقفة فى الطريق أمام الباب ، تتحرك بلا حرج وتمضى فى طريقها الى الحقل ••

وخرج محمد أفندى مسرعا مرتبكا •• واذ جاوز عتبة باب محمد أبو سويلم قالت له وصيفة وهى تسير وراءه خطوة خطوة :

ــ خالك جه ياسى محمد ، جه فى عربية حنطور . . وحود علينا هنه! راجل عليه القيمة صحيح ••

تم ارتفع صوتها ، وضغطت على الكلمات وهى تقول :

ـ راجل عليه القيمة ويعرف الأصـــول ويستر الحريم فى غياب الرجاله ٠٠ أنا عمرى ما شفته من صغرى لكن لقيته راجل صحيح ٠٠ ماعونه طاهر ٠٠

وادرك محمد أفندى أن وصيفة تعرض به ، وشعر بكلماتها العالية كما لو كانت الضرب بالكرباج ! ٠

ولم يلتفت اليها ولم يقل شيئا .. وانما مضى وراء الجحشه يتعثر فى خجله ٠٠

وتابعته وصيفة قائلة :

ـ دا زعل قوى لما عرف انك رحت للبيه محمود ٠٠ خالك برضه قال لنا أن أبوى طالع النهاردة ٠٠ طالع طالع غضبن عن البيه محمود وغضبن عن الحكومة اللى فى المركز كمان ! ٠

وعادت وصيفة الى دارها وسحبت الباب قليلا .. وتركته نصف مغلق ٠٠

أما محمد أفندى فقد أدرك الجحشة الهاربة وسحبها ، وعاد بها الى الدار . ولم يحاول أن يلتفت الى باب محمد أبو سويلم . فقد سيطر عليه ضيق مفاجىء اختلط بخجله وارتباكه ٠ وتقدم الى باب داره وهو يحسب ألف حساب لزيارة خاله الشيخ حسونة ٠٠

والشيخ حسونة فى القرية منذ الصباح ٠

وصل اليها عندما كان محمد أفندى يجلس وحده فى عزبة محمود بك ، يرتب الكلام ، ويمسح أنفه فى انتظار البيه ! ٠٠

ولم يقبل الشيخ حسونة من القاهرة مباشرة ٠٠ فقد تخلف ليلة فى عاصمة الاقليم ٠

وصل فى قطار العصر ٠ فاتجه الى الصيدلية الكبرى التى يتخذها الموظفون والأعيان ندوة لهم ٠

وعلى رصيف الصيدلية ، جلس الشيخ حسونة مع بعض أصدقائه القدماء فوق كراسى الخيزران البالية ٠

كانوا كلهم فى الغالب من قرى مجاورة ٠٠ وكانوا جميعا مشغولين بأمر الزراعية الجديدة التى تجنبت جسر النهر وهو الطريق الطبيعى لتخوض فى الحقول وتحطم الملكيات الصغيرة . وكان لكل واحد منهم اب أو أخ أو عم أو خال سيجد نفسه بلا أرض بعد أن ينفذ مشروع الزراعية ٠



وقال القاضي الشرعي ـ وكان زميلا للشيخ حسونة فى الأزهر ـ ان الباشا عضو حزب الشعب نجح في جعل الزراعية الجديدة تدور كالثعبان . ليتفادى نزع ملكية سهم واحد من ارضه او من ارض قريبه محمود بك أو من أرض أى مالك كبير على طول الطريق من القاهرة الى عاصمة الاقليم ، وهكذا تمر الزراعية بالضبط امام حدود الأرض التى يملكها هؤلاء جميعا ! .

وتدخل في الحديث موظف شاب فى المساحة من بلدة الباشا فهز رأسه توكيدا لهذا الكلام . ثم همس بأن الزراعية ستكلف الدولة عشر أضعاف تكاليف اصلاح جسر النهر .

ثم دارت عينا الموظف على الرصيف والى داخل الصيدلية كأنما هو يخشى انقضاضا مفاجئا .

وكان الشيخ حسونة قد أسلم حذاءه لماسح الأحذية ، وماسح الأحذية يسمع الحديث صامتا .

وزعق ماسح الأحذية فجاة فدعا على حزب الشعب بالخراب المستعجل قبل أن يخرب الدنيا .

وابتسم الشيخ حسونة فى رضا . وضحك الآخرون .

وتوجه القاضي الشرعي بوجهه الى ماسح الأحذية يسأله عما يضايقه هو الآخر من حزب الشعب .

فقال ماسح الأحذية على الفور :

ـ خلوا الدنيا كلها ضيق ربنا يضيقها عليهم دنيا وآخرة .

ومرت بائعة سمينة بيضاء تحمل فوق رأسها قفص التين البرشومى وهى تتراقص وتغمز بعينها لموظف شاب فى المحكمة ، وتنادى على التين بكلمات مكشوفة . وأحس بها الموظف الشاب ، فتحرج قليلا ثم وضع راسه فى صحيفة .. ونهرها ماسح الأحذية .. بينما صاح موظف المحكمة فجاة وهو يلوح بالصحيفة :

ـ دول خلاص باعوا البلد للانجليز .

فقال القاضي الشرعي باهمال :

ـ دول شبعوا بيع ..

ولكن احد الجالسين قال باصرار :

ـ لا .. لا .. دا بعدهم . باعوا ايه ! اذا كان يومى على الله فيه مظاهرات .

وتدخل موظف آخر قائلا :

ـ هم يقدروا ؟ كان غيرهم اشطر . قول بس نوابهم يشطروا على جدع خايب ياخدو منه قرشين .. وليه غلبانه يأخدوا منها سبت بيض ؟ لكن يبيعوا البلد ؟ . هيه شروة .. خلاص بقى !

وظل الشيخ حسونة يتحدث مع الجالسين أمام الصيدلية . حتى اقبل المساء .. وفى الليل سهر فى نادى الموظفين حيث التقى بالقاضى الشرعي وموظفين آخرين من القرى المجاورة يعملون فى عاصمة الاقليم .

وفى احدى حجرات النادى كان بعض الأطباء ورجال النيابة والبوليس والرى والمحامين يلعبون الورق .. والكؤوس تدخل ملأى وتخرج فارغة :

وكان القاضي الشرعى ينظر بامتعاض الى خدم النادى وهم يدخلون ويخرجون . ويقول فى صوت راسخ وجرأة يخالجها الحذر الواضح :

ـ هؤلاء يا سيدى هم كبراؤنا . لعنة الله عليهم . خمر وميسر ومن يدرى ايه كمان .. والله لقد زنت نساؤهم يا شيخ .. زنت نساؤهم والله .. انا علشان كده لا احب النادى ولا احب كبراء النادى !.

واقترح القاضي الشرعى على الشيخ حسونة والآخرين أن يجلسوا بعيدا عن هذه الحجرة وبعيدا عن الصالة التى تعج بقرعات حجارة الطاولة

وجلسوا فى حجرة بعيدة متواضعة الأثاث ليست كباقى الحجرات .

واقترح عليهم موظف بالمديرية أن يكتبوا برقية الى الصحف التى تعارض الحكومة وان يشرحوا فى البرقية موضوع الزراعية .

واضاف الشيخ حسونة أن ترسل برقيات أخرى الى النادى السعدى فوافق الجميع .

وتحدث القاضي الشرعى عن أهمية ارسال برقيات أخرى الى كتاب المقالات فى الصحف .. فلم يعترض أحد .

وكتب القاضي الشرعى البرقيات .. وجمع الشيخ حسونة مالا من الموظفين الجالسين معه فى الحجرة . ثم وقعوا البرقيات باسماء أقاربهم الفلاحين فى القرى التى تتأثر من شق الزراعية .

وحاول أحد الموظفين فى استبسال أن يوقع باسمه وهو يذكر الآخرين بموقف الموظفين سنة ١٩١٩ ، ولكن القاضي الشرعى قال له ان الحرص من حسن الفطن ، وحكومة حزب الشعب كالغول الهائج مع الموظفين ، وهى تتمسك بتنفيذ القانون الذى يمنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة فلا داعى لتعريض

النفس لخطر الفصل أو التشريد فى بلاد بعيدة .. واضاف القاضى الشرعى ان هذا حرص توجبه مصلحة العيال !..

وسكت الموظف راضيا عن نفسه ، وهو يتسول ـ بعينيه ـ نظرات الاكبار ! .

وقام هو بنفسه الى المحطة لارسال البرقيات .

وبقى الآخرون يتحدثون عن اضطهاد المصريين لحساب الانجليز واضطهاد الفلاحين فى القرى المجاورة لحساب الباشا .

وعرف الشيخ حسونة بلاء القرية ضد لائحة الرى الجديدة .وهزته أنباء اعتداء الفلاحين على جسر النهر والترعة . وقال وهو يصغى بزهو :

ـ بلد شهامة طول عمرها .. الله ! .. دى ميتهم يا اخوانا دا حقهم ياخدوه بأى طريقة ما دام الحكومة بتسرقه منهم وتعطيه للباشا .

ولم يفسد زهو الشيخ حسونة ما سمعه من أنباء القبض وهمس لنفسه ان هذا لا يعنى شيئا ، فالزعماء انفسهم قبض عليهم . ونفوا فى مالطة وسيشل . والكثيرون يموتون الآن بالرصاص فى شوارع القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة وبنى سويف واسيوط ! .

ثم رفع صوته قائلا انه سيرسل برقية للنائب العام يشكو فيها رجال المركز لانهم قبضوا على الرجال من قريته .

فأجابه موظف بالنيابة قائلا انه لا فائدة من هذا فالنيابة الآن فى يد الحكومة . والحكومة تقبض على الناس بلا حساب ، وبعد القبض تبحث النيابة فى القانون عن مادة تطبقها . وتدافع بها عن اجراءات القبض .

ولكن الشيخ حسونة لم يقتنع بهذا الكلام .

وعندما انصرف آخر النهار قابل احد أصدقاء ملاحظ البوليس فرجاه أن يجد طريقا للافراج عن رجال القرية ، ورجاه بصفة خاصة أن يتوسط كيلا يأمر بتعذيبهم ـ كما هو الشائع ـ حتى يتم الافراج عنهم !

وغادر الشيخ حسونة فندقه المتواضع فى الصباح الباكر ، واتجه الى المحطة بجوار الفندق ، وأرسل باسم أهالى القرية برقية الى النائب العام ووزير الحقانية مطالبا بالتحقيق فى أمر القبض على رجال من القرية ، وأرسل صورة البرقية الى الصحف المعارضة .

ثم ركب عربة حنطور من المحطة ، ومضى بها على الجسر الى قريته . ولقد ظل على طول طريق الجسر ، ينظر الى النهر والى الحقول ويعجب لهؤلاء الذين يتركون الجسر الجميل المستقيم ، ويقيمون بدلا منه سكة زراعية جديدة ملتوية لتمر أمام قصر الباشا ، وتضحى الدولة فى هذا

السبيل بكثير من المال ، وبكثير جدا من الارزاق ، وكان المقصود هو خراب الفلاحين ؟ !

وهمس لنفسه ماذا لو اختار الباشا مكانا على الجسر ليبنى عليه قصرا ؟ !

ولكن الحظ السىء جعل ارضه كلها بعيدة عن الجسر ! .

مع ذلك .. فهذه الدولة لا تبالى بشىء . فهى دولة حزب الشعب!!.

لقد فكر سائق العربة نفسه فى الأمر .. والتفت يسأل الشيخ حسونة لماذا تشق الحكومة زراعية جديدة والجسر موجود : على طوله الشجر والظل ، وبجواره النهر والنسمة الحلوة ؟ !

وحين اجابه الشيخ حسونة بأن الباشا بنى قصره بعيدا عن النهر ، مص السائق شفتيه وطوح بالسوط فى الهواء وهو يقول :

ـ عارف .. يا سيدى ما انا عارف ! يا سلام على الافترا يا ناس !!.

وبلغ الشيخ حسونة القرية بالحنطور ، ظل راكبا حتى بلغ دار محمد افندى ليقيم بها فدار الشيخ حسونة مهجورة منذ نقل .

وتحركت النساء من وراء الأبواب يتأملن فى عجب وقلق ، مقدم حنطور الى القرية .

وسيطر الرعب من جديد على القلوب !

فربما كان طارقا جديدا من طوارق الحكومة يدهم القرية .. ولكن كل عين كانت ترتد من داخل الحنطور ، آمنة ، لانها لم ترى الملابس الصفراء والطربوش الأحمر ، والبندقية .. وكل ما يمثل المباغتة والكارثة والقضاء .

وعندما بلغ الشيخ حسونة دار محمد افندى كانت مؤخرة الحنطور قد ازدحمت بالأولاد . الذين لم يفلح السائق فى هشهم عنها ، بكرباجه وشتائمه الخارجة ! .

وعاد السائق بعربته وهو يشكر للشيخ حسونة الأجر السخى . ودخل الشيخ حسونة دار محمد افندى فاستقبلته ابنة عمه : ام محمد افندى وقد حيرتها المفاجأة ..

وغطى هو يده فى كمه ومدها الى ابنة عمه وانقضت على يده تقبلها . وتقبل كتفه . واخذت تمسح يدها فى جلبابها ثم تربت كتف الشيخ حسونة ونفسها تجيش وعيناها تزخران بالدموع .

وسألها الشيخ حسونة عن ابنها محمد افندى اين ذهب فى هذه الساعة من الصباح ؟ .

فقالت له انه أخذ جحشته وركب الى محمود بك يرجوه ان يذهب الى المركز للافراج عن دياب والرجال .

واذ ذاك ثار الشيخ حسونة . وضرب كفا بكف واخذ يلعن عباء محمد افندى .. فما شأنه هو بمحمود بك . وما شأن محمود بك هذا بالافراج عن الرجال ؟! .

واسترسل يقول ان محمود بك هذا لا يمكن ان يصنع للقرية شيئا ، وهو يستفيد من ارتباطه بالحكومة لا بالقرية وكل همه هو ان يسلب القرية وينهبها . ولن يتأخر عن بيعها بنسائها ورجالها واولادها وبناتها ببضعة جنيهات ! .

ولم تفهم ام محمد افندى شيئا واسرعت تحضر حصيرة نظيفة فرشتها على المصطبة فى مدخل الدار ، واخذت تروح وتجىء فى الدار وتنادى على جارتها . ثم امسكت بالأوزة التى ظلت تلقنها حبات الذرة وذبحتها احتفالا بمقدم ابن عمها الغائب حضرة الناظر .

وعندما اوقدت النار لتسخن الماء جلست امام الكانون وظلت تنظر فى الدخان المتموج وتحلم بأن يعود ابنها دياب ليأكل هذه الأوزة مع خاله الشيخ حسونة .

وتذكرت خبز القمح .. لقد نفد منذ يومين ، وليس لديها دقيق ، وهى لا تملك فى القاعة الا خبز الذرة .. ولم يترك لها ولدها دياب ، ليحمل القمح الى الطاحونة ! .

واستدعت فتاة من جاراتها وهمست فى اذنهابكلمات . وذهبتالفتاة الى وصيفة وسألت ام وصيفة ان كانت تملك ثلاثة ارغفة من القمح او اربعة .

وعادت الفتاة من عند وصيفة فارغة ، فارسلتها ام محمد افندى مرة اخرى الى امراة شيخ البلد ، وعادت من هناك تحمل قطعة من قماش نظيف قد لفت على الفرض المطلوب ، على ثلاثة ارغفة بيضاء طرية من القمح .

على ان الشيخ حسونة لم يقعد طويلا عند ابنة عمه . وقد تركها ليزور الدور الذى قبض على رجالها .

وذهب اول الامر الى دار محمد ابو سويلم ، وقبلت وصيفة يده ، وسالت دموعها على ظهر كفه . واهتز الشيخ حسونة وقبل راس وصيفة ودعاها ابنته ، واكد لها انه هنا كأبيها تماما ، ونادى امها وشجعها وطلب منها أن تهتم بوصيفة وعرض عليها مالا فشكرته ام وصيفة ، وفاضت دموعها ، ولم تأخذ منه شيئا . وقامت لتعد له القهوة ؛ ولكنه اعتذر . وظل واقفا حتى انصرف من دار محمد ابو سويلم وهو يؤكد لابنته وزوجته أن رجل البيت عائد الى القرية على الفور . وحدثته وصيفة وهو

على الباب عن مسعى محمد افندى عند محمود بك ، فاعلن استنكاره لهذا المسعى وسخط على محمد افندى ، وعاد يؤكد ان الرجال عائدون الى القرية لأنهم لم يرتكبوا جريمة لا لأن محمود بك يسعى لهم .

ومال على بيت عبد الهادى فشجع اهله ، وزار الشيخ حسونة بعد هذا بعض الدور فى الناحية الشرقية فواسى اهلها وحمل اليهم الطمانينة وطلب منهم ان يتشجعوا ويحتملوا . وانصرف من فوره . بعد ان قبل الأولاد والنساء يده ومن ورائه دعاء حار بالستر والهيبة وطول العمر .

ثم اتجه الى دكان الشيخ يوسف .

كان الشيخ يوسف فى هذه الساعة من اول الضحى يستمع الى حديث الشيخ الشناوى الذى عاد من دوار العمدة .

وقطع حديثهما مقدم علوانىفقال له الشيخ يوسف بحنان انه اشتاق اليه فى الصباح الباكر واوشك ان يرسل اليه ولدا غير انه فكر فى ان يتركه ينام ليستريح من السهر فى حراسة البطيخ .

وانتشى علوانى بهذا اللقاء الذى لم يعرفه من قبل وقال للشيخ يوسف فى صخب ضاحك انه هو ايضا كان يفكر فيه .

وكان علوانى يحمل كيسا كبيرا مليئا بكيزان الذرة . وكان يشد وسطه بحزام . والجلباب من فوق وسطه منتفخ بالكيزان .

اخذ علوانى يخرج الكيزان من « عبه » ويضعها امام الشيخ يوسف ثم مال على الكيس الملقى على الارض . وبعد ان افرغ الكيس كله ، نقل بصره من الكيزان العديدة الى الشيخ يوسف وهو يطالبه ان يخصم ثمن هذا الذرة من الحساب المتراكم عليه ، ثم طلب منه علبة سجاير جاهزة .

وبهت الشيخ يوسف وصاح فى علوانى :

ــ رايح تشرب سجاير ماكينة . والله عال . الرجاله يغيبوا عن البلد من هنا وانت تنسقط على الذرة من هنا .. قول لى الدره دا جايبه منين؟

وضحك علوانى فى ثبات .. قائلا :

ــ أنا جرىء ..

وفتح الشيخ يوسف عينه فى دهشة وتساءل . فاكمل علوانى :

ــ آنا شهم .. ايوه .. لكن وحياة النبى مافيهم درا واحد من اصحابى ولا من اللى كلت معاهم عيش وملح ، ولا فيهم كوز من دار واحد محتاج !

وتردد الشيخ يوسف فى قبول كيزان الذرة من علوانى ولكن علوانى ظل يغمره بكميات جديدة يخرجهـــا من جيوبه ، ومن صـــدره المنتفخ بالـكيزان .

وصرخ الشيخ الشناوى فى علوانى :

ـ ايه ياواد ياعرباوى ده .. يا نهارك اغبر .. حرام عليك يا واد .. دا يوديك جهنم .. حرام عليك تقبل دا ياشيخ يوسف . حرام قطعا ..

فقال علوانى باستخفاف :

ـ جهنم ؟ وانا اخاف من جهنم ليه ؟ هيه جهنم دى يعنى حاتبقى اكتر من اللى انا عايش فيه ؟ ! وهو انا يعنى ياسيدنا كنت لقيت الحلال وسبته علشان الحرام .. الله يسترك ياسـيدنا . فضنــا من الحلال والحرام فضنا ! وعيشتى اللى مايعلم بها حد ، دى تبقى حلال ولا حرام ، هه .. ماتفتى !

ولم يجب الشيخ الشناوى .. وظل يستعيذ بالله .

اما الشيخ يوسف فقد اخذ يعد الـكيزان التى غمرت البنك امامه ، وتناثرت على الأرض ، ثم اخرج الدفتر الـكبير وقلب صفحاته ، وامسك بقلم من الـكوبيا وقال لعلوانى :

ـ يبقى مخصوم منك ريال .

فقال علوانى محتجا :

ـ ريال ؟.. دا حرام يا عم الشيخ يوسف .. اهـــه ده اللى حرام صحيح .. ما تتكلم ياسيدنا .. بقى دا بيع وشرا ؟! دول يطلعوا أقله بتسع برايز وانا مسامح كمان .. دا شقا الليل كله ! ويا عالم !

فحجز الشيخ يوسف عدة كيزان ثم اعطاه علبة صغيرة من السجاير عليها رسم غزال اسود وصاح مصطنعا الغضب :

ـ طب غور .. خذ الذرة بتاعك وانجر من قدامى .

فاستدرك علوانى قائلا برجاء :

ـ لا لا .. طيب وانا اعمل به ايه .. طيب احسبهم بست برايز .. طب بنص جنيه .

وظل الشيخ يوسف يهز راسه فى رفض .. فصاح علوانى :

ـ طب بأربع برايز .. هه .. والله ما انت حاسبهم بأقل من كده يا شيخ ..

فقال الشيخ يوسف بصرامة :

ـ ثلاث برايز مافيش غيرهم . عاجبك والا لا ؟

واستكان علوانى قائلا :

ـ طيب ! الفرض !.. حـــلال عليـك يا عم .. اخصمهم بقى من الاستجرار .. نزل الخصم من الدفتر ده .

وتأنف الشيخ يوسف واخذ يكتب فى دفتره الطويل العريض بينما كان الشيخ الشناوى يزعق :

ـ يا راجل حرام عليك يا راجـــل . يا راجـل شرفك احسن من الحاجات دى !

فقال الشيخ يوسف باهمال دون ان يرفع راسه :

ـ دهدى .. ما بلا وجع قلب بقى ياسيدنا .. ما تتشطر كده على العمدة .. فلقتونا ياخى .. وحياة النبى دا انت تاكلها والعة ..

وروع الشيخ الشناوى وقال منزعجا :

ـ يه دا انت خرمت .. اللهم طولك ياروح .. انت حاتخوض ؟

وحاول علوانى ان يتدخل فى الحديث فنهره الشيخ يوسف وامره بأن يرجع بعيدا عنه ، ووجد الشـــيخ الشناوى فى علوانى فرصـــة للانفجار ، فتبعه بالشتائم واللعنات والوعيد بالنار .

وحين انتهى الشيخ الشناوى من شتائمه وغاب علوانى عن عينـه التفت اليه الشيخ يوسف فى هدوء ، وقد سيطرت على وجهه الـكآبة والصرامة ، ولفحت الصفرة الشاحبة سمرته .

واخيرا قال الشيخ يوسف :

ـ كمل لنا ياسيدنا بقى حكاية الراجل المؤذى ده .. الله يقطعـــك ياعلوانى وينكد عليك توهت منا الـكلام ! كمل لنا ياسيدنا كمل .. بقى ياناس دا عمدة ده ولا شيخ منصر ؟..

وعاد الشيخ الشناوى يكمل الحـــديث الذى بداه قبل ان يجىء علوانى ..

لقد كان الشيخ الشناوى عند العمـــدة فى الدوار يقرأ له راتب الصباح من القرآن .. واعترف العمدة انه ضاق باهانات محمد أبوسويلم له امام اهل البلد .. فمحمد ابو سويلم لايذكره الا بكلمة النجس . ولهذا ابلغ اسمه مع الذين قطعوا الجسر ليؤدبه احسن ادب !

ولئن افرجت الحكومة عنـه وعن الرجال الآخرين ، وعاد محمـد ابو سويلم يتحداه مرة اخرى وعاد عبد الهادى الى غروره او فكر محمد افندى فى ان يرفع راسه متأثرا بعبد الهادى ومحمد ابو ســويلم ..

فهناك موضوع خضرة ولا احد يعرف سرها وسيبلغ العمدة عن اكتشاف موتها قتيلة .

والمعروف ان محمد ابو سويلم طردها من بيتـه وضربها قبل موتها بساعات . والمعروف ان عبد الهادى ضربها مرة وخاف من تأثيرها على وصيفة التى يريد أن يتزوجها . والمعروف ان خضرة كانت على علاقة مع دياب وربما كانت قد حملت ، وخشى دياب من الفضيحة !

وعلى اية حال فموضوع خضرة مازال موجودا ، وسيظل موجودا لمدة خمسة عشر عاما يعرف العمدة طوالها كيف يؤدب الذين يحاولون اهانته او تحديه !

ولم يكد الشيخ الشناوى ينتهى من رواية هذا الكلام حتى ثار الشيخ يوسف ، وسأل الشيخ الشناوى عما قاله للعمـدة ردا على كل هـذه الترتيبات ، ومحاولات الايذاء !

فأجاب الشيخ الشناوى فى طيبة بأنه لم يقل له شيئا .

واذ ذاك قال الشيخ يوسف :

ـ ربنا مافتحشى عليك بحديث ولا آية ؟ ولا مثل حتى ؟.. بس ماسك لى فى الحرام والحلال على الهايفة ؟ ! بقى تسـمع من العمـدة الـكلام ده كله وتسكت !.. بقى عمايل العمدة وملاعيبه دى ترضى ربنا ؟ انت بس تتعرض فى الهايفة ؟.. ولا العمدة ده من أولى الأمر منكم ؟..

واحتقن وجه الشيخ الشناوى وزعق :

ـ دا كلام ايه اللى انت بتقوله .. انت بتكلمنى كده ليه م الصبح ؟.. يا اخى دا الامامو على كرم الله وجهه بيقول من علمنى حرفا صرت له عبدا .. انا قريتك فى الـكتاب قبل ماتقرا فى الأزهر ، تقوم تيجى تعمل معاى كده ؟ اخص .. !

وقبل ان تحتدم المناقشة ، كان الشيخ حسونة يقف أمام الدكان يلقى السلام بابتسامة هادئة .. وانبثقت الابتسامات على مقدم الشيخ حسونة .. وسلم عليه الشيخ الشناوى بترحاب ، وقفز الشيـخ يوسف الى خارج الدكان فى ابتهاج ظاهر غمر كل ضيقه ، وعانقه طويلا ثم اخذ يهز يد الشيخ حسونة ، ويسحب يده هو ليضرب صدره برفق، ثم يعود فيمسك بها يد الشيخ حسونة ويهزها بحرارة .. هكذا عـدة مرات .. على وقع كلمات واحدة لا تتغير :

ـ سلامات !.. طيبون ..! ازيك كده ؟..

واخيرا تقدم الشيخ يوسف الى بيته بجوار الدكان ، والتفت الى الشيخ الشناوى طالبا منه ان يجعل باله الى الدكان .

ودخل الشيخ يوسف الى بيته ، وهو يدفع امامه الشيخ حسـونة فى اغتباط .

وجلسا فى مندرة الشيخ يوسف ذات الأرض المفروشة بالحصـير والـكتب المتمزق الغطاء .

وتأمل الشيخ حسونة لوحة كتب عليها « اتق شر من احسنت اليه » .

وقال الشيخ يوسف ان محمد افندى مر عليه هذا الصباح وذهب الى محمود بك يرجوه ان يسعى فى الافراج عن الرجال .

ومرة اخرى لم يكتم الشيخ حسونة سخطه على محمد افندى .. وعجب كيف يمكن ان يظل بعض الناس غافلين عن هذا الصنف من الرجال وعن حقيقة محمود بك ونواياه .

وبدأ يتحدث عن ايامهم القديمة فى ثورة ١٩ عندما كانوا فتيانا مثل محمد افندى او اكبر منه بقليل .

وتألق وجه الشيخ يوسف وصاح :

ـ والله ياشيخ دانا عمال افكر فى الحكاية دى من كام يوم ! انا عارف البلد جرى فيها ايه ! لا كنا بنفكر فى واسطة ولا فى شفاعة .. يا راجل دا احنا كنا ايامها بنهجم عالانجليز بمدافعهم .. لا رجا ولا خـوف من حد !.. لـكن يا عم هيه دى بقت بلد !.. هيه دى بلد يا حضرة الناظر !

وقبل ان يعقب الشيخ حسونة ، دخل محمد افندى وعلى وجهـه بشاشة يخالطها القلق والاضطراب والشحوب .

كان مايزال يلبس الطربوش والجاكتة والحذاء ..

وقبل يد الشيخ حسونة ثم قعد يتنحنح ..

ونظر اليه خاله فى صمت .. وكان استقباله له واضح البرود ..

وبعد قليل قال الشيخ حسونة موجها الحديث الى محمد افندى ان لبلد لن تستفيد شيئا من محمود بك .. فعلى الذين فى رؤوسهم عقول ن يتعظوا مما حدث فى لائحة ماء الرى وفى مشروع الزراعية !

ولم يقل محمد افندى شيئا .. وهز راسه فى موافقة .

ولاحظ الشيخ يوسف ضعف محمد افندى ، فانتهز الفرصة ليتكلم وهو آمن من الرد اللاذع .. وقال بسخرية :

ـ ناقص تروح تترجى العمدة كمان !

وقال محمد افندى بصوت خفيض فى لهجة مستكينة وهو يلقى نظرة امتهان على الشيخ يوسف :

ـ لا .. عمدة ايه بقى .. هو انا كنت مشيت وراه فى الانتخابات .. وللا دفعت له اشتراك لجريدة الحكومة !

وادرك الشيخ يوسف ان محمد افندى يعرض بمواقفه فى اوائل عهد حكومة حزب الشعب .. وكظم غيظه ، والتفت فى خجل الى الشيخ حسونة ، ولم يلتفت اليه الشيخ حسونة ، وانما قال لمحمد افندى :

ـ عجايب ؟ ! يعنى تخاف من الحبل ولا تخافشى من التعبان ؟ ! والعمدة ايه ! ومحمود بك ايه ! والباشا ايه ؟ !

ثم ارتفع صوته كأنه يقفز على الكلمات واسترسل يقول :

ـ والحكومة ايه والانجليز ايه ؟ ! مش كلهم واحد ؟ ! سلسال واحد ! كله سلسال زفر !

وارتبك محمد افندى ، وبان على وجهه انه كان يجب ان يفهم كل هذا ..

ولكنه حسب لبعض الوقت ان فى مقدرة محمود بك ان يؤدى خدمة للقرية ، مادامت هذه الخدمة ستعود عليه ببعض المال .

ولم يعرف محمد افندى ماذا يقول ..

كان يؤمن ان خاله الشيخ حسونة يفهم من اسرار الحياة والناس اضعاف مايفهم هو .. لقد آمن بهذه الحقيقة دائما منذ كان طفلا ! وكلما عركت الظروف خاله ، ازداد ايمانا به .. ان محمد افندى يدرك ان خاله قادر على مقاومة الحكام ، والكيد لهم ، والوقوف امام مايريدون ، وهو يعرف ان رجالا كخاله ومحمد ابوسويلم يملكون من الخبرة فى المقاومة اضعاف مايملك هو .. فقد صنعوا الثورة ذات يوم .

ومهما يكن من ضيقه احيانا برجل كالشيخ يوسف .. فهو يحتفظ فى نفسه بخيالات بعيدة من ذكريات من الطفولة .. حين كان خاله الشيخ حسونة ، والشيخ يوسف ، ومحمد ابو سويلم يصرخون مع الرجال فى الطرقات تحت خفق الفؤوس : « يحيا العدل » !

واراد محمد افندى ان يقول شيئا يستنقذ به نفسه من الصمت والحرج ، فطرد السعال بنحنحة قوية ، وهو يقول :

ـ ماهو البركة فى حضرتك .. ياحضرة الناظر ..

فقال الشيخ حسونة بثقة وامل :

ـ والبركة فيكو انتو كمان يا ابنى .. الله ! هيه ارضنا لوحدنا ؟ هيه مش ارضكم كمان ؟ ! طب قول لى بس .. مين قالق بال الحكومة والانجليز فى مصر ؟ مش اللى قدك واصغر منك .. مش همه الطلبة وعمال العنابر ؟ ! انت مابتقراش جرايد ؟ مش باين عليك بتقرا .

وقبل ان يرد محمد افندى قال الشيخ يوسف باستهزاء :

ـ جرايد ؟.. جرايد ايه يا عم الله يسترك .. هى دى بلد بتاعة جرايد .. دى بلد دى ؟.. قال جرايد ؟ ! دا كل حين ومين على ماتقع فى ايدنا جريدة ! هم دول ناس ؟ بقى ده جيل ؟ هو حد من الجيل ده بيقرا جرايد ولا فاهم حاجة ؟ والله يا شيخ مارجالة الا رجالة زمان!

فاعترض الشيخ حسونة :

ـ لا .. لا يا شيخ يوسف .. هيه البلد بتاعتنا لوحدنا ؟ ! ماهى بتاعة اصغر واحد فيها كمان ! وهوه احنا واخدين الارض معانا ، ما احنا سايبينها للجيل الجديد .. لاولادنا ! وبعدين آهو ربنا سبحانه وتعالى بيرث الارض ومن عليها .. لازم يفهموا كده يا اخى .. واحنا فهمنا كده واحنا شباب .. انا كان فكرى برضه ان مافيش فايدة خلاص .. لكن والله لو تشوف اللى بيجرى فى مصر لتنشرح ! داللى بيتعرضوا للرصاص فى مصر كلهم صغار فى السن وفاهمين تماما ياشيخ يوسف اكثرمنافى سنة ١٩ .

ـ على الله !..

ونظر محمد افندى باكبار الى خاله الشيخ حسونة .. ولم يحول عنه نظراته !

ومن خارج الغرفة ، رنت دقة فنجان على صينية قهوة ثم تلاها تصفيق يد صغيرة ..

ولاحت ابنة الشيخ يوسف العجفاء من فتحة باب الغرفة .. وانتظرت ان يقبل ابوها ليحمل الصينية ..

ولمع فى ذهن الشيخ يوسف خاطر سريع .. واومض وجهه وهو ينقل نظراته بين فتحة الباب ومحمد افندى وقال بسرعة وهدوء :

ـ ادخلى يا بنتى ! ماحدش غريب .. تعالى سلمى على عمك الشيخ حسونة .

ودخلت الفتاة العجفاء ، بوجهها الأسمر الجاف العابس كوجه ابيها وخديها المفرغين ، وقوامها النحيل القصير ، ونهديها الصغيرين ، وجلبابها الاحمر يكشف عن ساقين مهزولين !..

وضعت الصينية امام ابيها ، وتقدمت الى الشيخ حسونة .. فوضع يده فى كمه وسلم عليها قائلا :

ــ باسم الله ما شاء الله .. دى بقت عروسة اهى ياشيخ يوسف ..

واحمر وجه الفتاة ، وبلعت ريقها ، واختلج خداها الفائران .. فابتسم ابوها الشيخ يوسف وقال لها :

ــ دهدى ؟ طب سلمى على محمد افندى ..

وتعثرت الفتاة ، وهى تخطو الى محمد افندى .. ووقف محمد افندى فى مكانه وسلم على الفتاة دون أن يتقدم اليها .

وخرجت مسرعة مضطربة ..

ثم ابتسم الشيخ يوسف وهو يصب القهوة ، وينظر خلسة الى وجه محمد افندى قائلا :

ــ هه ..

وقدم فنجان القهوة الى الشيخ حسونة وهو يقول :

ــ قهوة تمام من ايد بنتى .. حاكم هيه شاطرة فى كله .. قهوة وطبيخ وخبيز ، غير بقى الصلاة والصوم والعبادة .

فابتسم الشيخ حسونة قائلا :

ــ ما شاء الله .. ما شاء الله .. ربنا يبارك لك فيها .. طبعا ياسيدى ماهى من ماعون طاهر .. ما انت لازم احسنت تاديبها ! .. ادبنى ربى فاحسن تأديبى ..

وقدم الشيخ يوسف فنجانا آخر الى محمد افندى وهو يبتسم .. ولم يختلج وجه محمد افندى بأى انفعال ..

وذاب الحديث شيئا فشيئا ..

وهم يرتشفون القهوة بصوت مرتفع .

١٥

م يخرج الرجال بعد من سجن المركز !..

ومازال الشيخ حسونة مقيما فى القرية ، وقد زار العمدة ، وتحدث اليه فى أمر الرجال الذين يبيتون فى سجن المركز ، وهدده لئن لم يتصرف من فوره للافراج عنهم فسيعرف شغله .

ومر يوم .. ويوم آخر ، والرجال لايعودون !

وزار العمدة منزل محمد افندى ، ليرد على الشيخ حسونة زيارته ، فأكد للشيخ حسونة ان مهندس الرى وحده هو المسئول عن القبض على الرجال : فقد قلب الدنيا فى المركز على رأس المأمور عندما وجد الجسر مقطوعا ، وطالب بفصل عمدة الناحية ان لم يرسل الى المركز كل الرجال الذين قطعوا الجسر .

فقال الشيخ حسونة بصوت هادىء ساخر :

ــ وهوه محمد ابو سويلم كان قطع الجسر يا عمدة ؟ هه يا حضرة العمدة !

وقبل ان يجيب العمدة ، وهو يبحث عن كلام يقوله ، اندفع محمد افندى يزعق بحسرة :

ــ والواد دياب كان عمل جريمة ياحضرة العمدة ؟ الواد عمل ايه بس ؟ ! حد عارف بيعملوا له ايه دلوقت فى السجن ؟ !

ونظر الشيخ حسونة مغيظا الى محمد افندى ، فأدرك محمد افندى ان خاله يؤنبه على انهياره هكذا امام العمدة .

ونكس محمد افندى راسه ، فقال له خاله الشيخ حسونة :

ــ قوم استعجل القهوة يامحمد .. قوم يامحمد افندى !

واذ خرج محمد افندى ليستعجل القهوة قال الشيخ حسونة بصوت ادىء مفعم :

ــ السجن لا هو عيب ولا هو فضيحة ؟! سعد انحبس ! سعدنفسه سجن ! سعد كان محبوس وعدلى قاعد فى سرايته بيسهر مع الانجليز !

وارتجف العمدة وهو يتمتم :

ـ اى نعم .. اى نعم ياحضرة الناظر .

ثم سكت العمدة .. وسكت الشيخ حسونة .

واخذ العمدة يتأمل اللافتات المعلقة فى منزل محمد افندى ، عـلى حوائط المندرة الصفراء .. كان يجلس على الكنبة وامامه لوحة من الجبس مكتوب عليها « الكريم لايضام » والى جانبه لوحة اخرى كتب عليهـا بخط احمر متشابك « واما بنعمة ربك فحدث » ونقل بصره الى لوحة ثالثة واخذ يحاول ان يقرا خطها .. وقرا لنفسـه « عـز من قنع » وذل من .... » . ثم تمتم قراءة بقية اللافتة « طمع .. وذل من طمع » ..

وفاجاه الشيخ حسونة بزفرة طويلة ، وشرع يدق عصاه على البساط الاحمر ثم اخرج ساعة جيبه ، وبعد ان نظر فيها ، اخذ يتأمل من الشباك اشعة الأصيل وقد بدات تلف القرية بلونها البرتقالى الشاحب الـذى يحمل الى النفس فجأة كل معانى الذبول .

وقال الشيخ حسونة بصوته الهادىء :

ـ لـما نصلى العصر قبل مايبقى مكروه .

وقام الى ركن الغرفة فامسك بحصيرة صغيرة ملفوفة . ودخل محمد افندى ، فحمل عنه الحصيرة وبسطها امامه .. وبدا الشيخ حسـونة يصلى ، وبعد أن فرغ من الصلاة قال له العمدة :

ـ استاذن انا بقى .. سامحنى فى القهوة .

فنظر الشيخ حسونة مغضبا الى محمد افندى وهو يقول :

ـ فين القهوة ؟..

وخرج محمد افندى متلكئا ، وهو يتمتم :

ـ بقى يحبس لنا دياب ونسقيه قهوة كمان ؟ ! ما عنه ماطفح !

اياك يشرب السم الهارى ! .

وبعد مناقشة بين محمد افندى وامه قال لها :

ـ خالى محكم رايه على القهوة ..

ـ يا حسرتى ! .. بقى جاى يشرب قهوة عندنا بعين وجسارة ؟ ! يحبس لى ابنى واعمل له قهوة كمان !؟ .

واخيرا حمل محمد افندى القهوة ، وصبها ،وقدمها للعمدة ولخاله وهما صامتان .

واخذا يشربان القهوة .. والعمدة من حين الى حين يقول للشيخ حسونة :

ـ كل عام وانتم بخير يا حضرة الناظر ! بعودة الايام .. ان شاء الله كده تشرف بلدنا على طول ..

واخيرا نهض العمدة لينصرف .

وشيعه الشيخ حسونة الى باب الدار ، والعمدة يقسم عليه فى كل خطوة ان يبقى مستريحا .

وعندما كان العمدة يسلم على الشيخ حسونة ، على بعد خطوتين من باب الدار ، قال له العمدة :

ـ انشاء الله الرجالة يطلعوا بكره ، ويباتوا فى دورهم .. حاكم زى ما انت عارف المامور حاجزهم علشان يقابلوا ابصرها مين من الوزرة جاى يزور الباشا بكره . والوزره ماشيين بعد الغدا على طول . والمامور قال لى ـ كده كلام بينى وبينك ـ ان الوزره رايحين يمشوا من هنا ومـا جين البلد يرجعوا البلد من هنا .

وهز الشيخ حسونة راسه وقال :

ـ على خيرة الله .. ابوه الوزرراء جايين يزوروا الباشا بكره صحيح! .

وعاد الى الدار فزعق فى محمد افندى وامه لانهما اخرا القهوه وقال ان هذا لعب اولاد صغار .. والاصول .. اصول !

فالعداوة شيء ، وتقديم القهوة شيء آخر ! .

ولم يجب محمد افندى بينما قالت امه :

ـ مش هم دول اللى فى الاول حطوا السم لابويا وفى الآخر رموا ابنى دياب فى السجن ؟ قطيعة تقطع دى عيلة .

فأجابها الشيخ حسونة بصوت مكظوم .

ـ بلاش كتر لبانة يا ام محمد ! .. يعنى نتشطر على فنجال القهوة دا ايه الخيبة دى وقلة القيمة دى ؟! .

وساد الصمت لبعض الوقت .

وقعد الشيخ حسونة على المصطبة فى مدخل الدار ، وقعد بجواره محمد افندى ، بينما انصرفت امه الى الداخل .

ثم تساءل محمد افندى عن هؤلاء الوزراء الذين سيزورون الباشا فى ضيعته بالقرب من عاصمه الاقليم كما قال العمدة .

فقال الشيخ حسونة بصوته الهادى ان الباشا يدعو بعض اصدقائه من وزراء حزب الشعب ليزوروه فى قصره الجديد ، وسيشعرون طبعا بمتاعب الطريق، فيعجلون بشق السكة الزراعية التى تصل بين القاهرة وعاصمة الاقليم مارة بالسراى على حدود املاكه الشاسعة .

ولكن محمد افندى لم يكن يريد من خاله هذه الاجابة . فتساءل ماعلاقة هذا كله بالافراج عن دياب والرجال .

وابتسم الشيخ حسونة وهو يقول ان عليهم ان يحمدوا ربهم لان المأمور لم يقبض عليهم جميعا ليكونوا فى استقبال وزراء حزب الشعب!

وعلى اية حال فالمأمور قد تلقى الاوامر من المدير ، والمدير تلقاها من وزارة الداخلية بان يعد لوزراء حزب الشعب اكبر استقبال شعبى ! استقبال يوشك الزحام فيه ان يخنق الوزراء !

ولاريب ان المدير قد امر باعداد كل المسجونين فى سجون المراكز وهم آلاف ، واعد ملابس عادية للذين يرتدون ملابس السجن منهم ، ليحشدهم كلهم مع رجال البوليس السرى ، والعمد ومشايخ البلاد والخفراء .. وكل الذين يستطيع مامورو المراكز ان يجمعوهم من الطرقات .. كل هؤلاء سيؤلفون الاستقبالات الشعبية الرائعة ! .

ولم يكد الشيخ حسونة يصل فى حديثه الى هذا الحد حتى تنبه الى ان محمد افندى لا يكاد يدرك شيئا مما يقول فصرخ فيه :

ـ انت مش عارف ايه اللى حصل فى الانتخابات ؟ انت يا اخينا مش تفهم الحاجات دى كويس علشان تنور الفلاحين ؟ ولا بس شاطر تجرى مرة وراء العمدة ومرة وراء محمود بن انجه هانم ومرة ورا البنات الصايعين .

وفوجىء محمد افندى بهجوم خاله .

كان يعرف راى خاله فى سلوكه .. فادرك انه بعدما مال بالكلام على سيرته ، فلن يخلص منه ابدا ! ..

فقال من فوره ليبعد بخاله عن هذه المنطقة الشائكة :

ـ ماهم الفلاحين عارفين كويس يا خالى .. بس انا يعنى كان قصدى اسال يعنى هو العمدة حايطلع دياب صحيح ؟ .

فصفق الشيخ حسونة متعجبا ..

ثم نظر اليه ، وشرع يؤكد له ان العمدة لن يتوسط فى الافراج عن دياب والآخرين ، الا اذا كانت له مصلحة ، او اذا شعر على الاقل بان سلطانه على الفلاحين مهدد ..

واقسم الشيخ حسونة ان العمدة لن يقوم بمسعى للافراج عن احد ، ما دامت القرية ترجوه وتستعطفه .

***

على ان القرية مع ذلك ظلت ترجو العمدة وتستعطفه، فلم يكد يعود الى الدوار من زيارته للشيخ حسونة حتى وجد نساء يقفن على سور

الدوار ، واخريات يجلسن على الارض . ولم تكد طلعته تهل عليهن حتى احطن به : يسألن فى ضراعة وبكاء متى يعود الاب او الزوج او الولد ؟ ! .

ولم يجب العمدة وتابع سيره ، وعبد العاطى الخفير يتبعه .. وهو دائما يحاول ان يبعد النسوان .

كان العمدة فى الايام الاخيرة قد تعود ان يسمع نساء يصرخن باكيات ضارعات أمام الدوار ، وتعود ان يأمر الخفراء باغلاق باب الدوار الخارجى .. ليمنعوا النساء من التسرب الى فنائه . ومنذ عاد الشيخ حسونة الى القرية تحاشى العمدة ان يجلس على البسطة ذات البلاط الكبير فى فناء الدوار ، ولم يخرج ابدا فى طرقات القرية الا ليزور الشيخ حسونة ردا على زيارته !.

وقابلته امراة فى الطريق وهو ذاهب الى الشيخ حسونة ، وسالته عن ابنها ، فنهرها الخفير . واعترضت طريق عودته فتاة أخرى تسأل عن اخيها فاسرع فى سيره وترك الخفير يدفعها وتعلقت عجوز فنحاها بعصاه .. وانقضت امراة صغيرة حسناء وامسكت بكم جبته وهزته وهى تبكى سائلة عن زوجها ، ودفعها بقوة وانفجر يقول لها كلاما نابيا معرضا بولهها على الزوج الغائب .. وحين تنحت عن طريقه مضطربة الخطوات يتعثر حياؤها فى دموعها . تابعها الخفير بكلمات مفضوحة وصورة زوجته تطلع فجاة امام عينه ، وظل الخفير عبد العاطى يزعق فى وجه الزوجة الشابة الجميلة :

ـ جاتكو الغم ؟.. الغرابة ان ابوكى ممسوك راخر !.. اشمعنى مسك جوزك يعنى هو اللى حارقك قوى وواجعك قوى ؟ ! حاكم صنف النسا دا صنف دون .. الواحدة همها بس ..

وضاق العمدة فالتفت اليه ونهره حتى لا يسير فيقول ما لا يصح ان يقول الخفراء امام عمدهم .

على أن العمدة حين بلغ الدوار عائدا من زيارة الشيخ حسونة ، لم يستطع أن يدخل من الباب ..

كان امامه حائط متوج قائم من النساء يلبسن الجلاليب السوداء ويقفن امام باب الدوار ويلوحن بأيديهن باكيات .

ولمح العمدة من بينهم فتاة بيضاء فارعة لا تلبس الجلباب الاسود كالاخريات ..

وكانت تصرخ بحدة ، وتقتحم الزحام حتى وقفت امام العمدة تماما ..

وحاول الخفير ان يبعدها ، ويداه ترتفعان فوق راسها وترتجفان من التردد .. فصرخت فيه الفتاة :

ــ اوعى تمد ايدك عليه يا واد يا عبد العاطى .. كن ايدك جاك قطع ايدك .. ابعد دراعك كده ان شا الله تنصاب ! .

وسالها العمدة من تكون هى ، وقبل ان تجيب قال عبد العاطى :

ــ دى بنت شيخ الغفر ! .

فصاح العمدة محنقا :

ــ شيخ اه ؟ هو لسه شيخ غفر ؟ الله الله ! بقى انت غفير انت ؟ . وغفيرى الخصوصى كمان ؟ طب يا ابن شلبية ! حاكم انت ربايته .. ربابة محمد ابو سويلم ! .

فقال عبد العاطى مضطربا :

ــ شيخ الخفر اللى هو سابقا يعنى يا حضرة العمده .

وتقدمت وصيفة وفتحت صدرها متحدية ولوحت بيدها :

ــ انا وصيفة بنت محمد ابو سويلم .. ايه مش عاجبك يعنى .. ايه بقى ؟ مش قد المقام ؟ فين ابوى ! .. قول لى فين ابوى ..

وهز العمدة راسه والأشعة الحمراء تنسكب من آخر لحظات النهار فوق دور القرية الداكنة وعلى وجه وصيفة الرائق .

وقال العمدة بهدوء مصطنع:

ــ طب مش عيب تشوحى فى وشى وتزعقى لى كده .. وانا اكبر من ابوكى ؟ .

فصرخت وصيفة بانفعال واضح ، وبدها توشك ان تقتحم عينيه :

ــ عيب ؟ .. انت بتقول عيب ؟ هو انت خليت عيب . ومش عيب عليك تحط ابوى فى السجن ؟ .

وقال العمدة فى هدوء وخبث وهو ينظر فى بدن وصيفة ، وينقل نظراته بين وجوه النساء :

ــ طالعة لامك تمام ! .. حلوة قوى زى امك .. ولمضة ونغشة برضه زى امك .

وادرك النساء مايريد العمدة ان يقول . وعرفن انه يريد ان يشوه ام وصيفة ليذل البنت امامه ، ويكسر عينها ، وعين ابيها ..

وقالت امراة باستنكار :

ــ ومالك انت ومال امها بقى ؟ اش عرفك ان كانت نغشة ؟ ايه ده باه ! وانت كنت شفتها فين ولا عرفتها فين ؟ .

وانطلقت امراة تقول :

ــ والنبى لو شيخ الغفر هنا وسمعك بتقول كده ، ليطلق فى بطنك عيارين على طول .. بقى كمان تتكلم على مراة محمد ابو سويلم .. بقى كمان .. هيه حصلت ؟! يا عينى عليه ! .

وقالت امراة ثالثة :

ــ يا اختى الراجل شاب ولسه عايب .. جاته ستين نيله شايب وعايب ! .

وعندما كان النساء يتحدثن باستنكار فى وقت واحد ، امسكت وصيفة بجبة العمدة وهزته بعنف وهى تقول متشنجة فى صراخ مفزع :

ــ بتقول ايه على امى ؟ ! مالك ومال امى ؟ ! هات لى ابوى .. فين ابوى .

وترنح العمدة ببدنه الهزيل داخل الجبة على هزات وصيفة العصبية .

واوشك الخفير ان يفقد راسه ، حين راى النساء يفاجئن العمدة بالشتائم ، وهو يرتجف داخل جبته بين يدى وصيفة .

وارتفع انين العمدة كالحشرجة بعد ان غاص صوته من المفاجاة :

ــ اضرب يا وله .. ساكت ليه يا غفير .. يا واد اضرب .. اضربوا يا غفر ! سايبين نسوان البلد على عمدتكم . سايبين النسوان يبهدلوا عمدتكم .. حايموتونى النسوان ! يا نهار اسود بقى اروح قتيل النسوان !!

وتثاقل الخفراء فى نجدته .

كانوا هم ايضا يفكرون .. فكرهم مع الرجال الذين يبيتون منذ عدة ايام فى سجن المركز ..

وكانوا يفكرون هم ايضا فى الحقول التى حجزت عنها الحكومة ماء الرى ، وفى الأرض التى يمكن ان تاخذها الحكومة لتشق السكة الزراعية .. وكانوا يفكرون بصفة خاصة فيما افتراه العمدة على زوجة محمد أبو سويلم !! من الممكن ان يفترى على زوجاتهم ايضا .. ربما كان يقول على زوجاتهم كلاما افظع ! .

وكانوا كلهم يعرفون ان العمدة هو الذى املى اسماء الرجال للمامور ، وذهب بنفسه الى المركز ، ليقنع المامور بالقبض عليهم على خلاف ما قاله لأهل القرية .

وكانوا يعرفون ان العمدة هو الذى اخذ العريضة من محمود بك واوهم الناس انها للرى ، ثم وضع الاختام بها مزورا على القرية انها تلتمس شق طريق زراعى .

صنع كل هذا وباع البلد .. ارضاء لمحمود بك .. وللباشا !

وكان لهم فى النهاية اخوة واقارب وابناء واصهار بين الرجال الذين يبيتون فى المركز .

وكانت لهم عواطف ومودات تعانى مأساة هؤلاء الذين يتلقون السياط على الظهور ! .

ولهم فى حوض الترعة ارض ستنتزعها منهم الحكومة لشق الطريق الزراعى ! .

وكانوا كلهم يتحدثون الى بعضهم عن هذا العمدة الذى يصنع الكوارث للقرية ، والذى يبيع اهلها وارضها للحكومة ، والذى يحاول ان يخضع رقاب الناس فيها عن طريقهم .. هم الخفراء !.

لكم تمنى كل واحد منهم ان يرفع عصاه ذات يوم فى وجه العمدة ، ويحطم بها راسه الخبيث الأشيب .. كما يحطم راس الثعبان الأزرق !.

ومع ذلك فقد ساروا اليه آخر الأمر لينقذوه من زحام النساء ومن يد وصيفة .

وهمس احدهم متكاسلا ويقلد صوت العمدة :

ــ روحوا كلكم مرفودين .. رو .. حوا .. ك .. ولكو .. مرفو .. دين ! .

وكتم الآخرون ضحكاتهم ..

وعلى حرارة ضحكاتهم المتكسرة الساخرة كانت تنفجر كل كراهيتهم للعمدة ، وللذين يحكم العمدة باسمهم ، وينفذ ارادتهم على مصائر الفلاحين .

وصرخ العمدة فيهم .. بصوت كالفحيح اللاهث :

ــ انتوا ماشيين على قشر بيض ! قرب انت وهوه .. اضرب يا واد اضرب .. طيب .. روحوا.. كلكم مرفودين .

وانفجرت ضحكات بعض الخفراء ، بينما رفع عبد العاطى العصا وهوى بها على النساء .

وصرخت النساء واضطربن ، وامسكت وصيفة رقبة العمدة بيدها ، فخبطها عبد العاطى بالعصا على ذراعها ، وظل يضربها حتى تركت رقبة العمدة ، واستدارت لعبد العاطى فأمسكت بجلبابه من عند طوقه .. ولكن عبد العاطى ركلها وضربها بالعصا على راسها وكتفها .. وصرخت وصيفة ، وتركته ، وهى تبكى من الألم .

وتذكرت اباها وهوانها بعده .

فاختلج كل بدنها بالعويل ، وشرعت تنوح قائلة فى نحيب متهدج ان احدا لم يضربها من يوم ما كبرت .. ولا أبوها نفسه ! .

ولكنها اليوم تتلقى الركلات ولذع العصا من ذراع الولد الذى عينه ابوها بين الخفراء ! .

ومالت على الارض ، والليل ينشر على اشعة الاصيل الحمراء ظلاله الداكنة الزرقة ، فالتقطت حجرا شجت به راس عبد العاطى .

واذ راى الخفراء دم عبد العاطى ، رفعوا عصيهم وهشوا بها على النساء ، وهم يتصايحون .. فابتعد النساء .

وما زال العمدة يرتعش ويأمر الخفراء بأن يضربوا بآخر ما عنده من صوت ! .

وبدأ النساء يجمعن قطع الطوب من على الأرض ويقذفن بها الخفراء .

وراى العمدة قطع الطوب تتناثر فاخفى راسه فى ظهر عبد العاطى ..

وكانت البهائم تعود من الحقول على ضباب المساء .. ومن وراء البهائم فتيات ونساء فى ثيابهن المتربة السوداء : يلتقطن ما تلقى به البهائم ليصنعن منه اقراصا تصبح بعد جفافها وقودا يباع بكيزان الذرة .

كن اذ ذاك محملات الأيدى بالروث وفوق رؤوسهن مقاطف مليئة ، وهن يجرين من أمام الخفراء الذين أخذوا يضربون النساء بلا حساب .

وبدات الفتيات يلقين بما فى ايديهن فى وجوه الخفراء .

والتقت وصيفة مقطف مفعما بالروث ، والقته بكل حنقها على راس العمدة .

وذهل العمدة .. وتلطخ قفاه ووجهه كله وعمامته البيضاء وجبته واخذته الرجفة وهو يمسح الروث عن عينه . وظل يزعق :

ــ يانهاركو اغبر ومنيل بنيله : آه يا غجر !! بقى يجرالى كده وانتو واقفين .. ليلتكو زى وشكو .. روحوا .. روحو كلكم مرفودين .. دنا حاخلى ليلتكو زى وشكو ..

وجرى الخفراء كلهم الى العمدة .. واذ راوا الروث يغمر وجهه قال احدهم ضاحكا :

ــ دا ليلتنا .. امال بقى حتبقى زى وشك يا حضرة العمدة .. كلها مسك ! .

وانفجر الخفراء كلهم ضاحكين ..

ووقفوا حول العمدة يمســـحون ما تكوم على وجهــه وعمــامته وما تناثر على الجبة والقفطان .

بينما بدأ النساء ينصرفن مسرعات وقد شاعت فيهن الراحة .. وعلى الوجوه ضحكات من القلب .

وتركن العمدة يهذى من الغيظ ..

ولم يعد أمام الدوار امراة واحدة ..

ومضت وصيفة متثاقلة ، وهى تتحسس راسها وكتفيها ؛ وتخفى المها فى نشوة الانتصار .

ورات ان تتجه الى دكانة الشيخ يوسف ..

وكان الشيخ يوسف اذ ذاك يقف داخل الدكان يضحك ملء فمه ، والى جواره محمد افندى بينما وقف علوانى أمامه خارج الدكان .

كانوا كلهم يضحكون فى نشــوة ســاذجة والشيخ يوسف يخبط كفا على كف قائلا :

ـ تسلم ايدك يا وصيفة !! صحيح بنت محمد ابو سويلم !! دى الحكاية ملت البلد كلها ياأخـــواتى .. لبس المقطف باللى فيه !؟ والله براوه ! .. يا ســلام يا جدعان .. دى عمرها ما جرت فى البلد ! .. حاجة حلوه صحيح ؟ . لكن يعنى مايعملوهاش الا النسوان .. ماكانشى تيجى من راجل ؟!.. آه يابلد !

وقطب جبينه لحظة ، والابتسامة تفيض من فوق وجهه ثم اكمل :

ـ من النســوان ؟؟ يعنى البلد دى نسوانها طلعوا اجدع من رجالتها ؟.

واعترض علوانى قائلا :

ـ واحنا يعنى فى ايدينا ايه وما عملناهش .

فأنبه الشيخ يوسف بقوله :

ـ بس يا واد يا عرباوى ! فى ايديكو ايه ؟! طب اسمع ..

ومال الشيخ يوســف على اذن علوانى ،واخــذ يهمس فى اذنه ان يسطو على مخازن العمدة ؛ ليسرق منهــا الذرة او القمــح بدلا من ان يتشطر ويسرق من مخازن الرجال الغائبين ..

واضطرب علوانى قليلا ، والشيخ يوسف يغريه .

واقسم له انه سيحسب له كوز الذرة من مخازن العمدة بكوزين وكيلة القمح بكيلتين ! .

والتفت الشيخ يوسف وراءه ليتأكد ان محمد افندى لم يسمعه .

ثم مد رقبته وادارها خارج الدكان ليطمئن الى ان احدا على الاطلاق لم يسمع شيئا ..

وعاد الشيخ يوسف يهمس لعلوانى انه سيكفيه اذى الخفراء .. خفراء السهر عند الدوار كلهم من رجال محمد أبو سويلم ولهم اقارب اعزاء يبيتون فى سجن المركز .. وهم يتمنون ان يقفز على دوار العمدة من يخطف روحه لا غلاله فقط ! .

واقتنع علوانى وهز راسه ..

ودار الشــيخ يوســف الى داخل الدكان ، وسحب علبة كبيرة من السجاير ذات الغزال الاسود وقدمها الى علوانى قائلا :

ـ خد علبة سجاير كبيرة اهه .. اشرب يا سيدى سجاير ماكنه واتمتع ونزه نفسك ! ان شا الله ما حد حوش .

واشرق وجه علوانى وضحك ..

وناوله الشيخ يوسف كمية من الشاى وقطعة كبيرة من السكر .. فقال علوانى :

ـ ناولنى كمان حتة سكر ناول ..

فرمى اليه الشيخ يوسف قطعة اخرى صغيرة وهو يتأفف :

ـ طب انجر بقى .. حاكم انت عرباوى خطاف . باأقول لك انت شيخ غجر مش شيخ عرب .. وما يملا عينك غير التراب !

وضحك علوانى وقال بجراة :

ـ دهدى يا عم الشيخ يوسف ؟ . ماهو كله بالحساب ! والا ايه ؟ .

ثم تحرك لينصرف ، غير ان وصيفة كانت قد وصلت الى الدكان ، مع آخر امراة تعود من معركة الدوار ..

وعندما رآها الشيخ يوسف استقبلها مرحبا :

ـ عفارم عليكى يا وصيفة .. برلوة عليكى يا بنتى ! .

ولكنه فوجىء بنشيجهــا .. فلم تكد تراه حتى تقلص وجههــا ، وانفجرت فى بكاء شديد كالعويل ! .

وشعر محمد افندى بضيق يخنقه ، وبطرد السكينة التى غمرت قلبه لبعض الوقت .. وفتح علوانى فمه وعينيه ووضع اشياءه على بنك الدكان .

وتقدمت وصيفة ، واســندت يديها على البنك . والقت راسها بين يديها وظلت تبكى وبدنها كله يهتز ..

كانت ما تزال تعانى من ان رجلا ضربها لاول مرة فى حياتها ، وهذا الرجل هو احد الخفراء الذين كانوا يحسبون لابيها كل حساب ، حين كان شيخا للخفراء وحتى بعد ان فصل ! .

وعلى الرغم من انها قذفت العمدة بمقطف ملىء بروث البهائم ، فهى تشعر ان احدا لم يكن يجرؤ ابدا على ضربها ، لو ان اباها هنا فى القرية !.

وهى بعد لا تفهم لماذا يقيم ابوها فى سجن المركز !.

ان كل ما تعرفه هو ان العمدة وحده اراد هذا ..

وهكذا استمرت تتشنج . وتقطع دموعها لتساقط الكلمات . ثم تحبس كلماتها لتسقط الدموع .. ولم يفهم منها احد كلاما الا كلماتها :

ـ صعبان عليه قوى يا ابا الشيخ يوسف ! ..

وامسك الشيخ يوسف براس وصيفة بحنان وابوة .. ورفع ـ بين يديه ـ جبهتها بعينيها الزاخرتين بالدموع ومازالت على خدها تسيل القطرات ..

واذا نظرت الى عينى الشيخ يوسف ورات ما يملؤهما من حنان واشفاق وحزن ، عادت تضع راسها بين يديها وتبكى وتشهق وتملأ المكان بنحيبها الفاجع الأنين .

واغرورقت عينا الشيخ يوسف هو نفسه بالدموع . واخضلت لحيته ..

ووقف محمد افندى حائرا .. وقد غاض لونه .. وتذكر اخاه دياب واحتدمت فى نفسه المشاعر المضطربة .. وحاول أن يتقدم الى وصيفة ليقول لها شيئا ولكنه وقف فى مكانه حائل اللون بلا حركة ، ومرة اخرى رفع الشيخ يوسف راس وصيفة بين يديه ، وقال :

ـ بكره ابوكى يطلع يا بنتى .. وانا هنا ابوكى تمام .. انا مش عاوز يصعب عليكى من حاجة ابدا .

فصاحت وصيفة وقد دفعت فى عينيها الدموع :

ـ يضربونى يابا الشيخ يوسف ؟! يضربنى الواد بن شلبيه .. يضربنى الواد عبد العاطى .. يعنى عشان ما أبوى مش هنا .

وصاح الشيخ يوسف مستبشعا :

ـ الواد عبد العاطى ؟! دا ابوكى خيره عليه وعلى امه وعلى كل سلساله !! دا أبوكى اللى نزله غفير .. يا نهار أغبر يا عبد العاطى ! . يعنى عشان ما انت داير ورا العمدة ؟ !. ياسنتك سوده ياعبدالعاطى !

ومشى الى داخل الدكان ، فاخذ عصاه من على كتاب مفتوح عن سيرة « ابو زيد الهلالى »

ثم انفلت الى خارج الدكان .

وقال علوانى :

ـ على فين يا ابا الشيخ يوسف ؟ استنى انت وانا اجيب لك خبره ..

ووقف محمد افندى يقول بمرارة :

ـ بقى ما تجيش الا من عبد العاطى !! .

وطلب الشيخ يوسف من علوانى ان ينصرف هو لحاله ، واقسم الا يضرب عبد العاطى احد الا هو بنفسه .. بيده ..

وتلكأ علوانى وهو ينصرف ، ولم يكد يمشى خطوة حتى التفت الى الشيخ يوسف قائلا ان عبد العاطى مقبل ويده على راسه ! .

وتقدم عبد العاطى يسال الشيخ يوسف أن يمنحه قليلا من البن ليسد بها جراح راسه ، وان يبيعه روح النعناع لأن العمدة مغمى عليه فى الدوار .

ووضع الشيخ يوسف عصاه على بنك الدكان . ونظر طويلا الى عبد العاطى وطلب منه ان يتقدم اليه .

وقالت وصيفة :

ـ أهو جه اللى ينشك فى قلبه عبد العاطى ..

وطلب الشيخ يوسف من عبد العاطى أن يتقدم اكثر فاكثر وعندما وقف تماما امام الشيخ يوسف ، هوى الشيخ بكفه على صدغ عبد العاطى .. ورنت الضربة فى الفضاء .. ووضع عبد العاطى يده على صدغه فوق مكان الضربة ، فهوى كف الشيخ يوسف على الصدغ الثانى ، وهو يصيح فيه :

ـ بقى تضرب بنت ابوك محمد ابو سويلم ؟! تعرف تضرب وصيفة يا قليل الخير !! .

وذعر عبد العاطى ، وارتبك .. وحاول أن يقول شيئا ولكن الشيخ يوسف زمجر فيه :

ـ اخرس يا ولد .. اخرس !! انت حاترد عليه ؟؟ .. عايز تبوق فيه واللا ايه ؟ ناوى تجحش فى وشى ؟ اخرس !.

وخرس عبد العاطى .

ووقفت وصيفة تتأمله بارتياح ، وبدا الرضا يشيع فى نفسها ..

وبعد قليل سعل محمد افندى ، ورجا الشيخ يوسف ان يبيع

عبد العاطى روح النعناع لينقذ حياة العمدة ، فهذه مسالة انسانية ..

فالتفت اليه الشيخ يوسف محنقا :

— اسـكت انت يا محمد افندى بلاش فلسـفة كدابه .. بلا كتر انسانية !! هو العمدة كان عنده انسانية ! هوه فيه فى قلبه رحمة ! .. الهى تنخطف روحه ! .

وكانما وقع عبد العاطى — من كلام الشيخ يوسف — على حقيقـة جديدة تمنحه الراحة . وكانه وجد آخر الأمر طريقا يمضى فيه مستريح النفس بعد طول ضلال .. فلم يكد يسمع كلام الشيخ يوسف عن العمدة حتى قال بارتياح :

— آى كده !! الهى يا شيخ !! الهى تنخطف روحه .. ده راجل سو طول عمره .. دا والله يا ابا الشيخ يوسف بعد ما حشت عنه وانجرحت علشانه وهتيت على بنت ابوى محمد ابو سويلم .. بعد كل ده يقوم يدور فينا الضرب .. ويطيح فينا بالمركوب انا وبقية الغفرا !! وآدى يا سيدى آخر شقانا مع الأندال وتعبنا !!

وفجاة رنت ضحكات وصيفة فى صفاء مشرق .. كانها لم تبك ابدا ..

وتالق وجهها كله ، وفتحت صدرها .. وانثنت الى الوراء . وسطعت فى نحرها الوضاءة ..

واستغرقت فى الضحك وهى تقول :

— الا يا عم الشيخ يوسف ! لو كنت شفته ساعة ما لبسته — اسم الله على مقامك — مقطف المسكه !! .

واختلطت الضحكات ، واسرف محمد افندى وعلوانى فى الضحك . وحاول كل واحد منهما أن يقول تعليقا تضحك منه وصيفة .

الا أن الشيخ يوسف التفت الى علوانى وامره ان يمضى من فوره الى الحقل الذى يحرسه على الجسر ..

ثم ناول عبد العاطى قليلا من البن ، ونصحه ان يغسـل الجـرح ويضع عليه البن ، ويربط راسه بقطعة من القماش .

وانصرف عبد العاطى ..

فتحرك الشيخ يوسف طالبا من محمد افندى ان يحرس الدكان ، وسيمضى هو بنفسه مع وصيفة الى دارها .. وحين كان ينصرف اوصى علوانى بأن يهتم بالسر الذى بينهما !! .

وعرض علوانى على الشيخ يوسف ان يستريح ويقعد فى دكانه كما

هو ، وسيرافق علوانى وصيفة الى دارها ، ولكن الشيخ يوسف زجره ، وانصرف بوصيفة ، فابتلع محمد افندى كلمات كان يحاول أن يقولها ..

وعلى باب دار محمد ابو سويلم طلب الشيخ يوسف من وصيفة ان تطمئن وان تهدىء بال أمها فسيعود ابوها فى الغد .

وعاد الى دكانه على الفور . فوجد بعض الفتيان يقفون على مقربة من دكانه فى الطريق ، يحكون كيف شرب العمدة « طاسة الطربة » بعد ان افزعه هجوم النساء ! .

كانوا بعض الذين تعطلوا فى القاهرة او المدن القريبة ، وعادوا منها ليعيشوا فى القرية بلا عمل ولا امل ، ولا شىء غير الذكريات ..

وكان الشيخ يوسف قد لاحظ وهو يمر مع وصيفة انهم يسعلون معرضين به وبمشيته فى الليل مع وصيفة .. على عادة اولاد البندر حين يجدون رجلا مع فتاة ! ثم سمعهم يتغامزون عليه وهو عائد .. وكان يعرف جيدا منذ كان فى القاهرة يدرس فى الأزهر ، ماذا يعنى هـذا النوع من التغامز والسعال المصطنع .. وما يمكن ان يعقبه من كلمات ! .

وانقض عليهم ، فسال واحدا منهم ابن من يكون .. وماذا يصنع فى القـرية .. ثم سـال الثانى والثالث والرابع .. واجابه الفتيـان باستخفاف ..

وهوى فجاة بكفه على وجه واحد منهم وهو يزعق فيه :

— بقى يا واد يابن مسعود مش عارف ان خالك محبوس فى سجن المركز والعمـدة هو اللى حبسـه ؟! بدل ما انتم واقفين كده عواطلية ومسبسبين شعوركم زى النسوان ، تتمهزاوا بالرايحة والجاية .. مش عارفين تشوفولكم شغله ؟ جاتكو الغم .. طب روحوا اعملوا حتى زى النسوان ماعملوا فى العمدة !

ثم انصرف على الفور وهو يغلى ، دون ان يسمع اجابة من احد ..

***

وفى اليوم التالى كان الشيخ يوسف اسعد انسان فى القرية ..

فقد حمل اليه علوانى كيسين كاملين من اذرة العمدة وكيسـا من القمح . ولما راى الكمية امامه كبيرة حاسب علوانى عليها كاملة كما هى وتحلل من وعده بان يحسب الكوز كوزين وكيلة القمح كيلتين .. واكتفى بان يعطيه حقه كاملا هذه المرة ..

أما العمدة فقد أحس أثناء الليل بدبيب أقدام — عند مخازنه — فوق حجرة نومه .. وحاول أن يستنجد بالخفراء فلم يصغ اليه أحـد ...

واصبح مع الفجر .. فجمع الخفراء ليقول لهم :

ــ انتم كلكم موالسين مع العيـال العواطلية اللى راجعين من مصر والبندر .. طب والله لارفدكم النهاردة كلكم .. انتو فاكرينها بلد من غير عمدة ؟! .

ثم ركب بغلته ، والشمس لم ترتفع بعد عن الافق الشرقى ، وسار وراءه عبد العاطى .. ولم يكن من خفراء الحراسة فى الليل .. واتجه الى الجسر من وراء الحقول خلال طريق آخر غير الطريق المعروف .

كان العمدة ذاهبا الى عاصمة الاقليم فى هذه الساعة المبكرة ليكون من اوائل شهود استقبال وزراء حزب الشعب ..

ولم يحاول ان يصطحب معه احدا من القرية كما طلب المامور .. فقد كان يعرف ان الذين بقوا من الرجال فى القـرية سيرفضون .. حتى الشيخ الشناوى الذى لم يرفض للعمدة طلبا من قبل .. ربما رفضه هو الآخر ! .

ومن اجل ذلك فلم يشأ العمدة ان يرسل اليه او يرسل الى احد غيره ليتجنب حرج اعلان العصيان ..

وظل العمدة طول الطريق مهموما يفكر فى القرية المتعبة ! .

ومن يدرى ماذا يمكن ان يحدث فى القرية بعد ؟! .

لقد اصبح من الممكن ان يحدث اى شىء فظيع .. ولقد بدات الاشياء الرهيبة بالفعل .. اشياء لم تحدث من قبل ابدا ! .

النساء يضربنه بروث البهائم ، وفتاة تهزه من جبته وقفطانه ، وفتاة تخنقه .. وفتيان يسرقون الغلة والذرة من مخازنه !! .

كل هذا يحدث .. يحدث دفعة واحدة بعد ان سجن الرجال !.

لو انه على الاقل يعـرف من هو الذى سرق القمـح والذرة من مخـازنه !!

وحاول ان يسال عبد العاطى ، غير انه تماسك ، فيجب ان يبدو امام الجميع ــ حتى عبد العاطى ــ وكأنه يعرف كل شىء ! .

ولم يكد يصل الى المركز حتى دخل الى المامور .. فاحسن المامور استقباله . فقد كان واسع النفوذ بين عمد المركز ، كان اكثرهم قدرة على ارسال الهدايا ، والخدم والخادمات ، وفى ساعات الضيق كان اكثر العمد قدرة على نجدة من يستنجده من رجال المركز ..

وهمس العمدة فى اذن المامور انه يجب الافراج بعد الاحتفال عن رجال قريته ، والا فان مكانه كعمدة سيضيع ..

ووعده المامور خيرا ، وهو يقوم ويقعد ويرد على التليفونات وينهـر الجنود ويسأل عن عـدد الذين احتشدوا فى كل شـارع لاسـتقبال الوزراء ..

وهمس العمدة فى اذن المامور :

ــ دى البلد هزلت مقامى عشان الرجالة المحبوسين ! . اقول لك ايه .. يعنى احكى عاللى بيجرى فى البلد ! وبعدين مقامى راح ينهزل خالص ! .

واكد له المامور ان الافراج سيتم اليوم .. بعد انصراف الوزراء ..

ولم تكد شمس العصر تميل الى الشاطىء الغربى عند النهر الصغير حيث كان الشيخ حسونة ، ومحمد افندى ، والشيخ الشناوى يصلون العصر فى المصلى القائمة عند جميزة عبد الهادى .. حتى اقبل الشيخ يوسف مسرعا فقال لهم ان احد الفتيان العائدين من المركز اخبره ان الرجال قد افرج عنهم ، وانهم عائدون على اقدامهم ، وقد سبقهم هو بحمارته منذ ساعة .

وتهللت الوجوه .. ولكن الشيخ الشناوى قال بيأس :

ــ يطلعوا !؟ يا اخى .. بعدك ! .

وسأله الشيخ يوسف لماذا غير عادته وترك المسجد ليصلى العصر هنا عند الجميزة .

فأجاب الشيخ حسونة نيابة عن الشيخ الشناوى أن كل مكان يصلح لان يكون مصلى .. وكل مصلى هى مسجد .. وقد جاءوا الى هنا تحية لعبد الهادى .. الغائب ! .

وسأله الشيخ الشناوى بدوره لماذا ترك دكانه ؟! .

وقبل ان يجيب الشيخ يوسف حمل الافق الصامت رجع زغاريد من بعيد ..

وقال الشيخ الشناوى مضطربا :

ــ دهده يا اخواتى ؟! هى البلد جرا لها ايه ؟ نسوانها مالهم كده ؟! بيزغردوا ليه ؟ .. البر خد الاستقلال ! ولا يعنى الرجالة رجعوا من سجن المركز ؟! .

واسرع الشيخ يوسف نحو القرية وسبقه محمد افندى ومن ورائهما الشيخ الشناوى والشيخ حسونة فى خطوات سريعة .

كانت القلوب تخفق ، ودقاتها تقرع الصدور ، أسرع من وقع خطواتهم السريعة المتلاحقة ، والبشر يضىء الوجوه ..

وعلى ابواب القرية ، كانت الزغاريد تتعالى ، وصيحات الفرح تملأ الآفاق ، والأطفال يرقصون فى الطرقات .

كان كل شيء فى القرية يرقص ، والدفء يغمر الأفق ، والأصيل ينسكب على القرية بألوان الورد ..

وكان النساء يزغردون ويغنين بلا انقطاع ..

صحيح .. صحيح ! لقد عاد الرجال ! .



١٦

ظلت القرية تتهامس ــ محزونة ــ بقصص عجيبة عن المدينة منذ عاد منها الرجال ..

ويوما بعد يوم استطاع دياب أن ينصب طوله ، رغم أن آثار الضرب ظلت على ظهره المتورم الممزق ..

خرج « دياب » الى حقله لأول مرة .. وفى الطريق امتدت عيناه الى الحقول الواسعة الرحيبة من حوله ، فامتلأت نفسه بالطمأنينة ..ورأى أعواد الأذرة قد شبت عن الأرض ، فابتسم .

وما زالت الحقول الريانة الخضراء تحمل اليه أملا ..

حتى بلغ حقله ، فوجد اللوزات تتفتح عن القطن الجديد ..

وكان القطن الغض يظهر من بين اللوزة كأنما هو حياة بأسرها تشرق دفعة واحدة ..

وفاضت نفس دياب بالفرح ، واوشك ان يقفز ..

وجاوز راس الحقل ، ومر بحظيرة الماشية التى تعود أن يلقى عندها خضرة واحس ببعض الوحشة ..

ولكنه اندفع الى الحقل ، كأنه ينتزع جسده من زحف الوحشة عنى صدره .. ودخل حقل القطن ، وتحسس الأعواد الزاهية ، والقطن ينتشر أمام عينيه بياضا رائقا ..

ثم انحنى على الأرض ونفسه تزخر بالحنين ، والاحساس بالمقدرة، فامسك قطعة من الطين الجاف ، وفركها بين يديه ، وترك ترابها يتناثر من بين أصابعه ، والمشاعر المبهمة تغمر منه الجوانح الى الحلق ، وتهتز منه الأعصاب ..

انه ليشعر اللحظة بعديد من الأشياء .. أشياء لا يفهمها أبدا كل الذين ضربوه فى السجن .. حتى المأمور !..

كلهم لا يستطيعون فهمها ، وهو نفسه لا يعرف ماذا يعانى !

ولكنه يدرك على الأقل أنه لا يوجد من يستطيع أن ينتزعه من حقل القطن الذى وضع فيه البذور على مهل ، ورواه متحديا أوامر رجال الرى ، وهوى فوقه بالفاس فى الساعات الملتهبة من الحر ..

لا احد .. لا احد يستطيع أن يقتلعه من هذه الأرض التي يغرس فيها قدميه ..

وتذكر دياب فجاة كل ما صنعوه به في المركز : كيف أذلوه وحرموه الأيام الطوال من هذا الحقل !

وهز رأسه ، وارتفعت أنفاسه .. ثم مسح بكفه المتربة دموعا تساقطت من عينيه ، واختلطت بتراب الأرض ..

***

أما عبد الهادى فهو لم يرقد في بيته حتى ينصب طوله كما رقد دياب .. وانما خرج من أول يوم الى طرقات القرية ، يروى للناس ما صنعه أولاد البلد بالمأمور أثناء استقبال وزراء حزب الشعب ..

كان عبد الهادى يرفع رأسه ، ويفتح صدره أكثر مما تعود ، وكانت نبرات صوته تعلو في زهو وتتخللها الضحكات دائما .

ومع ذلك فقد كان في كل جزء من بدنه أثر لضربة أو صفعة أو ركلة حتى لسانه وفمه ..

ولم يجرؤ احد على سؤاله عما حدث له ..

كانت القرية كلها تعرف ما حدث للرجال : وكيف اكرهوا على شرب بول الخيل ، وكيف حلقت شواربهم ، وكيف هوت السياط على الوجوه والأبدان ، وكيف كانوا يؤمرون بالجلوس على خوازيق .. وكيف كان الواحد منهم يضرب ويضرب الى أن يفقد الوعي ، ولا يبرح بعد هذا يضرب الى أن يصيح انه امرأة .

على أن الرجال العائدين من سجن المركز ، يذكرون لعبد الهادى بفخار انه لم يقل ابدا انه امرأة .. ولم يشرب ابدا من بول الخيل ، أو يجلس على خازوق .. الا وهو في غيبوبة ! ..

ولقد ظل يضرب بالعصى ، ويركل ، ويلهب بالسياط حتى أغمى عليه عدة مرات ، وذات مرة عندما أغمى عليه أجلسوه على الخازوق وسندوه ، ورفعوه بعد قليل ورموه على الأرض ، ثم فتحوا له فمه وصبوا فيه بول الخيل .. وعندما أفاق ظل يشتم ويتهدد فتكاثروا عليه وأوثقوه بالحبال ، ثم حلقوا شاربه ..

وهكذا صنعوا « بمحمد أبو سويلم » .. وأزالوا له شاربه الغليظ القديم ، الذى تستخفى شعراته السود في الشعرات البيض ..

ومع ذلك ، فقد شمخ عبد الهادى برأسه في القرية ، وكتم آلامه في الضلوع ، ومضى يحكي عن استقبال وزراء « حزب الشعب » ويذكر ما حدث للمأمور ، ويطلق الضحكات ..

في ليلة زيارة الوزراء ، فوجىء كل من في سجن المركز ، بشباب كثيرين ، من المدينة يحشرون في الحجرات المجاورة .. كان بعضهم يلبس الجلاليب ، والبعض يلبس البدل ، وكانوا يهتفون ضد حزب الشعب ، وتنطلق حناجرهم حارة باسم مصر والحرية ، والدستور ، والأمة مصدر السلطات ، والاستقلال ..

وكانوا يستريحون من الهتاف أحيانا ، فيتحدثون عن الانجليز ، والملك ذى الشارب المبروم ، وما تصنع المصالح بالرجال !..

وفي كل ساعة من الليل كانت حجرات سجن المركز تستقبل آخرين ..

كانوا خليطا من طلاب المدرسة الثانوية ، ومدرسة المعلمين الأولية ومدرسة الزراعة المتوسطة في عاصمة الاقليم ، وكان من بينهم بعض الطلبة الذين يدرسون في الجامعة بالقاهرة .. والذين صنعوا هناك المظاهرات طول الشتاء ، وقد أقبلوا في الصيف لينفقوا الاجازة مع أهلهم ..

وكان من بينهم بعض التجار ، وماسحو الأحذية ، والباعة المتجولون، والمحامون ، وعمال مصنع حليج القطن .. والذين يمشون في الطرقات بلا عمل ولا ذكريات ولا أحلام !..

وعرف رجال القرية من خلال الأحاديث أسماء بعض التجار الذين يشترى منهم « الشيخ يوسف » حاجة القرية من البقالة .

وكانوا كلما أقبلت عليهم جماعة جديدة استقبلوها بالهتاف والضحكات ..

ومن خلال أحاديثهم فهم عبد الهادى كثيرا من الأسرار ، فهم أن الانجليز هم الذين يحكمون في مصر الآن ، وأن هؤلاء الانجليز والذين يستخدمونهم سيزولون تحت الضربات !.

عرف أن كل شيء مصيره يتعدل ، مادامت مصر ترفض أن تستعبد..

وذهل عبد الهادى مما سمع .. وأحس بدفء خالص جديد يدب في أطرافه ويمنحه العنفوان ..

وعجب للهجة الصافية التي يتحدث بها هؤلاء المحبوسون ، وعجب - أكثر من أى شيء - لايمانهم الخارق بأنهم سيطردون حزب الشعب ، والذين وراء حزب الشعب ..

وظل ينظر الى محمد أبو سويلم فوجد عينيه تلتمعان .. ورأى شحوب دياب قد أخذ يزول والدم الأحمر يجرى من جديد في سمرة وجهه ..

وعاد عبد الهادى ومحمد أبو سويلم ودياب يتصنتون ، ونظراتهم الى بعضهم تحمل دعوة المشاركة والاهتمام ..

وسمعوا المسجونين الجدد يتحدثون باستهزاء عن الرصاص والموت والحكومة في مصر .. وأحس عبد الهادى أن هؤلاء الناس هم أقوى من الحكومة فى مصر .. الحكومة التى ترعش المدير والمأمور !

وقال أحد المسجونين الجدد : ان الحكومة لفرط ضعفها قد أمرت بأن يسجن كل الذين يشتبه في عداوتهم لحزب الشعب . فأضاف زميل له أن مصر كلها عدو لحزب الشعب ، والحكومة فى مصر تأمر المديرية بأن تحبس أعداء حزب الشعب ، لأنها تعرف أنهم سيسألون الوزراء أثناء زيارتهم عن الدستور الذى ضاع ، وعن الانتخابات الزائفة ، وعن حريات هذا القريب أو ذاك الصديق ، وحريات كل الوطنيين الشرفاء .. ماذا صنعت بها الحكومة ؟!

وسيسأل الناس وزراء حزب الشعب عن الأزمة وماذا صنعت لها الحكومة .. وعن الحقول التى تخرب ، والماء الذى يسلب ، وعن الطعام والقماش ، والمال الذى لم يعد يدخل الجيوب ، وعن المصانع التى تفصل العمال بلا حساب .. وعن الأرض التى تستولى عليها البنوك !.

كانت الحكومة تعرف أن الناس سيسألون وزراءها أثناء الزيارة عن الكساد والجوع ، والأولاد الذين يردون من المدارس والمرضى الذين لا يجدون اماكن فى المستشفيات .. وعن حق كل انسان فى ان يعمل ، وعن حق الكلمة فى أن ترتفع ، وعن كل ما يوفره الدستور ، ويمنعه الانجليز ، والمسدس ، وحزب الشعب !..

وظل عبد الهادى ومحمد أبو سويلم ودياب يسمعون الأحاديث العجيبة من الحجرات المجاورة ..

وهمس دياب فى صوت كالأنين :

ـ آدى الفهم صحيح .. شوف يا خويا ، ولا هاممهم سجن .. يانهار ازرق يابا محمد يا أبو سويلم !.. أتارينا مش فاهمين أيها حاجة !!

وابتسم محمد أبو سويلم وعبد الهادى وألقيا على دياب نظرة مفعمة .. وسكت دياب ، وأخذ يصغى باهتمام وتفتح الى الأحاديث فى الحجرات المجاورة ..

وعند الفجر دخل المأمور الحجرة التى استلقى على ارضها العارية الصلدة بدن دياب ملتصقا بمحمد أبو سويلم وعبد الهادى ورجال من قريته ، ومن قرى أخرى مجاورة ، جاءوا كلهم من أجل مخالفات الرى .

وتقدم المأمور فى الحجرة يدوس بحذائه الغليظ أقدام الرجال بلا مبالاة .. ومن ورائه بعض الجنود بالبنادق التى تلمع فى أطرافها السنكى .

ووقف المأمور قليلا ، وتأفف من الرائحة .. وقام الرجال ووقفوا متلاصقين يحملقون فى وجهه ، وفى وجه الجنود من ورائه .. والى البنادق !.

وقال المأمور ان أصحاب المعالى وزراء حزب الشعب يشرفون المدينة بالزيارة فى الساعة العاشرة تماما .. وحزب الشعب هذا هو الذى دفع الديون عن الفلاحين ، وجريدته هى الناطقة بلسان الشعب !.

وقبل أن يستطرد المأمور ، قاطعه فلاح من قرية مجاورة للمركز قائلا ببساطة ان حزب الشعب دفع ديون محمود بك لا غير ، وحاله الآن معدن بعدما كان لا يلقى اللضى .. أما الفلاحون فى قريته فحزب الشعب لا يدفع لهم الديون ، وانما يستولى على أرضهم ليشق فيها سكة زراعية يريدها الباشا !.

واقتحم الحديث فلاح ثان من قرية مجاورة أخرى ، فأقسم ان الحكومة حجزت على أرض عمه لأنه لم يدفع المال ، بينما تركت ارض الخواجه صاحب الخمارة المشهورة فى المركز .. وتدخل رجل ثالث ، فضحك من كلام المأمور وقال له ان الحكومة لا تدفع ديونهم وهم لا يريدون منها دفع الديون ، وانما يرجون المأمور أن يتوسط عند الحكومة حتى لا تسرق منهم ماء الرى ..

وكان المأمور ينقل بصره بين الرجال الذين يتكلمون وأيديهم تتحسس أجسادهم الممزقة من لذع السياط .. وكظم غيظه ، وقال بهدوء ان الفلاحين الثلاثة الذين تكلموا هم حمير لا تفهم . وسيربطهم طول النهار فى اسطبل الخيل .

قال المأمور كلامه هذا بهدوء تام ، وأدار نظراته قليلا على وجوه الفلاحين الذين وقفوا مترنحين من كثرة ما لا قوا ، ثم استمر يشرح بنفس الهدوء نظام استقبال الوزراء ، ويعين مكان الفلاحين فى هذا الاستقبال ، فهم بعد ساعة سيخرجون تحت الحراسة ويوزعون على أرصفة الشارع فى طريق موكب الوزراء الى قصر الباشا من محطة السكة الحديد الى نهاية المدينة .. وحضرة ملاحظ البوليس عنده أوامر بأن يعطيهم اشارة بيده عندما تقترب العربات التى تحمل الوزراء من المحطة الى قصر الباشا ، فاذا رأوا هذه الاشارة فعليهم أن يبدأوا الهتاف .

واذ ذاك قاطعه رجل يسأل ببساطة :



ـ نقول ايه ٠٠ تحيا مصر ؟ ولا يحيا العدل ؟ ولا يحيا الوطن ؟٠

وفى نفس الهدوء أشار المأمور اليه ، وأكد له انه هو أيضا سيربط مع الثلاثة الآخرين فى اسطبل الخيل طول النهار ٠٠

وعاد يكمل بهدوء ، فقال للفلاحين ان عليهم أن يهتفوا معا ٠٠ وأن يقولوا : « يعيش جلالة الملك المعظم ٠٠ يحيا حزب الشعب يحيا صدقى»٠

واستمر المأمور يقول انهم بعد هذه الهتافات الثلاثة يجب أن يكرروا هتافهم « يحيا صدقى » ٠٠ وعليهم أن يقولوا هذا الهتاف بنغم ٠٠

وبدأ المأمور يلقى هتاف « يحيا صدقى » بنغم متتـــابع راقص وهو يصفق بيديه على النغم ٠٠

وهمس أحد الفلاحين فى أذن جاره أن المأمور يصنع كالطبـــالين تماما ٠٠

وابتسم الرجلان وحاولا اخفاء الضحك فرآهمـا المأمور ٠٠ وارتفع صوته وهو ينهمر عليهما بالشتائم والصفعات ، وأمر الجنود الذين كانوا يقفون وراءه أن يضربوا الرجلين قبل ربطهما طول اليـــوم فى اسطبل الخيل ٠

وقبل أن يترك المأمور الحجرة الضيقة ذات الرائحة النتنة صاح :

ـ أنا حاتخنق من العنبر ده !! ياللا بأه ٠٠ هه ٠٠ عاوز أشوف كده فهمتوا ولا ايه ٠٠ قولوا ورايه : يعيش جلالة الملك المعظم ٠٠ يحيا حزب الشعب ٠٠ يحيا صدقى ! ياللا معايا ع الواحدة : يحيا صدقى ٠٠ يحيا صدقى ٠٠

وترددت أصوات الفلاحين متكاسلة بلا نغم :

ـ فليحيا الملك ٠٠ يعيش حزب الشعب ٠٠ يعيش صدقى ٠

فضرب المـأمور الأرض بقدميه فى عصبية ، وأخذ يصلح الهتـاف ، وصرخ فيهم أن يلوحوا بأيديهم وهو يهتفون ، وان يقفزوا ويرقصــوا ان استطاعوا ، لأنهم فرحون بزيارة وزراء حزب الشعب !!

وأقسم أنه لو ضبط واحـــدا منهم يهتف بلا سرور ، أو متلبســا بالكسل ، فمصيبته سوداء ، وليلة بلده كلها طين !!

واستدار ليخرج ، ولكنه توقف على فكرة التمعت فى خاطره :

ـ لازم تهتفوا بنغم ٠٠ فاهمين يعنى ايه بنغم ؟؟ فيه طبل بلدى ٠٠ الطبل بزمر وانتوا تهتفوا وراه ٠٠ يعنى تزعقوا وراه على النغمة يا غنم ٠٠ انتم زمان كنتوا بتقولوا ايه أيام الهوجة ؟ مش كنتم بتقولوا : يحيـا سعد ٠٠ تمام نغمة يحيا سعد !! وفى الانتخابات بتتنيلوا تقولوا ايه :

يحيا الوفد ٠٠ مش كده ؟ أهى يحيا صدقى تمام على نغمة يحيا الوفد ٠٠ قولوها على نغمة يحيا الوفد تمام ٠٠ مفهوم ؟٠

وخرج مسرعا ٠٠

وشرعت جموع الفلاحين تتدفق من دار المركز ، وقادتهم فصائل الجنود الى أماكنهم على جانبى الطريق ، والشمس تشرق على المدينة ٠

ولم تفتح الدكاكين أبوابها كالمعتاد ٠٠ وانتشر العساكر يمسكون أصحاب الدكاكين الصغيرة من أقفيتهم ، ويجرونهم فى الشوارع ، ويأمرونهم بأن يفتحوا الدكاكين ٠٠ وكان العساكر يحطمون الأبواب احيانا ، ويفتحون الدكاكين بأنفسهم ويضعون عليها أعلاما صغيرة للزينة ٠

وعلى كثير من الدكاكين كانت الأعلام ترفرف ، والأبواب مفتوحة ، ولا أحد على الاطلاق فى الدكان ٠٠

ومع ذلك فقد ظلت الشوارع نفسها خالية كأنما هجر المدينة أهلها ٠٠ وساعة بعد ساعة ازدحمت أرصفة الشوارع بالناس ، وما زالت الشوارع خاوية ، والشمس ترتفع ، وأشعتها تحمر لحظة بعد لحظة ٠٠

وتعرف عبد الهادى ومحمد أبو سويلم ودياب على بعض الوجوه من بين الذين يزاحمونهم : وجوه جنود ضربوهم بالأمس أو أول أمس ، ولكنهم الآن يقفون فى الطريق بالجلاليب !٠

ولمح عبد الهادى وجه شعبان الذى غاب عن القرية منذ زمن ، ولمح أحد رجال الناحية الشرقية عن بعد وجه صديق قديم من قرية مجاورة ، كان قد حكم عليه بالسجن منذ ثلاثة أعوام فى قضية تسمم ماشية العمدة ٠٠ ولكنه لم يكن يلبس ثياب السجن ٠

وفى الحق أن جوانب الطريق من محطة السكة الحديد الى خارج المدينة كانت تزدحم بالمساجين والجنود ٠٠ وكلهم بالجلاليب ٠٠

وفى الطرقات البعيدة كانت موسيقى البوليس ، وموسيقى الأحداث، والطبول البلدية ، تمضى بلا انقطاع تجمع وراءها بعض الصبية ، فيلتقطهم ملاحظ البوليس ويأمرهم بالدخول فى الصفوف على جانبى الطريق الممتد من محطة السكة الحديد الى خارج المدينة ٠

وامتدت اللافتات الكثيرة بعرض الشارع تحمل أبياتا من الشعر تحية لأبطال حزب الشعب ٠٠

ورشقت أسطح البيوت بنساء كثيرات ، ولوح المأمور من على حصانه الأبيض :

ـ زغرتى يامرة منك لها !٠٠

وانطلقت من هنا وهناك الزغاريد ٠

وحين كان المأمور يمر بين الصفوف على حصانه الأبيض ، صادف باعة الجرائد ينطلقون من المحطة وينادون على الصحف المعارضة ٠٠ فاستوقفهم وأمر رجاله بالاستيلاء على الصحف ، ووضع البائعين وسط الصفوف بالقوة ٠٠ ليكونوا هم أيضا فى استقبال وزراء حزب الشعب !٠٠

وأخذ المدير يروح ويجىء فى عربته ومعه وكيل المديرية ، وفى عربة أخرى كان الحكمدار يراقب الاستعدادات والابتهاج بالزيارة ، ويشرف على وضع المخبرين أمام الصفوف هنا وهناك ليبدأوا بالهتاف ٠٠

وأصدر المأمور تعليماته الى فرق الموسيقى والطبل البلدى بالوقوف فى أماكن متباعدة على طول الطريق ، وانطلقت الموسيقى تعزف والطبول تدق ٠٠ فيهتف رجل من الذين وضعهم الضباط أمام الصف ، ويردد الآخرون الهتاف ٠٠

وصاح المأمور وهو يراقب ترديد الهتاف :

ـ علوا أصواتكم شويه ٠٠ بحماس شويه كده ٠٠ هزوا ايديكو ، واترقصوا علامة الابتهاج يا غنم ٠٠ اترقصوا واهتفوا ع الواحدة !٠

والشمس ترتفع ، وترسل أشعتها حامية ٠٠ والمأمور يروح ويجىء ويأمر فى لهوجة !٠

وطلب المأمور من بعض الضباط أن يذهبوا الى كل المقاهى المفتوحة ، فيسوقوا من عليها الناس الى الاحتفال ٠

ثم انطلق المأمور الى المحطة بحصانة الأبيض ، فألقى نظرة على الأعيان والعمد ٠٠ وركض بحصانة على طول الطريق ، وهو ينظر على الجانبين ٠٠ وهمس لنفسه :

ـ مفيش احسن من كده . . استقبال شعبى مفتخر !! مافيش مأمور عمل كده ٠٠ الواحد على الأقل يطلع من الاحتفال ده مساعد حكمدار ٠٠

ووصل المأمور الى نهاية الطريق عند آخر المدينة ، ثم لوى عنان جواده ، وانطلق يجرى به الى المحطة قائلا :

ـ خلاص القطر قرب يوصل ٠٠ استعدوا تمام ٠٠ تعلوا أصواتكم وتهزوا أيديكم وتهتفوا عالنغم وتترقصوا من كتر الفرح ٠٠

ثم نظر الى أعلى ، على أسطح بعض البيوت وهو ما يزال يقول فى لهجة آمرة :

ـ والزغاريد ٠٠ عاوزها ملعلعة ٠٠

***

وبعد قليل هبط وزراء حزب الشعب الى المحطة ، حيث كانت تستقبلهم العربات ومن حولها الأعيان والعمد ، وعدد من الجنود ٠

وتحركت العربات بالوزراء تشق الطريق الرئيسى من المحطة الى قصر الباشا ، فى ضيعته القريبة من المدينة ٠

ومضت العربات بضعة أمتار وسط هتافات « يعيش جلالة الملك المعظم، يحيا حزب الشعب ، يحيا صدقى ، يحيا صدقى » ٠

كانت العربات تمضى على مهل ، وفى اعتزاز ، وعلى جانبى الطريق ترفرف الأعلام ، فوق لافتات كبيرة كتب عليها بيت من الشعر الركيك ، فيه ترحيب ومدح ٠

وتعالت الزغاريد من فوق أسطح البيوت والمأمور بكل كبريائه ورضاه عن نفسه ـ فوق حصانه الأبيض الى جوار العربات وهو يلوح بيده للنساء، وللذين يهتفون ٠

وقطع الموكب نصف الطريق ، بين أرصفة زاخرة ، وهنا وهناك رجل يهتف « يحيا صدقى » والآخرون يرددون الهتاف على وقع الطبل البلدى وموسيقى الأحداث ٠٠

وفجأة على نفس النغم ، استرد الواقفون كلمات النغم ٠٠ أصـــل كلمات النغم ٠٠ كلماتهم التى تضطرم فى الصدور ٠٠

وانفجرت من كل مكان هتافات مجتمعة :

« تحيا مصر ٠٠ تحيا مصر » ٠٠

واصطخبت المدينة كلها بالهتاف الممنوع ، وارتفعت الأيدى ، وسرت فى الجموع حدة ضارية وغليان ٠

وتدفقت من الحوارى والشـــوارع الخلفية مواكب عديدة متموجة تزحم الطريق الكبير الذى تمر به العربات ، وأخذ الناس يتواثبون ، وهم يرقصون على الهتاف « تحيا مصر ٠٠ يحيا الوفد » ٠٠

وازداد الناس التصاقا ببعضهم ، فزادهم الالتصاق احساسا بالقوة ، وغمرهم شعور بالكبرياء ، والامتياز والظفر ٠

واسرعت العربات بالوزراء ، فى نفس الطريق الذى كانت تقطعه على مهل باعتزاز . . ومازالت الاعلام تخفق فوق اللافتات المزدحمة بعبارات الترحيب . .

واضطرب المأمور ، ورّوع على ظهر حصانه أكثر مما روع وزراء حزب الشعب داخل العربات ٠

ولكز المأمور حصانه بفوثب ، واقتحم الجموع . . وتعالت الصرخات، وما زال الهتاف الممنوع يرج المدينة ٠٠ وأمر المأمور الجنود أن يضربوا الناس ٠٠ فارتفعت صرخات النساء من فوق أسطح الدور ، وهن يلوحن بأيديهن فى وجه الزائرين « احيه عليه احيه عليه » وكأنهن يســتقبلن جنازة شاب مات غريبا ! ٠

وذعر الحكمدار ، فنزل من عربته مضطربا يصيح فى الضباط الصغار أن يقبضوا على الناس ٠٠ ونزل المدير من عربته مرتبكا فأمر باطلاق الرصاص على المتظاهرين ، وبالقبض على كل أهل المدينة ٠٠

بينما وقف المأمور يلطم خديه وهو يميل بجزع قائلا بنغم جنائزى ، على وقع صرخات النســاء ، كالنادبات تماما :

ـ مارحنا فى داهية كلنا ٠٠ احيه علينا كلنا ٠٠ أحيه علينا ٠٠ أحيه علينا !! ٠

***

مازال عبد الهادى يروى هذه القصة كل يوم لأهل القرية ، وهــو يتحسس مكان شاربه الحليق ، ثم يرفع رأسه ويقول :

ـ آدى احنا طيرنا لهم المأمور والحكمدار كمان ٠٠

وقد ظل عبد الهادى يذكر محمد أبو ســويلم بقصة الاســـــتقبال والابتهاج ، وبحــالة المأمور عندما أطبقت عليه هتــافات الرجال من على الأرض وصرخات النساء من الجو ، فوقف يلطم كالنسوان ٠

وكان عبد الهادى يطلق ضحكات صافية راضية ٠٠ وهو يتحدث فى هذا كله ، ثم تلتمع عيناه ، وهو يحكى ما سمعه من حجرة الطلبة والتجار الذين ألقوا فى المركز ليلة الاستعداد بالاحتفال ٠٠

ما زال عبد الهادى يبدى اعجابه بسخريتهم من الذين وضعوهم فى السجن ، ويؤكد لأصدقائه فى القرية ، ان هذا الصنف من الناس لا بد ان يكون قد تعلم أسرار الحياة من مظاهرات الشوارع فى المدينة ٠٠

غير ان محمد أبو سويلم كان يسمع كل هذا ويتأمل الضحكات والزهو، وفى الأعماق من نفسه شعور مخيف بالهزيمة والضياع ٠

وعندما حاولت امرأته أن تهون عليه ، واقتربت منه ذات ليلة لتدلك أورام بدنه المحتقن من كثرة الضرب ، نحاها بضيق ، وهو يهمس باذعان بكلمات من موال حزين :

روح يا زمان روح وخللينا بغلابتنا
احنا السبوعة وجت الايام غلبتنا ..

ثم أخذ يردد فى حسرة أبياتا قالها أبو زيد الهلالى عندما هزمه دياب ابن غانم ، فأحنت امرأته راسها ، وتصعبت ، وزفرت .

* * *

وطالما نادى محمد أبو سويلم ابنته وصيفة فى الليل قبل أن ينام ، وتأملها وهو يغالب الدموع ليعاود سؤالها فى تأثر :

ـ بقى الواد عبد العاطى من دون الغفر هو اللى ضربك ؟ يا سلام ؟! عبد العاطى ؟ .

وكثيرا ما تحسس محمد أبو سويلم شاربه الحليق فى خجل تخالطه الزراية ، كأنما هو عريان لا يقوى على استرداد ملابسه من يد قوية !.

وكثيرا ما لعبت أمام عينيه ـ كالعفاريت ـ صورة العساكر الذين أوثقوه بالحبال ، ليحلقوا له شاربه ، والمأمور يدخل عليه ليذله أمام رجال القرية والقرى المجاورة ، ويطلب منه أن يقول انه امرأة ! .

لقد ظل ينظر الى المأمور اذ ذاك والشرر يتطاير من عينيه . ودون أن يقول كلمة ، جمع كل لعابه وحنقه وكبريائه المهدرة ، وقذف بها فى بصقة كبيرة على وجه المأمور ..

انه لا يذكر ما حدث له بعد ذلك ، فقد تشابكت أمام عينيه السياط والعصى والأحذية كلها تهوى فوق بدنه .. وأحس وهو ملقى على ظهره بحذاء المأمور يخبط رأسه ووجهه .. ثم غاب عن الدنيا ..

وعندما كان هو غائبا عن الدنيا تماما فى سجن المركز كان الولد عبد العاطى يضرب ابنته وصيفة أمام دوار العمدة ..

وعلى الرغم من أن عبد العاطى ذهب الى محمد أبو سويلم فقبل يده ، ورأسه ، وبكى فى ندم ، وطلب منه أن يضربه بالمركوب أو البلغة تأديبا له على ما صنعه مع وصيفه .. وعلى الرغم من أ ن وصيفه نفسها نسيت ما كان من عبد العاطى وقدرت عذره .. وعلى الرغم من أن أهل القرية حدثوه بإكبار عما لقى العمدة من وصيفة .. فان محمد أبو سويلم ظل مطأطىء الرأس ، كسير الصوت ، مهزوما أمام نفسه ، يذكر بالحسرة ،أن ابنته وصيفة كانت تضرب عند دوار العمدة ، وهو غائب فى السجن تحت أحذية الجنود .

لم يستطع أحد على الاطلاق أن يخفف عن محمد أبو سويلم وأصبحت كلمات التشجيع تزيده شعورا بالمرارة ، والهزيمة ! .

لقد ضربوه فى السجن كما لم يتخيل أبدا .. ولو أنه كان حصانا عند الحكومة لكانوا أكثر اشفاقا عليه .

ان المأمور الذى أمر بضربهم وبتعذيبهم لا يستطيع أن يقف فى شارع المدينة ويصنع مثل هذا بحيوان ..بكلب أو بقط .. سيخجل من الأطفال والنساء ، ويخاف من رؤسائه ، ومن امتعاض الأصدقاء ! .

وربما طالبت بحبسه الجمعيات العديدة التى تدعو الى الرفق بالحيوان .. ولن يستطيع على أية حال أن ينظر فى وجوه أولاده الصغار، أو زوجته بعد أن يعذب حيوانا ما على هذا النحو !! .

ومع ذلك فهذا الرجل نفسه ـ من يدرى ؟ ـ .. ربما كان يروى بفخار لامرأته أمام الصغار كل ما صنعه بالرجال ..

وربما مارست زوجته ـ وهى تسمع ـ احساسا متفوقا بالامتيـــاز والكبرياء !! .

وهكذا ظل محمد أبو سويلم ـ خلال الوجيعة ـ يعجب لهذا الصنف من الرجال ، ويتساءل لماذا قدر عليهم وحدهم فى القرية أن يعانوا مثل هذا العذاب ! ومع ذلك فلو انهم تمكنوا من المأمور لما صنعوا به كما صنع بهم .. لو أنهم قبضـــوا عليـــه لعاملوه كما يعامل هو كلبه على الأقل : بحنان ! .

ولم يرق هذا الحال للشيخ حسونة ولم يخف ضيقه بمحمد أبوسويلم.

ان محمد أبو سويلم لم يلق أكثر مما لقى عبد الهادى أو دياب ، أو الآخرون ، ومع ذلك فعبد الهادى يملأ القرية من أول يوم بحكاية استقبال وزراء حزب الشعب ، ويقلد المأمور حين فاجأته الهتافات العدائية .. ويقلد دياب حين كان يقفز من الفرح ويشترك فى الهتاف بظهره المنحنى من كثرة ماضرب .

ودياب نفسه يسمع هذا ويضحك ، وهو يخرج الى الحقل ويعود كما كان .. والرجال الآخرون عادوا كلهم يعملون ، كما مضت بهم الحياة دائما ..

فلماذا لا يتصرف محمد أبو سويلم كما تصرفوا ؟!..
لماذا يحمل هم الدنيا فوق دماغه ؟! .

انه لم يعد يخرج الى المســـجد .. ولم يعد ينبسط لكلام الشيخ الشناوى ، ولم يعد يستطيع أن يرفع رأسه ليكلم أحدا .. حتى صديقه الشيخ حسونة !! .

وهو يخرج الى حقله فى الفجر ، ويقعـــد به طول النهار ، ويترك

وصيفة تحمل اليه غذاءه هناك ، ويعود مع أول الليل ، ليعتكف فى داره حتى الفجر .. وهكذا يتجنب ــ على قدر ما يقدر ــ أن يراه أحد أو أن يرى أحدا ! .

كان الشيخ حسونة يفكر فى هذا بعد صلاة العصر فى المسجد ، وحين خرج قال له محمد أفندى :

ــ تعالى نشق عالقطن يا خال .. تحب حضرتك تشق عالقطن فى حوض الترعة ؟ .

فقال الشيخ حسونة :

ــ ياللا ، ياللا نشق على محمد أبو سويلم كمان .

وسار الشيخ حسونة من القرية الى حوض الترعة ، فى طريق ضيق تترامى على جانبيه الحقول .

وعلى جانبى الطريق ، بدت أعواد القطن خضراء مغبرة ، تترنح فى هزال تحت البياض ، وترتفع الى جوارها فى حقول أخرى أعواد الأذرة ، أو يمتد حقل صغير من البطيخ يحوطه لبلاب ذو أشواك ، تقوم سنانه وحدها بدور الحراسة ..

***

كان الصمت يخيم على الحقول ، وأشعة العصر الصفراء ، تعطى لكل شىء لونا شاحبا ، وتجعل الظلال فى الفضاء طويلة كالأشباح ! .

وقال محمد أفندى ليقطع صمت خاله :

ــ شايف يا خال ؟ حضرتك شايف القطن عامل ازاى ؟ الدودة ماخلتش السنة دى .. لكن قطننا باسم الله ما شاء الله صاحح وعال .. أهه قدامنا أهه يشرح القلب !! ان شاء الله يرمى كويس أحسن من قطن البلد كلها .. ان شاء الله يرمى زى قطن العزب والوسايا ..

فالتفت اليه الشيخ حسونة ليقول بفتور :

ــ يرمى ؟! يرمى ولاما يرمى ؟.. وايه الفايدة ما دام بالتراب ؟.. ما فيش فايدة .. سعد باشا قال ما فيش فايدة .. شوف .. سيبك من الكلام ده كله .. هوه القطن راح ينصلح حاله أبدا ؟.. لما البلد ينصلح حالها ، يبقى القطن ينصلح حاله ..

وسكت قليلا قبل أن يكمل :

ــ شوف .. اطرد الانجليز واطرد حزب الشعب كمان ورجع الدستور ، والقطن يبقى عال .. وللا انت لسه مش فاهم ؟ يا محمد ، الناس بيقولوا لك يا محمد أفندى .. خليك متنور وأفندى صحيح ، اقرا الجرايد يا أخى .. سعد باشا قال مافيش فايدة طول ما الانجليز هنا ..

وكانا قد بلغا حقل القطن ، وانقبض محمد أفندى وهو يسمع تقريع خاله ، وخشى ان يستمر فى تأنيبه ، حتى يصلا الى حقل محمد ابو سويلم .. وكان محمد أفندى طوال الطريق يسير متخلفا عن خاله خطوة ، تأدبا منه وخشية .. واستبق محمد أفندى خاله ، وتقدم الى حقل القطن ، محاولا أن يغير الحديث :

ــ طب اتفضل حضرتك .. اتفضل هنا فوق الزريبة .. هوا حلو خالص .. داحنا صلحنا سطحها وخليناه مصيف صحيح ..

وأبدى الشيخ حسونة رضاه عن اهتمام محمد أفندى واخيه دياب باصلاح سطح حظيرة البهائم ليكون مكانا صالحا للجلوس فى الصيف .

ولكنه لم يتقدم ..

وسمع دياب صوتهما ، فرحب بهما من داخل حظيرة البهائم ، وخرج يستقبلهما مسرعا ، وسلم على الشيخ حسونة وقبل يده وهو يقول :

ــ الغيط نور .. الغيطان كلها نورت يا خال ! .

وابتسم الشيخ حسونة ، وتابع سيره على الطريق الضيق الى حقل محمد أبو سويلم ، ومن ورائه محمد أفندى ودياب .

وقال دياب وهو يقترب من خاله :

ــ شايف القطن يا خال .. احنا زارعين الحته كلها قطن : غيطنا والغيط اللى احنا راكبينه من الشيخ يوسف ! والله لو كان الغيط ده لسه مع صاحبه الشيخ يوسف كان طلع قطنه خايب ، ودهبان .

واسرع محمد أفندى وهو ينظر الى اخيه محنقا ، يحاول أن يغير الحديث قبل أن يرد خاله ، فقال :

ــ الا يا خال ؟!.

وسكت دياب ، والتفت خاله اليه وهو مازال يسير ، وتنحنح محمد أفندى قليلا ثم استمر يقول فى تحرج :

ــ اللا محمد أبو سويلم دا بقى حايفوق امتى ويرجع زى ما كان ؟؟ دا مذلول قوى ومهزوم قوى وحالته بقت حال .. يا ولداه .. حتى وصيفة بنته دهبت هيه كمان وخست خالص ..

فقال الشيخ حسونة باستنكار :

ـ عجيبه .. وانت شانك ايه يا اخينا ؟؟ مالك انت ومال بنته ان كانت دهبانه ولا خاسة ؟ هو انت يا أخي بتوزنها ؟؟ اما برود !! .

وبهت محمد افندى ولم يجب .. بينما حملق دياب وفتح فمه فى دهشة كبيرة ..

وسار محمد افندى وراء خاله يهز المنشة وقد احنى راسه . ومن ورائه سار دياب ..

وعلى كوم سباخ مرتفع كان محمد ابو سويلم يستلقى تحت ظل شجرة التوت .. وراى الشيخ حسونة مقبلا ، فقام متثاقلا يرحب به ، واسرع الشيخ حسونة فصعد كوم التراب .. وحط نفسه الى جوار محمد ابو سويلم .. وحاول محمد ابو سويلم ان يقوم ليجىء بغبيط يفرشه على التراب ولكن الشيخ حسونة قال متبسطا :

ـ يا سيدى .. والتراب ماله .. نحن منه واليه .. وخلقناكم من تراب ! .

وضحك محمد افندى وهو يجلس الى جوار خاله .. وعلى مقربة منهما ، عند منحدر كوم السباخ ، جلس دياب بعيدا عن الظل فى اشعة العصر الفاترة ..

ونهض محمد ابو سويلم اخيرا ، رغم الالحاح عليه الا يقوم ، فقطع بطيخة كبيرة من حقل البطيخ الذى يستلقى تحت الكوم امام اعواد القطن وضرب محمد ابو سويلم البطيخة بيده ، وفحص عنقها ، ثم رماها بثقة امام الشيخ حسونة ..

واخرج محمد افندى المدية من جيبه وفتحها بعناية ، وشق البطيخة ثم تركها مفتوحة ـ فى الشمس ـ ليبرد قلبها الأحمر .. وبعد لحظات بدا يقطعها واعطى لخاله وللآخرين .

وفجاة قال الشيخ حسونة لصديقه القديم محمد ابو سويلم :

ـ قل لى يا محمد يا اخويه .. انت مغموم قوى كده ليه ، وشايل الدنيا على راسك ؟! دا انت حقك تفرح قوى وتنبسط قوى .. مش المامور انتقل الواحات والحكمدار راح اسوان ؟! يا راجل دا انت وبقية الرجال عملتوا عمله عمرها ما جرت .. دا انتم هديتم المركز .. قلبتم المديرية كلها .. وان شاء الله برضه تقلبوا الحكومة .. بقى رجالة البلاد التانية اللى كانوا معاك عاملين زيك كده ؟؟ ولا رجالة بلدنا ما كلهم يا أخى مبسوطين .. حد بيعمل زيك كده ؟ وايه يعنى لما اتحبست ؟! حبس ايه يعنى ؟! يعنى ايه الحبس يعنى ؟! وايه يعنى لما العساكر مدوا ايديهم عليكم

لا هى رجولة من العساكر ، ولا ضعف منكم .. ياراجل .. دا سعد اتحبس ، واتنفى كمان .. وكل المجاهدين بينضربوا .. يا راجل فكر فى اللى عملتوه .. حد كان يتصور ان الوزراء يحصل لهم كده ..

وتالقت عينا محمد ابو سويلم ، وتذكر منظر الوزراء داخل العربات والهتافات تطاردهم ، وتذكر حالة المامور ولهوجته ، وترنحه وهو يلطم على وقع صراخ النساء ، ويزعق كامراة تندب ، والحكمدار يشتمه فى جزع ، والمدير يهرول الى الحكمدار ليشتمه هو والمامور بينما الرجال على جانبى الطريق يموجون ويرقصون صائحين فى نغم قاصف : « تحيا مصر .. يحيا الوفد » .

لكان محمد ابو سويلم يذكر هذه الاشياء لاول مرة ! لقد كان هو اذ ذاك يهتف مع الناس ، والحرارة تدب فى عروقه ..

وعلى هذه الذكريات ، شاعت فى وجهه المصفر أول ابتسامة منذ عاد من المركز . وقال برضا انهم حقا عملوا ما لم يعمل من قبل ، وانهم هزموا المامور والحكمدار نفسه ، وانهم يستطيعون ايضا أن يهزموا العمدة ..

فتحمس دياب وكان ينهش قطعة من البطيخ أعطاها له محمد افندى ووقف فى مكانه ورمى بعيدا قشر البطيخة ذى اللحاء الأبيض بعد ان اتى على الجزء الأحمر منه ، وقال :

ـ عمدة ؟... عمدة ايه يا أبا محمد ؟ ! سلامات يا عمدة ! ! بقى بعد اللى عملناه فى الحكومة جاى تقول لى عمدة ؟ ! وايش يكون ؟ ! ودا يستحمل ايه منا ؟ ! وايمان النبى لولا الملامة لرميناه فى البحر .. دا احنا نودر الحكومة اللى فى مصر .. مش تقول لى عمدة ؟ !

وضحك محمد ابو سويلم قائلا :

ـ يه .. يا واد يا واد ..

ووضع الشيخ حسونة امامه قطعة البطيخ ، ومسح يديه وهو يقول فى اناة : ان كل ما حدث كان تجربة يمكن أن تعلم الجميع أشياء .. ومحمد ابو سويلم لا يجب أن يهتم بشىء فهو رجل عاش فى الطين والثلج اياما طويلة عندما كان يحارب فى الشام لسبب لايعرفه ، وترك هناك اصدقاء ، ماتوا قبل الأوان دون أن يعرفوا لماذا يموتون .. وبعد هذا كله عاد من الحرب يحاول أن يبنى له مستقبلا فى القرية مع زوجته وبنته الباقية من اولاده الثلاثة ، ولم يمت لأنه عاد فوجد ولدين من أولاده قد ارعشتهما الحمى اياما قليلة ، ونزفا مع البول دماء وصديدا ثم .. ماتا .. واحدا بعد الآخر ..

ولم يمت فى الأيام الطويلة التى عاشها يزحف على بطنه فى الثلج والوحل تحت الغازات السامة ، وبين الرصاص ..

ولكنه منذ عاد الى القرية بنى بالفعل حياته الجديدة وخلف بنتا جديدة هى وصيفة ، وجعل من الوحل والموت نفسه تجربة يفيد منها ..

ورجل كهذا لا يمكن ان يضيق بشيء مهما يكن .. فالحرب والمصائب فى الشام علمته كيف يكره ويقاوم الذين ارسلوه الى هذه الحرب ، ولقد احسن مقاومتهم فى ثورة سنة ١٩١٩ .

والتعذيب فى السجن علمه كيف يبصق فى وجه المأمور ..

وعلمه كل هذا كيف يهتف بحياة مصر فى وجه وزراء حزب الشعب.

وسخنت دماء محمد أبو سويلم وهو يسمع هذا الكلام ، وامتلأ بالزهو ، والشعور بالمقدرة .. واحس ان الشيخ حسونة يوقظ فىنفسه اشياء كانت توشك ان تموت ، وشعر بأن ذكريات ما صنع فى الأيام الماضية تدفعه الى السيطرة على أيامه المقبلة ، واستمر الشيخ حسونة يقول :

ــ يعنى هما رايحين يحرمونا من الهوا ؟ ! يا عم ! حايحرمونا يعنى من اوكسيجين الهواء ؟ خليها على الله ! !

وسكت الشيخ حسونة قليلا ونظراته تمتد الى الحقول الشاسعة الخضراء .. وسرت الرياح الفاترة بوشوشتها بين اعواد الذرة ، وحمرة الأصيل تسكب الوانها الشاحبة .

واطرقت كل الرءوس ، والنفوس تفيض بعديد من المشاعر المختلطة .

وفجاة قال الشيخ حسونة :

ــ شايفين الدرة دهبان ازاى ؟ أهم الانجليز .. الانجليز بيرموا الدرة للخنازير فى بلادهم والفلاحين مش لاقيين الدرة هنا .. وفى الامريكتين .

وانتصب دياب مسروعا :

ــ للخنازير .. الحلاليف هناك بياكلوا الدرة .. على كده بقى البنى آدمين بياكلوا قمح فى قمح ..

ونظر الشيخ حسونة الى محمد افندى ليقول قبل أن يستطرد :

ــ يعنى لو انت بتقرا جرايد كان على الاقل دياب اخوك يعرف الحاجات دى ..

ثم استطرد يكمل حديثه الاول :

ــ وفى الامريكتين ، بيحرقوا القطن وبيرموا البن فى البحر بالقناطير وبيتلفوا قمح يكفى للقطر المصرى كله ..

فقاطعه دياب :

ــ دا على كده لو ماحرقوش القمح كنا ناكل عيش قمح فى قمح بدل العيش الدكر اللى هارى كبدنا ده ! ! يا نهار ازرق ! وكمان بيحرقوا القطن الهى ينحرقوا ! والبن راخر بيرموه البحر ليه ؟! طب يبعتوا لنا قنطارين بن .. خلى الشيخ يوسف يبحبح له حبتين .. خالينا نشرب القهوة من غير مناكفة ..

وضحك محمد ابو سويلم .. واخذ ينظر الى الشيخ حسونة باعجاب ، ولم يجرؤ محمد افندى على التفكير فيما يقول خاله ، ولم يستطع ان يسأله لماذا يحرقون القمح والقطن فى الدنيا الجديدة ، بينما لا يجد الناس فى مصر قروشا يشترون بها الملابس ، والفلاحون تتمزق أمعاؤهم من خبز الذرة الجاف ..

لم يستطع محمد افندى ان يوجه كلاما الى خاله خوفا من هجوم خاله الذى لا يرحم ! ولكن محمد ابو سويلم تساءل لماذا يحرقون القطن .. لماذا لا ينسجونه ، ويبيعونه قماشا بقروش قليلة .. ولماذا لايبيعون القمح للبلاد التى تأكل الذرة .. أو التى لاتجد ما تأكله ؟!

وهز الشيخ حسونة راسه ، وفكر قليلا قبل ان يقول :

ــ لو عملوا كده مايكسبوش زى ماهم عاوزين .. فيه واحد كتب مقالة فى جريدة صغيرة وكان بيقول فى المقالة ان لو العالم ماطمعشى فى بعضه .. وكل واحد اشتغل والدول تبادلت مع بعضها ، ده يدى قمح وياخد قطن ، وده يبيع قماش ويشترى ذرة ، ماكانش حد جاع ، ولا يبقى فيه أزمة ولا انجليز .. وكاتب المقالة ده بقى نزل نزلة جامدة على الانجليز وصدقى وبرادع الانجليز ، قامت الحكومة قافلة الجريدة وحابساه بتهمة العيب فى الذات الملكية ، ومحاولة اغتيال صدقى وقلب نظام الحكم كمان ! شفت بقى ؟ !

وتنهد الشيخ حسونة ، وهو يسترجع ماقراه .. ولكنه فى الحق لم يكن قد فهم كل ما فى المقال الذى يشير اليه ..

وسكت .. وخيم على الجميع صمت ، وهم شاردون فى معنى نظام الحكم وفى اشياء اخرى كثيرة اثارها كلام الشيخ حسونة !

ومالت الشمس نحو المغيب ، وبدأ الشيخ حسونة يتحرك ، والاحساس بالراحة يغمره منذ راى صديقه محمد أبو سويلم يضحك ، ويتحدث ببساطة ، ويسأل عما فى الدنيا .. والدنيا الجديدة ..

واقبل غلام من القرية يجرى ، فسلم على الشيخ حسونة وقبل يده قائلا : ان الشيخ يوسف يريد منه أن يعود الى القرية فى الحال .

فقال محمد ابو سويلم بقلق وانفعال :

ــ دهدى ! ! خبر ايه كمان ؟ ..

واجابه الغلام بذعر :

ــ انا ماعرفش ايها حاجة .. لـكن يابا محمد الحكومة جت فى دوار العمدة .. وحيباتوا الليلة ويقوموا من فجر الله القوى علشـــان يدقوا الحديد بتاع الزراعية الجديدة !

كان واضحا ان الشيخ يوسف قد انزعج ، فارسل غلاما يستدعى محمد ابو سويلم والشيخ حسونة ، منذ عرف ان رجال المساحة قـد اقبلوا الى دوار العمدة ، لتحديد مساحة الارض التى ستنزع ملـكيتها من زمام القرية لشق السكة الزراعية .

وصاح محمد ابو سويلم :

ــ يانهار اغبر يا اولاد ؟! تانى ؟! ايوه ياسيدى ، ماهم ماشيين فى الزراعية زى المحرات فى الارض الطرية !! ايوه يا ســـيدى .. الزراعية مشيت خلاص وحصلت بلدنا .. الدور على بلدنا .. كلها يومين ويبططوا الارض .

وغاص لون الشيخ حسونة وجف حلقه وقال ان القرية قد جربت كل شىء على اية حال .. ويجب ان تفيدها التجربة ..

لقد آن لها ان تستفيد من التجربة ..

ونهض الجميع ، وفى صدورهم تتزايل أشياء ..

كان نبضهم يخفق بشدة وهم يقولون بأصوات رهيبـــة مختلطة : ان الأمور دخلت فى الجد ! !

١٧

حاول محمد افندى ان يقول شـيئا ، ولـكن الشيخ حسونة قال باقتضاب وصرامة :

ــ امشوا بنا ..

وانفلت من على الـكوم ومضى مسرعا فى الطريق الى القرية ، ومن ورائه محمد افندى ودياب .

ولحق بهم محمد ابو سويلم يسحب جاموسته ، وصــــدره يعلو ويهبـــط ..

كانت الأشعة الباهتة الهزيلة تختفى فى ظلال المساء ، والنهار يموت بين ايديهم ..

وتأخر دياب قليلا ينتظر محمد ابو سويلم ، ثم زعق فجاة :

ــ يدقوا حديد الزراعية ؟ ! بقى جايين يدقوا حديد الزراعيـــة ؟ ! هيه الحكاية خلاص ؟ ياخدوا منا الارض علشان يعملوا زراعية للباشا ! سلامات يا باشا ! ! وايمان النبى يا شيخ لارميهم لك فى الترعــة ، وحياة النبى لازرعهم زرع بصل .. ياخدوا منا الأرض ازاى ؟

وكان صوت دياب كلما ارتفع امتلأ بالحرارة ..

ونظر اليه محمد افندى متعجبا لجراته أمام خاله .. ولـكن خاله لم يقل شيئا ..

وتقدم محمد ابو سويلم يسحب جاموسته ويضربها بكفه قائلا فى حنق :

ــ حى .. حى ياللى تنديبى انت رخره ..

وتحركت الجاموسة من خلفه ، فصاح :

ــ ياخدوا منا الأرض ازاى بقى ياحضرة الناظر ؟ ! ياخدوها ازاى ياواد يادياب ؟ ! هيه لعبه ياوله ؟ ! ياخدوها عشان سراية الباشا ؟ ! شى الله يا باشا ! !

فقال الشيخحسونة بهدوء يخفى الغليان والالم والاضطرام والاثارة :

ــ يا سيدى .. ايش على بالهم يا محمد يا اخويا ؟ ! همـــا كانوا شافوا من البلد ايه يسكتهم يا ابو سويلم ؟ ! لازم البلد توريهم العــين الحمرا ..

فانفجر محمد ابو سويلم :

ــ شافوا من البلد ايه ؟ دا كله ولسه ماشافوش ؟ ؟..

ثم استطرد متوعدا :

ــ طب ياما حايشوفوا ..

وشرد لحظة ثم اكمل :

ــ طب لما اقول لك .. اركب من الفجر وروح عالمركز فهمهم انهم مش اشطر من الانجليز .. مش اقوى من الانجليز .. قول لهم كده .. لا هم اكتر من الانجليز اللى احنا بهدلناهم ، ولا احنا اقل من ابهاتنا اللى بهدلوهم ايام عرابى ، واحنا هو احنا بتوع سنة ١٩ ! ! .. هه .. انا هنا زى الجدار .. فهمهم كده .. ياخدوا منا الأرض ؟ ! ! مايمكنش ابدا .. والله ماهم فاحتين الا على رقابنا ، جاهم حش رقابهم !! ياخى. كانوا يفلحوا معانا فى الانتخابات .. ماجابوا لنا الهجانة .. عملوا ايه ؟ ياجدع قول لهم دا الانجليز جم هنا حرقناهم بالحيا .. يا نهار اغبر على دول حكام وعلى دى حكومة !..

ولم يجب الشيخ حسونة ..

وسكت محمد ابو سويلم هو الآخر ، واخذت صور الأيام الرائعة الماضية تطوف بكل خاطره ..

حدث هذا أيام ثورة سنة ١٩١٩ .. كانت مواكب الرجال تنطلق ، والقرية كلها تهتف : « يحيا العدل » والفلاحون يرددون :

« يا انجليزى يا حرامى أصولى »

« خدت شعيرى وقمحى وفولى »

وكان الشيخ حسونة يرفع يديه ويلوح بأصبعه وهو يقول :

« وبالاستقلال ابشر »

فيردد رجال القرية :

« رغم انف الانجليز »

وكان الصغار والفتيات يتصايحون على انغام راقصة :

« الله حى ، سعد جاى .. نخ ياعدلى ، اركب ياسعد »

وكان الأمهات يناغين الأطفال بأغنية تقول :

« فاطمة مراتى .. قاعدة تدادى .. يحيا الأوطان »

كان كل شىء فى الحقول ، وتحت البيوت الداكنة ، وعلى الطرقات



فانفجر محمد ابو سويلم :

ــ شافوا من البلد ايه ؟ دا كله ولسه ماشافوش ؟ ؟..

ثم استطرد متوعدا :

ــ طب ياما حايشوفوا ..

وشرد لحظة ثم اكمل :

ــ طب لما اقول لك .. اركب من الفجر وروح عالمركز فهمهم انهم مش اشطر من الانجليز .. مش اقوى من الانجليز .. قول لهم كده .. لا هم اكتر من الانجليز اللى احنا بهدلناهم ، ولا احنا اقل من ابهاتنا اللى بهدلوهم ايام عرابى ، واحنا هو احنا بتوع سنة ١٩ ! ! .. هه .. انا هنا زى الجدار .. فهمهم كده .. ياخدوا منا الارض ؟ ! ! مايمكنش ابدا .. والله ماهم فاحتين الا على رقابنا ، جاهم حش رقابهم !! ياخى. كانوا يفلحوا معانا فى الانتخابات .. ماجابوا لنا الهجانة .. عملوا ايه ؟ ياجدع قول لهم دا الانجليز جم هنا حرقناهم بالحيا .. يا نهار اغبر على دول حكام وعلى دى حكومة !..

ولم يجب الشيخ حسونة ..

وسكت محمد أبو سويلم هو الآخر ، واخذت صور الأيام الرائعة الماضية تطوف بكل خاطره ..

حدث هذا أيام ثورة سنة ١٩١٩ .. كانت مواكب الرجال تنطلق ، والقرية كلها تهتف : « يحيا العدل » والفلاحون يرددون :

« يا انجليزى يا حرامى أصـولى »

« خدت شـعيرى وقمحى وفولى »

وكان الشيخ حسونة يرفع يديه ويلوح بأصبعه وهو يقول :

« وبالاســتقلال ابشـــر »

فيردد رجال القرية :

« رغــم انف الانجـــليز »

وكان الصغار والفتيات يتصايحون على انغام راقصة :

« الله حى ، سعد جاى .. نخ ياعدلى ، اركب ياسعد »

وكان الامهات يناغين الأطفال بأغنية تقول :

« فاطمة مراتى .. قاعدة تدادى .. يحيا الأوطان »

كان كل شيء فى الحقول ، وتحت البيوت الداكنة ، وعلى الطرقات



الملينة بالتراب والوحل والذباب .. كان كل شيء يهتز وينبض ويعلن ارادة حياة جديدة فى وجه اعداء الحياة .

وذات اصيل شاحب من اول الصيف ، كان له مثل شحوب هذا الأصيل ، هبط على القرية عشرون جنديا من الانجليز تحملهم البغال ، وتغمر رءوسهم وجباههم الطاسات النحاسية ، وتبرز من جنوبهم فوهات البنادق والمسدسات والمدافع الرشاشة ..

وعسكروا عند اول جرن وجدوه قريبا من جسر النهر .. واخذوا يقتلعون أعواد القمح اليابسة من الحقول ، ويقدمونها للبغال ..

وفهمت القرية ان الانجليز سيفسدون كل حقول القمح فى حوض الجسر ..

ولو انهم تركوا حتى يدخلوا القرية فىالصباح فسينتزعون منبيوتها الخبز والفضائل والرجال ، والطعام . والدجاج وحلىالنساء ، والشرف كما صنعوا فى كل قرية ظللتها لعنتهم من قبل ..

وسهر الشيخ الشناوى فى المسجد مع الشيخ حسونة والشيخ يوسف ومحمد ابو سويلم .. وسهر معهم رجال آخرون ، وارسل اليهم العمدة يقول انه معهم ولكنه لايستطيع ان يظهر بالتأييد .. وفى الحق انه كان فى تلك الأيام يقف مع القرية دائما ، ويغضى عن اوامر الحكومة بمهارة ومكر حتى لا يؤاخذ ..

وفى الساعات الحالكة من الليل قبل الفجر ، قام محمد ابو سويلم ومعه بعض الرجال والفتيان وغابوا قليلا فى الدور ثم خرجوا كلهم الى حوض الجسر ..

كان كل واحد منهم يحمل قطة او كلبا صغيرا ، عقد فى ذيله شريط قماش مبلل بالبترول ..

وزحفوا على البطون .. والقطط والكلاب تخمش بلا رحمة ، وايدى الرجال علىافواه الحيوانات الصغيرة ، كيلا ينطلقنباح او مواء او صوت.

وظلوا يزحفون فى صبر حتى اصبحوا امام الحقول المحيطة بالجرن الذى يعسكر فيه الانجليز .

واوقد كل واحد منهم عود كبريت فى الشريط المربوط بذيول الحيوانات ، ثم قذفوا بها الى حقول الحنطه ، فانطلقت تجرى بجنون ، وتشعل اللهب فى الأعواد اليابسة حول الجرن الذى يقيم فيه عسكر الانجليز ..

وفى لحظة ، اصبح المعسكر كأنما هو عقربكبير حاصرته دائرة كبيرة من لهب ودخان ..

ولم يكد يقبل الصباح حتى كان الجرن هشيما يختلط ببقايا عظام محترقة ..

مازال محمد ابو سويلم يذكر تلك الأيام ، ومازالت فى الأصابع آثار عضة كلب او قطة .. ومحمد ابو سويلم يذكر ان الشيخ حسونة هو الذى ابتكر هذه الفكرة لمقاومة الانجليز .. وفى تلك الليلة لم يحاول الشيخ الشناوى ان يتحدث عن نجاسة الكلاب ..

ومنذ ذلك اليوم لم يحاول الانجليز ان يرسلوا الى القرية رجالا آخرين ! !

وان اهل القرية ليذكرون ان سعدا واصحابه عادوا من المنفى بعد هذه الحادثة بأيام ، وان الذين حكم عليهم بالاعدام والسجن فى مصر ، افرج عنهم بعد عودة سعد ، وانطلقوا مع الحياة ، فى الحياة من جديد !

والشيخ حسونة يسترجع هذه الذكريات كلها ، وهو يمضى فى الطريق الغائم الى القرية فتشرق فى نفسه ثقة بالمستقبل .

كان الانجليز فى تلك الأيام اكثر قوة واعظم بطشا .. أما الآن فما عساهم يصنعون بالقرية هم وحكومة حزب الشعب ؟

وتمهل الشيخ حسونة فى مشيه ليقول لمحمد ابو سويلم :

ــ ايوه يامحمد ياخويا كان غيرهم اشطر .. غيرشى الزهق بيخلى الواحد ينسى اللى فات ..

فقال محمد ابو سويلم بصوته الذى عادت اليه طلاقته :

ــ باقول لك مافيش فايدة من الكلام اللى بيعملوه دا كله .. سعد باشا قبل ما يموت قال لهم سيبكوا من الكلام ده .. قال لهم ما فيش فايده .. والله ياشيخ طول ما احنا واقفين لهم كدهه بربطة المعلم .. لا حكومة ولا عمدة ولا باشا ولا انجليز ، ولا ايها واحد يقدر يطول منا مطال ..

وتحمس دياب وتدخل فى الحديث :

ــ ايوه يابا محمد معلوم .. احنا زى الجدار ..

وهز الشيخ حسونة راسه فى رضا ..

وتتابعت خطوات الرجال فى صمت قطعته همهمة محمد ابوسويلم :

ــ ايوه يا دياب بس الزمن كاسر .. ايه ..

وتنهد محمد ابو سويلم ، وكأنما عاد اليه احساسه بالهزيمة وهو يشيع بنظراته آخر اشعاع من النهار .

وتمتم بصوت حزين :

دا انا جمـل صلب ، لـكن علتى الجمال
لوى خزامى وشـــيلنى تقيل الاحمـــال
آه يا ولدى .. آه ولا تنى أقول آه ..

ونظر الشيخ حسونة اليه فى عتاب ، والابتسامة تتسلل الى غضون وجهه قائلا :

ــ ودا لزومه ايه يعنى يا محمد ؟! لزومه ايه بقى ؟ .

وتدخل دياب قائلا بثقة :

ــ سلامتك من الآه يابا محمد .. دا انت سبع .. احنا الســـبوعة ومين يعانينا ؟ .. هه ؟! .

ثم توقف قائلا انه عائد الى الزريبة ليبيت مع البهائم .

وعاد دياب الى الحقل ، بينما تابع الشيخ حسونة سيره ، ومن ورائه محمد افندى ، ومحمد أبو سويلم يجر الجاموسة .

وكانوا قد بلغوا مدخل القرية .. فرأوا الشيخ الشناوى مقبلا ، وهو يدعك لحيته القصيرة البيضاء ، وحبات مسبحته ترتطم ببعضها مرسلة الرنين المعهود الذى ينبه بيوت القرية الى مقدمه ..

وكان الشيخ الشناوى يهز راسه ، ويقلب يده فى عجب .. وكان يسرع فى خطوه الى الجامع ليؤذن المغرب .

وناداه محمد ابو سويلم ، فاستدار الشيخ الشناوى الى طريق حوض الترعة .. ووقف مكانه ، وهو يكتم ضحكة ، ويصيح :

ــ عملها الواد بن اسمها ايه .. عملها الواد شعبان .. بالبلغة .. شوفوا ابن الحرام ؟ ضربهم بالبلغة ..

وتاهت كلماته فى ضحكاته المتكسرة ، فسأله الشيخ حســـونة عن الخبر والسيرة وعن رجال المساحة ..

فقال الشيخ الشناوى وهو ما زال واقفا فى مكانه يضحك :

ــ الواد شعبان موتنا من كتر الدحك .. اما حتة دور .. ما بتوع المساحة خدوا ركايبهم وطلعوا عالجسر راجعين المركز ، والواد بيجرى وراهم بالبلغة ..

فزعق محمد أبو سويلم بضيق :

ــ طول بالك يا سيدنا امال لما نفهم ايه الخبر وايه السيرة ! هو انت ماقابلتش الشيخ يوسف ؟ دا بعت لنا انهم بايتين هنا الليلة عشان يدقوا الحديد من فجر الله القوى .

واجابه الشيخ الشناوى والضحكات مابرحت تنفلت مسترسلة من بين شفتيه ، وتقطع كلماته :

ــ دهدى ! ! انت مناكف ليه ؟ ! ماقلت لك الواد شعبان المجذوب طاح فيهم بالبلغة .. باقول لك رجعوا المـركز تانى هـربانين من ضرب اللامؤاخذة .. تعال اخطف لك ركعتين تعاله !.. تعال احسن اتلوينـا على المغرب .. ياللا نلحق المغرب ..

فقال محمد أبو سويلم ببساطة وهو يشير الى جاموسته :

ــ والجاموسة ؟ تيجى رخره تخطف ركعتين ..

واغرق محمد افندى فى الضحك ، وابتسم الشيخ حســونة وطلب من الشيخ الشناوى أن يروى لهم ماحدث فالوقت لم يضع لصلاة المغرب .. غير أن الشيخ الشناوى لم يكن يستطيع أن ينتظر ، وليس غيره من يقوم بالآذان ..

ومضى الشيخ الشناوى مهرولا الى الجامع ..

ومضى الآخرون مع محمد أبو سويلم الى داره ليترك الجاموسة قبل الذهاب الى دكان الشيخ يوسف .

وامام دار محمد ابو سويلم ، وقف الثلاثة ، وخرجت وصيفة من الدار على صوت أبيها ، والقت نظرة سريعة على الشيخ حسونة ومحمد افنـــدى ..

وتنحنح محمد أفندى قليـلا وهـو يرى وصيفة تسـلم على خاله ، فتميل بقامتها الفارعة الغضة ، وتضع شفتيها المليئتين على يد خاله .. وتمنى لو تلقى دسامة شفتيها ذات يوم على يده .. أو وجهه !..

وجذب الشيخ حسونة يده بسرعة ، وربت على كتف وصيفة ونظر الى وجهها الرائق الجميل ، وتنهد قائلا :

ــ ربنا يحميكى يابنتى .. ربنا يحميكى من شر الزمان .. وربنـا يسترها وياكى ..

وقالت وصيفة لابيها بخفة :

ــ مادريتش يابا عاللى جرى فى دوار العمدة .. ماعرفتش الشيخ شعبان عمل ايه ..؟ !

فتدخل محمد افندى متظرفا وهو يصطنع الجراة :

ــ هو شعبان بقى شيخ كمان ؟ ! شعبان بقى شيخ ؟ ! دى طبلت !

وضحكت وصيفة على استحياء ، ورمت على محمد افنـدى نظرة سريعة من عينيها الواسعة الحلوة ، وهـــزت راسها بشعرها الـكثيف

المنسدل تحت الطرحة الريفية السوداء .. واخذت حبل الجاموسة من يد ابيها ، ودخلت بها الدار ، بينما كان الشيخ حسونة يفحص وجه محمد افندى ويقول بتانيب :

ـ جرى ايه ياسي محمد افندى .. احنا حانفتح محضر هنا ولا ايه ؟ ! ما تمشى ! !

واقترح محمد ابو سويلم ان يقعدوا فى المندرة ليشربوا القهوة معا ، ومن السهل احضار الشيخ يوسف ..

وتحمس محمد افندى للفكرة ، ولكن الشيخ حسونة نظر اليهم بانفعال قائلا :

ـ حاكم انت ماتصدق حته تقعد فيها وتلزق .. عاوز تلزق ..

وبهت محمد افندى لنظرة خاله ، وكلامه ..

فمشى خطوة الى الأمام فى الطريق .. وهز يده بالمنشة ..

ومضى الثلاثة الى دكان الشيخ يوسف ..

ولم يكد الشيخ يوسف يبصرهم قادمين حتى خرج من الدكان مرحبا ، ودخل باب البيت صائحا فى ترحاب :

ـ اهلا وسهلا .. نورتم .. ولعى اللمبة نمرة عشرة يابنت وهاتيها فى المندرة ..

فاستمهله الشيخ حسونة وجلس على دكة امام الدكان ، وقال محمد ابو سويلم :

ـ خلينا هنا نشم النسمة .. الشيخ حسونة آهو شبعان من المنادر فى مصر !

وضحك الجميع ..

وجلس محمد افندى ومحمد ابو سويلم الى جوار الشيخ يوسف على الدكة ..

وتنحى علوانى والفتيان الذين كانوا يقفون أمام الدكان .. وبدأ كل واحد منهم ينسحب فى تردد وخجل والراس منخفض ، بعد أن سلم على الشيخ حسونة بانحناء ، ويده تعلو وتنزل بين الصدر والجبهة .. من فرط الاحترام !..

ووقف الشيخ يوسف داخل الدكان يروى ماحدث فى دوار العمدة منذ لحظات :

فقد اقبل ثلاثة رجال من المساحة على العمدة ، فطلبوا منه أن يبادر

على الفور فيعين لهم بعض الخفراء الأشداء لحراسة الحديد الذى سيحمل الى القرية ويدق فى الحقول لتحديد الطريق الزراعى الجديد .

وعجب العمدة لهذا الطلب : لماذا يحضر من اجله ثلاثة رجال من المساحة ، وفى اشارة تليفونية غنى عن الرحلة الطويلة من المركز على ظهور الحمير ..

وسال العمدة ان كان هناك شىء آخر .. فنشر احدهم امامه خريطة كبيرة لحوض الترعة ، وفيها خطان ظاهران يحددان بينهما الطريق الزراعى الجديد .

وحاول العمدة ان يناقش الرجال ، فاغلظ احدهم له القول .. وكان العمدة يريد ان يسال مرة اخرى ان كان هناك شىء آخر جاءوا من اجله ، فهو لم يتعود بعد ان يحضر « الافندية » من المركز لينشروا امامه خريطة !

ولم يرتح الرجال لهذه اللهجة ، فطلبوا من العمدة أن يسمع الكلام وينفذ التعليمات فى صمت ..

وحين بداوا يستعدون للانصراف ، الح عليهم العمدة ان ينتظروا القهوة ، ولكنهم صمموا على الانصراف بلهجة تحمل نوعا من الاحتقار للعمدة ..

وتضايق العمدة ، ولكنه ظل يتكلم بلا انفعال .. واستاذن لحظة وهمس فى أذن أحد الخفراء بكلام . وانهى كلامه بتانيب الخفير بصوت مرتفع لأن القهوة تأخرت ، على أسياد البلد ـ رجال المساحة ! ..

وحين عاد العمدة ، قام رجال المساحة واستاذنوا فى ضيق ، غير ان العمدة ظل يلح ويستمهلهم حتى يشربوا القهوة .. واخيرا .. جلسوا على مضض ، بينما اخذ العمدة ينظر فى الخريطة ، ويسال ليعطلهم عن الانصراف .

واقبل شعبان فالقى السلام ، ولم يرد عليه غير العمدة ..

وارتاح العمدة لمقدم شعبان ، وغمز له بطرف عينه

ووجد شعبان الخريطة مفتوحة ، وسمعهم يتحدثون عن الطريق الزراعى فسأل عن الأرض التى ستنتزع ليمر بها الطريق .. وصاح العمدة فى شعبان بغضب مصطنع :

ـ اطلع من هنا يا شيخ يا مجذوب ..

ثم غمز بعينه ..

فتقدم شعبان ، ومد نظره ، ويده الى الخريطة ووجم لحظة ، ثم اطلق شهقة مفاجئة :

ـ يا حى يا قيوم ! .. حى !! .

ونظر اليه الرجال بتقزز .. وتعجلوا القهوة ، لينصرفوا .

ولكنه ، اقترب منهم حتى اوشك ان يلتصق بهم ، وسأل ان كانوا سيهدمون « مقام سيدى رمضان » القائم على راس المقابر فى حوض الترعة ! .

ولم يجبه احد ..

فاخذ ينظر الى الخريطة امام العمدة .. وسأله اين يقع ضريح سيدى رمضان بين هذه الخطوط المرسومة على الورق .

ونهره العمدة ، وهو يغمز اليه بعينه خفية ..

وابتعد شعبان قليلا ، ووقف يهدر بقسم غليظ انه سيضرب بالبلغة كل من حاول هدم مقام « سيدى رمضان » ..

ثم انتفض كأنه فى حلقة ذكر ، وصاح ان عليه « العهد » لسيدى رمضان .. وأكمل :

ـ اعمل ايه فى الأهد !؟ شيأ لله يا سيدى رمضان !! الفاتحة لسيدى رمضان ولسيدى البيومى ولسيدى المتبولى ! لهم جميعا الفاتحة ..

وبدأ يقرأ الفاتحة . وقد بسط راحتيه أمام فمه ..

ولاحظ ان رجال المساحة لا يقرأون .. فلكزهم بعنف تنبيها الى قراءة الفاتحة ، وعاد يبسط راحتيه امام فمه واستمر فى قراءة الفاتحة ..

وتضايق رجال المساحة ، وطلبوا من العمدة ان يطرد هذا المجذوب ، واخذوا يلعنون « سيدى رمضان » والاسياد جميعا !

وقال لهم العمدة محذرا بحكمة مصطنعة ان شعبان رجل من اهل الطريق ، ولا احد يعرف له بلدا !.. ونصح العمدة الرجال بتجنبه لأنه مبارك الدعوات .. وهو ـ على ذلك ـ مجذوب ، وليس على المجذوب حرج ! .

وغمز العمدة بعينه خفية مرة اخرى لشعبان وصاح فيه :

ـ اطلع من هنا يا راجل يا مجذوب .. شوف لك بلد غيردى من بلاد الله .. امشى كده وانت عامل زى غراب البين .. انت حاتزعل الافندية من بلدنا ! .

ولكن شعبان احتك بأحد رجال المساحة ، وطلب منه أن يستغفر ،

لانه شتم سيدى رمضان ، والا نزلت عليه كرامة من سيدى رمضان ، فانشل فى مكانه !..

ثم امسك بيده كتف الرجل الآخر واخذ ينهره بعنف ، ويستعطفه الا يمس مقام سيدى رمضان .. والا يسمح لاحد ان يهد « المقام المبارك » ! .

وصاح فيه الرجل ودفعه فى صدره :

ـ غور بقى يا اخى !.. ياك ينهد المقام على دماغك ! .. قطيعة تقطعك انت وسيدك رمضان .. غور كده حاتقطع البدلة اللى جايبينها بالتيلة . يعنى شايفنا مبسوطين قوى من الشغلة دى ، جاى تقرفنا كمان ..

وفجأة انحنى شعبان على الارض ، وهو يصرخ فى تشنج :

ـ اه .. انت بتخوض فى سيدى رمضان ؟! بركاتك يا سيدى رمضان .. كلهم بيشتموك يا سيدى رمضان ! ..

ثم نزع البلغة من قدمه ، وهوى بها على راس الموظف .. وهو يقول متطوحا على نغمة الذكر كأنه فى حلقة :

« يا من يرى ولا يرى .. أعطى البعوض جناحها ! » .

وروع الموظف من المباغته العجيبة المهينة ودارت راسه من شدة الضربة ، وشعبان يهوى على راسه بالبلغة الجامدة المؤلمة .

ووقف زميله يصيح :

ـ حوش يا عمدة حوش .. انت المسئول عن ده كله .. انت ماسك فينا تقعد عشان كده يا عمدة .. انا فاهم خبث الفلاحين .. والله لارفدك .. لابد عن رفدك يا عمدة ! انت كنت بتوشوش الخفير علشان ينادى له ! .. انا فاهم ! ..

واستدار شعبان اليه ، والبلغة فى يده ، وظل يجرى وراءه بالبلغة الجافة القوية الجلد حتى ركب حماره !.

وكان اول رجل ضربه شعبان ، يقفز الى حماره ويده على رأسه وهو يصيح :

ـ دى آخر خدمة الحكومة ؟ ! . بالبلغة .. والله لاخرب بيتك يا عمدة !!.. دا اعتداء على موظف اثناء تادية وظيفته !! يعنى اضرب بالرصاص دلوقت ..

وكان الزميل الثالث قد اختفى منذ بدأ شعبان يرفع البلغة ؛ فقد ادرك بتجربته الفخ الذى نصبه العمدة ، فركب حماره ، وجرى به الى المركز ..

وكان العمدة يخفى ضحكه واحساسه بالظفر وهو يقول فى ثورة مفتعلة :

ــ عيب يا ولد كده تهينهم فى بلدنا ! عيب كده ولو انهم هانوا العمدة كتير !! حوش يا غفير ! .. ما قلت لك يا سيدنا الافندى من الصبح دا راجل على الله ومجذوب !! اسكت بقى يا واد يا مجذوب .. اسكت كفاية كده كسفتنا مع الأفندى .. هم الافندية ينضربوا بالبلغة يا ولد .. دول عاوزين شبشب هوانمى !..

وقبل ان يبتعد الافندية بحميرهم صاح العمدة فى نفس اللهجة المفتعلة :

ــ امسكوه يا غفر .. امسكوه ودوه المركز .. أوعى يهرب منكم يا غفر ! .. حاسبوا لا يطير منكم احسن دا من اهل الخطوة ! .. ماتخافوش منه .. امسكوه امسكوه ..

غير ان احدا من الخفراء لم يكن واقفا اذ ذاك .. فقد اختفوا جميعا بقدرة قادر . .

وعندما كان الموظفون الثلاثة فى الطريق الى الجسر .. اطلق العمدة ضحكاته بحرية وهو يقول لشعبان :

ــ والله عفارم عليك ياشعبان !.. ايوه كده !.. متمنظظين كده ، وماحدش طايقهم .. هما فاكرين انى انا هفية .. خلليهم يتعلموا ازاى يكلموا العمد ! .. مش ديتها شكوى للمأمور الجديد .. يشتكوا للمأمور ..

ثم همس العمدة لشعبان :

ــ اطلع انت من البلد الليلة ..

وترك شعبان الدوار الى بلدة اخرى ، واستعد العمدة للاجابة على المأمور فيما لو سأله عمّا حدث .. سيقول للمأمور ان الرجل المجذوب ليس من القرية ، وليس له فيها ارض ولا اهل ولا أحد يعرفه ، وانما هو سائل على الطريق ، من أهل الله .. وقد حاول العمدة ان يمنعه او يقبض عليه ، ولكنه اختفى .. فهو من أصحاب الخطوة ! .

لم يكد الشيخ يوسف يروى للشيخ حسونة ومحمد ابو سويلم ومحمد أفندى ما حدث بين شعبان ورجال المساحة ، حتى استغرق الجميع فى الضحك .

وقال محمد ابو سويلم ، وهو ينظر الى داخل الدكان :

ــ اما العمدة ده عليه ملاعيب يا جدعان !! دا لو يشغل مخه

دهه على الانجليز كان يطلعهم من البر بالسياسة زى ما دخلوا بالسياسة ..

وهز الشيخ حسونة راسه ، ولم يضحك ، وقال بحذر :

ــ كلكم مبسوطين من الملعوب ده .. لكن انا مش مبسوط ! يعنى العملة اللى عملها الواد شعبان عاجباكم كلكم ، ولكن ما قولكم بقى انها مش عاجبانى ؟ ! وبكره تشوفوا كلامى .. ان عشت راح افكركم ، وان مت ابقوا قولوا الله يرحمه ، كان بيحسب حساب كل حاجة ..

وخيم على الجميع وجوم ، وحذر ، وقلق ..

وكانت كلمات الشيخ حسونة عن احتمال موته قد هزتهم الى الاعماق ، ولم يجد واحد منهم كلاما يقوله .

ونظروا فى حيرة الى الشيخ حسونة .. وكانوا يعلمون بالتجربة ان ظن الشيخ حسونة لا يخيب ابدا ، وان كل ما يحسبه يلقاه ، ولو بعد سنين !..

وخالجت حيرتهم الكآبة ، والمخاوف المبهمة ..

وبعد قليل همس الشيخ حسونة :

ــ حاجة بالعقل : بقى العمدة يضرب رجال المساحة ، ويخلى شعبان النجس هو اللى يضربهم ؟ طيب قولوا لى ايه اللى جاب شعبان فى البلد تانى ؟ .. ايه اللى يوجده فى البندر يوم زيارة الوزراء ؟ .. قولوا لى بس .. ايه اللى جابه فى الوقت ده بالذات ؟ الملعوب لسة حايتلعب يا ابو سويلم ، ولسه شعبان له شغل كتير ، ويا عالم ايه الشغل ده ؟! ... نوعه ايه ؟! ما حدش لسه يعرف ؟ دا لسه له دور ..

وتهلل وجه الشيخ يوسف ، واندفعت منه كلمات كثيرة يؤكد بها انه رجل ذكى ، يفهم الدور كله ، وانه بينه وبين نفسه قد فكر فى الأمر ، ولكنه لم يقل لأحد ، لان احدا لن يهتم بما يقول .. ولكنه يعرف ان شعبان لا يخرج عن يد العمدة ابدا ، وهو رجل ضائع استعمله العمدة قديما ليسمم بهائم اعدائه او ليحرق دورهم .. وحماه العمدة دائما ، ورسم له خطوات الهجرة من البلد كلما طاردته الشبهات ! .

وظل الشيخ يوسف يقول ان شعبان هذا غادر القرية منذ اعوام عندما توالت العرائض الى المركز تتهمه باحراق حقل قمح يملكه احد اعيان الناحية البحرية من اعداء العمدة ، ولكنه عاد بلا مناسبة عندما كان الرجال غائبين فى المركز ، وفى يوم الاحتفال باستقبال الوزراء ظهر فى المركز ، ثم عاد مرة اخرى الى القرية .

وحين عاد الى القرية كان يلبس عمامة ذات شال اخضر يسميه « شرف سيدى رمضان » واخذ يتردد على الجامع بانتظام ، وهو لم يركعها من قبل ، وظل يقول عن نفسه انه وجد الهداية ! .

وعندما انتهى الشيخ يوسف من كلامه سكت الجميع ..

واخيرا قال محمد ابو سويلم ، ان شعبان الذى لم يعرف احدا ابدا من هوه ابوه ، عاد الى القرية فى مهمة للعمدة ، ربما ليحرق دار محمد ابو سويلم نفسه ، أو ليسرق جاموسته ، أو ليضع امامها السم ! .

ثم هز محمد ابو سويلم راسه قائلا :

ـ لكن دا بعده .. لا هوه ، ولا عمدته ! .

ونظر الشيخ حسونة الى محمد ابو سويلم وقال بخطورة ، ان شعبان لم يعد من اجل شيء هكذا .. وعلى اية حال فسيظهر كل شيء بعد أيام .. ومن يعش ير !.

وساد الصمت برهة ، واخذ محمد افندى ينظر الى خاله فى اجلال .. فهذا رجل يعرف كل شيء فى الأمريكتين ، وفى مصر ، وفى القرية ..

واخيرا انصرف الجميع الى دورهم .

***

وباتت القرية فى تلك الليلة تتحدث باكبار عن شعبان ، الذى ضرب رجال الحكومة بالبلغة .

وقال بعض الرجال ان شعبان انصلح حاله وانه اصبح الآن قوة تساعد القرية فى موضوع السكة الزراعية .

وعجب آخرون من هذا التحول المفاجىء فى شعبان ..

ولكنهم وثقوا به الى آخر حد ..

وقال بعض النساء ان عبد الهادى نفسه لا يقدر على ما عمله شعبان ..

وكان شعبان من قبل رجلا يعيش فى القرية ، دون أن يعرف الحقول .. لم يحمل فى يده فأسا ، ولا احد يذكر من أين جاءت امه ، فقد تزوجها اسكافى عجوز ، كان يقيم بالبلدة ، وبعد ست شهور من الزواج مات الاسكافى ، وبعد عام من موته ولد شعبان ! ..

وغابت هى عن القرية يوما وعادت بفتاة اخرى وقالت عنها انها اختها .. وتركت لها ابنها شعبان .. وذهبت هى الى البيوت التى تحجب فيها النساء ، لتغسل ، وتقدح الفرن للخبيز .

وعندما كبر شعبان حاولت امه ان تعلمه صناعة أبيه ، وارسلته الى اسكافى فى قرية مجاورة ، ولكنه لم يفلح وتعود ان يسرق وهو سائر فى الطريق ، ان يخطف كوز ذرة أو اى شيء تطوله يده من هذا الحقل او ذاك ! .

وحين خشن صوته ضرب أمه ، وخالته .

وتزوجت خالته وتركت الدار ، فظل يضرب امه بلا سبب مفهوم ..

وقد ترك القرية ذات يوم وهو فتى فى السادسة عشر ، ووجد مركبا محملة بالقلل والبلاليص راسية على شاطىء القرية فرحل معها وغاب عن القرية ثلاثة اعوام ثم عاد ومعه الشباك والخطاطيف ، وبدا يصيد السمك ..

وتزوج فتاة من القرية ، وأنجب منها طفلة اسمها « ستهم » ولكنه هاجر وحده فجأة ، ثم عاد بعد حين يعيش فى القرية بلا عمل بعيدا عن زوجته وابنته « ستهم » .

وبعد قليل الفت القرية خروجه فى الساعات الاخيرة من الليل ليصيد الذئاب .

وذات يوم فسدت بندقية من احد الخفراء ، فاقترح عليه شعبان ان يصلحها ، واصلحها بالفعل ..

ومنذ ذلك اليوم ، والقرية تنظر اليه فى عجب ..

انه يعيش بين الحقول ومع ذلك فهو لا يعرفها ، ولا يحبها ، ولا يستطيع أن يعمل بها .. وهو لا يطيق أن يقيم فى القرية سنوات متوالية ! .

وهو بعد ، يتقن اشياء باهرة لا تتقنها القرية . .

وكانت الفتيات يتحدثن عنه برعب ، فهن يعرفن انه اذا صادف فتاة وحيدة لم يتركها تفلت منه ابدا ، ويجذبها الى مكان يختبىء فيه معها ، ويحذرها ان صرخت او امتنعت عليه أن يقتلها كما يقتل ذئبا ، او سمكة كبيرة !.

وكان شعبان طوال عهده فى القرية يغيب عنها احيانا لبضعة أيام ، ثم يعود ومعه كميات من الحشيش يبيع منها علنا للراغبين من اهل القرية .. او القرى المجاورة .

وكان يرسل الفتيات الى مصر ليشتغلن خادمات ، ولا يعدن منها ابدا ، و « زنوبة » اخت « خضرة » التى عادت الى القرية فيما بعد بلون نحاسى ، ولحم مكتنز ، وذهب على الصدر ، واحمر على الشفاه .. « زنوبة » هذه التى عادت بحذاء ذى كعب وباسم جديد هو احسان

هانم ، كانت « زنوبة » هى احدى الفتيات اللواتى ارسلهن شعبان الى المدينة .. وكانت من اهله ! .

وفى الحق ان احدا لم يكن يعرف له مهنة واضحة فهو فى النهار يصلح البنادق او يبيع الحشيش .. وهو فى الفجر يصيد السمك ؛ او يصيد الذئاب والثعالب ويسلخ جلدها ، ويبيعه فى المدينة .

فاذا اقيم فى القرية او احدى القرى المجاورة مولد او ذكر ، واقبل من بلاد بعيدة رجال صفر الوجوه ، طوال الشعر ، يتطوحون تحت البيارق .. اذا حدث هذا ، انخرط شعبان فى الموكب ، وتطوح فى حلقات الذكر ، وهز نفسه فى حركات متشبنجة ، وظل يتواثب حتى يصرخ بكلام مختلط لا معنى له ، فيقول الناس عنه انه « يضرب بالسوريانى » .. وانه وصل !.

وشعبان رجل طويل نحيل البدن ، غريب الحركة ، عصبى الاشارة ، فى السمرة من وجهه اغوار كثيرة ، كأنما حفرتها الدموع .. وهو نشيط سريع ، يشيع السواد فى اسنانه المتهشمة ، يتلوى دائما ، ويهز كل جسده اذا تكلم .. ولعينيه الضيقتين نظرات حادة وبريق اخاذ .

وهو بكل نحوله وطوله وبدنه الملولب ولونه الكالح ونظراته الخاطفة الملتهبة ، كان يذكر الفلاحين بالثعبان الأزرق .

وكان هو نفسه يصفر للثعابين فتسيل ويمسكها ببساطة وهو يضحك قائلا :

ــ مدد يا رفاعى مدد ..

والقرية تذكر ان شعبان دخل بيوتا فى القرية ليخرج منها الثعابين، فأخرج الثعابين ، ولبد هو ..

وفى هذه البيوت عاشت بنات جميلات .

ومن اجل هذا ، فقد ظلت بيوت كثيرة فى القرية لا تسمح له بالدخول ، وفضلت ان تعيش فيها الثعابين ولا يعيش فيها شعبان .

هكذا كانت سيرة شعبان فى القرية ..

ومنذ غادر القرية فى السادسة عشرة وعاد اليها بعد عامين ، ظل من بعد هذا اكثر من عشرين عاما يقيم فى القرية لبعض الوقت يصفر للثعابين والنساء ويصيد الذئاب والسمك ويصلح البنادق ، ثم يختفى فجأة ليعود وحده ، او مع سيارة من المشايخ والمجاذيب فيقيمون حلقات الذكر ، ثم يختفى من جديد ..

على انه عندما غادر القرية لاخر مرة غاب طويلا ثم عاد فجأة يلبس الشرف الاخضر ويطلق على نفسه الشيخ شعبان ، ويمسك مسبحة من خرز اسود ، ويعتكف الساعات الطوال فى المسجد .

وفى الايام الاولى حاول ان يدخل بيت محمد ابو سويلم ، ولكن وصيفة ردته عند الباب ، وطلبت منه الا يدخل ما دام ابوها ليس موجودا .. فالقى راسه الى الوراء وارخى حاجبيه ، ومد يده الى صدر وصيفة بدعوى انه يباركها وهو يقول بشهقة :

ــ الله ..

ونفرت وصيفة بعيدا عنه ، حين وجدت يديه تمتدان الى صدرها ، ودخلت الى وسط الدار ، بعد ان اغلقت الباب فى وجهه .. وتركته يجلس على المصطبة فى شمس العصر .

وحين اقبل محمد ابو سويلم بعد المغرب ، ووجده جالسا امام المصطبة ، عامله بجفاء وساله عما يريد منه .. ثم قال له فى غلظة ان القرية ــ فى عامها هذا ــ وسط المحنة ــ لن تقيم الموالد ، فهى لا تملك ان تقدم طعاما للرجال المجاذيب الذين يقبلون تحت البيارق .. وطلب منه محمد ابو سويلم بعد هذا الا يقعد على مصطبته ، وان يبعد عنه ! .

ولم يعد شعبان يفكر فى دخول دار محمد ابو سويلم ، او الجلوس على مصطبته .

ثم بدا يتردد على دكان الشيخ يوسف ، ويقف امامه مع الفتيان ، يروى لهم عما شاهد فى رحلاته ، ويضحكهم .. ويشرد قليلا ليدخل فى حديث لا ينتهى عن الزراعية الجديدة ، ويعلن سخطه ــ بلا تحفظ ــ على العمدة الذى يكيد للقرية ، ويقول كلاما جارحا عن العمدة العجوز ، وزوجته الشابة ! .

وكان الفتيان يستمعون اليه حائرين اول الامر ..

وكان الشيخ يوسف نفسه ينظر فى عجب الى هجومه السافر العنيف على العمدة ، والى لهجته التى لم يجرؤ احد على التحدث بها من قبل حتى عبد الهادى ! .

وفى الحق ان الشيخ يوسف والفتيان الذين تعودوا ان يقفوا امام باب دكانه كانوا يفكرون دائما فيما يعلنه شعبان من عدم اهتمام بالعمدة ، او المأمور او المدير ، او الحكومة نفسها .. فهم جميعا تحت مداسه ! وكان شعبان يقول هذا دائما بأعلى صوت .

على ان شعبان قد وضع حدا لحيرة الفتيان فيه .. وبدا الناس فى القرية ينظرون اليه كبطل صنع شيئا خارقا ، لا يصنعه احد غيره ..

وظلت القرية اياما تمجد شعبان وهى تتحدث عن هجومه بالبلغة ..

وخلال هذه الأيام كان الشيخ حسونة قد ذهب الى المركز مرتين وعاد وهو مغموم .. فقد كلم بعض اصدقائه فى المركز ، وجلس فى الاجزاخانة هناك مع صاحب الاجزاخانة ، وتحدث الى صديقه القديم القاضى الشرعى ، وقابل المحامى الشاب الذى كان نائبا عن دائرتهم قبل ان يحكم حزب الشعب .. والتقى ببعض اهل القرى المجاورة الذين يعملون فى المدينة كتبة فى المديرية او المساحة او النيابة او المدرسة الاميرية .. وعرف منهم ان الزراعية ستشق بعد ايام ، ولا فائدة من اى كلام ما دام حزب الشعب هو صاحب الحكومة ! .

وتاكد الشيخ حسونة من أن الزراعية تتلوى كالثعبان لتتفادى أرض الملاك الكبار ، او المقربين من حزب الشعب .

وعرف ايضا ان اهل القرى المجاورة أرسلوا الوفود ومئات البرقيات والعرائض الى الحكومة والصحف المعارضة .. ولكن الحكومة مصممة على شق السكة الزراعية مهما يكن من اعتراض .

وخلال الأيام التى تحدثت فيها القرية باعجاب عن شعبان ، كانت ايام الرى الجديدة قد بدات ، وخرج عبد الهادى الى الساقية يديرها فى اول ايام الرى ، فلحق به شعبان يقول له ان دياب واولاد الناحية الشرقية كانوا يريدون ضربه ، وانهم على اية حال متربصون له ليقتلوه ان ادار الساقية الى ما بعد المغرب ..

وخلال هذه الأيام نفسها ذهب علوانى فرحا الى الشيخ يوسف وهمس فى اذنه ان شعبان اتفق معه على قتل العمدة قبل أن تشق السكة الزراعية .. واضاف علوانى هامسا ان المامورية سهلة ، ولا تحتاج الى اكثر من خمسة عشر جنيها ياخذ منها شعبان عشرة ، وان على الشيخ يوسف ان يشترك مع عبد الهادى ومحمد ابو سويلم ومحمد أفندى فى دفع الجنيهات الخمسة عشر .. اتعاب قتل العمدة .. وسيقوم الشيخ شعبان بترتيب كل شىء ..

وحين سمع الشيخ يوسف هذا ، جزع . وملأه خوف لا يعرف من اين انبثق ، وزعق فى علوانى انه لا يريد أن يسمع منه كلاما عن الشيخ شعبان هذا او الشيخ قرد ! .

ووقف علوانى امامه مذهولا ، فانقض عليه الشيخ يوسف يهزه من كتفيه ، ويساله بالحاح وتأنيب عن كل ما يدور فى الخفاء بينه وبين شعبان ..

واعترف علوانى للشيخ يوسف انه روى لشعبان كيف سرق مخازن العمدة .. واذ ذاك صرخ الشيخ يوسف :

ـ طيب غور من هنا يا عرباوى يا اهبل .. غور .. اوعى اشوف خلقتك .. جاتكو شوطة ما اخيبكم ! . غور ما تقفشى قدامى كده زى العمل الردى ! .

وانصرف علوانى فى ندم وهو يتمتم :

ـ والله يا شيخ يوسف انا برضه زى ما تقول كده قلبى مقبوض من الواد الشيخ شعبان ده !.

فازداد الشيخ يوسف حنقا وظل يصرخ :

ـ شيخ ايه وهباب ايه .. شخشخت عضامك من بدرى ! غور باقول لك ..

ولم يكد علوانى يبتعد عن دكان الشيخ يوسف ويغيب ساعة حتى امسك به بعض الخفراء ، وذهبوا به الى المركز .. التحقيق معه فى مقتل خضرة ..

وعجب الشيخ يوسف عندما سمع هذا الكلام .. فلم يكن يتوقع ان تصح مخاوفه بهذه السرعة ، وسأل نفسه لماذا تثار قضية خضرة فى هذه الأيام ، ولماذا يقبض على علوانى الآن ، لماذا يتهم علوانى بقتل خضرة .

لماذا يقتلها علوانى ؟ .

ولكن هل قتلت خضرة حقا ؟؟ ..

ووثبت الى ذهن الشيخ يوسف .. صورة شعبان ، وتذكر ملاعيب العمدة .. فامتلأ بالحنق والغليان ..

وتخايلت أمامه صورة لعلوانى فى الحديد وتخيله وهو يضرب بالكرباج ، ويصب فى فمه بول الخيل ، ويلقى على الأرض ليدوسه العساكر بالأحذية الغليظة ، ثم يحمل آخر الأمر الى المشنقة فيصرخ لحظة بأنه برىء ، ولكن الحبل يلف حول عنقه ، فيهوى بلا حراك ، وقد انطفأت منه الابتسامة ، وغاض فيه كل شىء : الذكريات والأمل والحياة ..

وفاضت نفسه اشفاقا على الولد العربى المسكين الذى لا اهل له فى القرية ولا سكن ، ولا احد على الاطلاق يبكى عليه ان راح او جاء ..

ودعك الشيخ يوسف وجهه بيديه .. وتنهد .

واحس بالفراغ من حوله فجأة .. واسند وجهه بين راحتيه .

وعجب لنفسه : انه لم يكن يعرف أن علوانى عزيز عليه الى هذا الحد ..

وعندما رفع الشيخ يوسف راسه من بين يديه كانت الدموع تملأ الغضون من وجهه النحيل !..

١٨

لم ينس العمدة للقرية ان نساءها رمينه بروث البهائم ليفرج عن الرجال المحبوسين في سجن المركز ..

وعاد الرجال منذ حين ، يستقبلون الحياة المريرة والمعركة من جديد .

ومن الحق ان العمدة استطاع ان يجيد رسم خطة الانتقام ، فاصطنع لنفسه مشعوذا نبذته الأرض فغاب سنوات ، ثم عاد يحمل الشرف الأخضر ، وكراهية الأرض التى خاب عليها ، عاد يهذى بالأوراد والمدائح النبوية .

واتفق شعبان مع العمدة على ان يتخذ من المواقف ما يجعله بطلا يكسب الثقة التى لم يكسبها من قبل ابدا .

وبالفعل ضرب بعض رجال الحكومة فى دوار العمدة ، وجرى وراءهم بالبلغة ..

وباسم هذه البطولة ـ الخارقة ـ استطاع ان يتحدث الى الناس فى القرية فيصدقوه ، ويؤمنوا به .

وبدا يختلق كلاما لا اصل له .. ليوقع الخلاف بين الذين يعانون من نفس المأساة ويحاربون نفس العدو .. وليتعرف على اتجاهات الناس ضد العمدة ، وعلى كل الأسرار ..

وعرف شعبان ان علوانى الفتى العربى هو الذى سرق القمح والذرة من مخازن العمدة ..

وفجاة قبض على علوانى بتهمة قتل خضرة ..

وفجاة بدأ الأصدقاء يختلفون ، ويتباعدون ..

الأصدقاء الذين عاشوا معا اجمل سنوات العمر .. وتعذبوا معا ، ومازالوا يناضلون كتفا الى كتف دفاعا عن الأرض ..

وعندما قبض على علوانى اخذت القرية كلها تتساءل فى عجب لماذا يقتل فتى كعلوانى فتاة كخضرة ؟

وقالت وصيفة انها عرفت خضرة جيدا ، وقد حدثتها خضرة عن كل شيء .. ولا يمكن ان يكون علوانى هو الذى قتلها .. لايمكن !

لايمكن ان يكون هو علوانى او اى رجل غيره فى البلد ..

ونظرت ام وصيفة الى الأوز يتدحرج وسط الدار ، ورفعت عصا من القش هشت بها على الاوز ، وظلت تسوقه بحذر حتى دخل كله حظيرة الماشية الا اوزة واحدة .. فانقضت عليها وامسكتها ، وطلبت من وصيفة ان تحضر لها سكينا تذبح به الأوزة قبل ان يجيء العصر ، ويروح وقت الطبيخ .. فالشيخ حسونة هو ضيفهم على العشاء الليلة !

وتلكأت وصيفة وهى تبحث عن السكين الى جوار الزريبة فى مدخل الدار ، وعادت تقول لأمها ان علوانى لايمكن ان يقتل خضرة .. واذ ذاك انفجرت امها تأمرها الا تتحدث مرة اخرى عن علوانى او غيره من الرجال .

واضطربت وصيفة قليلا امام صراخ امها المفاجيء . ولكنها استعادت نفسها بسرعة ، واستدارت اليها تسألها فى غاظة ، لماذا تصرخ هكذا فى وجوه الناس !

وهمهمت الأم بصوت كسير :

ـ اللى ينقطع شعبان ابن ستهم شايع فى البلد كلها انك بقيتى زى خضرة .. لايفه على علوانى شوط ، وشوط على محمد افندى ، ولايفه على عبد الهادى ودياب كمان ..

وشهقت وصيفة وضربت صدرها بعنف ، وغاض لونها ، واجهشت بالبكاء وهى تقول :

ـ الشيخ شعبان ؟.. الشيخ شعبان هو اللى قال كده .. جاه قطع لسانه ! ان شاء الله ينصاب بريح النقطة !.. ياحوستى .. آه يا نارى لو اشوفه قدامى دلوقت ..

وانفلتت الى باب الدار ، فصرخت فيها امها تأمرها ان تعود ، وتخرس ..

وسكتت الأم قليلا ، ثم قالت فى اذعان والأوزة تزعق فى يدها :

ـ اكفى عالخبر ماجور بقى .. لنا رب ..

ثم كشفت راسها ورفعت وجهها الى فوق وهى تقول فى ضراعة :

ـ يا رب !..

واجهشت الأم نفسها بالبكاء .. ومضت تسن السكين على حافة الجرة ، والأوزة فى يدها تزعق ..

غير ان وصيفة لم تستطع ان تخرس ، فقد ظلت تذهب وتجيء فى وسط الدار ، وعيناها على الباب المفتوح تنفذان الى الطريق فى انتظار مرور شعبان ..

ومر عبد الهادى من الطريق ، فتزايلت وصيفة ، وتضرج وجهها ، وشعرت انها تكاد تقع من طولها .. ولم تعرف كيف تصنع .

ولمحها عبد الهادى ، فتوقف ، وقال باهمال مصطنع :

ــ عواف يا وصيفة .

وراح لونها تماما ، وشعرت بأذنيها تلتهبان ، وبأنفاس ثقيلة حارة ترتفع متلاحقة من أعماق صدرها ، وتخنقها ..

ووقف عبد الهادى ينظر اليها وهى ترتعد :

ــ دهدى ؟ خبر ايه ؟ ما بترديش ليه .. مالك .. ركبك عفربت؟ الله .. جرالك ايه ؟ انتى عيانه ؟ جاتلك الوريته ؟.

وفى الحق انها كانت ترتعش ، ووجهها محتقن تماما ، كأنها مريضة بالمـــلاريا .

واستطاعت أن تقول له آخر الأمر بصوت مجهد :

ــ روح ياعبد الهادى روح لحالك .. روح احسن شعبان ولا حــد يشوفنى واقفة قدامك كده يبقى الـكلام سدق ! يبقى شـعبان كلامه ســدق !

وجرت الى داخـــل الدار ، ومازالت الدموع تنهمر من عينيهـــا بلا توقف .

وأدرك عبد الهادى أن شعبان قال كلاما عنه وعن وصيفة ، فمضى محنقا ينوى به شرا .

وعبد الهادى على الرغم من كل شيء ، مازال يفكر فى الزواج من وصيفة ..

ونضارة القطن الأبيض الجديد فى الحقول تحمل الى نفسه الفرحة والأمل ، وهو يعتقد انها تحمل الى وصيفة نفس الأمل ونفس الفرحة .

فهو ينوى ان يجمع القطن بعد اسابيع قليلة، ليبيعه لأحد الخواجات الذين يزورون القرية فى مواسم القطن ، وعندما يقبض ، يؤجل مـــال الحكومة ويدفع مهر وصيفة ، ويتزوج ..

وعبد الهادى يمضى منطويا على حلمه هذا السعيد ، منذ عاد من سجن المركز ، فقد كلم محمد أبو سويلم فى الموضوع أول ليلة فى السجن ونهره أبو سويلم ، لأن السجن ليس هو المـكان الصالح للاتفـــاق على الزواج ، ولـكن عبد الهادى كلمه مرة ثانية فى طريق العودة ، فوافق واجله الى ما بعد جمع القطن .

على ان عبد الهادى لم يكد يرى حال وصيفة ، ويسمع ماقالته ، ولم يكد يشعر بحيرتها وعذابها واضطرابها العظيم ، حتى اقســم ان يكسر رقبة شعبان أمام دوار العمدة نفسه .

ومشى عبد الهادى ليضرب شعبان ، ومن يتعرض له ! ..

وحين كان يمضى مندفعا الى دوار العمدة باحثا عن شعبان ، مر فى طريقه بدكان الشيخ يوسف ، وسمع صوته يرتفع ، محتدا على احــد الفتيان الذين عادوا الى القرية بلا عمل .

كان الشيخ يوسف يلعن الولد واباه وامه ، ويعيره بشعره الطويل كشعر البنات .. ويســخر من لهجته القاهــرية المـائعة كنسوان آخر الزمن ، والفتى ينظر الى الشيخ يوسف فى اهمال ، ويمر بيده المعروقة خلال راسه العارية ، ويطمئن على ثبــات الخصلات المصفرة المصبوغة بالأكسچين فى شعره الأسود اللامع ، ثم يؤكد للشيخ يوسف ان شق السكة الزراعية الجديدة سيكون فى مصلحة البلد لانه يوجد عملا لاولاد البلد العاطلين .

وظل الشيخ يوسف يصرخ :

ــ يا واد افهم .. بقى هيه الحكومة ناقصاكم ؟ ! .. بقى هيه يعنى لسه حاتدور على أولاد البلد العواطلية علشان تشغلهم فى الزراعية ؟ ! وما تجيبشى له من عواطلية البندر ؟.. وعمال الطرق راحوا فين ؟.. هوه الشغل بالساهل كده ؟ ! .. ياواد دا الناس بتجرى عليه وتشــقى وبرضه ماتلاقيش .. انت مش كنت خدام فى مصر .. تعرف تعمــل ايه هنا ؟ ! حاتمسح بلاط الزراعيــة ؟.. حاتطبخ فى الزراعيــة ؟.. حاتشتغل ايه فى الزراعية بس ؟ تعرف تمسك فاس ؟. تعرف تفحت ؟ جاتكو وجع القلب زى ماوجعتوا قلبى .. جاتكو زيحة تزيحكم .

ونظر عبد الهادى طويلا الى الفتى ..

كان وجه الفتى جامدا برنزيا .. وكانت عيناه زائغتين .. وكان يهز كتفه فى رفض لـكل مايسمع .

وقال له عبد الهادى باشمئزاز :

ــ والقيراطين بتوع ابوك ما هم حيروحوا فى الزراعيـــة يا حضرة لفندى يابو شعر يابتاع مصر يا اللى بتفهــم ! .. ارض ابوك حاتكلهـــا الزراعية .. حاتكلوا منين انتو والجاموسة ؟ حاتشترى تبن للجاموسة ولا حاتشترى الطفح اللى بتطفحه من غـــير عرق .. حاتشترى المش والعيش الذرة ؟ ..

ثم اكمل عبد الهادى مقلدا لهجة اهل مصر :

ــ ولا حاتشترى .. جبنا ؟ ! .

وضحك الشيخ يوسف طويلا ، وضرب كفا بكف .. ثم هز راسه قائلا :

ـ بقى بذمتك دول ناس ؟.. بقى دى بلد ؟ ياخويا العيال العواطلية كلهم انقلب مخهم .. قلب مخهم الواد شعبان .. راكبهم عفريت اسمه الشغل .. الواد شعبان فهمهم ان الحكومة حاتشغلهم فى الزراعية .. مافيش غير ولدين تلاتة كانوا صنايعية فى مصر هم اللى فاهمين الدور والباقى خلاص انقلب مخهم ..

وزمجر عبد الهادى وهو يصر على اسنانه :

ـ شعبان ؟ طب ياشعبان يابن ستهم .. والله لو كان عمرك اردب برسيم لاشحتره واله حبة حبة ياشعبان الكلب . صبرك على ياشعبان .

فقال الفتى وهو يتهيأ للانصراف :

ـ وماله شعبان ؟.. الشيخ شعبان عمل عملة عمر البلد ماسمعت عليها ولا كانت تحلم بيها .. ضرب لكم رجالة الحكومة وكرشهم لوحده . دى مش حلوة .. اداهم ضرب ..

وكان الفتى يتحدث بلهجة قاهرية ..

وضاق به عبد الهادى وقال بضيق وهو يقلده ساخرا بلهجته :

ـ حلوا .. اداهم ضرب ..

ثم لكزه عبد الهادى وهو يقول مشمئزا :

ـ بس ماتتقصعشى كده زى الغوازى ..

فصاح الفتى متحديا وهو ينسحب :

ـ ماحدش خرج من ايده يعمل اللى عمله الشيخ شعبان .. انتم غايرين من الشيخ شعبان .. دى شطة ..

فهب فيه الشيخ يوسف :

ـ شطة ؟ شطة ايه ياك تنشط رقبتك عن جتتك !.. ياك تنشط انت واللى همصك .. اسمع ياواد انت ياغازية .. اوعى تهوب ناحية الدكانة دى تانى ؟ ! ايه ياخويه كلام العوالم ده .. اداهم ضرب ؟.. شطا ؟.. حلوا .. جاك حلا فى شداقك !..

ومشى الفتى النحيل الطويل ، يهز رقبته الرفيعة ويحنى راسه اللامع الى الارض ، وعيناه الضيقتان ترسلان على التراب نظرات تائهة ، وظهره مثقل باحلام العمل والمال .. وكل مايمنحه المال !

بينما اخذ الشيخ يوسف يصفق متعجبا لما دهى القرية منذ اقبل اليها شعبان هذا ..

لقد جاءه منذ لحظات هذا الولد فظل يحدثه عن العمل الذى توجده الزراعية للعاطلين ، وشرع بلا مناسبة يتحدث عن مقدرة عبد

الهادى فى لعب العصا ، ويحاول ان ينال منها .. وزعم انه هو نفسه يستطيع ان يلعب العصا خيرا من عبد الهادى وظل يرغى فى هذا الامر .

وعندما سمع عبد الهادى هذا الكلام ضحك طويلا .. فاحتد الشيخ يوسف عليه واستمر يقول لعبد الهادى ان البلد انقلب مخها وانقلب حالها .. ففى هذا الصباح جاءه رجل سمين قصير من الناحية البحرية وقال له انه سمع ان عبد الهادى عندما كان فى سجن المركز ، غافل اهل القرية المسجونين معه واتفق مع رجال الحكومة على ان يسهل مامورية شق الزراعية ، مادام لايملك أرضا فى حوض الترعة ولن يصيبه ضرر ، ولهذا فهو لم يضرب كالآخرين فى سجن المركز ، وافرج عنه معهم رغم انه هو الذى قطع الجسر اول الناس .. وعاد الى القرية يضحك ولا يبالى ..

وحين سمع عبد الهادى هذا ، ضحك مرة اخرى .. ولكن الشيخ يوسف استطرد قائلا ان الامر لايضحك ، فشعبان هو الذى اقنع الرجل الابله بهذا ، وجاء الرجل بكل بلاهة يروى الامر كانه حقيقة !

وسكت الشيخ يوسف قليلا ثم قال ان الرجل الذى يقول هذا الكلام عن عبد الهادى ، دافع عنه عبد الهادى عدة مرات عندما حاول بعض جيرانه أن يهشموا راسه الغبى ، وحاول ان يعلمه لعب العصا ، ولكنه لثقل جسمه وثقل عقله ، ولفرط غبائه لم يفلح !

وهز عبد الهادى راسه قائلا باهمال :

ـ هوه ده اللى اتكلم عنى ؟ ! عرفته .. يا اخى دا غلبان .. خليه ياكل عيش .. الله يسهل لك يابا الشيخ يوسف .. دول غلابة .. ان كان هوه ، ولا الواد التانى اللى كان هنا دلوقت بيتقصع زى الغوازى .. دول ناس هفق لا هنا ولا هناك .. خليهم يقولوا ..

ثم سكت عبد الهادى قليلا ليقول بثبات :

ـ ان ماكنتش اقطع جدرك ياشعبان انت والعمدة النجس بتاعك .. ما ابقاش عبد الهادى ..

وعاد الشيخ يوسف يعجب لما يصنعه شعبان ..

فهو يتقرب من علوانى ، ويدخل عليه بأنه صديق ، وانه يريد ان يقتل معه العمدة لمصلحة أهل البلد .. ويطمئن اليه علوانى ، ويعترف له مفاخرا انه سرق الذرة والقمح من مخازن العمدة ..

وبعد هذا الاعتراف بقليل .. يقبض على العربى المسكين بتهمة قتل خضرة ..

وتنهد عبد الهادى فى اشفاق على علوانى ، ومص شفتيه قائلا وهو ينظر فى الفضاء :

ـ يا ولداه عليك يا شيخ العرب .. والله كان مالى علينـــا البـــلد يا جـــدع ..!

واستطرد الشيخ يوسف يروى لعبد الهادى فى عجب قصة فتيان آخرين اوقع بهم شعبان ..

فمنذ ايام ثلاثة ، جاء الى الدكان بعض الفتيان الطيبين من الذين لفظتهم المدينة بعد ان طردتهم المصانع .. لم يكن شعبان قـد أفلح فى اقناعهم ان الزراعية يمكن أن توجد لهم عملا ، فقد كانوا يخافون على الأرض ، ويبحثون عن طريقة للدفاع عنها .. وكانوا يعـرفون أن كلام شعبان عن العمل ليس جدا .. فلن يستطيع واحد منهم أن يعمـل فى الزراعية ..

لن يحمل واحد منهم الفأس ليحطم بها الحياة التى يتمتع بها اب او أم او اخ أو عم أو خال ..

لم يكن عند واحد من هؤلاء الفتيان الطيبين اى استعداد لأن يشق الزراعية .. لأن يدمر الارض التى لعب عليها وهو صغير ، والتى يعيش فيها عندما يطرده المصنع ، والتى يحيا عليها ويموت رجـال ونســاء تجرى فى عروقهم نفس الدماء !

وعندما كان هؤلاء الفتيان يبحثون عن طريق للدفاع عن الأرض ، اقنع شعبان بعضهم بسرقة حديد الزراعية .. وحكوا للشيخ يوسف ، انهم اتفقوا مع شعبان على ان يأخذوا الحديد ، ويتولى هو بيعه ،وتقسيم الثمن عليهم ..

ولم يكد يمضى يومان على هذا الحـديث أمام الدكان حتى أرسـل هؤلاء الفتيان جميعا الى خفر البحرليحرسوا جسور النيل من الفيضان فى اماكن نائية ، بلا أجر ، ولا طعام ، وتحت لهب الشمس وسياط الجنود !

ظل الشيخ يوسف يروى هذا بعجب ، وهو يرثى للفتيان يتعذبون على الشطآن البعيدة ..

ثم قال :

ـ آدى اول دفعـــة من غفر البحر .. ويا عالم بقى مين رايح فى الدفعة الثانية .. وغفر البحر ايه دلوقت يا اخواتى .. الـكلام ده كان من شهر .. حد ياخد غفر بحر دلوقت .. آه ياحكومة ! !

وغاض لون عبد الهادى فجأة .. ثم لمعت عيناه ودارت فى راسه

الافكار ، ان العمدة يستطيع ان يجمع كل رجال القرية اذن ويرســلهم فى تراحيل !

وفجاة تساءل عبد الهادى بلهفة وتحرق اين يمكن أن يجد شعبان الآن .. ورد عليه الشيخ يوسف متسائلا ان كان شعبان قد ارتكب معه شـــيئا ..

ولم يجب عبد الهادى ..

وأمسك الشيخ يوسف بقلة كانت على أرض دكانه ، ورفعها الى فمه وشرب ، ومسح شفتيه بظهر كفه وهو يقول :

ـ يا اخى يا عبد الهادى ، ما حكاية الا حكاية محمد ابو سويلم مع الشيخ حسونة .. دا الواد شـــعبان خبص البلد كلها .. انت عارف منزلتهم عند بعض ، ومع كلا كانوا خلاص خسروا بعض لولا لطف ربك ذو الجلال والاكرام !

واقبلت امراة تشترى ملحا بكوز من الذرة ، فقال لها الشيخ يوسف وهو يفحص الـكوز الصغير :

ـ شوفى غيره .. دى قرقره دى مش كوز !..

فقالت له بيأس وحسرة :

ـ والنبى ماعندى غيره .. هوه حد لاقيه ..

تمهل الشيخ يوسف قليلا وهو يفحص الـكوز .. واخيرا هز راسه ورمى الـكوز الى داخل الدكان فوق كيزان اخرى ، واعطاها الملح ..

وعاد الشيخ يوسف الى عبد الهادى يكمل له مابداه من حديث فيما حصل بين الشيخ حسونة ومحمد ابو سويلم .

وما حصل .. حصل بالأمس فقط فى مندرة الشيخ يوسف نفسه اذ اقبل محمد ابو سويلم على الشيخ حسونة فوجده مغضبا .. وكان محمد ابو سويلم هو الآخر يعانى حرجا .

وبدا الشيخ حسونة عتابه .. فسأل محمد ابو سويلم لـماذا يشيع عنه ـ على الرغم من صداقتهما القـــديمة ـ انه انما ذهب الى المركز لا ليسعى من اجل القرية كلها فى مسألة الزراعية ، وانما ليقنع اصدقاءه هناك بأن يغيروا طريق الزراعية حتى لا تمر فى حقله هو ..

وانفجر محمد ابو سويلم فى وجه الشيخ حسونة قائلا فى استنكار :

ـ انا قلت عليك كده ؟.. كلام ايه ده يا رجالة .. سامع يا شـــيخ يوسف حضرة الناظر بيقول ايه ؟.. بقى انا اقول كده ؟. بقى انا اقول عليك ياشيخ حسونة انك رحت المركز توالس مع الحكومة ؟ بقى ده كلام

ياجدعان.. ويدخل عقلك الكلام ده ياشيخ حسونة ؟. ياحضرة الناظر !

وضاق الشيخ حسونة بلهجة محمد ابو سويلم فزعق :

ـ ايوه انت قلت كده .. انت حاتنارزني يا اخي ؟ ! ايوه انت قلت !

فقال محمد ابو سويلم :

ـ دهدي ! ! قلت قلت .. اللي في قلعك انفضه بقى .. ان كان في قلعك ريح انفضه . هه .. مادام بتزعق كده ، وعاوز تبوظ لنا المجلس .

فرد الشيخ حسونة في ضيق :

ـ انا حابوظ المجلس .. هو انا بابوظ المجالس .. انا زينة المجالس مش حابوظ المجلس .. اما قلة انسه صحيح !

فهاج محمد ابو سويلم :

ـ انا قليل الانسة ؟ انا ياشيخ حسونة ؟ ! بقى كلنا بنقول عليك راجل متنور وبتفهم تقوم تتهمني اني قلت عليك كلام ؟ على كده بقى تبقى انت قلت كلام فاضي على بنتي !

وجن الشيخ حسونة من الحنق فصاح :

ـ انا باقول كلام فاضي ؟ ! انا يامحمد ؟ ! انا قلت كلام على بنتك ؟ ! دي مصغرة وشغلة عيال ! لكن انت مش غلطان ! انا اللي غلطان ! ! انا استحق اكثر من كده اللي سبت اولادي لوحدهم ورجعت البلد دي ، قال ايه علشان نقف يد واحدة في مسألة الزراعية ..

وصعق محمد ابو سويلم قائلا :

ـ بقى انا يافلاح افهم الدور وانت اللي اسمك متعلم متنور لسه ماعرفتش ؟.. هوه معقول انك تقول كلام فاضي على بنتي ؟.. لكن ماقولك ان اللي بلغك الكلام اللي مزعلك بلغني برضه انك اتكلمت على بنتي .. بقى يدخل عقلك الكلام ده ياحضرة الناظر ؟ ! ياسنة مهببة يا اولاد ! ! مش شعبان اللي قال لك ؟ ! هوه كلام شعبان خال عليك ، وفتحت له صدرك ؟ ! دا جه يكلمني ، كنت حاقطع رقبته بالفاس زي تعبان الشراقي .. ما حاكم الواد جه قبل كده يقول لي ان دياب مستحلف لعبد الهادي ، وحايضربه بالعيار ، من جرة عركة الجسر .. قلت له ياشيخ شعبان ما اصطلحوا سوا ودحكوا سوا وانضربوا سوا .. قال لي ولو يكن .. دياب بس مستني لما الدره يطول كمان شوية وهو ومحمد افندي مرتبين الشغلة على ايدي .. سالت دياب ومحمد افندي حلفوا بتربة ابوهم ان الكلام ده ماحصل وما جرى من اصله ، وان مافيه بينهم وبين عبد الهادي ايها حاجه ، بس قارشين ملحته حبه من يوم ماعرفوا انه مستحلف لهم .. القصد تنتني وراهم وورا عبد الهادي لحد

ماعرفت ان شعبان هو اللي مطلع الكلام .. والمصيبة انهم في الاول ماكانوش راضيين يقولوا مين اللي قال لهم .. بس يقولوا بلغنا من واحد مايكدبش .. تقولشي يعني قروا في الجرايد ؟ ! عرفت بقى ياحضرة الناظر ؟ اش حال لو ماكنتش انت اللي قلت لنا في الاول انك مقبوض من الواد شعبان ومش مستريح له ؟ اش حال لو ماكنتش انته اللي نبهتنا من الاول على شعبان ده ؟ ! بقى انا اقول عليك موالس مع الحكومة ؟ ! يا نهار ازرق ياشيخ حسونة .. ويزلف لسانك كده دغري وتهب فيه ؟ ! هو اللي بينا ايه يا اولاد ؟ ! عيش وطوب ؟.. هو الدم ده ميه ؟ ! .. هيه العشرة دي ايه !.. داحنا اخوات ياحسونة واكتر من الاخوات كمان يا وقعة غبرا ؟ ! ياشيخ دا انا فاكر انك انت اللي حاتمشي ورايا وتاخد العزا فيه وتشوف عيالي من بعدي !

واختلج صوت محمد ابو سويلم ، وتهدج .. ثم اختنق بالدموع ..

وخفق قلب الشيخ حسونة في ندم ، وحب ، وهلع .. وجاشت نفسه بحزن مباغت .. واضطرمت عواطفه فجأة .. فقام مندفعا الى محمد ابو سويلم وعانقه قائلا :

ـ معلهش يا محمد ياخويا .. انا محقوق لك .. الخبص يعمل اكتر من كده ..!

وتعانق الصديقان ، وسالت دموعهما واختلطت ..

وعندما جلس محمد ابو سويلم قال :

ـ ملاعيب العمدة ياسيدي .. ملاعيب العمدة ..

ثم دعا الشيخ حسونة على العشاء عنده ..

***

ولم يكد الشيخ يوسف ينتهي من رواية هذه القصة لعبد الهادي حتى اقبل الشيخ الشناوي مهرولا الى الدكان ، ليقول لهم ان حوض الترعة يمتلىء بالحديد وادوات الحفر ، وان شعبان هناك يقف مع الرجال الذين اقبلوا من البندر ..

وبوغت الشيخ يوسف وعبد الهادي وترددت همساتهما :

ـ ياسنه سوده ؟ ! طب وايه العمل دلوقت ؟..

واستمر الشيخ الشناوي يقول انهم القوا بالحديد في حقل محمد افندي وفي حقل يجاوره ..

ولقد حاول دياب ان يعترض ، ووقف في طريق الرجال ، وحاول شعبان ان يهمس في اذنه ، ولكن دياب نحاه بشدة ، واندفع يحاول

منع الرجال من المرور فى حقله .. وكان محمد افندى هناك ، فناداه بانزعاج وامره الا يتعرض لأحد .. وانسحب دياب فى اذعان ، ووجهه يتشنج على دموع لا تنهمر ، وقد اصفر لونه الاسمر ، واخضر ، وترك الرجال يدهسون القطنالأبيض النضر الذى يشرح الصدر ويسر الخاطر. وحين راى دياب قطنه يهوى على الارض ، ويختلط بالتراب ، رفع يديه وخبط بهما وجهه وراسه ، واطلق صرخات يائسة ممزقة !

والتفت الشيخ يوسف الى عبد الهادى قائلا فى صوت كسير :

ــ شايف بقى ، الحكاية وصلت لايه ؟ ! شايف بقى شعبان ؟ ! ما خلاص ! ! ..

والتقطت امراة فى الطريق كلمات الشيخ الشناوى عن حديد الزراعية فاطلقت صرخة .. وترددت الصرخة ، وخرج النساء من الدور يسألن عن الخبر .. وبعد قليل كانت القرية ترن بالصوت الفاجع يطلقه النساء ..

وتجمع بعض النساء امام دكان الشيخ يوسف ، فصاح فيهن ان ينصرفن فرجال القرية يعرفون شغلهم مع حديد الزراعية ..

ودفع الشيخ الشناوى عنه امراة شابة ، حتى لا تنقض وضوءه ، وزعق فى النساء اللواتى يلطمن ورفع عليهن عصاه ، مهددا بالضرب ..

ووقفت امراة بدينة عجوز تشتم النساء بصوت حاد جاف :

ــ يابلد سايبه .. هو انتو مالكوش رجاله ؟ ماتسيبوا الرجالة يعرفوا شغلهم .. حاتطلعوا انتو تتحشروا فى بتوع البندر اللى جايين مع الحديد .. عاوزين تتلزأوا فى الرجالة الغرب ؟! طب اطلعوا على حوض الترعة اتحكوا فى الرجالة .. اطلعوا ..

وغمر الحياء وجه النساء .. وبدأ بعضهن ينصرف فى تعثر ، بينما وقف الشيخ يوسف يضرب كفا بكف وهو يصيح :

ــ آه يا بلد مالهاش لا كاسر ولا كسار !! قعدتى تحققى فى الكلام ، وشغلك شعبان فى الكلام الفاضى والحكومة بتشتغل .. لها حق الحكومة تعمل فينا زى ما يعجبها .. ما تنجرى يا وليه انتى وهيه وتسيبوا التساريف للرجالة ..

وانسحب النساء الباقيات ، وتجمعن فى حلقات متناثرة على ابواب الدور ! بينما اخذ الشيخ الشناوى يقول انه سمع ان شعبان سيعين شيخا للخفراء ..

فاكمل الشيخ يوسف بنفس لهجته اللاذعة المحتدة .. ان اكله جائز فى البلد .. ثم انتفض صارخا :

ــ ياشيخ !! وهيه دى بلد .. بقى دى بلد ..

اما عبد الهادى فقد سكت ..

أخذت شفتاه تنطبقان على بعضهما فى عصبية ، واتسعت حدقتاه ، وترددت انفاسه فى انفه بصوت مرتفع ، واختلجت عضلات خديه ، وهو يصر على اسنانه .. وظلت العروق تنبض على جانبى جبهته ، واخيرا نكس راسه واسنده على عصاه الطويلة ..

وبعد قليل تحرك عبد الهادى لينصرف .. فطلب منه الشيخ يوسف ان يبقى لحظة ، ولكنه صمم على الانصراف دون ان يقول الى اين يمضى .

واتجه مسرعا الى بيت محمد ابو سويلم .. وعلى الباب تلكأ قليلا ، ولمح وصيفة تجلس على قالب من الطوب امام الكانون ، والدخان يتصاعد فى حلقات كبيرة من حطب القش ، وعيناها تدمعان ..

واوشك عبد الهادى ان يقف ليقول لوصيفة ان الرجال من المركز اقبلوا بالحديد لينزعوا الأرض من ابيها ومن الآخرين .

ولكنه هز راسه ومضى .

فوصيفة تعرف الحكاية كلها .

ولا يوجد فى القرية رجل او غلام او امراة لا يعرف الآن ان الحديد جاء من المركز ليدق فى الارض المليئة بالقطن ، واعواد الذرة الخضراء ..

كل انسان في القرية يعرف أن الأرض لن تصبح ملكا للقرية ..

وعبد الهادى لا يملك ارضا فى حوض الترعة ، فارضه كلها على الجسر . ولن ينتزعوا منه هو شيئا .. ولكنه مع ذلك حزين ضيق الصدر ، يكاد يتزايل الى اغوار نفسه ، فهو يعرف انهم حين يعتدون على رجل واحد فى القرية فكأنما ضربوا القرية جميعا .. ولئن اعتدى رجل واحد من القرية على الحكومة لأخذت به كل القرية ، واذا سكت هو اليوم وارض محمد ابو سويلم ودياب تنتزع ، فسيرمونه هو غدا فى داهية بعيدة ..

وما زال عبد الهادى يذكر انه حين قطع الجسر ليروى ارضه لم ياخذوه وحده ، انما اخذوا معه محمد ابو سويلم .. وعذبوه وضربوه واذلوه .. ان الحكومة تعودت أن تعامل رجال القرية كأنما هم رجل واحد .. وانه الآن ليشعر ان الحكومة لا تخطىء حين تعاملهم جميعا كأنما هم رجل واحد ، فهو منذ سمع بمقدم الحديد ،يعانى فى أعماقه كل مرارة النكبة ..

انه لا يستطيع أن يتصور حال محمد ابو سويلم ، لو اخذوا منه القطن والذرة .

ان عبد الهادى فى الحق يحب ارض القرية كلها : ارضه هو الذى اختلط عرقه بترابها ، وارض الآخرين ..

وهو لا يطيق ان يمسى ويصبح فاذا الارض الريانة بالخضرة ، تغدو ارضا صلدة جرداء يمر فيها الناس والعربات ..

ان قوة خفية لا يعلمها تعصر قلبه كلما فكر فى ان الارض ستنتزع ، وان هذه القوة الخفية التى تعصر قلبه بلا رحمة لتدفعه الآن الى أن يرفع عصاه ليجعل هذه الارض على الدوام خضراء ريانة مزدهرة ، تقدم للذين ينحنون عليها طول النهار طعامهم على الأقل ! .

وهكذا اندفع عبد الهادى ، وقد تفجرت من اعماقه طاقة هائلة ينتفض بها بدنه .. طاقة تمكنه من ان يكسر الحديد على راس العمدة ، وشعبان ، والحكومة ..

واهتزت العصا فى يده ، واحس بها عبد الهادى قوية حاسمة .. كالبندقية .. وانطلق راكضا الى الحقول فى حوض الترعة .. الى المكان الذى كدس فيه رجال الحكومة حديد الزراعية .

كانت اشعة النهار تصفر ، والريح الفاترة تسرى فيها أول رعشات الخريف .. والغربان السوداء تهوم فى الفضاء فوق الحقول ! ..

وعلى راس حقل محمد ابو سويلم فوق كومة من التراب ، كان الشيخ حسونة ومحمد افندى ودياب يجلسون .. بينما وقف محمد ابو سويلم ينظر الى الرجال والحديد واذ لاح له عبد الهادى ناداه محمد ابو سويلم ، فلم يرد عبد الهادى ومال عن الطريق ، واندفع فى الحقل الى الرجال ..

واحس محمد ابو سويلم ان عبد الهادى يمكن ان يعتدى على الرجال، ففى هيئته الشر .. والشر يغنى له ! .

وقفز محمد ابو سويلم من فوق الكوم ، ولحق بعبد الهادى فامسك به وطلب منه أن يجلس معهم فوق الكوم ليتراودوا ..

ولم يذهب معه عبد الهادى الا بعد أن قال له محمد أبو سويلم فى همس :

ــ ما احنا رتبنا الشغلة .. طول بالك انت بس .. بالراحة .

وعلى الكوم جلس عبد الهادى محنقا .. ولم يحاول ان ينظر الى احد .

كانت كيزان مشوية من الذرة الجديد ، قد القيت امامهم وهم ياكلون فى ثبات .

وقدم اليه الشيخ حسونة كوزا من الذرة قائلا :

ــ خد يا عبد الهادى .. دره زرع بدرى اهه .. كله قبل ما تاكله الزراعية ..

واطلق محمد ابو سويلم ضحكات مثقلة .. كالزفرات ! .

وعلى كل الشفاه ترددت قهقهات متكسرة ، تنبع من اعماق الحسرة .. من حيث تنبع الدموع والمخاوف والندم !.

اما عبد الهادى فلم يضحك ..

كانت عيناه تنظران الى بعيد ، ورجال الحكومة يقفون أمام الحديد الذى يطأ الزرع ويهشمه .. والى جوار الحديد يقف شعبان والخفير عبد العاطى ..

وتمتم عبد الهادى ويده على عصاه :

ــ الواد شعبان ايه حشره ؟ ! بقى هيه الحكاية كده !! على كده دا نازل شيخ غفر صحيح ! ..

وقال الشيخ حسونة ، بأناة كبيرة :

ــ يا اخى حلمك شوية .. ماتبقاش شرانى .. كله يتعدل .. تتعدل ..

فزمجر عبد الهادى بضيق :

ــ مين اللى حا يعدلها بس ؟..

واذ ذاك همس محمد ابو سويلم فى اذن عبد الهادى بكلمات .. وبدا قطوب وجهه ينفرج شيئا فشيئا .. واخيرا أشرق وجه عبد الهادى وابتسم ، وهو ينظر الى محمد ابو سويلم والشيخ حسونة فى أمل واعجاب ..

وهز عبد الهادى راسه ونظراته تتألق

فقال محمد ابو سويلم ، باعتزاز وثقة وهو يضحك ببساطة :

ــ أمال يا عبد الهادى ؟ .. انتو برضه لسه صغار .. حاكم انا وحضرة الناظر نابنا زارق فى الشغلة دى .. من أيام الانجليز يا وله ..

***

وبعد صلاة العشاء بوقت طويل اطفئت الانوار فى دوار العمدة وفتحت القرية ابوابها التى اغلقها الليل .. ومن وراء الابواب التى فتحت فى حذر ، تسلل الرجال فى الطريق الضيق الى حوض الترعة .

كانوا متشابهين : كلهم ، يلبس الثياب السوداء ! وكل شىء من ورائهم ساكن الا الكلاب تنبح ، وامامهم حشرات الحقول تطلق اصواتها



المختلطة فى فراغ شاسع من الظلمات يخفق بنسمات يدب اليها البرد لأول مرة .

واقترب الرجال تحت شعاع النجوم من حقل محمد أبو سويلم ومن بينهم رجال كانوا منذ لحظات يشتكون المغص من حصوات فى الكلى ، ويعانون آلاما ممضة من التهاب البول .. ولكنهم مع ذلك مضوا فى خطوات ثابتة : تتلاحق انفاسهم والعزم فى صدورهم أكيد أقوى .. اقوى من الالم ! ..

وهمس محمد ابو سويلم لرجل طويل ملىء يسرع الخطى متقدما الصفوف :

ـ طول بالك يا عبد الهادى .. ارجع ورا انت شويه احسن يشوفوك يضربوبا عيار نار ! .. مش عاوزين عيار واحد ينضرب ..

وتراجع الرجل الطويل فى السواد ..

والى جوار حديد الزراعية فى وسط الحقل ، دعك شعبان عينيه ، ورفع راسه قليلا وهو ما يزال راقدا .. وقال :

ـ اعوذ بالله .. حاكم الحته مسكونة .. سامع الوشوشة يا عبد العاطى ؟ العفاريت طلعوا لنا !! ..

وسكت شعبان قليلا ، وصدره يخفق من الرعب ثم همس :

ـ حاسس بالنفس الملهلب يا واد يا عبد العاطى ؟ ! العفريت ! العفريت !! واد يا عبد العاطى .. ياوله .. يا عبد العاطى ! .

ولكن عبد العاطى لم يجب ..

واخذ شعبان يتمتم بشتيمه لعبد العاطى ، وقطع الشتيمة واخذ يهمس بأوراد دون ان يجرؤ على رفع صوته فى الظلام المترامى ، بينما كان عبد العاطى يستلقى على الأرض غير بعيد عنه ، وقلبه يدق فى انتظار الرجال ..

وتحسس عبد العاطى بندقيته وبندقية شعبان وامسك البندقيتين بيده جيدا وتظاهر بالنوم العميق ، واخذ يطلق الشخير .. وفى لحظات كان الرجال ينقضون على الحديد ..

ووثب شعبان ووقف مروعا وقد ادرك انهم الرجال لا العفاريت ! ..

ثم انحنى على الارض ليبحث عن بندقيته ولكن عبد العاطى كان ممسكا بها ، وقد ماتت يده عليها ، وهو راقد بلا حركة يطلق الشخير المرتفع ، كما اتفق مع محمد ابو سويلم قبل المغرب ..

وبدا رجال القرية يحملون قطع الحديد ، ويندفعون بها الى الترعة القريبة ، ويقذفونها فى الماء .

فوجىء شعبان بالرجال ولم يفلح فى انتزاع بندقيته من يد عبد العاطى فحاول ان يرفع قضيبا من الحديد ليهشم به رؤوس الرجال .. غير ان عبد الهادى انقض عليه وسد فمه ، ثم رفعه ، وحمله على ظهره ــ كشمر الذرة ــ تماما .

وجرى عبد الهادى وهو يحمل شعبان فى ضيق بالغ ، ووقف امام شاطىء الترعة وهزه قليلا بين يديه ثم قذف به الى اعماق الترعة .. وكأنما هو قطعة من حديد الزراعية الذى ارسلته الحكومة لتفسد الأرض.

وحمل كل رجل قطعة فوق ظهره واخذ يترنح تحتها قليلا فى الظلام ، وما أن يقذفها فى الترعة حتى ينصب قامته ، وهو يشعر بمثل القوة التى يتخيلها دائما حين يسمع قصة « أبو زيد الهلالى » ..

وتعالت صرخات شعبان من أعماق الترعة ، وعلى شطها بعض الرجال يضحكون ويهددون شعبان بألا يعود والا قتلوه بالبلغة .. كالبرص ! ..

واطلق شعبان آخر صرخة وهو يتخبط على ماء الترعة قائلا فى استغاثة « الحقونى » فقال له احد الرجال :

ــ خلى العمدة يلحقك .. خلى الحكومة تلحقك .

وعندما تأكد الرجال أن شعبان قد غطس تماما فى الماء عادوا الى رمى ما بقى من قطع الحديد والادوات وهم يحسبون أن شعبان قد مات ! .

لم يتح لهم ان يعرفوا أن شعبان قد غطس قليلا كما يفعل الصيادون، ثم ظهر على سطح الماء بعيدا عن مكان الرجال ،ليعيش فى قرية اخرى !.

ولم يكد الرجال يفرغون من القاء الحديد كله فى الترعة ، حتى عادوا وهم يتصايحون مغتبطين .

وكان عبد العاطى ما زال متناوما يطلق الشخير كما اتفق معهم وضحك محمد ابو سويلم قائلا :

ــ يا جاتك الغم يا واد يا عبد العاطى .. تقولشى تعلب ياخى ؟ والله عفارم عليك ! زى النمس تمام ..

وضحك الرجال وبعضهم يقول :

ــ آى يا واد .. شخر كمان شخر ! ..

وعادوا الى الدور ، يتنادرون بمنظر بعضهم وهم يحملون الحديد ، وبمنظر شعبان وهو محمول على ظهر عبد الهادى ، ثم وهو يهوى فى

الترعة .. ويضحكون بصفة خاصة من عبد العاطى الذى استمر يشخر. حتى بعدما انزاح شعبان !

كانوا على طوال الطريق يمشون فى خفة مرحة ؛ محمولين على رنين الضحكات ، وكأنهم لم يبكوا من قبل ! ..

ولم يكد الرجال يبلغون دورهم ، ولم تكد الأبواب تفتح لهم حتى انطلقت الزغاريد .

غير أن صراخا عميقا من بعيد مزق هرج الزغاريد .. وتصاعدت من عند الدوار صيحات هلع .. هذه الصيحات المروعة اليائسة المتتابعة التى تعلن دائما من خلال العجز والانهيار : موت انسان ! .

ووجمت القرية لحظة ثم سرى النبأ ان العمدة العجوز مات .

مات فى الثمانين .. وصاح احد الرجال :

ــ كل ظالم وله نهاية .. ويصوتوا على ايه .. دا عمره يجى مايه وخمسين سنة ؟ ! .

وانطلق صوت شاب : يا ريتنا نعيش نص ما عاش !! .

وزاحمه صوت آخر :

ــ ايوه .. كل ظالم وله نهاية .. كل ليل وله آخر يا ولاد . زغرتى يابت .. ادى احنا خلصنا من الزراعية ومن العمدة ومن شعبان سوا ، فى ليلة واحدة ! .

وذهل الباقون لبض الوقت .. فلم يكن أحد فى القرية يستطيع ان يصدق ان هذا كله يمكن ان يحدث فى ليلة واحدة .

ولحظة بعد لحظة زحفت موجة كبيرة من الفرح تغمر القلوب .

وانطلقت الاكف تصفق على انغام الزغاريد والنساء يغنين مع الرجال :

يا ليله بيضة الليلة دى
والفرح جانا الليلة دى

وهز محمد ابو سويلم راسه والابتسامة تغزو وجهه وقال متألما :

ــ يا ولاد هو حد يشمت فى الموت ؟! لكن القصد .. مبروك البلد .. كل شىء وله آخر ..

وتلقت القرية اول شعاع من الفجر وهى ترقص وتزغرد .. وينطلق فيها الغناء .. اصدق الغناء .

١٩

فى مضيفة القرية ، وقف أقارب العمدة يستقبلون المعزين . ولبس شيخ البلد ، ابن عم العمدة ، عمامته، والجلابية الكشمير التى وضعت بعناية تحت المرتبة بعد أن ضربتها زوجته « بالجندره » .

وبعد صلاة العصر اتخذ شيخ البلد مكانه على راس أقارب العمدة فقعد وحده من دونهم فى منطقة الكراسى المذهبة الممتدة فوق بساط احمر باهت يحتل مساحة ضيقة من اول المضيفة .

اما محمد ابو سويلم فقد اختار مكانه على دكة من الدكك الخشبية العديدة ، انحط عليها الفلاحون وبقية المعزين من فلاحى البلاد المجاورة ، فى آخر المضيفة .

وكانت هذه الدكك مصفوفة على أرض المضيفة بلا بساط ولا حصير، والى جوارها فرشت الحصر ، ووضع عليها الكنب البلدى الذى جمع من بيوت اعيان القرية .

كان شيخ البلد قاعدا على كرسى كبير مذهب فى مواجهة باب المضيفة وهو يفكر بزهو فيما قاله المأمور على التليفون : ان يقوم هو باعمال العمدة .. أن يكون هو نائب العمدة ..

وبدأ يصنع تماما كما كان يصنع العمدة فى مثل موقفه : فهو يقوم نصف قومه ، او يقف منتصبا امام الكرسى ، او يمشى خطوات بعيدا عن الكرسى حسب مقام الرجل الذى يقبل للعزاء ، وحسب رغبته فى ان يبدو هذا القادم محترما او نصف محترم !

وأحس شيخ البلد أنه الرجل الأول فى القرية الآن .

ولكنه مع ذلك استرجع مواقف العمدة ، واخذ يقارن بين نفسه وبين العمدة الراحل ..

كان العمدة رجلا آخر ، ابيض الشعر ، رهيبا .

وكثيرا ما كان يسلم على الناس وهو قاعد ، ولا يقوم الا للعزيز القوى ، فاذا وقف ليستقبل احدا قام معه الجميع .

اما شيخ البلد .. فهو يقوم ، ويمشى ، ويقعد ، ولا احد يشعر به !.

وقرر بينه وبين نفسه الا يترك الكرسى المذهب الكبير ليستقبل معزيا ، الا اذا شاهد احدى عربات الحنطور مقبلة من المركز .

يجب ان يستعد ليكون عمدة .. بهيبة العمدة ! ..

والقى نظرة متعالية من كرسيه المرتفع الى القاعدين على الدكك ..

كانوا يسمعون الشيخ ابراهيم أشهر مقرىء فى الناحية ؛ ويطلقون صيحات الاستحسان ويطلبون منه أن يعيد من الأول ويزيد .. كأنهم فى مولد لا مأتم !.

وقام اليهم شيخ البلد بنفسه . وتحسس جلبابه الكشمير ، ثم عقد يديه خلف ظهره ، ووقف يهز بدنه النحيل ؛ ويطلب منهم فى حسم أن يسكتوا وان يطفئوا السجائر ، وهم يسمعون القرآن .

واطفأ بعضهم السجائر .. ثم بدأوا يبتسمون ، ويتبادلون النظرات ، ويتهامسون ! .

وقال دياب لجاره فى صوت منخفض :

ـ بيشخط قوى كده ليه ؟ جرى له ايه شيخ البلد ؟ ! يعنى بقى من الحكام ! .

فأجابه جاره هامسا :

ـ أنا عارف له أصفر الوش ده ؟ .. دا كل حين ومين على ما واحد مقتدر ينقلب ونسمع الشيخ ابراهيم فى المعزى ! دا بقى له خمس سنين ماقراش فى العب دا كله .

وما كاد شيخ البلد يعود الى مكانه حتى ارتفع صوت الشيخ ابراهيم يرتل آية جديدة باعذب نغم .

وصاح احد الفلاحين من على الدكة :

ـ ايوه يا شيخ ابراهيم يا مشبع ! .. والنبى تقراها انا بالسبع وترنح كمان يابو خليل يا مقنع ..

وابتسم الفلاحون من حوله وابتسم الشيخ ابراهيم نفسه وهمس فلاح آخر :

ـ آدى القرايه صحيح .. آدى الصييت اللى بالمعنى .. مش الفقها بتوعنا اللى عاملين زى الضفادع .. آدى القرآن مش اللى بيقراه سيدنا !.

وصاح الشيخ الشناوى وعلى وجهه امارات احترام كبير للشيخ ابراهيم :

ـ صلوا عالنبى واسمعوا يا أولاد .. ايوه ياعم الشيخ ابراهيم ربنا يفتح عليك .

وانصت الجميع بلهفة ، بينما كان شيخ البلد يميل براسه الى امام وجسده غارق فى الكرسى الكبير المذهب .

كان يحاول ان يستمع الى رجال جاءوا من المركز للعزاء ، والشيخ حسونة يجلس بينهم ، وكلهم يتحدثون بصوت خافت كالهمس . .

لقد أحس شيخ البلد بأن عليه ان يشترك معهم فى الحديث ، أو على الأقل فليحسن السمع ، ليتنور !.

وسمعهم يتكلمون عن صحف تصدر فى القاهرة ويغلقها صدقى ، فتصدر فى اليوم التالى باسم جديد .

وسمعهم يتذاكرون ـ باكبار ـ أسماء رجال يعيشون هناك فى القاهرة ولا يعرف عنهم الفلاحون كثيرا .

وهزته كلمات حارة قالها صاحب الاجزاخانة الكبرى .. كلمات عن طه حسين وجريدة الجهاد .. والجامعة .. وشىء اسمه الديمقراطية .. وحرية الفكر ! .

وتحرك شيخ البلد فى كرسيه ومال بنصف جسده ورفع حاجبيه كانما يريد أن يثبت فى اذنيه ، وفى قلبه ، كل كلمة يسمعها .

وتكلم المحامى الذى كان نائبا عن الدائرة ـ قبل حكومة حزب الشعب ـ فجذب شيخ البلد كرسيه الى أمام واحنى ظهره وامتدت رقبته أكثر من قبل ، وهو يقول بصوت هامس دون أن يحفل بقراءة الشيخ ابراهيم :

ـ سمعنا يا حضرة الأستاذ .. سمعونا الكلام الحلو بتاعكم ده .. احنا مش دارين الدنيا ماشية ازاى !! .

وتهدج صوت المحامى وارتفع قليلا عن الهمس ـ وهو يتكلم عما تصنع الحكومة بخصومها فهى تهدد الموكلين فى مكاتب المحامين ، وهى تحاول أن تتلف أراضى خصومها وتخرب متاجرهم ، وقد منعت الماء بالفعل عن مساحات كبيرة من الأرض ، واطلقت رجال البوليس يعذبون الفلاحين هنا وهناك ..

واسترسل المحامى فى صوته المتهدج يتحدث عن الأزمة التى لن تنفرج الا اذا كانت فى مصر حكومة ديمقراطية ، ثم استطرد يصف اعمال الحكومة الوحشية ويروى ما رآه وما قرأه عن المظاهرات فى المنصورة وطنطا وبنى سويف والفيوم .. وكيف حاولوا هناك قتل زعيم الأمة عدة مرات فتلقى عنه طعنة السنكى نائب جرىء اسمه سينوت حنا ..

ومضى النائب يروى كيف حاولت الحكومة منع زعيم الأمة من

رحلاته وحاولت اعتقاله فى بيته ولكنه خرج متحديا سلطانها وسلطان الانجليز ، وشق صفوف الجند فاضطروه الى النوم على أرصفة المحطات .. ومع ذلك صمم على ان يعلن اردة الشعب ولتفعل القوة الغاشمة ما تشاء ! .

ولم يكد المحامى ينتهى من كلامه حتى اندفع الشيخ حسونة بصوت حار يذكره بتحطيم سلاسل مجلس النواب ويطلب منه ان يشرح بالتفصيل موقف ويصا واصف رئيس المجلس البطل الذى اقتحم دار البرلمان متحديا قوة الرصاص بعد ما اذاع النواب انهم لا يعترفون بحل مجلس النواب ولا بالغاء الدستور ولا بخرافة الدستور الجديد .. دستور حزب الشعب ! .

وبدا المحامى يشرح فى كبرياء ، فاختلجت القلوب ..

وهز شيخ البلد راسه ، وسحب الكرسى المذهب الثقيل ، فازداد اقترابا من المحامى ، وشعر بخفقات قلبه تتعالى .. وشاعت فى نفسه حماسة يخالجها الأمل .

وامتلأ شيخ البلد احساسا ببطولة الذين حطموا السلاسل ، وناموا على ارصفة المحطات ، وملأوا الشوارع فى القاهرة وطنطا والمنصورة والفيوم وبنى سويف ، ولم يحفلوا بالرصاص .

وهز راسه متحسرا لانه لم يكن يعرف هذا كله ، وكان يمشى وراء العمدة ينفذ سياسة الذين وضعوا الحديد على مجلس النواب ، واطلقوا الرصاص على الناس فى الشوارع ..

واضطربت نفس شيخ البلد قليلا وحاول ان يسأل المحامى عن كلام قاله المحامى ولم يفهمه هو .. كلام قاله المحامى عن وجوب اعادة الحياة النيابية واطلاق الحريات لتنفرج الأزمة الاقتصادية ..

ولم يعرف شيخ البلد كيف يصوغ سؤاله .. ولكنه قال فجأة :

ـ طيب ويا حضرة الأستاذ ايه رايك فى القطن بقى ؟ مش حايشوف له يوم زى زمان .

وهز المحامى كتفه بسخرية وقال مستهزئا ان صدقى باشا اقتصادى جبار ذو كفاءات والانجليز فى حكمهم لمصر يعتمدون على أمثال هذه الكفاءات ! ..

وادرك شيخ البلد من ابتسامات السخرية ومن تجربته انه لا صلاح للقطن ولا لأى شىء فى مصر ما دام صدقى يحكم البر ومعه رجال يركبون ظهور الناس ، ويهزون ارجلهم .

واحس شيخ البلد أنه كان هو من قبل ، يعرف شيئا كهذا ، ولكنه كان فقط يريد ان يفهم من المحامى اين الطريق الى الخلاص ! .

ولكنه سكت لحظة ، وسكت المحامى والذين من حوله .. وصوت الشيخ ابراهيم يرتفع يتلو الآيات بالقراءات السبع ويعيد الآية الواحدة بأنغام ولهجات مختلفة ، والفلاحون يتصايحون اكثر من ذى قبل .. وقال احدهم :

ــ الله الله يا شيخ ابراهيم ! داحنا مش عايشين يا ولاد .

فجاوبه آخر :

ــ آه يا شيخ ابراهيم .. الهى يموت لنا كل يوم عمدة عشان نسمعك يا شيخ ..

بينما ارتفعت من خارج المضيفة شتائم قاسية تصطحبها جلبة عربة حنطور . ووقفت العربة بعيدا والشتائم تنصب على رجال يقفون امام حبل طويل ربطت فيه حمير المعزين بعيدا عن المضيفة .

واخذ الرجال يجذبون الحمير التى حملت المعزين من بلاد بعيدة . فواصلت العربة سيرها الى باب المضيفة ، بعد ما انفسح امامها الطريق من ركائب المعزين ..

وقبل ان تقف العربة امام الباب ارتفعت همهمة باسم محمود بك والمأمور ، وهب شيخ البلد من مكانه ، وجرى مسرعا الى باب المضيفة وقد تخلى ــ فجأة ــ عن كل هيبته التى ظل يدخل فيها منذ دخل المضيفة .

وخرج وراءه الى الباب محمد أفندى والشيخ الشناوى وبعض اعيان القرى المجاورة ليكونوا فى استقبال المأمور ومحمود بك .

وهمس احد الفلاحين لجاره فى ذعر واضح :

ــ المأمور ؟؟ يكونشى درى بحكاية حديد الزراعية ! .

فأجابه جاره باهمال :

ــ دهدى .. ما يدرى ! ..

وبدأ كل من فى المضيفة يقف .. الا المحامى الذى كان نائبا للدائرة فلم يتحرك لا هو ولا الذين جاءوا معه من عاصمة الاقليم ، ولا الشيخ حسونة .

وهمس المحامى قائلا انه لا سلام مع رجال الحكومة او رجال حزبها او المتعاونين معها كما يعرف الجميع ! ..

واستمر الشيخ ابراهيم يقرأ الآية التى كان يقرأها .. وكان يقرأ « بالسبع » ! .

وعندما كان المأمور يخطو باب المضيفة ، وهو يشد بدلته العسكرية على بدنه الغليظ المتكرش والفلاحون ينظرون اليه فى حذر ورهبة انطلقت الآية :

« وانظر الى حمارك » ..

ووقف المأمور فى المدخل والكل ينظر اليه والى بدنه السمين وصوت المقرىء يعيد :

« وانظر الى حمارك » ..

وتقدم المأمور الى منطقة الكراسى المذهبة ، والى جواره محمود بك فى طربوشه الفاقع الشاهق ، وجلباب بلدى ابيض ينسدل هفهافا على جسده الفارع .

ومن ورائه الشيخ الشناوى ومحمد افندى وشيخ البلد ، وبعض اعيان البلاد المجاورة .

وبدأ الواقفون يتنحون عن أماكنهم للمأمور ، ولمحمود بك .

وجلس المأمور فى صدر المضيفة .. مكان شيخ البلد ، وعن يمينه محمود بك ومحمد أفندى .

وتنقل الناس من اماكنهم ، وهبط بعض الذين كانوا على الكراسى المذهبة فجلسوا على الكنب ، وترك بعض الذين كانوا على الكنب اماكنهم ليجلسوا على الدكك الخشبية وذهب الشيخ الشناوى يجلس على دكة وسط الفلاحين .

والقى شيخ البلد بنفسه على طرف كرسى اخضر مذهب عن شمال المأمور ..

وشعر شيخ البلد بكبرياء وهو يجلس الى جوار المأمور ومحمود بك .

واستلقت عيون الفلاحين على المأمور ، والشيخ ابراهيم مازال يرتل بالسبع ، ويمد كلمات الآية :

« وانظر الى حمارك » ..

واحس المأمور بالأنظار تتجه اليه ، ورفع هو بصره قليلا الى المقرىء ليجاوز الآية .. ولكن الشيخ ابراهيم كان مشغولا باعادة الآية وترتيلها بأجمل ما يملك من صوت .. وبكل ما يعرف من طرق ، وحيل !.

اما شيخ البلد فقد ملأته الراحة ، وهو يتأمل الى جوار كتفه كتف المأمور .. واخرج من جيبه علبة سجائر ، اشترتها عائلة العمدة ليقدم منها للأكابر من المعزين .

ووقف امام المأمور وقدم له سيجارة ، وسيجارة اخرى لمحمود بك .

وعاد يقعد فى مكانه على طرف الكرسى الى جوار المأمور وهو ينادى :

ـ قهوة لسعادة المأمور يا جدع .

والشيخ ابراهيم ما زال يعيد فى الآية :

« وانظر الى حمارك » .

وابتسم القادمون من المركز مع المحامى ..

ومال المحامى على جاره وهمس فى اذنه واخفيا الضحكات ، وهما ينظران الى المأمور ومحمود بك ، والآذان تلتقط كلمات الآية ..

وسرت نفس الهمهمة فى الفلاحين ، وعيونهم محطوطة على المأمور وبدأ بعضهم يكتم الضحك .

واحس شيخ البلد بحرج كبير ..

ونظر الى المأمور فوجده مقطبا ينفث دخان سيجارته بعصبية وانفاسه تتردد عالية فى منخرية .. والى جواره محمود بك محتقن الوجه من الغضب ..

وهرول شيخ البلد الى المقرىء وهمس فى اذنه :

ـ شوف لنا آيه غير دى إلفى عرضك .. عدى الآية دى بقى .. بلاش تقرا بالسبع فى آية وانظر الى حمارك دى .. لاحسن الناس بتبص عالمأمور .

ولكن المقرىء نظر اليه باهمال واستهجان ، وثبتت يداه على صدغيه ، وحاجباه يرتفعان بغضون جبهته ، وانطلق يرتل :

« وانظر الى حمارك .. » .

واخذت الهمسات الساخرة تتزايد بشكل ملحوظ فى منطقة الكراسى المذهبة ذات القطيفة الخضراء الكالحة .

فصاح محمود بك فى ضيق :

ـ خلاص يا شيخ ابراهيم ؟! مافيش فى القرآن غير دى ؟! من ساعة مادخلنا وانت عمال تلت وتعجن فى الآية دى ! همه مصلطينك ؟! .

وانفجرت الضحكات صريحة قوية من الجالسين على الدكك .

فوقف المأمور قائلا فى صوت حاسم :

ـ صدق الله العظيم ! طب يا اخى ما تقرا آية وحشرناهم الى جهنم يوم القيامة وفدا .

ورد المحامى ضاحكا :

ـ ما فيش فى القرآن آية كده ، انتم حاتألفوا قرآن جديد ضد الوفد!

وسكت المقرىء .. مغضبا .

وسكت الضاحكون من فوق الدكك .

وجلس المأمور صارم الوجه ..

وخيم الصمت على الجميع لحظة .. ثم رفع المأمور يده ، ولوح بها للجالسين على الدكك وهو يقول :

ـ طيب يا بلد ! مش انتو بتوع حديد الزراعية .. مش انتو بتوع يحيا الوفد ..

فقال المحامى بطلاقة :

ـ ليسوا هم فقط ! دى مصر كلها كده يا حضرة المأمور .. وللا انت زعلان علشان حكاية يحيا الوفد دى خدت فى وشها المأمور اللى فات والحكمدار كمان ؟! امال الناس يعنى حاتقول يحيا صدقى ؟ حايقولوا يحيا حزب الشعب ؟ ولا يحيا الانجليز ؟ .. انتم فاهمين انكم رايحين تحكموا البلد بالحديد والنار ؟! لا .. دا بعدكم يا حضرة المأمور !! هيه البلد دى بتاعتكم ؟ انتم فاهمين ايه ؟ هيه بلد مين ؟ دى بلدنا كلنا : بلد الفلاحين دول اولا ! .. كفاية بقى شغل قطاع الطرق ده ..

وبهت المأمور ..

بينما شاعت الراحة والثقة فى قلوب الجالسين على الدكك فهزوا رؤوسهم فى رضى وهم ينظرون الى نائبهم السابق وهمهموا :

ـ قول له ؟! يمكن فاكرين ان البر ده بتاع حزب الشعب .

ولم يتكلم المأمور لبعض الوقت ..

ولكنه لم يشأ ان يرد ، حتى لا يدخل فى مناقشة فيقلب المأتم الى اجتماع سياسى .

وبعد صمت طويل متوتر قال المأمور فجاة بصوت كالنذير :

ـ من اللى رمى حديد الزراعية امبارح ؟ .

وهمس احد الفلاحين :

ـ هو عزا دا ولا تحقيق .

فقال له جاره فى سخرية هامسة بالمأمور :

ـ شوف شوف ! وانظر الى حمارك .. بس يا بتاع وانظر الى حمارك .

وكتما الضحكات فى كمهما .. بينما بقى الآخرون جامدين ينظرون الى النائب السابق ثم الى المأمور وقلوبهم تخفق من خشية المجهول.

ووقف شيخ البلد واقسم للمأمور انه لا يعرف من الذى رمى حديد الزراعة والخفير الذى كان يحرس الحديد يقول ان العفاريت اناموه ، ورموا الحديد فى الترعة .

ومضى شيخ البلد يقسم ان العمدة المرحوم كان فى صحة جيدة ولكنه عندما عرف الحكاية مات بحسرتها !..

وقدم للمامور سيجارة جديدة ، متملقا .

ونهض المامور من فوره قائلا :

ـ طيب انا حاعرف أربى البلد دى وأخليها عبرة .

وانصرف وكرشه يهتز قبل ان يشرب القهوة ومعه سيجاره لم تشتعل وانصرف معه محمود بك وهو يهدد .

وقام وراءه الشيخ الشناوى مهرولا معتذرا وتبعه شيخ البلد .

وقام محمد افندى يسير وراءهما مودعا فنظر اليه خاله الشيخ حسونة مؤنبا ولكنه لم يلحظ فناداه محنقا .. وعاد محمد افندى الى خاله على الفور فهمس خاله فى اذنه بكلمات قارصة وامره ان يحترم نفسه ، وينحط على الكرسى بدلا من الهرولة خلف المامور .

وركب المامور الى جوار محمود بك فى العربة الحنطور ، ووقف شيخ البلد وبعض اقارب العمدة على باب المضيفة يرفعون ايديهم الى رؤوسهم شاكرين للمامور سعيه ، ولكن المامور لم يرد ..

ووجهوا الشكر الى محمود بك ولكنه لم يجب ..

وعندما بدات العربة تتحرك ، اطل المامور على شيخ البلد ، وسلقه بالكلام !.

ومضت العربة فى طريق العودة والصغار والنساء امام الدور يهمهمون فى وجل واستغراب :

ـ الحكومة .. الحكومة كانت فى المعزى ! ..

***

وعاشت القرية بعد ذلك تتحدث لايام عن ماتم العمدة بلياليه الثلاث وعن الشيخ ابراهيم وعن زيارة المامور وكلامه ، وتطلق ضحكاتها وهى تسترجع حالة المامور حين فاجاه فى مدخل المضيفة .. صوت المقرىء يرتل :

« وانظر الى حمارك » .

وكانت القرية تقطع هذه الاحاديث لتتكلم طويلا عن الليلة التى رمت فيها الى الترعة بحديد الزراعية وشعبان .

واصبحت تلك الليلة تسمى فى القرية « ليلة الحديد » .. ويوما بعد يوم صارت كليلة حريق الانجليز ـ نبضا دافقا فى همود القرية!..

وظل دياب كلما التقى بعبد الهادى يذكره بصراخ شعبان حين التى

مع الحديد فى الترعة .. ثم يلعن شعبان ، والعمدة والحديد .. اعداء القرية الذين تخلصت منهم القرية فى ليلة واحدة .. بيضاء ! ..

وكان الفلاحون كلما رفعوا رؤوسهم عن الفئوس يقلدون صوت المامور وهو يتكلم عن ليلة الحديد ، ويهدد بتاديب القرية ، ثم يضحكون غير حافلين بما يمكن ان يصنعه هذا المامور الجديد ذو الكرش الكبير والبدن الغليظ !.

على ان الشيخ يوسف فقد اهتمامه بكل هذا . وانشغل بالتفكير فى امر العمدة الجديد !.

من يكون العمدة الجديد ؟.

يجب ان يكون من عائلة اخرى غير عائلة العمدة القديم !.

ان عائلة العمدة القديم متفرقة متخاصمة ، ولا احد فيها يملك الزمام المطلوب من الارض .. ولكن الشيخ يوسف يعرف ان هذه العائلة تتفق حتما على اختيار شيخ البلد .. فافرادها يختلفون ، ويضربون بعضهم ، ويتخاصمون امام المحاكم والواحد منهم لا يطيق اخاه .. ولكنهم كالكلاب يجتمعون لينبحوا معا .. عندما يظهر غريب .

وتحدث الشيخ يوسف فى الامر مع محمد ابو سويلم ، فقال محمد ابو سويلم باصرار :

ـ والنبى شيخ البلد ماهو شايفها ، لما حتى تنقلع عينه بشطيه..

ولم يكن محمد ابو سويلم قد فكر بعد فى رجل بالذات يمكن ان يصبح هو العمدة ، ولكنه فقط كان يقول دائما :

ـ عايزين نبعد عن السلسال النجس ده .. قال بيقولوا ان اجواز بنات العمدة جم من البلد دى والبلد دى ، واتفقوا مع العيلة كلها انهم يسيبوا العمودية لشيخ البلد ! يا اخى دا بعده ! والله العيلة دى ماهى طايلاها تانى ..

***

وذهب الشيخ يوسف الى المركز ذات يوم فاشترى شالا جديدا لعمامته ، وعاد بجلباب من الكشمير فلبسه ، وظل يطوح اكمامه متخايلا ، ويرفع ذراعه ، ويكشف عن كم طويل لفانلة جديدة صفراء .

وقعد يوما مع الشيخ حسونة واخذ يهز يده ليكشف عن كم الفانلة ، ويتحسس الجلباب الكشمير والصديرى الشاهى ، ثم قال فى ضعف :

ـ شايف يا حضرة الناظر ؟! آهو كل ده للعمودية ! يا سلام كده عليه انا بقى لو بقيت عمدة ؟! .. دانا انطلى فى العمودية قوى ياحضرة

الناظر ! والنبى انا معطلى فيها !! لما يقولوا لى كده يا حضرة العمـدة ، تبقى كده خايله عليه !.. شايف بقى لبس العمد .. هىء هىء .. آهو انه حضرة الناظر ، وانا حضرة العمدة !.

وكانت الفاظه تقتحم فمه فى خجل وتردد .. وهو يحاول جاهدا ان يستر ضعفه فى ضحكات متكسرة يسوقها الى شفتيه .

ولم يرتح الشيخ حسونة لكل هذا فقال :

ـ خبر ايه يا شيخ يوسف ؟! دى العمودية قلت عقلك ! عمـودية ايه يا راجل ؟ عمودية ايه وهباب ايه اللى شاغل به نفسك ؟! يا شيخ وفر فلوسك يا شيخ انت وهات بهم هـدمتين للاولاد ، بدل ما هم دايرين بهدومهم مقطعة ؟ ايه اللى لبس عمد ؟ كلام ايه ده ؟ ايه الكلام الخايب ده ؟!.

وصـدم الشيخ يوسف من هـذا الكلام ، ولكن الشيخ حسونة كان حاسما جافا لا يجامل ، ونظراته تنبعث فى حدة واستخفاف !

وبعد لحظات من الصمت ، تكلم الشيخ حسونة طويلا عن محمود بك وكيف يلعب بالقرية كعادته .. فهو ينتهز فرصة خلو العمـودية ليشبع لعبا ويأخذ مالا من هذا ومن ذاك وفى النهاية يسعى ليكون هو نفسه عمدة .

وظل الشيخ يوسف يسمع فى خجل ..

ولم يعد يتحدث فى أمر العمودية مع أحد ..

وفكر فى صمت أن يدبر مالا لمحمود بك كما صنع الآخرون . ولكن عبد الهادى شعر به فسخر منه .. فاقسم الشيخ يوسف الا يتكلم مرة اخرى فى الموضوع .

وشطح فكره فى علوانى !..

لو ان علوانى فى القرية لكان هو الوحيد الذى يطرب لتفـكير الشيخ يوسف .. ولتحمس وهز ذراعيه ولصاح بكلمات كثيرة مختلطة تملأ النفس بالكبرياء والعزة والأمل !.

انهم هنا كلهم يكسرون النفس .. فأين علوانى ؟!.

ولكن علوانى الآن فى سجن المركز !.

ربما كانوا يضربونه ويسقونه بول الخيل .. بلا ذنب !.

وعادت الحسرة على علوانى تفيض فى اعماق الشيخ يوسف وهـو يستعيد فى خياله كل ما صنعه العمدة الميت فى القرية ! .

واسترجع موقف محمود بك من العمدة والقرية .

ووثبت الى ذهنه صور عديدة لما ارتكبه محمود بك فقال لنفسه ان الشيخ حسونة وعبد الهادى على حق !..

ولكن المهم الا يسمح لاحد من عائلة العمدة القديم بأن يكون عمدة..

وخلع الشيخ يوسف جلبابه الكشمير والفانلة الصفراء الجديدة والصديرى الشاهى وعاد يلف عمته بالشال القديم ويجلس فى دكانه يقرأ « سيرة ابو زيد الهلالى » ، ويقف طويلا بالصفحات التى تروى صبر « ابو زيد الهلالى » على نكد الايام .. ثم يمتلىء حماسا وهو يقرأ انتصار البطل بعد هزيمة ، وسطوع نجمه بعد أفول .!

***

ومضت الايام بالقرية دون أن يعرف احد فيهـا من هو العمـدة الجديد .

وفى الحق ان أمر تعيين عمدة جديد لم يكن يشغل الفلاحين فى الحقول ، فقد كانوا يقولون لبعضهم انه لا يهم أن ينكشح عمـدة ، ويجىء آخر ، فالعمدة الجديد لن يرفع سعر القطن ، ولن يعدل مواعيد الرى ، ولن يغير مشروع الزراعية .. مادامت الحكومة فى مصر باقية كما هى .. فى يد حزب الشعب !.

لم يكن احد على الاطلاق يفكر فيمن هو العمدة الجـديد الا ثلاثة رجال او أربعة يريد كل واحد منهم أن يكون عمدة .. ومن ورائهم قلائل يعنيهم الموضوع !..

اما بقيـة القـرية فقـد كانت تفكر فى موقف الحكومة بعـد أن رمت القرية حديد الزراعية ، وفيما يمكن أن يصنعه المأمور بعـد أن انذر القرية فى مأتم العمدة .

وقالت وصيفة لأمها انها حلمت حلما اخافها ..

وقاطعتها امها منزعجة قبل أن تحكى الحلم :

ـ ما تفسريشى فى وشى ! ربنا يجعله خير ! ربنا يفوت السنة دى على خير ! هيه يعنى الحكومة حاتسكت على ليلة الحـديد ؟ ياما انا مشغولة على ابوكى.! يا عالم الحكومة ناوية تعمل ايه فى رجالة البلد.. على الله السنة دى تفوت بس بالطول ولا بالعرض .

كان قد مر اكثر من اسبوع على ليلة الحديد ، وبدات عائلة العمدة تحتفل بالخميس الثانى لموته .

وحضر ازواج بناته من البلاد المجاورة ..

وامام مقبرة العمدة ، التى تقع فى اول الجبانة ، منفصـلة عن

بقية المقابر ، وراء اسوار تميز المقتدرين بعد الموت .. هناك امام المقبرة، بعد صلاة العصر ، جلس المقرئون والى جوارهم على الحصير .. اولادهم الصغار .

واخذ المقرئون يطوحون رقابهم فى حركات منتظمة متحمسة وهم يتلون فى سرعة « سورة يس » و « سورة تبارك » . .

واخيرا قرأوا الفاتحة فى صوت واحد ، وهم يلتقطون الفطائر والتين البرشومى من يد شيخ البلد .. رحمة ونورا على العمدة .

وعندما انصرفوا همس شيخ البلد فى اذن احد المقرئين ، وطلب منه ان يذهب الى الدوار ليتلو القرآن هناك من فوره ، وسيقبل الشيخ الشناوى يسنده فى القراءة ، بعد صلاة العشاء .

وفى الطريق من الجبانة الى القرية قال شيخ البلد للعائدين معه ان المامور ارسل اشارة تليفونية اليه ـ بصفته نائبا للعمدة ـ يخبره بأن الهجانة مقبلون الى القرية ، وان التجول ممنوع بعد اذان المغرب .. ابتداء من اليوم .

وسكت شيخ البلد قليلا ، فتجمع الناس حوله يسالونه فى اهتمام عن الهجانة وعما يعنى المامور بكلامه « ان التجول ممنوع » .

وقال شيخ البلد فى لهجة آمرة ان الهجانة مقبلون لحماية الامن فى البلدة ، بعد ان اضطرب . وسترسل الحكومة مرة اخرى حديد الزراعية ، وعلى اهل البلد ان يلزموا دورهم من المغرب !.

وساد صمت تقطعه انفاس تتلاحق من الرهبة .. ولم يكن فى الفضاء غير شعاع العصر الشاحب ، وغربان تطير هنا وهناك وهى تنعق !.

ومشى شيخ البلد . ويداه معقودتان وراء ظهره ، وخيزرانته الطويلة تحت ابطه .

كان يسبق الناس فى طريق العودة الى القرية ، وهو يقول بأنفه ان هذه هى أوامر الحكومة ، وهو يبلغها بصفته نائبا للحكومة .. وكل حى يعرف شغله !.

وبعد قليل ارتفع صوت من ورائه قائلا :

ـ ويعنى هجانة على ايه ؟ احنا عملنا جريمة ! وحايعملوا لنا ايه الهجانة يعنى ؟!.

والتفت اليه شيخ البلد ، ورفع الخيزرانة الطويلة فى يده قائلا :

ـ اسمع ياوله ! واد انت يا لمض ! انا هنا نايب الحكومة ! انت فاهم ؟ بلاش لماضه ! انا ما عنديش غير ضرب الوطا .. فضك بقى من

الزمان داكا ! ايوه انا حكمى حاجة تانية ! سامعين كلكم يا بلد !.. انا حكمى كده ! باقول لكو اهه ؟ انا هنا نايب الحكومة ومسئول عن الامن!.

ثم اندفع شيخ البلد فى طريقه ..

وبدات حمرة الأصيل تغمر الأشعة الصفراء .. آخر اشعة النهار ، وشيخ البلد ومن ورائه الرجال والمقرئون يدخلون القرية ..

ومن بعيد تعالت دفعة واحدة صرخات متوالية مفزعة .. واقتحمت الطريق جاموسة تجرى ، ومن ورائها حمار يضرب الفراغ برجليه الخلفيتين .. واصطدم غلام صغير اثناء جريه المضطرب بالوز يهرب .. فزعق الوز وصفق بأجنحته . وامتلأ الفضاء بأصوات الذعر وماج صراخ النساء والاطفال والحيوان . والكل يصيح :

ـ الهجانة وصلو يا وقعة غبرا يا جدعان ! الكرابيج اشتغلت فى البلد ! اجرى يا وله ..

وكان بعض الرجال يقبلون لاهثين صفر الوجوه .. فيختلطون بكل الأشياء الهاربة من امام الكرابيج !.

وخلال الكلمات المضطربة التى تساقطت من افواه الهاربين عرف شيخ البلد ما حدث ..

هبط رجال الهجانة بالكرابيج ، ومروا على الزرائب فى الحقول على الجسر فانهالوا ضربا على الفلاحين ، وامروهم بالرجوع الى الدور .. ثم نزلوا الى القرية يسوقون امامهم الرجال والأطفال والبهائم ، واخذوا يضربون كل من يقابلهم فى طرقات القرية ويامرون الناس ان يلزموا بيوتهم .

ضربوا كل من قابلهم حتى الشيخ يوسف ضربوه واغلقوا دكانه !.

وذهل الرجال الذين كانوا مع شيخ البلد ، وسيطرت عليهم حيرة جزعة .. بينما وقف شيخ البلد يحاول ان يحمل اليهم الطمانينة ، وما دام هو معهم فلن يمسهم احد بسوء .. وهو نائب الحكومة ، كما يعرفون، ويعرف الهجانة !.

وعندما كان شيخ البلد واقفا فى مدخل القرية ثابتا يهدىء الرجال ويامرهم ان ينصرفوا الى دورهم آمنين ، طلع الهجانة من زاوية الطريق، والكرابيج الطويلة تفرقع !.

وهمهم الرجال وعيونهم قلقة توزع نظراتها على الكرابيج السودانية الملفوفة بالسلك الأصفر ، بينما تقدم شيخ البلد بخطوات ثابتة الى الهجانة قائلا :

ـ أنا نائب الحكومة هنا ! حاسب يا حضرة الشاويش كده وقول لى انت اسمك ايه ..

ولكن الشاويش الذى كان يتقدم الهجانة ، رفع يده بالكرباج وفرقع به فى الهواء ونهر شيخ البلد ، وأمره بأن يسرع الى داره قائلا ـ باعتداد ـ انه هو الشاويش عبد الله ولا كلام له مع احد !

ووقف شيخ البلد يشرح للشاويش ولثلاثة جنود معه ، انه نائب الحكومة فى البلد ، ولكن الكرباج هوى عليه وظل يهوى ، وهو يزعق ، حتى اضطر آخر الأمر الى ان يجرى من طريق الهجانة ، ليصل الى بيته بجوار دوار العمدة عن طريق آخر !..

وغاب شيخ البلد فى زحام الرجال الذين جروا ، وذعرهم يختلط بالسخرية قائلين :

ـ ضربوا نايب الحكومة ياجدع ! اجرى ياوله .. الحكومة ضربت نايب الحكومة !.

وبعد لحظات كان كل رجل يسكن الى داره وهو يرتعد من المفاجاة !

وعندما اقبل الليل كان الخوف قد اخذ يزايل النفوس وبدات الصور تطوف بالرؤوس حاملة الضحكات الى الشفاه ..

فقد اخذت القرية تضحك من قصة الشاويش عبد الله وشيخ البلد .

وكان جيران الشيخ الشناوى يضحكون وهم يذكرون اصرار الشيخ الشناوى على ان يخرج الى الجامع لصلاة العشاء ولقاءه مع الشاويش عبد الله .. لم يكد الشيخ الشناوى يسمع فرقعة الكرباج فى الهواء ويرى منظر الشاويش عبد الله ، حتى جرى عائدا الى داره وهو يلعن البلد وأهلها والجامع والصلاة .. والذين يصلون فى الجامع !.

وفى الصباح كان الفلاحون يتحدثون عن حديد جديد ارسلته الحكومة للزراعية ..

وكان علوانى يعود من المركز بعد أن بان انه لم يقتل خضرة .

وسمع علوانى بما صنعته الهجانة فتساءل أين بات رجال الهجانة بالأمس ؟ ولم يجد جوابا . وعاد يسال : أين شربوا الشاى !

ولاح سؤاله للناس فى القرية غريبا حقا ..

وتمنى علوانى بينه وبين نفسه لو انه كان ما يزال يملك الخيمة التى ورثها عن أبيه والتى كان يقيم فيها اول صباه .. ولكنه باعها منذ زمن ، ليبيت فى الحقول التى يحرسها !.. لو انه كان ما يزال يملك

هذه الخيمة ـ وراء دور القرية ـ لاستضاف فيها رجال الهجانة ، وسقاهم الشاى !.

وقال علوانى :

ـ لو كنت انا هنا فى البلد ما كانش دا كله حصل .. حاكم دول عرب .. لكن مسيرهم ياخدوا عالفلاحين ..

واستقبله الشيخ يوسف بحرارة ، وسأله عن حاله وعما حدث له فى السجن .. ولم يحفل علوانى بأن يحكى للشيخ يوسف ، وانما اهتم بمواساته لأن رجال الهجانة ضربوه .

وقف علوانى طويلا مع الشيخ يوسف يطيب خاطره على ما وقع له من الهجانة . فقال الشيخ يوسف باشمئزاز وكبرياء :

ـ يا واد الزعما بتوع البلد انضربوا فى بنى سويف والمنصورة والفيوم ، وانضربوا فى مصر قدام البرلمان !..

فقال علوانى بلهجة مطمئنة :

ـ على كل حال دول عرب يابا الشيخ يوسف ! دول مشايخ عرب .. عرب اجاود .. لكن اللى فى المركز قالوا لهم اضربوا الفلاحين .. نزلوا ضرب فى الفلاحين .. آدى الشغلة !..

فأجابه الشيخ يوسف بوجيعة :

ـ ياك تنشغل فى بطنك ؟!. شغلة ايه الغبرا دى .. بيضربونا ليه؟ علشان الزراعية .. عشان كلام الباشا والحكومة يمشى على رقابنا ؟ هه !.. وهيه الحكومة عاملة لهم ايه يعنى لما يسمعوا كلامها قوى كده! لبستهم حرير ؟ اكلتهم عيش قمح ؟ مشت لهم المركب فى الشراقى ؟ جاتكو الغم عرب !! لو ما كانوش عرب ، لو كانوا يعرفوا غلاوة الأرض وحلاوتها وشقاها لو كانوا بيزرعوا ويقلعوا كانوا عذرونا . بقى لو واحد منهم بيزرع وجات الزراعية خدت غيطه كان جايسكت ! كانوا يعملوا ايه جاتكوا عمل يطير عقلكم يا صنف العرب ..

فقال علوانى مهدئا به :

ـ معلش يابا الشيخ يوسف .. بكره ياخدوا عالبلد .

فقال الشيخ يوسف وهو يتحسس آثار الكرباج تحت ملابسه :

ـ ياك تاخدكو غاره بحق جاه المصطفى يا شيخ .

ثم استرسل يقول فى ندم :

ـ يعنى لو اجرت القراطين اللى حيلتى وفتحت الدكانة دى فى مصر !! يا ريتى عملت كده وخلصت من وجع القلب ده ! وهيه دى بلد تنسكن !.

وفى تلك اللحظة بالذات .. كان الشاويش عبد الله يجلس فى دوار العمدة يفكر فى ابيه الذى تركه فى الصحراء البعيدة جنوب اسوان ..

وكان يفكر فى أمه ويحدث نفسه فى ندم انه ضرب فى هذه القرية رجالا كأبيه ، ونساء كأمه !..

وضرب أيضا أطفالا صغارا كاخوته .. وكالأطفال الذين أحبهم فى قريته .

كان الشاويش عبد الله مازال يسأل نفسه لماذا ضرب هؤلاء الناس جميعا بلا رحمة !..

لماذا جعل القرية كلها بالأمس تطوى يوما حزينا يائسا ..

ولم يجب الشاويش عبد الله على نفسه .

وانما قام ومعه رجاله عند الأصيل ، واستعدوا للطواف فى طرقات القرية عندما تغيب الشمس ..

وقبل الاصيل كان الفلاحون يعودون الى دورهم مسرعين يسوقون البهائم من حوض الجسر وحوض الترعة ، ومن وراء البهائم فتيات حافيات يتزاحمن على التقاط الروث ..

وعندما مر العائدون من الحقول بالمكان الذى ستنشق فيه السكة الزراعية رأوا الحديد الجديد قد هشم مزيدا من الأعواد الخضراء وقد انحدرت على تراب الارض قطع كثيرة من القطن الأبيض .

وزحفت الحسرة على النفوس .. وفى كل صدر يتردد سؤال حائر حزين .. ما العمل ..

وقبل ان تغرب الشمس .. كان كل حى فى القرية يغلق باب داره قبل أن يظهر فى الطريق كرباج الشاويش عبد الله !.

٢٠

ثم اقبل الخريف على قريتى !..

ولم تكن الذرة الجديدة قد نضجت بعد فى الحقول، بينما دور الفلاحين قد خلت تماما من الكيزان القديمة . .

وكنت أجلس بعد كل عصر تحت ظل الجميزة على ساقية عبد الهادى ، أفكر فى المدرسة الثانوية التى سأدخلها لأول مرة بعد اسبوعين ، وفى الحلمية الجديدة التى تملأها همهمة حزينة من امسيات الخريف ، وأسترجع كل ما قرات من كتب وروايات خلال أجازة الصيف ..

وتعودت ان ارجع الى بيتى .. والشمس تنحدر عبر النهر ، الى الأفق الذى يغيب وراء أشجار التوت المتوجة بطيور صغيرة بيضاء ، تنطلق عند المغيب ، لتجرى هنا وهناك فى الفضاء ، وخفقات اجنحتها تذوب فى همهمة المساء !.

لم اكن استطيع ان انتظر على الجسر ابدا حتى تختفى الاشعة الحمراء فقد غضب أبى على من أول الأجازة لأنى تأخرت مرة على الجسر فى انتظار وصيفة الى ما بعد صلاة العشاء فأمرنى الا ابرح البيت وحدى طول الصيف !..

وعندما جاء الخريف على قريتى كانت اعواد الذرة قد ارتفعت واصبحت اطول من اى رجل !..

واعواد الأذرة التى ترتفع مثقلة بالكيزان الجديدة على طول الجسر كانت تعنى لنا نحن الصغار كل مخاوف المخبأ فى المغيب وعديدا من قصص قديمة عن رجال اقبلوا من قرى بعيدة وتربصوا فى حقول الذرة ليضربوا احد اهل القرية بالعيار !.

ومن أجل ذلك فقد كنت ابرح مكانى على الساقية ، حين يتخذ الماء لونه الذهبى الداكن عندما تعكس صفحته شحوب الأصيل والظلال .

وكنت وانا على الساقية أسترجع ما قرات فى الصيف ..

كنت أسترجع دائما كتاب « الايام » و « ابراهيم الكاتب » و « زينب » .

وكنت ارى فى قريتى اطفالا عديدين اكل الذباب عيونهم كالقرية التى عاش فيها صاحب الأيام .

وتمنيت لو أن قريتى كانت هى الأخرى بلا متاعب ، كالقرية التى عاشت فيها « زينب » .. الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء ، والحكومة لا تحرمهم من الرى ولا تحاول ان تنتزع منهم الأرض او ترسل اليهم رجالا بملابس صفراء يضربونهم بالكرابيج ، والأطفال فيها لا يأكلون الطين ولا يحط الذبات على عيونهم الحلوة !.

وتمنيت لو ان قريتى كانت هى الأخرى كقرية « زينب » لا ينزل فيها من الرجال والنساء بعد البول دم وصديد ولا يدهم أهلها المرض المفاجىء فى جنوبهم ، فيتلوى الانسان منهم لحظة ، ويطلق صرخات يائسة فاجعة من حدة الالم ..

ثم يسكت .. يسكت الى الابد !..

كانت قريتى هى الاخرى جميلة كقرية « زينب » واشجار الجميز والتوت تمتد على جسرها وتلقى ظلالها المتشابكة على ماء النهر .

وكان النهر فى الظهر يبدو تحت أشعة الشمس كصفحة من فضة ، وفى الأصيل يبدو من ذهب ، وفى الليل كان مختلجا قاتما يتسكع فى طريقه الى المجهول كالحياة فى قريتى !.

وفى حوض الترعة من قريتى ــ حيث تنتزع الحكومة الأرض ــ كانت الحقول مجللة بمساحات رائعة بيضاء من القطن وعلى حوض الجسر تمتد السماء بلا نهاية فوق خضرة متموجة من حقول الذرة ، تتراقص ذوائبها الشقراء ..

وكان النساء فى قريتى يحملن الجرار ، كنساء القرية التى عاشت فيها « زينب » وكانت لهن ايضا نهود .

ومن بينهن كانت وصيفة ضاحكة ريانة مفعمة بيضاء ممتعة تثير الخيال .. أكثر مما كانت « زينب » فى الكتاب الذى قرأته !..

ولكن وصيفة كانت شاحبة بعض الشىء .. كان شىء ما يحبس بعض الدم على وجنتيها ، ويلقى على فتنة وجهها لونا من الذبول ويحبس كنوز جسدها الانثوى وانطلاق نفسها مع الحياة ..

على أن قرية « زينب » لم تعرف طعم الكرابيج ، كما عرفت قريتى .

ولم تذق قرية « زينب » اضطراب مواعيد الرى ، ولم تجرب بول الخيل يصب فى الأفواه .

ولم تعرف قرية « زينب » زهو النصر وهى تتحدى القضاء والانجليز والعمدة والحكومة وتنتصر لبعض الوقت .

و « زينب » التى لم تكن أبدا على الرغم من كل شىء جميلة كوصيفة .. لم تذهب الى قاعة الطحين ذات يوم لتعود الى امها باكية .. كما صنعت وصيفة عندما رايتها لاول مرة بعد ان انقطعت عن رؤيتها طوال شهور الصيف !.

***

كنت اذ ذاك قد سمعت عن الشاويش عبد الله وعرفت كثيرا مما صنعه بأهل قريتى .

وكنت اتخيله لكثرة ما سمعت عنه رجلا طويلا كالباب مليئا مثل كيس القطن ، شديد السواد كهباب الفرن ، اسنانه بيضاء كالجبن .. لا يضحك ولا يتكلم ولا يجيد غير الضرب بالكرباج !

وكنت اسمع اشياء عجيبة عنه ، منذ هبط الى قريتى ..

فاهل قريتى يملاون حياتهم بالحديث عنه حتى أصبح الشاويش عبد الله جزءا من امثال القرية وحكمها وتراثها ..

فاذا جاءت الى القرية بائعة بدينة سمراء تهامس الناس فيما بينهم: « الشاويش عبد الله » !..

واذا زعق رجل قالوا ضاحكين « يعنى الشاويش عبد الله » ؟

والصغار فى القرية حين يلعبون يلتقط احدهم فرعا من التوت ويهوى به على زملائه قائلا « انا الشاويش عبد الله ! » وربما وقف امامه صغير آخر بفرع من التوت وقفز وتواثب قائلا : طب وانا عبد الهادى ؟».

ولم يكن لعبد الهادى لقاء مع الشاويش عبد الله بعد ، ولكن الصغار كانوا يتخيلون هذا اللقاء دائما ويتساءلون عمن يغلب !

وفى الحق انى ظللت اسمع قصصا غريبة عن الشاويش عبد الله . ولكنى لم اره .. فلم يكن يتاح لى ان اخرج من البيت طول الصيف ، واقبل الخريف واوشكت الاجازة على نهايتها وسمح لى بالخروج وحدى على أن أكون فى البيت ، قبل أن يهبط المغرب على القرية !..

وسمعت فجاة ان الشاويش عبد الله لم يعد يضرب أهل القرية ، وشرع الناس يقولون عنه انه رجل طيب .

وحكى لى احد الاولاد انه راى الشاويش عبد الله يضحك !.

وسمعت ايضا انه زار الشيخ يوسف فى داره وضحك معه ، وانه جلس ليلة مع الشيخ حسونة ومحمد افندى وعبد الهادى على مصطبة محمد ابو سويلم افنادى محمد ابو سويلم ابنته وصيفة ، وامرها ان

تحضر القهوة ولكن الشاويش عبد الله طلب الشاى فاعدته وصيفه ، وعندما ذاقه الشاويش عبد الله تنهد بارتياح قائلا :

ـ يدوم الحماس يا عرب ..

فضحك الجميع وانبسطت وجوههم ، وادركوا انهم يجلسون مع واحد من الناس مثلهم !.

وعلمت أن الشاويش عبد الله اصبح الآن يترك الشيخ الشناوى يذهب الى الجامع لصلاة العشاء ، ويسمح للشيخ يوسف بفتح دكانه حتى صلاة العشاء ايضا وانه يجلس عادة على مصطبة محمد ابوسويلم ويأمر رجاله الثلاثة أن يطوفوا بالقرية ليدخلوا الناس الدور بهدوء ثم يعودوا اليه على مصطبة محمد ابو سويلم .

وتهامس بعض اهل القرية ان الشاويش عبد الله نوى الزواج من وصيفة وانه لم يكلم اباها بعد ولكن الأمر مفهوم .. وقال الآخرون انه تكلم معه واتفقا ولكن محمد أبو سويلم يكتم الأمر .

وشاقنى أن ارى الشاويش عبد الله وان أعرف كيف يتكلم هذا الرجل الذى ضرب القرية كلها بكرباجه لأول يوم اقبل !! وهل هو يضحك حقا ؟!.. وهل يمكن ان يكون له كالآخرين زوجة واطفال ؟!.

واحسست بالحاجة الى رؤية وصيفة ..

ربما لأنى لم ارها منذ زمن طويل او لأنى سمعت انها ستتزوج من الشاويش الغريب .. أو ربما لأنى مسافر عن قريب ..

وعلى اية حال فقد ذهبت اليها ذات صباح .

كان الضحى يملأ طرقات القرية بشمس سبتمبر الفاترة والأنسام تهب على القرية رفيقة طلقة رفافه .. وكان باب دار وصيفة مفتوحا الى آخره ككل الأبواب فى القرية أثناء النهار .

وقبل ان أدخل الى الدار سمعت أم وصيفة تستعجلها أن تعود من قاعة الطحين بما بقى من كيزان الذره لتحمصه فى الفرن وترسله الى الطاحونة .. فقد انتهى الخبز !..

وتقدمت أنا خطوة ، وجاوزت عتبة الباب الى داخل الدار ، فزعقت الاوزه التى كانت تسير متمايلة الى الباب ، وصفقت بجناحيها قليلا !..

وخرجت وصيفة من قاعة الطحين فى آخر الدار ووجهها محتقن بالغيظ وفى عينيها دموع لم تنسكب بعد .

وسمعت صوتها يتهدج :

ـ مافيش دره للتحميصه يا أمه ؟..

وخفق قلبى فجاة وفتحت عينى فوجدت أم وصيفة قد شحب وجهها تماما .

ووثب الى ذهنى ما قاله لى ابى بالأمس عندما رفضت ان تصلح لى بدلة احد اخوتى الكبار وبكيت فى طلب بدلة جديدة اذهب بها الى المدرسة الثانوية .. فقد نظر الى ابى ـ اذ ذاك ـ بعطف حائر وهو يقول :

ـ يا ابنى دا حتى اللقمة بقت نادرة .. بدلة جديدة ايه بس والناس بتشقى على لقمة العيش !..

واستدرت على الفور ، من دار وصيفة ، ومشيت على مهل وانا منقبض حزين قبل ان أسأل وصيفة عن حكاية الشاويش عبد الله .

وعندما جاوزت العتبة الى الطريق سمعت امها تقول باذعان :

ـ طب كتفى الوزه دى ودورى بها على حد يشتريها اهى تجيب كيلة دره .. شوفى كده محمد افندى ولا الشاويش عبد الله ! يارب .. لنا رب .

وازدحمت نفسى بمشاعر عديدة مختلطة .. وفكرت فى ربها هذا متى يملأ القاعة بالطحين .. ويجود على بالبدلة الجديدة ؟..

متى ؟ وكيف ؟..

وتذكرت ان قاعة محمد ابو سويلم لن يدخلها الذره هذا العام .. فالذره الجديدة فى حقله بحوض الترعة ستبتلعها الزراعية وستبلع ايضا حقل القطن ..

وتمنيت ان ارى عبد الهادى على الفور وان اتحدث اليه ولكنى لم استطع فى ذلك الضحى ان اراه .

وعدت اقلب صفحات رواية « زينب » و « ابراهيم الكاتب » ولكنى لم اجد ابدا ما يحمل العزاء ..

.. لم اجد مأساة قريتى .. وتمنيت ان اصنع كالشيخ يوسف والتقط نفسى الشاردة من خلال قراءة كتاب كبير أصفر يروى قصة البطولة والصبر كرواية « عنتر » أو « أبو زيد الهلالى » ! ..

***

وفى الاصيل عندما كانت الظلال المليئة بالهمسات تغمر الأشعة الحمراء ، انحدرت انا على الجسر عائدا الى القرية كعاتى .

كنت افكر فى اشياء كثيرة لا اتبينها ، والوحشة تنزح الى صدرى

فتغشاه مع ظلال المغرب ، واحلام بالمجهول تضطرم هنا وهنــــاك فى الاعماق منى ..

احلام يختلط فيها ابطال القصص التى قراتها بمظاهرات القاهرة ، بالمدرسة الثانوية ، ووصيفة ، والممثلين الذين أحبهم ، وجارات لى فى الحلمية الجديدة . وذكريات العذاب الذى لقيــه الرجال فى سـجن المركز ! .

كان الناس قد عادوا بالبهائم من الحقول .. تمــــاما كما امرهم الشاويش عبد الله ..

ولم يعد فى طريق الجسر غيرى .. والمساء .

ومن بعيد ارتفع صوت قوى جاف على نبرات حزينة :

نار الحطب دوم ولا نار المحبة يوم
نار الحطب تنطفى ونار المحبة تدوم

كان هو عبد الهادى يخرج من حقل الذرة الذى يســتلقى تحت الســـاقية من وراء بطن الجسر ، وفى احدى يديه حزمة من الحطب الجاف ويده الأخرى تسند الى ظهره حملا من الدره مليئا بالكيزان ..

والقى عبد الهادى حمله امام الجميزة دون أن يقطع غنــاءه ، وبدأ يخلع الكيزان من اعوادها ..

كنت انا قد سرت خطوات على الجسر فى الطريق الى القرية ،واذ رايت عبد الهادى ناديته فرحا بلقائه .

وطلب منى ان اعود واقعد على الساقية قليلا ليشوى لى كوزين ، ولكنى صممت على الرواح الى البيت فما ينبغى ان اتاخــر على الجسر حتى يقبل الليل .

وصحبنى عبد الهادى ومضينا الى القرية ..

.. وفى الطريق علمت منه أن الشاويش عبد الله طالع الى الجسر، فى حلق المغرب ، بعد أول لفة فى القرية .

واهتزت نفسى ، وتمنيت لو عدت الى الجميزة لأسهر قليــــلا مع الشاويش عبد الله ..

وطلبت من عبد الهادى ان يستأذن لى ابى . فاعود معه .

وبعد المغرب كنت أطلع الجسر مع عبد الهادى واجلس الى جوار الساقية . كان كل شىء من حولنا ساكنا .. وعبد الهادى يحدثنى عن سفرى القريب ويقول وهو يصفق بيديه :

ـ شى الله يا مصر .. امانة يا شيخ تســــلم لى على مصر .. بقى

محمد افندى يروح مصر ويرجع زى ما هو..حتى ما يقول انــــاشى حاجة عن مصر ؟ آه لو كنت انا اللى رحتــك يا مصر ! حاكم اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى «

واستمر يقول ـ نشيطا ـ فى نغم ، وهو يرفع حاجبيه ، ويبتسم :

دا اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى ...

ولم افهم بالتحديد ما يحبه عبد الهادى فى المدينة الكبيرةالمصطخبة التى اعيش فى مدارسها بين واجبات الحساب واللغة الانجليزية وعصى المدرسين !.

وحاولت ان احدث عبد الهادى قليلاً عما رايته فى شوارع المدينــة التى يحسب ان الذى بناها حلوانى ..

وحاولت ان احدثه عن الذين يسيرون فى الطريق واجمين . وعن التلاميذ الذين يذهبون الى المدرسة بأحذية ممزقة يدارون فيها رتوق الجوارب .. عن البنطلونات المفتوقة ، والبدل الناحلة ، والرصاص فى الشوارع !.

ولكنى وجدت نفسى احدثه عن وصيفة واحكى له كيف بكت لانهــا لم تجد فى قاعة الطحين ذره ..

وقطع عبد الهادى ابتسامته ، وقطب .. واطرق براسه لحظة .. ثم رفع وجهه ونظر فى الظلال التى تلقيها اشجار التوت على الشاطىء المقابل للنهر وتختلط هناك بعتمة السماء .

واخيرا قال بصوت خفيض :

ـ يا عم ما الدنيا كلها اتنيلت بنيلة .. حد عارف ايه اخرتهــا .. دا الناس من الجوع قربت تاكل بعض ! والحكومة شاطرة تبعت لنـــا هجانة تدخلنا الدور من قبل آذان المغرب ! طب ما هى الناس بيسرقوا فى النهار عينى عينك ! حد بيسرق بالليل .. يا شيخ والله دا النــاس بتسرق الدره الأخضر من الغيطان ويحمصوه وياكلــوه فريك . قال الحكومة بعتالنا عساكر ؟ طب تبعت لنا دره ! وهــوه يعنى الضرب دا حايشبع الناس على راى الشاويش عبد الله ؟!..

ووجم عبد الهادى قليلا ثم استطرد قائلا :

ـ يا ولداه يابا محمد ابو سويلم ! طب دا مش طالع له السنة دى لا درة ولا قطن ! الزراعية واخداه كله .. ويعيش منين دايا اخواتى ؟ قال حاياخد تعويض ! وعلى ما ياخد تعويض ياكل منين ؟ وحايعمل ايه بفلوس التعويض ؟ حايتاجر ! وللا يعنى حايتاجر ؟ حايعمل ايه بالفلوس بعد ما خدوا الأرض ؟ حايشترى ارض تانية .. ومين فى البلد يبيع ارض ؟!.

ثم وجم قليلا .. ونظر فى الظلمات هامسا لنفسه :

ـ آه يا حكومة !!.. يا حكومة بلا معنى ! .

واسترسل يقول متمتما بأبيات من موال ادهم :

يا حكومة دانا الادهم .. والأدهم اجيبــه منين
يا حكومة دانا الأدهم قتــل لى م العيـــال ولدين

وسكت عبد الهادى واخذ يهمهم بشفتيه همهمة حزينـة ثم انطلق يروى لى قصة ادهم الذى دوخ الحكومة وتحداها ولعب عليها ، وكان يهاجم الكبار ويأخذ من مخازنهم ويعطى للفلاحين الفقراء ..

وظل عبد الهادى ينظر امامه الى الظلال المنعكسة على ماء النهـر الداكن وعاد يقول فى حزن كانما يحدث نفسه :

ـ والله خسارة يا ادهم .. خـــدوك خونة يا جدع ! ما كانوش يقدروا يمشوا زراعية فى بلدك ابدا وياخدوا الأرض كده غصــبن عن حبة عين الناس الجعانة ! دا لما الدره شح على أيامك انســقطت على مخازن الوسايا وخدت القمح ووزعته على اللى مش لاقيين. . ياخسارتك يا جدع .. قتلوك غدر يا بطل !.

واخذت عينا عبد الهادى تلتمعان ، وصوته يختلج .

ونهض واقفا وهو ينشد بنغم حزين فقرات موال ادهم تحــكى عن صراعه مع الحكومة ورجال الحكومة .

وبعد ان انتهى عبد الهادى هز رأسه قائلا :

ـ صحيح .. صحيح منين أجيب ناس لمنات الكلام يحكوه .

وفجاة رمى كيزان الذرة على الحطب دون ان ينزع منها اغلفتهـــا وسالنى ان كنت آكل كوزا بخيره ، حتى يأتى الشـــــاويش عبد الله والجماعة ، فاقترحت عليه ان ينتظر .

واذ ذاك امسك عودا تشيع فى خضرته حمرة خفيفة ونزع قشرته باسنانه وذاق بلسانه ما تحت القشرة .

وقال لى :

ـ خد مص العقلة دى ، احلى من القصب .

وتناولت منه عود الذرة ، ومال هو على كوم الحطب واشعل عودا من الكبريت .. ونفخ فى الحطب .

ثم مشى قليلا بعيدا عن الجميزة الى الجسر واخذ يتامل الطـريق ولكنه لم يستطع ان يتبين احدا وقال لنفسه هامسا :

ـ ولا ســـاروخ ابن يومه !.. الجسر فاضى خالص .. يا خوى الجماعة غابوا ليه ؟ ..

كانت حقول الذرة تمتد باطرافها الصفراء فى حوض الجسر تحت بصر عبد الهادى وهو ينظر فى الفضاء القاتم الواسع ، وانسام الخريف تسرى بين اعواد الذرة ، وتحدث فيها اصواتا كالوشوشة ..

وتنهد عبد الهادى ، وهو ينظر الى الأرض الواسعة المفعمةبالكيزان، ومن ورائها تبدو من بعيد حقول القطن فى مساحات بيضاء يظـــللها الغروب ..

وتنهد عبد الهادى ، وعيناه معلقتان على حقول الذرة وقال :

ـ معلهش يا وصيفة .. كل شىء وله أوان يا وصيفة ..

وعاد يجلس تحت الجميزة،قلقا لغياب الشاويش عبد اللهوالجماعة.

ولكن انتظاره لم يطل فقد سمع من بعيد همهمة عرف من خلالهـا ضحكات علوانى ..

وقام الى الجسر واخذ ينظر فى الظلام .. واستطاع أن يميزبياض جلباب محمد أفندى فصاح :

ـ الجسر منور يا رجاله . اتارى الجسر منور كله ومزهـــزه ! مراحب يا عرب . يا عرب ..

وحملت الينا أنسام المغرب كلمات خافتة قالها الشاويش عبد الله. كان صوته هادئا ، مفعما ، حنونا .

وتمنيت لو ان الشاويش عبد الله تكلم مرة اخرى .. ولكن محمد ابو سويلم زعق من بعيد وهو يضحك :

ـ دهدى يا عبد الهادى .. امال فين الراكية يا جدع .. تكونشى جايب لنا دره من التحميصه .

وكان عود الكبريت الذى اشعله عبد الهادى قدانطفأ داخل الحطب، وتركه عبد الهادى ينطفىء بلا كلمة !.

وارتفعت الضحكات من بعيد وقال الشيخ يوسف :

ـ ولع الركية يا جدع ولع .. مستنى ايه .. عايزينه دره بخيره.

وحمل عبد الهادى كيزان الذرة من على الحطب ، ثم اشعل عودا من الكبريت . ورفع الحطب قليلا ، ووضع العود ، فاشتعلت نار صغيرة، واخذ ينثر اعواد كبريت غير مشتعلة فى اماكن متفرقة من الحطب .. وسرت النار بعض الشىء . وتوقدت العيدان الأخرى فقال بسرور :

ـ اهى النار كلها دقت آهه ..

وبدأ يرمى على النار التى ارتفع لهيبها ، كيزان الذرة الخضراء دون ان ينزع الأغلفة ليكون الذرة بخيره .. وتمتم ضاحكا :

نار الحطب دوم ولا نار المحبـة يوم

وكانوا قد اقبلوا ، فقال علوانى مبتسما :

ـ سلامتك من المحبة ونار المحبة يا عبد..

وقال محمد افندى بانطلاق محاولا ان يصنع نكتة من القرآن :

ـ يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم !..

ثم اخذ يطلق قهقهة سريعة متلاحقة وهو ينظر الى الشاويش عبد الله ويلكزه .

فابتسم الشاويش عبد الله ؟.. واذ ذاك تعالت ضحكات محمد افندى ..

وسلم عبد الهادى على الشاويش عبد الله وزملائه العساكر الثلاثة .. ثم سأل :

ـ امال فين حضرة الناظر ؟..

وأجابه محمد افندى أن خاله الشيخ حسونة لم يستطع الحضور . لانه مسافر غدا باول قطار يقوم من المركز فى الفجر .

فقال عبد الهادى :

ـ والله خسارة ؟ المسامحة خلصت دغرى..امال يا اخويه مدرسة بلدنا ما بتشتغلشى ليه ؟.

فقال محمد افندى :

ـ دهدى ما بكره تشتغل .. مدرستنا ومدرستهم حايشتغلوا فى يوم واحد .

وضحك عبد الهادى باستخفاف :

ـ يا عم انتو بتشتغلوا الا فى العيش القمح والحلاوة الطحينية .

وابتسم محمد ابو سويلم ، وهو يقول فى ابتسامة تقطر بالمرارة :

ـ اى والله ! اشتغلوا انتو فى الرز المعمر يا عم ، واحنا مش لاقيين نشتغل فى المش والعيش الدكر !..

وابتسم الشاويش عبد الله والجنود الثلاثة ، وضحك محمد افندى وقهقه علوانى .. وتقدم الى الساقية ورفع من على كتفه الحرام المخطط ، وفرشه على خشب الساقية قائلا :

ـ اتفضلوا هنا على كبير الساقية .. اتفضل هنا يا شاويش عبد الله عالكبير .. اتفضلوا ..

وحين جلس الشاويش عبد الله والعساكر ، قال علوانى مستدركا وكانه نسى شيئا :

ـ لكن قول لى بس يا ابا محمد . انتو مش لاقيين العيش والمش ليه ؟ امال احنا يعنى نقول ايه ؟ يعنى اللى زى حالاتى ده يقول ايه ؟.

ولم يجب محمد ابو سويلم .. فالتفت علوانى الى الشيخ يوسف وقال له كانه يكمل حديثا سابقا معه :

ـ هو انته يابا الشيخ يوسف مش ناوى عالعمودية برضه .. وحياة مقام الشاويش عبد الله ما ينطلى فيها يا شيخ كده ويخيل غيرك انت.. آه يا حضرة العمدة .. ياما انت مطلى كده فى الكلمة دى !.. يا حضرة العمدة !..

وكان الشيخ يوسف اذ ذاك يشد جلبابه الى اعلى من على ظهره ويمسك باطرافه من تحت ويتهيأ للجلوس على كبير الساقية ، فتوقف فجاة ليقول فى صرامة :

ـ ما تجبشى سيرة العمودية دى تانى يا واد يا علوانى .. قطيعة تقطع العمودية وسيرة العمودية !.. انا باقول لك اهه .. ان عدت تجيب سيرتها تانى يا واد انت يا عرباوى ..

وتوقف الشيخ يوسف عن الكلام فجاة ، واحس ان لسانه سقط حين قال يا عرباوى .. وتحرج ، وتنحنح ثم جلس على الفور . وهو يرفع يديه . ويلوح ويقول للشاويش عبد الله وزملائه العساكر :

ـ اهلا يا عرب .. مراحب يا عرب .. دا احنا مالناش بركة غيركم يا عرب .. اللهم صلى وسلم وبارك على النبى العربى سيد الخلق اجمعين ! منورين النزل كله والله يا مشايخ العرب !..

وابتسم الشاويش عبد الله ، ورفع يده الى جبينه شاكرا ، بينما اخذ علوانى يقهقه صائحا فى ظفر واعتزاز وجراة :

ـ ايوه كده يابا الشيخ يوسف انعدل . عرفت بقى اننا احنا الخير والبركة ؟! مش عنتر كان عربى .. وابو زيد الهلالى عربى .. والزير سالم كان ايه ؟.. ايوه اتوزن كده .. بقى تقول لى يا عرباوى ويا شيخ الغجر .. بطل بقى .

وتضايق الشيخ يوسف من لهجة علوانى وكظم غيظه .

فتمتم عبد الهادى وهو يقلب الذرة على النار بعصا طويلة :

ـ وادهم يا جدع ما هو فلاح !..

كان اللهب ينعكس على وجه عبد الهادى البرنزى .. وعيناه تتالقان . واتجه علوانى الى حيث يجلس عبد الهادى امام النار ، ثم جلس مستندا على مقدمة قدميه دون ان يمس الارض بجسده وامسك بطرفى جلبابه من ناحيتين متباعدتين واخذ يرفع يديه ويخفضهما بسرعة

جلباب يحدث قرقعة يتدفق منها مع كل هزة هواء يزيد النار ستعالا .

وبدات الكيزان تطقطق واسودت اغلفتها الخضراء.. فمد عبدالهادى يده الى النار واختطف كوزا .

وصرخت انا اذ ذاك فى عبد الهادي محذرا ان تحرق النار يده فضحك ، وهو يسحب يده من النار بهدوء وفيها كوز ملتهب وقال لى بهدوء :

ـ يعنى هيه النار حاتعمل فينا ايه ؟ يا سيدى ياما انشوينا!سيبك بقى من شغل مصر ده .. خلينا هنا .. هنا فى وسط الحريقة ..

وخفق صوته الساخر على نبرات حزينة ..

وحيانى الشيخ يوسف وكان قد انتبه لوجودى اذ ذاك وطلب منى ان أجلس على كبير الساقية غير أنى ترددت شاكرا وظللت أقف مكانى بجوار الجميزة .. ارقب النار ، وارى ان كان الشاويش عبد الله يبتسم او يتكلم .. كالناس !.

وهمس الشيخ يوسف فى أذن الشاويش عبد الله ، وسمعت اسمى واسم ابى واذ ذاك نادانى الشاويش عبد الله .. وتقدم الى فأخذ بيدى واجلسنى الى جواره .

وغمرنى الفرح وانا أجلس الى جوار الشاويش عبد الله ، ولم استطع ان اقاوم فضولى .. فتحسست الكرباج المثبت فى وسطه .. ومد هو يده مبتسما ورفع الكرباج قليلا وتركنى أمسك بمقبضه المعروق بالسلك وانا اضطرب بين الرهبة والاشفاق .

ورأيت وجه الشاويش عبد الله يبتسم .. كان وجهه الصامت مليئا بالابتسام .. وكانت قسماته هادئة ، وشفتاه مطبقتان على طيبة خارقة وعجبت أن يكون هذا هو الرجل الذى ضرب قريتى منذ أيام !.

وراعنى ان يكون هذا الكرباج الذى امسكه بيدى هو نفسه الذى شوى ظهور النساء والرجال والأطفال !.

وسألنى الشاويش عبد الله فى أية مدرسة انا ، فقلت له اننى داخل المدرسة الثانوية بعد أيام .

فقال مبتسما ان له أخا مثلى كان يريد هو الآخر ان يدخل المدرسة الثانوية فى اسوان .. ولكن الشاويش لا يظن ان هذا ممكن !.

وسكت الشاويش ، وشردت عيناه فى الظلام .

وتقدم عبد الهادي منا بعد أن قشر كوز الذرة،وقدمه الى الشاويش عبد الله والدخان يفيض ويتموج من حباته البيضاء .

وامسك الشاويش عبد الله بالكوز الملتهب وقدمه الى .. فاعتذرت شاكرا ولكنه الح ، وفى النهاية .. قطم الكوز واعطانى قطعة كبيرة منه .

واذ امسكت بالكوز لذعتنى حرارته ، فتركته يهوى من يدى وانا اداري الى .. فابتسم الشاويش عبد الله واخذه من على الأرض ، ومسحه بيده ببساطة ، وقدمه الى قائلا اننى يجب ان اتعود على النار .. فالحياة عندما تكبر تصبح كلها من نار !..

وابتسمنا جميعا ..

واخذ عبد الهادى يقدم كيزانا اخرى للشاويش والذين من حوله .. وظلت الأيدى تتداول الكيزان الملتهبة .

كانوا جميعا يقضمون الذرة ، وهم يلهثون ويوحوحون منسخونته، ويضحكون .. ومن حين الى حين ترتفع كلمة ثناء على عبد الهادى والذره الذى يشبه كيزان العسل .

وسرح خيالى فى كل ما صنعه الشاويش عبد الله بقريتى . وهممت ان اساله لماذا صنع كل هذا عندما أقبل فى أول يوم ..

لماذا ضرب النساء والعجائز والأطفال والرجال ؟!.

ولكنى اخذت اتأمل الشيخ يوسف وحبات الذرة تختلط بشاربه وهو منهمك فى القضم .. وحاولت ان أساله كيف صالح الشاويش عبد الله .. ومتى .. وكيف شرب الشاويش عنده الشاى !..

ولكن الجميع كانوا صامتين يأكلون الذرة ، ولا شيء يرتفع غير وحوحة الأنفاس .

وقطع صمتنا غناء يقبل من مركب بعيد يمر بالنهر الصغير .

يا بهيه وخبرينى عاللى جتلوا يسين

والتفت الشاويش عبد الله الى النهر واخذ يرقب الضوء الخافت الذى يبتعد .

كان المركب قد جاوزنا دون أن نشعر به ومضى يتابع رحلة الليل تحت ظلمات واسعة .. الى بلاد لا نعرفها نحن فى قريتنا !..

وتذكرت جلستى مع وصيفة فى اول الصيف فى هذا المكانبالذات، والمركب الذى مر .. ووصيفة تضع قدميها فى الماء ، وتسألنى عن مصر، حالمة بأن يحملها مركب ذات يوم الى مصر .. أو أن تصبح فتجدأمامها جره مليئة بالنقود .

وفجاة الحت على صورتها عندما خرجت من قاعة الطحين تبكى وتقول لأمها ان الذرة لا يكفى بعد للطعام !

وزحفت على صدرى كآبة غامضة ..

وكان الصمت جليلا لا يخفق فيه غير نغم بعيد من المـــركب الذى يختفى فى الظلمات .

وفجاة ارتفع صوت حزين بالقرب منى يتمتم .

اشمعنى جفاهم ابيض وجفـانا جالوص طين

واشمعنى الخير حداهم ..واحنا شحاتين !

كان هو الشاويش عبد الله ..

وكان لصوته رنين عميق كانه نبضات قلب موجع .. وعلى الرغم من ان أنغامه وطريقة نطقه كانت غريبة علينا ، فقد كان فى صوته الهادىء رجع رهيب كانما هو تلخيص كل آلام قريتى وكل المخاوف من المجهول.

ولكن عبد الهادى لم يسكت ليترك الشاويش يكمل الغناء بأنغامـه الغريبة علينا ، بل وقف عبد الهادى يصيح :

ـ ايوه يا شاويش عبد الله ايوه .. آى كده .. قول كمان ياسيدى قول .. قل لنا والنبى عطشان والنيل فى بلادنا ».. قول ياشيخ !. .. وحياة النبى لتقول كمان موال اخضر من بتوع بلدكم !..

وقطع الشاويش عبد الله همهمته ، واطلق ضـــحكات متكسرة ، ودهمه الخجل فسكت ، وترك نظراته المفعمة تضرب فى النيل العريض الرجب .

وقال علوانى وهو يقف بعيدا عن النار :

ـ سامع يا عم الشيخ يوسف ؟ سامع يابا الشيخ يوسف المغنى ؟ مغنى عرب ! سامع ؟ اللى يدور عليك دلوقت يلاقيك محتار . . مسكين محتار ..

فقاطعه الشيخ يوسف بضيق :

ـ ام ؟ مسكين ؟! يا اخى جاك سكينة لما تحش رقبتك !.. مـا تسكت !.

وضحك علوانى واستمر يقول بصوت مرتفع :

ـ معلوم .. محتار .. دهـدى ! بقى انت كان ظنك ان حضرة الشاويش عبد الله يبقى فى قلبه ريحة الفنا ؟.. بقى انت كنت تفتكر كده ؟ لكن يا عم .. الحق عالكرباج !!.

وضحك علوانى بعصبية ، ومسح الشاويش عبد الله جبهته من الحيرة ، ولم يقل شيئا .. ولكنه اطلق بلسانه وشفتيه طقطقة استنكار بينما انفجر الشيخ يوسف محنقا :

ـ جرى ايه يا واد يا علـــوانى ؟! جاتك الغم ما أبردك ؟! دهدى ! ما بلاش السيرة الغبرا دى ..

فقال محمد ابو سويلم :

ـ ما هو الشاويش عبد الله ما كانش علمـــه ان الدور حايقلب بصحوبية .. كان لسه غريب علينا ! لكن دلوقت بقى .. خلاص .. ما هو بقى من الرفقة العزاز .

وساد الصمت ..

ولم يعد يرتفع غير صوت الجمرات التى تتآكل ، وعلوانى يغرس ابريق الشاى فى النار .

ومن بعيد على الشاطىء الآخر كانت ساقية تدور ، وترسل فى الليل صريرا خافتا يختلط بالأنين .

وتنهد الشاويش عبد الله .. والتفت وراءه الى ناحية الساقية على الشاطىء الآخر ..

وشعرت كأن الشاويش عبد الله يطوى نفسه على سر كبير ..

وحاولت ان اسأله .. ولكنى لم استطع .

فقد سعل محمد افندى ليقول كلاما وكان يسكت طول الوقت .

ولم اسمع ما قاله محمد افندى ، ولكنى سمعت احد العساكر يرد عليه بهمس قائلا ان النيل هناك فى بلادهم واسع جدا حتى لكانه اب لهذا النهر الصغير .. غير انهم هناك لا يعرفون السواقى ولا الحقول : فالنيل يجرى مندفعا وسط الرمال والصخور فى صحراء لا حقـول فيها ولا خضرة ولا حياة .

والتفت الشاويش عبد الله الى العسكرى الذى يتحدث مع محمد افندى وسأله ان كان يشعر بوحشة هنا وسط هذه الجنة لانها بعيدة عن اهله !.

ولم يجب العسكرى .. ولكنه اطلق زفرة عميقة مشحونة :

ـ هيه !!..

وتمتم الشاويش عبد الله بكلمات خافتة لم يكد يسمعها أحـد .. كلمات تبينت منها ضيقه الحزين لبعده عن امه وابيه ، وحنقـــه لانهم جاءوا به الى هنا ليذل قرية لم يعرفها ابدا من قبل ، وليس بينه وبين اهلها عداء !..

وعرفت من تمتمته انه حين تعرف فيما بعد على الذين ضربهم أول يوم ظل ساهرا طول الليل يحرقه الندم ، حتى لقد بكى بدموع العين..

وهزتني كلماته التي غرقت في التنهدات .

والح على شعوري بأن الشاويش عبد الله يملك سرا غريبا .

وحاولت ان اسأله عن اشياء كثيرة وقبل ان ابدأ الكلام سألني هو ان كنت اعرف الانجليزية .. ولم يتركني لأجيب ، فقد طلب مني في همس ان اعلمه الانجليزية .

وسكت انا .. وسكت هو .

على حين كان ابريق الشــاي يفور وغطاؤه يرفع عنه الغطاء قليـلا فتصعد منه الفورات تملأ المكان الصامت تحت ظلمات الليل .

وفجأة .. وجدنا امامنا احد الخفراء ينادي بانزعاج :

ــ يا حضرة الشاويش عبد الله ..

وانتفض محمد ابو سويلم يسأله :

ــ خبر ايه يا واد يا عبد العاطي ؟!.

فقال عبد العاطي بانزعاج :

ــ المأمور جه !!.

ووقف الجميع في حيرة ، الا الشاويش عبد الله .. فقــد نهض متثاقلا ، وقال لعبد العاطي :

ــ طب .. روح انت .

ووقف عبد العاطي يحك قفاه .. وقال متحرجا :

ــ دانا كان غرضي اقــول لك يعني .. انه .. يعني .. طايح في البلد ومعه تلات عساكر بالخيل نازلين ضرب في الخــلق ! وكان .. يعني جاي يتمم عليكو انتو .. ولما لقى شوية اولاد بيلعبوا قدام دكان الشيخ يوسف .. قال .. يعني.. القصد .. قال حاجات وحشــة على حضرتك يا حضرة الشاويش ! .. ما بلاش تيجي أحسن وأنا أقول له انكم في بلد تانية !..

وكان عبد العاطي ما يزال يحك قفاه .

فنهره محمد أبو سويلم قائلا في انفجار :

ــ مابلا هرش في عرق الهيافة ده يا وله ! .. عمال تحك في قفاك ليه .. جاتك الغم !..

وابتسم الشاويش عبد الله لعبد العاطي بحنان :

ــ يعني المأمور لقى القتيل ؟!.. طب بس روح انت .

وانصرف عبد العاطي مضطربا .

ووقفنا جميعا ننتظر ما يصنعه الشاويش عبد الله ..

والتفت الينا الشاويش ، وطلب من زملائه العساكر أن يصحبونا الى دورنا ، وأن يلحقوا به عند الدوار .

وانصرف .. مرتفع القامة ، والكرباج في يده وخطواته راسخة في الارض المتربة ، ورأسه شامخة ينظر الى السماء .

ومضينا وراءه في كبرياء ننتظر في قلق : ما يكون ؟..

والقمر يرتفع في دائرة من الأفق الشرقي ..



٢١

قعدت افكر فيما يمكن ان يحدث بين الشاويش عبد الله والمامور الجديد .. والليل الطويل يمضى بى !..

ولكنى فى الصباح قمت مع الشمس ، وذهبت الى عاصمة الاقليم ، وعدت .

وفى القرية بدات اسمع ما جرى فى الليل بين المامور والشاويش.. كان الناس يقولون كلاما غريبا ، ويقطعون كلامهم احيانا ، ليطلقوا ضحكات ساخرة من المامور وهم يتذاكرون يوم دخل فى مأتم العمدة والشيخ ابراهيم يقرا « وانظر الى حمارك » ! ..

وسمعت الشيخ يوسف يقول ان ما يجرى فى هذه القرية ،ماجرى ابدا وما كان .. حتى الشاويش عبد الله الرجل الطيب خرج عن حده اول يوم هبط فيه القرية ، ولقد عاد اليه هدوؤه لبعض الوقت ، ولكنه حين قابل المامور ركبه ما يركب القرية كلها .. فقد عاد من الجسر يهز طوله ، والمامور يساله من على ظهر الحصان عن سبب غيابه وهو لا يجيب !.

وترك المامور يشتمه وهو لا يرد .. وفى آخر الأمر تأخر خطوتين، ورفع الكرباج ولسع به المامور ، وعاد يلسعه حتى شواه !..

ورايت علوانى يزيط وهو يتكلم بفخر عن شهامة العرب ، ويحكى لبعض الشبان كيف امسك الشاويش عبد الله بالمامور ورماه عن ظهر الحصان ، ومرغ به الأرض !.

وسمعت عبد العاطى الخفير يقول ان الحكاية غير هذا ، وانه وحده يعرف الدور .. ولا احد غيره يعرف ما هو الدور .. ولكنه لا يريد ان يحكى !

اما الشاويش عبد الله نفسه فلم يعد يتكلم فقد ظل صامتا يسمع ما يقوله الناس عنه وهو يبتسم ، وعيناه تنظران فى الفراغ !.

وعندما تكلم لاول مرة بعد صمته الهادىء الطويل ، قال انه حزين لان الشيخ حسونة سافر وترك البلد ..

ثم سكت الشاويش قليلا واستطرد يقول انه يخاف ان يذهب هو الآخر من البلد ، ولا يراها مرة اخرى !..

وفى الليل ، كان الشاويش عبد الله يجلس مع زملائه العساكر وبعض رجال القرية على مصطبة محمد ابو سويلم بلا كلام بين الصمت والحذر والمخاوف .

وجاءت اشارة تليفونية من المركز تستدعى الشاويش عبد الله وصاحبيه . وادركت القرية انهم لن يعودوا بعد ..

وفى الصباح ، قبل ان يرتفع شعاع الشمس كان رجال الزراعية يملأون حوض الترعة ويهوون بفؤوسهم ومعاولهم على الأعواد المثقلة بالقطن والذرة .

بينما اجتمع على الجسر رجال من القرية يعانقون الشاويش عبد الله ، وعلى الوجوه لهفة وجزع !.

وزعق علوانى وهو يبكى وصوته يفيض فى النشيج :

ــ آه يا خسارتك يا شاويش عبد الله .. آه يا زين العرب .. يا بطل ! آه يا خسارة الرفقة العزاز ! .

ومسح الشاويش عبد الله عينيه وركب .. ولم يقل شيئا ..

وتمتم الشيخ يوسف بصوت متهدج :

ــ بقى البلد دى مالهاش نصيب دايما كده !!.

ومضت الركائب بالشاويش وصحابه وهى تثير وراءها دوامة من الغبار ..

واختنق صوت محمد ابو سويلم وهو يقول :

ــ وداد مش وداع !..

ولكنه وداع !..

فالشاويش عبد الله لم يعد الى القرية ابدا ..

ذهب الشاويش عبد الله واصحابه من طريق الجسر ، وجاء الى حوض الترعة رجال يدهسون الزرع ويهشمون الأعواد !!..

***

وبعد العصر اقبل من المركز ثلاثة جنود وصول من بوليس المديرية ، وقالوا انهم مقيمون فى دوار العمدة حتى يستأجروا مكانا يجعلون منه نقطة بوليس !.

ورنت كلمة نقطة البوليس فى القرية كضربة مفزعة !.

وبدا العجائز فى الدور يتذكرون ايام السلطة العسكرية والحرب..

وذهبت امراة عجوز الى الشيخ يوسف تسأله ان كان عساكر النقطة سياخذون البهائم والدجاج والبيض والسمن والدقيق من القرية

ويربطون الرجال فى سلاسل وحبال ويسوقونهم امامهم زاعمين انهم متطوعون ثم لا يعود الرجال بعد هذا الى القرية الى آخر الزمان !.

ولم يجبها الشيخ يوسف . ولكنه نظر الى علوانى الذى كان يقف امامه وقال مضطربا ..

ـ آدى آخرة العمايل السودة .. آدى آخرة مناكفتناوياالحكومة؟؟ اهى النقطة جاية اهه ! الهى تجيلهم نقطة على عينهم ! الهى يا شيخ ينصابوا بريح النقطة ! .. آدى آخرة شهامة العرب وهباب العرب .. زعلان قوى علشان الشاويش عبد الله ؟ .. بتعيط عليه علشان ما كان بيديك قرش بعد ما تعمل له الشاى ! ياك يعيطوا عليك من بدرى!..

فقال علوانى بضيق :

ـ خبر ايه ! ايه الكلام ده .. قرش ايه ؟ يعنى خدت حريتك فى شتيمة العرب دلوقت ، انت راخر كنت بتعيط الصبح وانت بتطرق الشاويش عبد الله ! ولا دا كان ضحك !! ما تخللينى فى اللى انا فيه .. يا ابا الشيخ يوسف !.. بقى انا باقول لك اشترى نعجتين وانا اسرح لك بهم تقوم تقول لى عرب ونقطة وعفريت ازرق !! والنفطة يعنى حاتعمل لنا أيه أكثر من اللى احنا فيه ؟ هـه ؟ اياك انت خايف على العمودية !..

ثم التفت علوانى الى العجوز التى تسأل وقال لها :

ـ روحى يا وليه انتى ! النقطة حاتعمل لنا ايه ؟ دا المفلس يغلب السلطان . وأيش ياخد الريح من البلاط ؟!.

وذهبت العجوز وبقى علوانى يحاول ان يقنع الشيخ يوسف بأن يشترى غنما يقوم هو على رعيها ، وتطرح فيها البركة !..

كان يفكر فى عمل .. اى عمل بعد ما باع شيخ البلد حقل البطيخ الذى كان يحرسه طوال الصيف .

وقال علوانى وهو ينصرف يائسا من عند الشيخ يوسف :

ـ وقلت ايه بقى ؟ يعنى اروح لمين ؟ لا ابويا محمد ابو سويلم عاوز يشترى غنم ولا عبد الهادى فايق للغنم ولا حد خالص .. ياناس دا ما فيش من نبى الا ورعى الغنم ، فقال الشيخ يوسف مغضبا :

ـ انت حاتلخبط فى الحديث الشريف كمان .. الحديث بيقول ما من نبى الا ورعى الغنم ! لكن الكلام ده مش فى البلد دى !! انت حاتحط راسك براس الأنبيا ؟! مرة تقول انك من نسل الامامو على ، ومرة تحط راسك براس الأنبياء والمرسلين ؟! .. دا ايه دا يا ناس ؟

روح يا شيخ روح وخللينى فى همى .. جاك ريح لما ينفضك !..

***

وبقى الشيخ يوسف وحده يفكر !..

انه يعرف ان النقطة عندما تدخل بلد لا ترعى لأحد وقارا الا للذين لهم رجل فى الحكومة .

ونقطة البوليس هذه تقضى على كل أمل له :

فمادامت المديرية فكرت فى نقل نقطة البوليس الى البلد ، فهى طبعا لن تفكر فى تعيين عمدة !..

ومن الحق أن الشيخ يوسف كان قد عدل عن التفكير فى أن يكون عمدة . ولكن حلمه بالعمودية كان يغزو رأسه فى بعض الاحايين .

على ان الشيخ يوسف لم يكن هو الرجل الوحيد الذى يخشى على منصب العمودية من وجود نقطة بالبلد .. فشيخ البلد هو الآخر كان يكتم احزانه . ويدارى .. ولكنه آخر الأمر . وقف على ناصية طريق فى القرية ، يشكو لمحمد أفندى من وجود نقطة فى البلد .. فهذا يعنى ضياع هيبته كنائب للعمدة ، وهو يعنى ايضا ان الحكومة قد عدلت عن تعيين عمدة ..

وتحشرج صوته وهو يقول :

ـ من هنا ورايح كل واحد حايقول ياللا عالنقطة ! بقى فيه حد يستجرى ييجى يقول يا عمدة ولا يا شيخ البلد ؟!.. والله رحنا بلاش يا ولاد ..

وفى دار محمد ابو سويلم وقفت وصيفة تخبط صدرها وتقول لأمها ان نقطة البوليس جاءت للبلد .. وياما يجرى من عساكر النقطة!.

وشردت وصيفة وامها تقول فى حسرة :

ـ لو كان لكى بخت كان قعد لك الشاويش عبد الله !.

اما عبد الهادى فقد جلس امام داره يجز على اسنانه ، وتتقد عيناه وتحدث معه محمد ابو سويلم قليلا عن الرجال الذين يحفرون الزراعية ..

وسكت محمد ابو سويلم بعد هذا وظل عبد الهادى ساكتا ..

ولحظة بعد لحظة اخذت الأصوات تفيض فى الحلوق ..

بينما كان عبد العاطى يقف امام الدوار فارغ القلب .. انه لا يعنى بشىء من هذا كله .. فسواء جاءت الهجانة ام نقطة البوليس ، وسواء عينوا فى القرية عمدة جديدا أم لم يعينوا .. فان هذا كله لن يزيد أو

ينقص من القراريط الاربعة التى يملكها على الجسر ، ويزرعها ذرة فى الصيف وفولا فى الشتاء .. وهو ياخذ مرتبه كخفير ويعيش بلا حلم .. الا خيالات غامضة تطوف بعقله من حين الى حين فيصرخ وحده : « ربنا يستر .. يا منجى ! » ..

وعبد العاطى يريد ان تدوم له اللقمة .. ولقد يشرد احيانا فيتمنى ان يحدث شىء ما يهز حياته فيطلق ضحكات لا تثقلها المـــرارة ولا الذكريات ولا القلق الغامض .

وتطلع عبد العاطى الى شباك الدوار ، وكانت تقف وراءه ارملـة العمدة .. وهى امراة صغيرة تزوجها العمدة على كبر ولم تنجب منه!.

كانت تلبس السواد ، ولا تخرج الى الطريق ، ولا يدخل عنـــدها رجل ..

وهى لم تر الطريق منذ حملهـا العمـدة من بيت ابيهـا الى بيتـه الكبير ، الا بعد أن مات زوجها العمدة ، فتعودت أن تقف فى الشـباك تتأمل الناس ، وتتكلم مع عبد العاطى ..

ورفع عبد العاطى راسه وحاجبه مغازلا ــ وفى ذهنه صورة اولاد البندر حين يغازلون ــ وترك صوته يرتفع مغنيا بخفة :

سراية يا سراية بدى انزلك غفـــير ..
غفير من غير ماهية علشان خاطرالجميل

ورنت ضحكة ارملة العمدة وتمايلت ، بينما وقف شيخ البـــلد يزعق محنقا :

ــ علشان خاطر الجميل ؟! جميل .. جميل مين يا اخوانى ؟! ايه يا واد يا عبد العاطى ؟ جميل ايه ياك يبرك عليك جمل ما تقوم ! البلد كلها فى ايه يا اخويا وانت فى ايه ؟! تعال هنا ..

وجرت ارملة العمدة من الشباك الى الداخل .

وتقدم عبد العاطى من شيخ البلد باستخفاف ، ورفع شيخ البـلد يده ليصفعه ولكن عبد العاطى امسك بيده يد شيخ البلد وقذفها بعيدا وهو يقول :

ــ اوعى تقــرب ناحيتى ! ؟ تضربنى بالكف على سدغى ليه ؟ ليه يعنى ؟! ما حدش له ضرب عليه ؟ بقى ما صدقنا نخلص من العمدة تيجى انت كمان تضربنا !؟ .

واهتز شيخ البلد من الغيظ وهو يحس بيد عبد العاطى قوية تكاد تهرس يده .. ووقف يصيح فى مرارة :

ــ يا واد يا واد !! خلاص بقى فجرتوا ! ما هى النقطه جايه .. ر عاد فيه عمدة ولا نايب عمدة ! ماحدش بقى ليه قيمة ولا سيمه ! آه يا غجر .. طب واللهلاوريك ، اصل احنا بلد تخاف مانختشيش .

وانصرف عبد العاطى باستخفاف من امام شيخ البلد وعندما اختفى تماما زعق ممرضا بيوم رمى النساء عمدتهم الذاهب بروث البهائم :

ــ خبر ايه يا شيخ البلد !؟ نخاف ايه ؟! انت باين عليك عاوزلك مقطفين جلة زى المرحوم !!.

وجلس شيخ البلد امام داره فى مواجهة الدوار يهز راســـه تحت شعاع العصر الهزيل الشاحب .. وهو يتمتم بالشتائم ..

وعندما اقبل المساء على قريتى ، كانت ابواب الدور مغلقة ولاصوت يرتفع ..

لا شىء الا الرهبة من داخل الدور ، والحذر ، والخـــوف من المجهول !.

وطرقت ارجل الخيل ارض القرية تحمل خمسة رجال فى الطرابيش والملابس الصفراء المشدودة ، والبنادق !..

كانوا أربعة من العساكر على أحصنة بيضاء يتقدمهم على حصـــان اسود رجل بدين احمر الوجه ، فى بدلة عسكرية صفراء مفتوحة من على رقبته ، وعلى وسطه حزام من الجلد معلق به مسدس واضـــح للعيون !..

ومن شقوق الأبواب والنوافذ اخذ رجال القرية ينظرون الى الخيل والرجال .. وتهامس الأطفال فى ذعر :

ــ الحكومة !! الحكومة نزلت البلد بالخيل !

وارتفعت همهمة من كل دار والعيون ترتد من على وجـــه الصـــول الاحمر ..

ــ يا نهار اسود .. الراجل ده شكل الانجليز!..دى سنة مطينة!.

وانتهى الصـــول والعساكر من سيرهم الى دوار العمدة ونزلوا عن الخيل وجلسوا فى المندرة الواسعة التى اعدها شيخ البـــلد لمبيتهم ، بعيدا عن مكان الحريم فى الدوار .

وحمل اليهم الطعام من داخل الدوار .. حمله عبد العاطى ، وهو يبتسم .. ولكن الصول نظر الى الصينية المغطاة بمكبة من الخـوص ، وقال انه لا يأكل طعاما عند العمد ..

فأعادها عبد العاطى بلا كلمة ، الى داخل الدوار ، وعندما حاولت

ان تاخذها منه المرأة التى ناولتها له من داخل الدوار ، لكزها عبدالعاطى ودخل بنفسه ، الى مكان الحريم ووضع الصينية امام أرملة العمدة.

ووقف ولم يتحرك .

وبعد قليل ناداه شيخ البلد فلم يجب ..

ونادى الصول بصوت اجش رهيب :

ــ يا غفير .. ياواد انت يا غفير !.

فاقبل عبد العاطى مرتبكا .

ونهض الصول بعد أن استراح قليلا ، ونهض وراءه العساكر الأربعة فطافوا بالقرية ومن ورائهم عبد العاطى .

كانت الطرقات خاوية لا حياة فيها كالأرض الخراب . وشعر الصول فى أول الطواف بما يملك من هيبة فامتلأ رضا عن نفسه ، وظل يتقدم فى طرقات خالية بين أبواب مغلقة لا يرتفع من ورائها صوت .. ولا شعاع !.

وخطوة بعد خطوة كان قد الف رضاه عن نفسه ، وبدأ يستشعر احساسا جديدا ..

كان صامتا .. ومن ورائه العساكر والخفير صامتون .

واحس فى القرية الهامدة المظلمة بوحدة مقبضة ، فوضع يده فى جيبه واخرج علبة السجائر ، ووجدها فارغة .

وسال ان كان فى القرية بقال يبيع السجائر .

وجرى عبد العاطى الى دار الشيخ يوسف وطلب منه أن يفتح الدكان بأمر الصول ، وأن يجهز كل ما عنده من انواع السجائر ليختار منها الصول .

وقام الشيخ يوسف مترددا فى وجل ففتح الدكان واعد علب السجاير فى ضيق وتوجس !..

وعندما مر الصول بالدكان .. اختار علبة على عجل ، ودون أن يسال عن ثمنها أعطى للشيخ يوسف قطعة فضية بقرشين .

وحملق الشيخ يوسف فى القطة الفضية وسكت ، وشيع الصول بنظرة طويلة ولم يفكر فى ان يطالبه بالباقى !..

ونظر الصول الى العلبة وفتحها واشعل سيجارة واطلق دخانها من بين خياشيمه ، وانطلق مع الدخان من بين شفتيه صوت مرتفع كصوت الكبش المعلوف .

وعندما عاد الصول من دورته ، جلس فى الدوار على كنبة كبيرة،

ووقف العساكر ، حتى اذن لهم ان يجلسوا .. ثم أعطى عبد العاطى قطعة فضية بعشرة قروش وطلب منه ان يشترى حلاوة طحينية وبيضا وارغفة من القمح !.

ولم يكن فى القرية احد يبيع ارغفة القمح !..

وذهب عبد العاطى يخبط على باب الشيخ يوسف مرة أخرى وطلب منه حلاوة طحينية ، وروى له حكاية البيض وأرغفة القمح ! .

فتناول الشيخ يوسف القروش العشرة من عبد العاطى وقال متشفيا :

ــ هو سرقنى فى قرشين صاغ بقية حق علبة السجاير .. والله لاسرقه انا فى اربعة ! والله لأعمل اللى عمره ما اتعمل فى البلد .. حابيع عيش قمح !.. بقى ياخد علبة سجاير بقرشين صاغ .. ويا عالم .. يمكن يطلعوا برانى !!.

وخرط الشيخ يوسف قطعة من الحلاوة الطحينية قضم منها بأسنانه حتى استوت حروفها ، واعطى عبد العاطى قطعة أكلها عبد العاطى متلذذا سعيدا ، ثم مص اصابعه من آثارها .. ولف الشيخ يوسف ما تبقى من قطعة الحلاوة ودفع بها الى عبد العاطى..ودخل الى الدار، وعاد بأربعة ارغفة يابسة من القمح ، وأربعة أرغفة من الذرة .. وعدة بيضات ! ..

وانصرف عبد العاطى فقدم الحلاوة والبيض والارغفة الصول ؛ وحين راى الصول الارغفة الجافة ثار فى عبد العاطى . فارغفة القمح مقددة ، وقال له وهو يرمى بالخبز فى وجهه أنه لم يطلب ستة أرغفة من الذرة وسكت قليلا وبرم شاربه المصبوغ اللامع ثم قال :

ــ اسمع يا ولد .. انت من بكره .. تشوف لى واحدة تكون نضيفة .. واحدة تخبز وتطبخ .. فاهم ؟!.

فقال عبد العاطى وهو ينظر الى خاتم ذهبى كبير يشع فصه الاخضر فى اصبع الصول :

ــ والله يا حضرة لفندى ماعندناش الحاجات دى هنا ..

فقام الصول محنقا وقام معه شيخ البلد ، وتقدم الصول من عبد العاطى وضربه بالكف على صدغه وهو يصرخ :

ــ انت واد لمض قليل الحيا .. والله لاربيك ..

وطرب شيخ البلد وقال :

ــ قوى ! واد نجس عديم الربابة .. ربيه يا حضرة الأفندى !.

وعاد الصول يجلس على الكنبة وهو يسأل عبد العاطى :

ـ اسمع يا ولد .. انت امك اسمها ايه ؟.

وحملق عبد العاطى مستنكرا وهو يقول :

ـ امى ؟ وايش دخل امى فى شغل الغفر بقى ! اش دخل امى فى الحكومة ؟!

وارتفع صوت شيخ البلد يقول :

ـ اسمها زهانه .. امه اسمها زهانة يا حضرة الفندى .

فغمغم عبد العاطى وهو يحملق فى وجه الصول وشيخ البلد :

ـ لا مااسمهاش زهانة ! .. زهانة دى مين ؟! دى باين أم شيخ البلد !!.

فقال الصول متوعدا :

ـ طيب يا ابن زهانة ولا هبابه ! القصد ! ادخل هات العشا اللى جوا وتعالى ؟! بعد العشا أعرف شغلى وياك.

ودخل عبد العاطى فحمل الصينية من جديد ، وحاولت ارملة العمدة ان تسأله عن شكل الأفندى الذى يجلس فى المندرة ، ولكنه حمل الصينية وهو يقول لنفسه بغيظ :

ـ أهه شكله معفرت وراكباه العفاريت كلها ! . قال واحدة نضيفة تخدمه قال ؟! انت فاكرنا ايه يا حضرة الصول ؟! انت فاكرنا ايه يا افندى !! ..

وقبل أن يعود عبد العاطى بالصينية ، التهم الصول قطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية .. ولم يرتح لطعمها .. ثم التهم قطعة أخرى .. ولف القطعة الصغيرة الباقية باشمئزاز،وعبد العاطى يدخل بالصينية..

ووضع عبد العاطى الصينية امامه على منضدة من الرخام مخدوشة السيقان ، وحمل الابريق والتشط ، وصب على يد الصول .

وقبل أن يصب على يد العساكر قال له الصول :

ـ خد الحلاوة اديها للبقال وقول له دى حلاوة مزنخة وزى الزفت!! وخد عيشه ده والبيض رجعه له وهات منه العشرة صاغ وقل له لوباع حلاوة زى دى مرة ثانية حاخرب بيته .

ومضى عبد العاطى يحمل ما بقى من الحلاوة ويحمل الارغفة والبيض وهو حائر فيما يقول للشيخ يوسف .. وفى الطريق فتح ورقة الحلاوة وقضم قطعة أخرى .

وخبط على باب الشيخ يوسف وهو يقول لنفسه مقطعا من موال:

خبطت عالباب قال لى الباب يا وعدى !

وعندما فتح له الشيخ يوسف اعطاه الحلاوة والبيض والأرغفة وبلغه رسالة الصول .

وتناول الشيخ يوسف الأشياء من عبد العاطى متكدرا ، وتحسس قطعة الحلاوة قائلا فى صوت خافت مرتعش :

ـ يا ليلة غبرا ؟! بعد ما طفح اللى طفحه يرجع لى الباقى! وهوباقى حاجة من الحلاوة !! ما لهفها كلها ؟ خد ادى البريزه أهه الله لا يبارك له فيها ..

ثم مضى يلعن النقطة ورجال النقطة والزمن الذى جاءت فيه ، واهل البلد جميعا ..

وهمس عبد العاطى وهو ينصرف :

ـ وقال ايه .. عايز واحدة تخدمه ! فاكرنا مغفلين ؟!.

فقال الشيخ يوسف وهو يغلق الباب :

ـ بكرة يلاقى عشرة ! حاكم دى بلد ! بلد ما يعلم بيها الا ربنا !.

وانصرف عبد العاطى وهو يفكر فى الصول وما يصنعه .

وبلغ الدوار فدخل المندرة متباطئا ..

وعلى باب المندرة وجد شيخ البلد يمسك بالابريق ويصب على يد الصول ، والصول يتمخط ويتمضمض ويبصق !.

ونظر عبد العاطى الى شيخ البلد بشماتة .. ودخل المندرة فوضع القروش العشرة على الكنبة ورفع الصينية فى صمت .

وعندما كان الصول يمسح فمه بالفوطة الحمراء ذات الخطوط الصفراء المتشابكة خرج عبد العاطى بالصينية على رأسه فسأله الصول:

ـ قال لك ايه البقال ؟! اداك الفلوس من سكات ولا برطم ؟! قال ايه لا.

فقال عبد العاطى باستخفاف :

ـ الفلوس اهى عالكنبة .. وهو بيسلم عليك !..

وجلس الصول يدخن سيجارة .. وكانت خياشيمه تطرد الدخان بصوت مرتفع : وكان يشخر كذكر البط السمين.

وأخذ يلعب فى اسنانه ، ويتجشأ .. وبعد قليل تمطى وتثاءب ونظر الى الكنبة وهو يقول:

ـ الواحد ينقلب بقى ياخد له تعسيلة على الكنبة دى وزى ما تيجى تيجى !.

ثم نادى بصوت جاد .

ـ وانت يا عسكرى انت وهوه خدوا بالكم كويس .. واحد يقف هناك على باب الدوار والباقيين يلفوا البلد ! واللى يتخايل بحاجة من ناحية المركز يكح . واللى يسمع الكحة من بعيد يكح جامد .. وانت ياعسكرى ياللى قدام الدوار اولماتسمع كحة تيجى جرى تصحينى!..

وهمس لنفسه :

ـ يمكن البيه المأمور يمر الليلة .. دا لو الود وده كان حرق البلد دى وخلص !

وخرج العساكر .. وشيخ البلد .. والصول يخلع حذائه ، ثم القى ببدنه على الكنبة .. وتمطى .. وتصاعد شخيره بسرعة ..

كان راقدا بملابسه العسكرية ولكنه قام فجاة يحك جلده ويفحص الكنبه ويشتم الفلاحين وبيوت الفلاحين وعمد الفلاحين .

وحاول أن ينام مرة اخرى ، ولكنه قفز من على الكنبة يحك جلده ويخلع سترته ويفتش فى جسده عن الحشرات التى لسعته .

***

وفى الصباح رحت مع ابى الى عاصمة الاقليم لدكتور العيون .. وكنت على طول الطريق افكر فى المدرسة الثانوية التى سأدخلها بعد أيام قليلة .

وبعد ان انتهيت من زيارة طبيب العيون ، مضت بنا العربةالحنطور حتى وقفت أمام باب المديرية .. وفكرت قليلا فى الحديث الذى كان يدور دائما بين طبيب العيون وأبى ..

كان طبيب العيون عضو شيوخ سابق كافح مع سعد . وكان يقول لابى دائما انه لا الانجليز ، ولا الملك فؤاد ، ولا حزب الشعب،ولاالمدافع، ولا كل مصانع السلاح الاوربية ، ولا كل قوى العالم تستطيع أن تخرس صوت شعب مصر او تحكمه على الرغم منه !..

ستظل الامة مصدر السلطات على الرغم من كل شىء .. وسيظل الشعب مصرا على ان يكون صاحب الكلمة ! ولربما افلحت البنادق فى ان ترهب ، ولكن الرصاص لن يخرس صرخات العدل والحرية ..

ولقد تفلح القوة الغاشمة فى ان تنتزع الارض من الفلاحين ، وفى ان تزحم السجون بالاحرار ، وفى أن تصنع الازمة فلا يفكر أحد الا فى اللقمة .. ولكن الناس يدركون أن الحرية هى التى توفر الطعام ، وأن الدستور هو الذى يضمن الحقوق ، وان اختيارهم الحر لمن يحكمون ، هو الذى يضمن شروطا انسانية للحياة !.

وكان طبيب العيون يقول ساخرا ان حزب الشعب قد وضع دستورا وصنع برلمانا .. ولكن لا احد فى مصر يعتقد ان هذا هو برلمانه ، ولا أحد فى مصر يثق فى كلمة يقولها نائب من حزب الشعب حتى لو كانت كلمة حق ! .. ذلك ان شعب مصر يدرك ان حزب الشعب خدعة اريد بها تضليل الناس ليقضى فيهم قضاء العدو !.

وكان دكتور العيون يقول هذا كله وهو يضع فى عينى شيئا لزجا على مرود زجاجى ..

وتركنى الطبيب ونظر الى ابى وهو يكمل قائلا ان المهم ليس هو ما يقوله الحاكم ، فالكلام كثير ، ويستطيع الطاغية البارع ان يقول اجمل كلام .. وانما المهم هو باسم من ينطق الحاكم ! لحساب من يعمل ! والذى يحدد هذا كله هو ان نعرف من هو الذى اختار هذا الحاكم ! وكيف تم الاختيار ؟ والرجل الحافى فى الحقل والشارع يدرك هذا اكثر مما يدركه ارباب الكفاءات .. ومن اجل هذا فهو لا يثق الا فى الذى يختاره للحكم بارادته الحرة .. وهذا عدل .. لان الذين يختارهم الشعب ليحكموه يعتمدون دائما فيما يواجهون على الارادة الخالقة لملايين الناس ، ومن هنا تنبثق فيهم القوة والصلابة .. ثم انهم يجعلون مصلحة الملايين التى انتخبتهم هى مقياس ما يأخذون ومايدعون وما يصدرون من قوانين !..

ثم قال الطبيب ان الطلاب الذين يتظاهرون فى مصر يدركون هذا .. وهم اقوى الناس وانبل الناس فى هذه الأيام ! ..

***

كنت ـ ونحن نقف بالعربة اماب باب المديرية ـ افكر فى هذا الكلام الباهر الذى قاله طبيب العيون،وحاولت ان احدث به عم كساب سائق العربة ولكنه قال لى فجاة ان ابى دخل الى المديرية ليسعى فى دفع نقطة البوليس عن القرية . وسكت قليلا ثم التفت الى وقال فى صوت رهيب ان وجود نقطة البوليس فى البلد مصيبة كبيرة .. فالعساكر ان اقاموا ، خسرت كل البنات .

وكان وجهه النحيل الاصفر يختلج ورموش جفنية تخفق .. وكان واضحا لى ان السائق يعانى احساسا زريا بالخجل والعار والمهانة والعجز ..

لم تكن له فى القرية ارض ، ومع ذلك فقد كان مهتما بالزراعة ولم تكن له اسرة ولا بنات وعلى الرغم من هذا فقد كانت كلماته عن خسارة البنات تقطر بالمرارة والهزيمة والحنق .

واندفعت كلماته فى عروقى بحرارة لم احتملها ، ووثبت امام عينى فجاه صورة وصيفة وتخيلتها هى الأخرى تخسر !.

وصيفة .. والعساكر ؟

ولم احتمل الفكرة .. وزايلتنى البهجة والثقة والكبرياء .. وكل ما شعرت به منذ لحظة ، وانا اسمع كلام طبيب العيون ، وشعرت بأشياء ملتهبة تقف في حلقى .

واستمر السائق يقول لى أن البلد فقيرة ، والبنات والنساء لا يجدن المال ولا الذرة ، ولا احد فى القرية يعرف القرش بينما العساكر يملكون القرش !.

وسكت قليلا ، ثم قال لى فى رهبة ان العساكر يجب الا يقيموا فى البلد فربما اصطادتهم البلد واحدا بعد واحد .. ربما استفردت البلد بواحد منهم فلم تتركه الا ميتا .. وعلى أية حال فيجب أن يعرف رجال المديرية ان الناس لا يسكتون عادة على الهوان الا اذا كانوا يدبرون انتقاما !.

وسكت السائق عم كساب قليلا ، وهو يهز رأسه وينظر الى الفضاء ثم عاد يقول لى انه يعرف كل شيء .. فقد عاش فى الاسكندرية وكان يعمل سائقا للحنطور أيام الحرب وعرف ما يصنعه الجنود الأجانب عندما يهبطون مدينة كبيرة فقيرة .. وهو يعرف ما يمكن أن يصنعه عساكر يملكون القرش فى قرية صغيرة تنتزع الأرض من اهلها ..

وتنهد قليلا واستمر يقول انه اشتغل فى مائة شغلة ، فكان سائقا على عربات الحنطور ، ووقف خفيرا فى الدريسة ، وعاملا فى العنابر ، وعاملا فى النسيج . وعندما قامت الثورة اشترك فيها وهو عامل فى الاسكندرية .. وبعد الثورة اشترك فى اضرابات العمال .. وسجن من أجل الاضراب وذاق المر !.

وفى السجن لقى عمالا يفهمون أشياء لم يكن يعرفها ، ومنهم تعلم الكثير من الأسرار .. وخرج من السجن فعاد يبحث عن عمل ، وحاول ان يشتغل .. فلم يجد احدا يرضى .. لانه سجن مرة من أجل الاضراب ، فعليه ان ينتظر السنوات حتى ينظف صحيفة السوابق ، وهو ينفق هذه السنوات فى القرية يسوق العربة الحنطور ويدخر المال ، متأكدا انه فى يوم ما سيعود الى الاسكندرية ليستأنف حياته هناك من جديد .. وهو يعلم ان الرجل يجب ان يرفع رأسه دائما ويجب أن يدرك أن فى الامكان دائما أن يبدأ من جديد .. هكذا علمه الذين لقيهم فى السجن!..

وعجبت لكلام عم كساب .. ووجدته مثل كلام طبيب العيون :

يفتح العقل على كثير من الاشياء !..

وعندما سكت هو ، كنت لا أزال مبهورا بالدوامة الرائعة التى هى حياته .

وتذكرت ان النساء فى قريتى لا يملكن القرش حقا .. وعادت تلح على صورة وصيفة عندما لقيتها فى أول الصيف ، وفرحتها وأنا أعطيها قطعة نقد فضية ، وقولها لى وقدماها فى الماء تحت ساقية عبد الهادى انها تتمنى أن تصبح فتجد زلعة من النقود .. والحت على صورتها عندما خرجت منذ أيام باكية من قاعة الطحين لتقول ان كيزان الذرة الباقية لا تكفى الطحين!..

مازال رنين فاجع من كلماتها ، يسيل من أذنى الى اعصابى ويهزنى حتى البكاء !..

ان السائق الذى يخاف على بنات القرية من العساكر يفهم كل شيء حقا .. يفهم كل شيء عن العساكر والبنات الفقيرات .. تماما كما يفهم طبيب العيون كل شيء عن الأزمة والبرلمان والانتخابات وحزب الشعب !..

ايمكن ان تخسر وصيفة حقا !!.

وحاولت ان اقول شيئا .. ولكن عم كساب سائق العربة فاجأنى بقوله وهو يتنهد :

ـ يا خسارة يا محمد ابو سويلم .. ياخوفى عليكى يا وصيفة ! .

ووثب من مكانه المرتفع فى العربة ودخل المديرية مسرعا دون ان يرى اضطرابى لكلامه المفاجيء .. ايفكر عم كساب فى وصيفة ايضا ؟

ايمكن ان تفكر فيه وصيفة ؟!.

ايمكن ان تحب وصيفة هذا الرجل الهادىء النحيل ذى الوجه الجاف والشارب الرمادى القصير ؟!.

ان الشعرات البيض تبدو واضحة فى شاربه وشعره الطويل المتناثر من تحت طاقيته الصوف .. انه رجل لا يتكلم ، وهو يعيش فى صمت مع حصان العربة ، ولا احد على الاطلاق يعرف عنه شيئا .. فهو لا يسهر على مصطبة محمد ابو سويلم ولا يكاد يذهب الى دكان الشيخ يوسف .. ولا يكاد يكلم احدا ..

ايمكن أن تتزوج وصيفة هذا الرجل الذى يقرب عمره من عمر ابيها ، والذى اشتغل مائة شغلة ، وعاش فى الاسكندرية قبل أن تولد هى ، وحبس وهى طفلة ؟!..

وبرزت امامى صورة عبد الهادى ..

ولكن لماذا لا يبادر عبد الهادى فيقرأ الفاتحة على وصيفة !..

وقبل ان نبلغ القرية قطع محمد ابو سويلم الصمت بقوله انالانفار الذين يشقون الزراعية وصلوا الى زمام محمد افندى ، فهم الآن يحفرون فى ارض الشيخ يوسف التى يضع محمد افندى يده عليها ، وربما حفروا فى ارض محمد افندى غدا .. وفى ارض محمد ابوسويلم نفسه بعد غد .

واقترح ابى على محمد ابو سويلم أن ينجو بمحصول القطن من الزراعية فيجمع منه ما يستطيع جمعه قبل أن يدهسه الرجال !.

ورحب محمد ابو سويلم بالفكرة ، وتحمس لتنفيذها بلا مناقشه ، وطلب من عم كساب ان يقف ليحاول جمع بعض الأنفار من على الجسر يساعدونه فى جمع القطن .

ونزل محمد ابو سويلم وانا اعجب له كيف لم يدعك راسه ، ويقلب الفكرة الجديدة قبل ان ينفذها كما يصنع المدرسون فى المدرسة ،وكما علمونا دائما الا نتعجل ففى العجلة الندامة وفى الأناة السلامة ..وكيف لم يقنع بما قسم له مادام المقسوم هو أن تلتهم الزراعية قطنه . وأخذت ادير فى راسى كلمات تعلمناها فى دروس الدين والتهذيب .. كلمات تقول ان القناعة كنز لا يفنى !!

ولكن محمد ابو سويلم كان قد ترك العربة ، وقفز عم كساب من مقعده العالى ووقف امام وصيفة ومد اليها يده لتقفز مستندة الى يده ، ولكنها لم تمد يدها .. واحمر وجهها وارتبكت ثم وضعت قدمها على العجلة ، فتحركت العربة ، واوشكت ان تسقط فامسكها عم كساب من خصرها بيديه ، وانزلها بسرعة .. ووجهها كالورد !.

ولفحنى غيظ مبهم واختلجت اجفانى المثقلة بمرهم المس .. وانا احدق فى بدن وصيفة بين يدى عم كساب !

وعندما هبطت على الارض انحنت فى دلال وغندرة ، وهى تبتسم .. والغمازات الشائقة ترقص فى وجهها !

وعاد عم كساب يفرقع الكرباج فى الفضاء ، ويطلب من الحصان فى صوت نشيط ان يسير !

وبلغنا الدار ولم نكد نهبط من العربة حتى ذهبت ابحث عن عبد الهادى .. وما زالت اللفحات الغامضة تثقل على صدرى !..

***

امام دكان الشيخ يوسف وجدت عبد الهادى ومحمد افندىوعلوانى يقفون ، والشيخ يوسف محتقن الوجه ..

كان محمد افندى يقول أنهم دهسوا الزرع وقطعوا الأعواد الخضراء بلا رحمة ، والشيخ يوسف يجيبه ان هذا كله لا يعنيه ولا يهمه ابدا ان يدهسوا الزرع او يحرقوه ، فهو ليس زرعه ، وهو لا يستفيد من هذه الارض التى يضع عليها محمد افندى يده ، ومادامت الارض مرهونة تحت يد محمد افندى فما شأنه هو ؟ ان كل ما يشغله حقا هو متى يأخذ التعويض عن الأرض مادامت الأرض المرهونة مازالت ملكا له ..

وكان محمد افندى يقول له انه لا يستحق الا نصف هذا التعويض لان الزرع ملك لمحمد أفندى ، والشيخ يوسف يزعق فى محمد أفندى قائلا انه يستحق التعويض كاملا فالأرض مازالت ارضه ، والتعويض الذى تدفعه الحكومة عن نزع الملكية حق له وسيدفع منه ديونه لمحمد افندى على بلغة قديمة ! .

ولم يكن هذا الحديث كله يعجب عبد الهادى ..

كان يجز على اسنانه ، وانفاسه تتردد قوية فى انفه ثم يقولللشيخ يوسف :

ـ خلينا نكلم بالراحة يا شيخ يوسف وما نغلطش فى بعض ! اتكلم كويس مع محمد افندى ..

واحتج علوانى على طريقة الشيخ يوسف التى تغضب الناس فصاح فيه :

ـ يعنى يا واد يا عرباوى اقفل الدكانه واشترى لك غنم عشان تنبسط ؟!

وابدى الشيخ عجزه عن فهم ما يريده محمد أفندى منه ..

فتطوع علوانى بأن يقول مصرحا :

ـ سيبكوا من الكلام ده .. بقى يابا الشيخ يوسف .. بقى حقيقة ربنا كده يا عم الشيخ يوسف انت ما حقكش تبيع حاجتن تخلق لانفار الزراعية ! . آدى اللى عايزه محمد افندى .. هه انا قلتها لك اهه بالمقتشر ! .

وازاح الشيخ يوسف عمامته من على مقدمة راسه وحك منبت الشعر ثم دفع العمامة ذات الشال الكبير المتسخ فعمرت جبهته ، واستندت الى حاجبيه واخذ ينظر طويلا الى علوانى ويهز راسه،واخيرا قال له باشمئزاز :

ـ ما أبيعش لانفار الزراعية ازاى ياواد يا عرباوى ؟ طب داهم اللى روجوا الدكان ! عجايب .. امال افتحها يعنى على الشكك ؟! علىبكوز فلفل ، وبيضه ملح ، وورقة دخان على الحساب ؟! دا انفار الزراعية دفعوا لى امبارح بس قد اللى دفعته البلد كلها فى شهر ! ،دا لسه اول يوم .. يا هادى ! طب دا اناكنت لسه باقول وعسى ان تكرهوا شيئا

وهو خير لكم .. قال كنت زعلان من الزراعية . زعلان ليه ؟ حتة الارض اللى عندى ، وحاخد بدلها فلوس افك ضيقتى ! ازعل ليه بقى ؟! وعلى كل آهى كانت مرهونة ، ولما الحكومة تاخدها احسن لى الف مرة من سيبانها كده غيرى يتمتع بها .. ادى باب .. وتانى باب الانفار بيقبضوا وبيشتروا كل حاجة بالفلوس .. يعنى حايروجوا البلد كلها ويملوها خير ! ازعل من الزراعية ليه بقى ؟!

ولم يحتمل عبد الهادى هذا الكلام فزعق فى الشيخ يوسف :

ـ كده على طول بين يوم وليلة غيرت رايك ؟! كدهه الفرش قلب مخك .. امال قريت فى الأزهر ايه ونيلت ايه ؟! يا اخى افتكر مشايخ زمان اللى قريت عنهم ، كانوا بيعملوا ايه مع الحكومة .. ماحدش من جدودنا قال لك على اللى عملوه ايام عرابى ؟! نسيت عمايلهم فى الخديوى والانجليز ؟ نسيت كلامهم على اللايحه ؟ بقى انت بعد اللى عملته سنة ١٩ ، وبعد ما وقفت ضد حزب الشعب تيجى تخيب نفسك كده ؟

وغاض وجه الشيخ يوسف،وارتعشت شفتاه ونظر الى عبدالهادى محنقا ولم يقل شيئا .. ولوح علوانى بذراعه ليتكلم ، فصرخ فيه الشيخ يوسف :

ـ هس !.

ولم يهس علوانى بل زعق موجها الكلام لعبد الهادى :

ـ يا اخى يا عبد الهادى دى الفلوس تقلب العفريت ..

فانفجر الشيخ يوسف يقول لعلوانى :

ـ ياك تنقلب ما تقوم .. اسمع يا واد انته اوعى تيجى هنا تانى !

فقال عبد الهادى وهو يتحرك :

ـ والله يا شيخ ما حد جاى لك هنا تانى .. دا انت راجل غلس وقلبك ردى .

واندفع الشيخ يوسف يقول :

ـ اسمع يا عبد الهادى : انا ساكت وباقول لنفسى يا واد اقصر الشر ـ انا باقول لك يعنى !! انا يعنى باعمل كده عملا بقوله تعالى ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم ! آه.. انت مالك ومالى يا اخى .. الله ! انت شريكى ؟ جرى ايه ؟! ما كل واحد بيقول باللا نفسى .. انت مالك انت ومال الزراعية يا اخى .. ايش حشرك فيها ؟.. لا لك ارض هناك ولا حاجة .. هوه شكل للبيع يعنى؟ ثم يعنى لما انا ما ابيعش لانفار الزراعية ماهم حايشتروا من غيرى من

بلد تانيه .. ويعنى افرض ان الزراعية مش عاجبانى .. حا اعمل ايه ؟ ايه العمل يعنى ؟ يعنى احنا اللى حانوقفها .. ما رميتو الحديد فى الترعة ، واهى مشيت برضه على رقبة احسن واحد !! احنا حانقف قصاد الحكومة ؟ ما الشاويش عبد الله عمل شملول .. اهو جاب النقطة ! جاب العسكر !!

فاحتد عبد الهادى قائلا :

ـ نقطة ايه وعسكر ايه ؟ طيب خليهم يعمروا فى البلد كده ! غيرشى همه بيستهفوا اللى زيك !.. ما الواد عبد العاطى حكى لى على حكاية الحلاوة الطحينية والسجاير وخيبتك مع الصول .. اسكت اسكت بقى بلاش كلام خايب .. ياراجل دانت بتقول كلام يفرس !! يا نهارك اغبر يا شيخ يوسف الله يخيبك يا شيخ !..

وتدخلت انا فى الحديث ، وقاطعت عبد الهادى قائلا ان النقطة رحلت من البلد وانها ستكون مجرد داورية ..

وتهللت الوجوه .. ومضيت انا وسط الاستفسارات احكى كل ما اعرف من الأمر .

وقال محمد افندى للشيخ يوسف :

ـ ايه رايك بقى ؟! قدرت الحكومة تحت نقطة بوليس غصبن عنا ؟! وحياة النبى يا شيخ لو قعدت النقطة لكانت شافت الويل نقطة بخطرنا اهلا وسهلا لكن غصب عنا .. يا اخى بعدك !

وبهت الشيخ يوسف ، وتزايل ، فاندفع محمد افندى يقول :

ـ انت يا شيخ يوسف مش قلت من قيمة جمعة انك مش رايح تكلم حد من بتوع الزراعية .. حتى كنت ناوى ما تردش السلام .. ايه اللى خلاك تبيع لهم دلوقت ؟!

فقال الشيخ يوسف متزايلا ببرود :

ـ دهدى ! اى قلت ! قلت ورجعت .. حد شريكى ؟ وانا ان ما بعتش ما غيرى فى بلاد تانيه رايحين يبيعوا لهم ..

فقال محمد افندى بازدراء :

ـ ايه اللى قلت ورجعت ؟! ايه اللى غيرك فى بلاد تانيه حايبيعولهم؟! ما يبيعوا .. لكن انت ما تبيعش ! تخلى الانفار يطفحوا الكوتة رايحين جايين .. اقطيعة يا شيخ تقطع الزراعية واللى جلب الزراعية واللى يسلم على بتوع الزراعية !..

ونظر اليه الشيخ يوسف قائلا :

ـ هيه ! تقدر تقول الكلام ده قدام محمود بيه ؟ تقدر كده تطلع الزراعية وتقول كده..

فثار محمد افندى ولعن محمود بك ، وقال انه مستعد لأن يضع اصبعه فى عين محمود بك هذا ..

ومضى يقول معرضا بالشيخ يوسف ان محمود بك بعد ما عمل فى مسالة الزراعية ومسالة حبس الرجاله ، اصبح لا يهم احد ولايهتم به احد فى البلد ، الا من يرجو أن يكون عمدة !

وقال الشيخ يوسف لمحمد افندى وصوته يرتعش :

ـ والله ما انا مستعنى كلامك ! مش حارد على الكلام الفاضى !مش رادد على حد من اصله ..

ثم دس يده فاخرج كتابا سميكا اصفر وبدا يقلب صفحاته فى فتور ويقرا ..

وقال علوانى مستنكرا :

ـ وبتقرا قصة ابو زيد الهلالى ليه بقى ؟.. سيب أبو زيد وعنتر والحاجات دى لنا احنا .. سيبها لعبد الهادى ! اقرا لك مولد بقى ، ولا عدية يس ..

وضحك عبد الهادى فجاة بانطلاق .. واكمل محمد افندى ضاحكا :

ـ وللا اقرا جريدة حزب الشعب !.

وكظم الشيخ يوسف غيظه ولم يرفع راسه عن الكتاب .

وعندما انصرف محمد افندى وعبد الهادى وعلوانى ، رمى الكتاب فى ضيق ، واخذ يلعن غيرة البلد .

وبعد قليل دخل الى داره بجوار دكانه ، فلبس الجلباب الكشمير الذى اشتراه من اجل العمودية ، ولبس الفانلة الصفراء ذات الأكمام الطويلة ، والعمامة بشالها الجديد الأبيض الفاقع .. وخرج من باب داره يفتح صدره متحديا ، وان كان فى اعماقه ليشعر بالهوان !.

وعاد الى دكانه ، وصمم على ان يذهب الى محمود بك ليتفق معه على السعى لتعيينه عمدة مقابل نصف المبلغ الذى سيأخذه من الحكومة تعويضا عن ارضه المنتزعة للزراعية .

وعندما يصبح عمدة .. فهو قادر على أن يصرف شغله مع عبد الهادى ، ومحمد افندى وحتى مع محمد أبو سويلم . وعلى اى حال فلابد من تاديب الولد العرباوى علوانى فى اول يوم لتعيينه عمدة!!

.. لماذا لا يعيد موضوع خضرة ، ويسلطه على علوانى .. وعلى عبد الهادى ومحمد افندى ان لزم الأمر !.

وظل ينظر امامه فى الطريق ، واستهيا له ان الذين يمرون يتحاشون النظر اليه ، ونكس راسه .. ونظر فى دفتر الحسابات ..

***

انصرف محمد أفندى الى حوض الترعة ليرى ما صنع الرجال بحقله، وكان طوال الطريق يفكر فى محمود بك هذا .

ان محمد افندى ظل يعتقد ان من الممكن ان يصنع هذا الرجل شيئا للبلد ، ودفع له من جيبه الخاص مالا وانتظر ان يفاجىء القرية بانهائه الزراعية أو أفرج عن رجالها ليسترد محمد أفندى ماله من أهل البلد .. ولكن محمود بك لم يصنع شيئا . وضاع على محمد أفندى ما دفعه ولم يجد فى نفسه استعدادا لأن يقول لأحد انه دفع مليما لمحمود بك ، ودارى الأمر فى قلبه ، وكتم فيه احتقاره لمحمود بك ، وأخذ فى كل مناسبة يعلن هذا الاحتقار .

ولم يكد محمد أفندى يصل خارج القرية فى الطريق الى حوض الترعة حتى كان علوانى وعبد الهادى يسيران وراءه ..

واندفع هو الى حقله .

اما عبد الهادى وعلوانى فقد كانا يسيران على مهل يتحدثان .

وقال عبد الهادى لعلوانى أنه نوى بعد أن يبيع القطن أن يشترى غنما يرعاها علوانى وطلب منه أن يعتبر نفسه شريكا فى الغنم نظير رعيها .

وطار علوانى من الفرح وقال فى أمل :

ـ يا سلام .. اقله الواحد يلاقى حته يبات فيها ! يا شيخ دا الواحد من عزم ما فيه كان قرب يفكر انه يشتغل فى الزراعية .. لكن والله بقيت مستعيب قوى وصعبانه عليه نفسى يا عبد الهادى!..يانهار اسود . دى الحوجة تكفر صحيح يا اخوانى !.. ان ما كناش احنا نشيل بعض بقى بس يبقى ايه العمل ؟ يعنى الواحد يعمل زى الشيخ يوسف ؟! يا خسارتك يا شيخ يوسف بقى ما بعد ما تقرا دا كلـه ، وتحفض شعر عنتر وابو زيد ، تقوم تبيع لانفار الزراعية !! دا كان حقك تقطع رجل اللى ييجى منهم ناحية الدكان !.

وطلب عبد الهادى من علوانى أن يقيم عنده وان يساعده فى جمع القطن حتى يشترى الغنم .. ثم ابتسم عبد الهادى قائلا لعلوانى :

ـ بس اوعى يا علواني تعمل في الغنم دي زي ما كنت بتعمل ف غنم البيه .. ما انت اللي قلت لي .. نعجة تنشط ولا حاجة تتوه .. الأمر ما ايخلاش .

واكمل علواني ضاحكا :

ـ اى اى ! وللا خلفه كده تتدارى ولا حاجة تقع !!.

ثم سكت فجأة ، واكمل وهو جاد :

ـ لا .. لا يا عبد الهادي ! الكلام ده يصبح مع البيه بس . لـــكن بقى انا اعض فيك . احنا نعض فى بعض !!.

وطابت نفس عبد الهادي ، وقال وهو ما يزال يضحك :

ـ يا واد دا كلام .. انا باقولك كلام دحك !.

وحاولت ان اكلم عبد الهادي قبل ان يبلغ الطريق المؤدى الى حوض الترعة لأعود انا الى دارنا ، ولكن علواني سبقني بقوله :

ـ استنى يا عبد الهادي ! حا اطلع كده من غير عصاية ؟ لما اجيب عصاية احسن الاولاد بتوع الزراعية يقبحوا علينا بكلمة ! ولا يغنوا أو يالسوا .. وللا يثرأوا !.. حاكم انا عارف بتوع البندر دول !..

وذهب علواني ، ووقف عبد الهادي ينتظره متكئا الى عصا قصيرة غليظة فى يده .. ووجدت الفرصة مناسبة للحديث مع عبد الهادي عن وصيفة ، ولم اعرف كيف ابدا فسألته بلا مقدمات .. لماذا لا يتـــزوج وصيفة ..

وقال بانطلاق :

ـ على ما ترجع فى المسامحة الجاية تلاقيها معمـــــرة الدار .. تلاقيها منورة وشايلة عيل على كتفها يا جدع ! سافر انت بس مطمن .. اطمن اقوى ..

وضحكنا ولم اقل شيئا .

ثم سالني عبد الهادي متى اسافر فقلت له انني مسافر بعد اربعة ايام . فقال لى بأسف :

ـ ياخسارة مالحقتش اقول لك المواويل اللى كنت عايز تسمعها منى فى اول المسامحة ! راحت المسامحة فى ملاعيب العمدة وافتـــرا الحكومة .

ثم همهم :

ـ الجايات كتير .. بكره الدنيا تروق .. والنكد ينزاح .

وسكت ..

وشردت فى الاجازة التى ذهبت ، والدراسة التى تبدا بعد قليل .

وكنت اشعر بانفعالات مبهمة جديدة تضطرم فى الاعمـاق منى .. والأسى الغامض يملأ صدرى ..

وارتفع صوت عبد الهادي حزينا مفعما يغنى :

بكره السفر يا حبايب خللى بالكم معنا
باللى علشـــانكم ســالت مدامعنـــا

واسترسل عبد الهادي يغنى الى آخر الموال : بينمـا كان علواني يقبل بعصا طويلة وضعها على كتفيه واسند اليها قفاه وراسه ، ومضى علواني مع عبد الهادي الى حوض الترعة ..

وفى حوض الترعة كان محمد ابو سويلم يسوق بعض الأولاد لجمع القطن ووقف مع ابنته وصيفة على راس حقله .. وغير بعيد منهم وقف محمد افندي ودياب ..

كان الرجال يعملون بهمة ورئيسهم يراقب ، وهم يتقـــدمون فى الحقول اكثر مما توقعت القرية .. وكانوا قد فرغـوا من كسر الأعواد فى ارض محمد افندي وتقدموا الى زرع محمد ابو ســــويلم ، ودياب يزعق ، ويكاد يشق جلبابه واخوه محمد افندي واجم لا يكاد ينطق !.

وبدأ الرجال يدهسون ارض محمد ابو سويلم ويكسرون الاعـــواد باقطانها ، والمعاول فى ايديهم تخبط .

واحس محمد ابو سويلم بعقله يطير وهو يرى قطنه يهـوى امامه ويختلط بالتراب .

واطلقت وصيفة صرخة مروعة مشحونة باليأس !.. وكانت فتيات من القرية يحملن صفائح الماء من الترعة ويخطرن وسط الرجال يضحكن للكلمات البذيئة .. وطلبت احداهن من وصيفة أن تصبر وتعقل ، وان تأتى لتشتغل وتأخذ ثلاثة قروش فى آخر كل نهار ، فتشترى كل ثلاثة ايام كيلة من الذرة !..

واخذ محمد ابو سويلم ينقل نظراته بين القطن الذى يهـــوى على التراب ، ووصيفة ، والفتيات !.

ان شقاءه الاسود يجد عزاء فى هذا القطن وحده .. ولـــكنهم يدهسونه بلا حساب .. ولقد باع الجحشة ليشترى بثمنهــا ذرة ، ولكنه فى حاجة ايضا الى ثمن القطن . وهو ينتظر ان يهبـــط احد الخواجات فيبيعه المحصول باى ثمن .. كما تعود الخواجات فى آخر كل صيف ! فلئن لم يستطع محمد ابو سويلم ان يظفر من كل عملهطوال العام بذرة او قطن .. فمن اين يســـتطيع ان يعيش !. لو انه تركهم

يدهسون القطن فسيترك لهم وصيفة تعمل كالاخريات : تغنى مع الرجال الغرباء بكلمات نابية ، تضحك للالفاظ البذيئة ، ويجذبها هذا وذاك ! ومن يدرى ؟!.. وربما غابت فى احد حقول الذرة ودخل وراءها رجل او رجلان او ثلاثة !.. فقد راى محمد ابو سويلم بعينيه فتيات يصنعن هذا .

فتيات كن لا يستطعن ان يرفعن الراس امام رجل غريب .. من فرط الحياء !

وتقدم محمد ابو سويلم الى رئيس الانفار ، وطلب منه ان يؤجل حفر الحقل يوما حتى يجمع القطن .

وقال رئيس الانفار :

ــ يعنى نبطل لك شغل الحكومة علشان تجمع انت القطن بتاعك..

ثم التفت الى الانفار قائلا :

ــ افحت يا واد افحت ! همتكم شوية ..

كانوا كلهم من بلاد بعيدة متفرقة .. وقد تعود رئيس الانفار ان يجمعهم ويسرح بهم فى عمليات كثيرة .

وعاد محمد أبو سويلم يحاول أن يشرح لرئيس الانفار ولكن الرجل ازاح طربوشه المعفر الى وراء ومشى فى ضيق وهو يمسح كرشه المسترخى تحت الجلباب الواسع السمنى اللون ، ودعك وجهه الحليق المتكور ، ثم تنخم وبصق ، ومسح شاربه الرمادى الأشعث النافر الشعرات وقال لمحمد ابو سويلم فى حسم انه لا يستطيع ان يتاخر يوما واحدا فالحكومة تحاسبه باليوم ، وهى تستعجل الزراعية وقد ازف موعد التسليم المحدد !.

وقال محمد ابو سويلم :

ــ يا سيدنا لفندى حرام عليك .. وهوه يوم حايعمل ايه للحكومة ؟.. ايه يعنى لو تتاخر الزراعية يوم .. طب دا يوم الحكومة بسنة ؟ اشمعنى جاية تتدار وتحبكها فى الزراعية ؟ يا فندى !! يعنى ترموا لنا شقا السنة بحالها فى التراب كده قدام عنينا ؟ ! يا سنة سودة يا اولاد !.. يعنى نطلع فى آخر المواخر من غير درة ولا قطن .. يعنى نطلع حباب عنينا طول السنة وبعدين لا نطول لا ابيض ولا اسود .. الهى تسود عيشة الحكومة يا شيخ !.. هيه دى كمان مشيخةالغفر؟! ما كفاية بقى ؟ رايحين فين .. هيه الحكومة رايحة فين ؟ عاوزه ايه تانى بعد اللى عملتوا فينا !!.

واذ ذاك صرخ فيه رئيس الانفار :

ــ بس اخرس ..

وصاحت وصيفة فى حسرة :

ــ يا خرابك يا ابا ...

وحملق رئيس الانفار بعينيه المنتفختين فى وصيفة ، ومرت يده من فوق جلبابه وأخذ يمسح بطنه ، ويحك مهبط كرشه فى حركة نابية ، ورفع حاجبيه وغمز بعينيه لوصيفة .

ثم امسك بالشحم المتدلى من تحت ذقنه ، وقال لمحمد ابوسويلم:

ــ وزعلان ليه ؟.. ويعنى انت كنت حاتبيع القطن بكام يا خى ؟ يعنى قطن الدايرة ؟ ما كان الخواجة حا يلهفه منك بالتراب ! ما تخللى بنتك اللى دايرة تصوت دى تيجى تشتغل فى الزراعية ! دى الزراعية جاية لكم مصلحة بس انتو اللى بهايم ! .. دانا مشغل اتناشر بنت من بلدكم ، وبيوتهم انفتحت !.

ثم التفت الى وصيفة ويده على مهبط كرشه وعينه تغمز وقال :

ــ هه يا قمورة !.. ما تيجى تشتغلى يا بت .. باين عليكى جامدة وكويسة .. حاديها خمسة ساغ مش تلاته زى التانيين ؟ ايه رايك؟.

وتقدم الى وصيفة وقد رق صوته ، ومازالت يداه فى حركات فاضحة تعبث من فوق الجلباب وقال لها :

ــ ايه رايك يا حلوة .. ايه يا عروسة ..

ودارت راس محمد ابو سويلم واشتعل كل جسمه وتخيل ابنته تقف كالاخريات مع رجال غرباء تضحك لمعاكستهم ، وتتمايل بصفيحة ماء على راسها ، وتدخل حقل الذرة فى انتظار رجل !.

ولم يحتمل محمد ابو سويلم افكاره ، واوشك ان يهوى على راس الرجل . ولكنه قبل ان يقول كلمة سمع ضحكة فتى غليظة الصوت .. ورفع صاحب الضحكة قامته من على المعول فبان وجهه ، كان هو نفس الفتى الذى مشى وراء شعبان ذات يوم ، وطرده الشيخ يوسف من دكانه لانه حاول ان يقول كلاما غير طيب عن عبد الهادى .. ولكن الشيخ يوسف لم يعد يطرده فى هذه الايام ، بل فتح له صدره .

واهتز محمد ابو سويلم وهو يسمع ضحكة هذا الفتى واختلج عبد الهادى من الحنق .

وظل الفتى يضحك وهو يقول فى سخرية :

ــ والله وصيفة تستاهل بريزة كمان!ولو دخلت الدره حاتاخد كمان بريزه يوماتى على الله !.. بس عبد الهادى ما يفرطش فيها !..

وقفز عبد الهادى على الفور ، وقد ارتفعت العصا فى يده وخبط بها راس الفتى فوقع على الأرض ساكتا .

وتحرك رئيس الأنفار في مكانه مرتبكا .. ووقف الأنفار جميعا وقد رفعوا المعاول في ايديهم .

وابتعدت الفتيات ووقفن الى جوار وصيفة وقالت احداهن :

ــ اوعى حد يقرب من عبد الهادى .. دول ولاد بلد واحدة يعرفوا خلاصهم مع بعض .. خللى عبد الهادى يادبه .. جاه قطع لسانه ما ابرده واد تلح !.

وكان محمد ابو سويلم يقف على راس الفتى الواقع على الارض وفي يده جاروف التقطه من احد انفار الحفر .. وتقدم علواني يهز عصاه واندفع دياب بالفاس ومن ورائه محمد افندى .. ووقف الأولاد الصغار الذين جمعهم محمد ابو سويلم لجمع القطن .. وقفوا يترقبون وفي ايديهم الطوب .

وزعق محمد ابو سويلم في انفار الزراعية بصوت رهيب :

ــ اللى حايمد ايده حاكسرها له .. اللى حايقطع عود قطن حاقطع رقبته !

ونظر رئيس الانفار مروعا وسط صيحات التهديد التى ارتفعت من محمد ابو سويلم ، وتتابعت من علواني ودياب وعبد الهادي ومحمد افندى ، ونقل بصره الى النساء اللواتى يشتغلن معه ويأخذن القروش منه ، فوجد في يد كل واحد حجرا تتهيأ لرميه على راس من يتعرض لاولاد بلدها !.

وقال رئيس الانفار متلجلجا ، ويداه ترتفعان في توسل :

ــ الله .. الله .. بسم الله الرحمن الرحيم ! جبر ايه يا رجاله ! .. انتو لامين بعض كده نسوان ورجاله وجايين تخربوا الدنيا !.. انتو عاملينها مخصوص علشان تلموا علينا البلد ! لا حول الله ، طب وانا مالى ؟ واحنا مالنا .. دى زراعية الحكومة !.

ثم التفت الى الأنفار قائلا :

ــ طب بطلوا .. بطلوا ياولاد ! .. بطلوا حفر بقى .

ومشى قليلا وهو يمسح جبهته ووجهه متمتما :

ــ ياتيجى الحكومة تحرس الزراعية بتاعتها يامافيش زراعية !.

واتجه الى الطريق منكس الراس حتى اصبح امام الفتيات .

ولم تنخفض أيدى الفتيات بالاحجار .. كن مازلن على استعداد لقذف كل طوب الارض على رءوس الرجال الغرباء الذين يحفرون الزراعية .. على رءوس نفس الرجال الذين كانوا يضحكون ويختفون في الذرة معهن منذ ساعات !

وجاوز الرجل الفتيات واتجه الى القرية . وترك عمال الزراعية يرمون بمعاولهم الى الأرض ، وينسحبون في سرور واضح .

وبدات ترتفع بينهم الضحكات وهم يشيعون المقاول الذى جلبهم من بلاد بعيدة وظل في كل مناسبة يتشطر عليهم ، قائلا انه سبع ! .

وفجأة حين ظهرت له العيون الحمراء وقف يرتعش وزاغ .

وجلس الانفار بعيدا على الارض التى سووها من قبل واخذوا ينظرون الى الرجل الذى سقط تحت عصا عبد الهادى وهو يتحرك محاولا ان يقوم .. ولم تنقطع ضحكاتهم ابدا !.

***

اما محمد ابو سويلم فدخل الى حقل القطن ، ومن ورائه الاولاد الذين جمعهم من القرية .. ودخل معه دياب وعلوانى .

وعلى الطريق امام الحقل وقف عبد الهادى يقول لوصيفة :

ــ اقعدى ياوصيفة انتى هنا على راس الغيط .

وفرش اكياسا فارغة جلست عليها وصيفة ، تنتظر ما يجىء به الذين يجمعون القطن .. ثم تقدم في الحقل ..

وتحرك محمد افندى قليلا .. ثم تردد لحظة ولكنه عاد الى القرية .

والتفت عبد الهادى الى الفتيات اللواتي يشتغلن في الزراعية قائلا :

ــ ياللا يابنت انتى وهيه كل واحدة تربط وسطها بنسيرة تيل وتخش تجمع في عبها ..

واندفعت الفتيات يقطعن اعواد التيل من على حافة حقل القطن ويقشرنها جاعلات من القشرة الطويلة حزاما .. واخذن يوسعن الجلاليب السوداء من على الصدور المتهدلة المترجرجة ليضعن فيها ما يجمع من القطن .

واندفعن الى الحقل يلتقطن من على الاعواد الخضراء كل حملها من القطن الأبيض ويضعنه في الصدور : فصا على فص .

وصنع الاولاد نفس الشيء ..

وانطلق صوت احداهن بالغناء :

علاية .. علاية

فايت على دارنا سلم ولا اتكلم

علاية

وردت الأخريات فى فتـور
عـلاية
فقالت وصيفة وهى تقف على راس الحقل :

ـ لا مش كده ..

وتقدمت الى حقل القطن وارتفع صوتها حنونا صافيا يغنى :

يالولى بمرجان عالمية يعوم
والكف المحنى
هو اللى قتلنى
والشاعر يغنى
على سود العيون
يالولى بمرجان عالمية يعوم

ورددت الفتيات وراءها بنشاط :

يالولى بمرجان عالمية يعوم

بينما جلجل صوت عبد الهادى وهو يروح ويجىء فى الحقل :

ـ ايوه ..

وتقدم من الفتيات صائحا فى مرح :

ـ خدى الفص ده يابت .. اوعى توقعى حاجة عالارض احسـن اخللى وقعتك غبرة ..

وقالت احدى الفتيات بعبث وهى تنظر الى وصيفة :

ـ وقعتك شهد ياعبد الهادى .. مش كده ياوصيفة ؟!.

واحمر وجه وصيفة ، وضحك عبد الهادى وهو يقترب من وصيفة وصاح محمد ابو سويلم من بعيد :

ـ خبر ايه ياعبد الهادى ؟ ايه اللى غرزك فى وسـط البنات كده زى جحش البنات ماكفاية عليك شيل البنات ليلة الفرح !.

وضحك عبد الهادى وضحكت البنات والاولاد ..

وكان عبد الهادى اذا راقته عروسة فى ليلة الزفاف ، ظل يترقب الجمل الذى يسير بهودجها حول البلد وسط الزغاريد .. حتى اذا برك الجمل امام منزل الزوجية ليتقدم احد اقارب العروس فيحملها الى الدار كالعادة ، اقتحم عبد الهادى الزحام ، وحمل العـروس وسط صياح الطرب واغانى النساء ..

وقالت احدى الفتيات ضاحكة وهى تغمز لوصيفة :

ـ والنبى ياعبد الهادى لاخللى علوانى هو اللى يحمل عروستك !!.

وضحكت وصيفة .. ورنت ضحكاتها البسيطة الرائقة !..

وقطع محمد ابو سويلم الضحكات واستمر يزعق فى خفة قائلا لعبد الهـادى :

ـ ماتيجى ياجدع تاخد بالك من بقية الجميعة ! وانتى يابت ياوصيفة ماتتطلعى على راس الغيط تعبى القطن اللى يجيلك .. خليكى عنـد الاكياس .. ايه اللى حشرك هنا !..

وترددت الضحكات فى الحقل .. واحمر وجه وصيفة ، ونكست راسها ، والقت نظرة سريعة على عبد الهادى وهى تترك الحقل لتقف عند الأكياس .

وخفق قلب عبد الهادى ، واشرقت امامه الدنيا لحظـة ، واحس بحاجة لا تقاوم الى ان يغنى ، ويضحك فى زحام من الناس .

وقال علوانى مداعبا :

ـ ايوه ماتيجى هنا ياعبد الهادى عندى ! انا جرىء !.

وغمرت الضحكات غناء الفتيات بينما كان يرتفع من بعيد غناء عمال الزراعية فى نغم غريب عن القرية .

واخذ الذين يجمعون القطن يترددون من الحقل الى الأكياس التى تقف عندها وصيفة : يفـرغون ما حملوا تحت الجلاليب المنتفخة ، ويعودون ليلتقطوا فصـوص القطن من على اعوادها فى خفـه وسرعة وحذر !.

ولم يكد يجتمع تحت قدمى وصيفة ملء كيس من القطن .. حتى نادت اباها ان يقبل لكبس القطن فى كيس ..

ولم يجبها ابوها ..

وترددت قليلا ، ثم اضطرب صوتها ونادت عبد الهادى ، وطلبت منه ان يضع هو القطن فى الكيس لأنها وحدها لاتستطيع .

وقال محمد ابو سويلم فى ابتسامة :

ـ طب روح يا عبد الهادى انت ! هـه ! .. روح حط القطن فى الكيس ! والله اللى انجمع مايجى نص كيس !.

***

واستدار عبد الهادى الى وصيفة ، ومضى بين اعـواد القطن .. وامام عينيه ترقص الحقول كلها والأشياء ، وفى صدره واذنيه تتجاوب كل الانغام التى احبها ..

وقبل ان يبلغ عبد الهادى مكان وصيفة ارتفع من ناحية القرية صوت اجش :

ـ انتو قاعدين تغنوا ! قاعدين تغنوا وسايبين البنات تجمع القطن .. تجمعه بفلوسى ؟! وانتوا قاعدين تغنوا ؟! قوم انت وهو احت انفتحت لكم تربة .

وتهامس العمال من بعيد وهم يقومون متثاقلين :

ـ ياك تنفحت لك الف تربة انت واللى جابوك !.

كان هو رئيس الأنفار يقبل من القرية يمسح كرشه ، ويدعك وجهه ، وقد مال طربوشه على جبهته ، وتطوحت فتائل زره فى خيلاء !.

ومن ورائه اقبل الصول ، يركب حصانه ، وخلفه العساكر يمشون .. وروعت وصيفة .. وقعدت !.

وبعد قليل عادت فوقفت ..

ولم يتحرك عبد الهادى من مكانه .

واقتحم حصان الصول حقل القطن ، فصرخت الفتيات .

وذهلت وصيفة فلم تستطع ان تقول كلمة ، بينما اضطرب الأولاد وجروا هنا وهناك .. وصاح الصول يأمرهم ألا يتحركوا وسأل :

ـ من فيكم صاحب الغيط ؟! من محمد ابو زفت ؟ ! .

وتقدم منه محمد ابو سويلم ، ورفع راسه متماسكا ..

وعاد الصول يسأل :

ـ الله .. فين الواد ابو هباب ! ..

فقال محمد ابو سويلم فى صوت هادىء حزين :

ـ انا محمد ابو سويلم .. وماتشتمنيش كده قدام بنتى !.. انت تحب حد يشتمك قدام بنتك ؟!.

واهتز الصول على حصانه ووضع يده على مسدسه وقال :

ـ انتى فاكرنى رئيس الأنفار ؟! كلمة واحدة واضربك بالرصاص..

وابتسم محمد ابو سويلم فى ثبات ، ولكن عبد الهادى صاح :

ـ رصاص ؟ يعنى تاخدوا ارضنا وتضربونا بالرصاص كمان ؟ طب ورينا كده ! ورينا الرصاص ده .

وانهمرت الكلمات من فم علوانى قائلا لعبد الهادى :

ـ تسلم ياعبد الهادى !

وقال دياب لعبد الهادى فى اكبار وحماسة :

ـ ايوه ياجدع قل لهم زى ماقال الادهم :

وان عشت ياحكومة لالبسكم طرح وشيشان .

وقال علوانى للصول متحديا :

ـ رصاص ايه ياحضرة لفندى ؟ واحنا كمان ما احنا بنضرب بالرصاص !.

وتبعه دياب بانفجار وهو ينقل بصره بين الصول ورئيس الانفار:

ـ مابيقولوا النقطة غارت من البلد قاعدين ليه بقى ؟ ده اللى قدر عليه ريس الزراعية ! جايب لنا الحكومة بخيلها تضربنا بالرصاص أطب تورينا الرصاص كده ؟ لما نشوف مين اللى حيغلب . قولى يا حكومه كده واحنا نقول .

وبهت الصول ورفع يده عن مسدسه ، وسال عرقه على الشارب المصبوغ بالسواد فاخرج منديلا يجفف به وجهه .

والتفت محمد ابو سويلم الى عبد الهادى وعلوانى ودياب وقال بهدوء :

ـ بس يا اولاد .. اسكتوا انتو لما أشوف ايه العبارة ! لما نشوف اخرتها ايه ونظر الى الصول قائلا :

ـ انت عايز منى ايه ياحضرة الافندى !.

فقال له الصول :

ـ انت بتخالف اوامر الحكومة وبتتعدى بالقوة على أملاك اميرية .

وزعق دياب :

ـ اميرية ؟ اميرية يعنى ايه ؟ دى ارضنا احنا ؟ بقت ميرى من امتى!.

واستمر الصول يقول :

ـ اطلع من الأرض دى يا اخينا وسيب الرجالة يفحتوا !.. اطلع احسن لك !

فقال محمد ابو سويلم بحرارة :

ـ قطنى يافندى ! قطنى ! شقايه ! انا باقول لهم استنوا النهارده بس .. ياخدوا النهارده راحه لحد ما اجمع شوية القطن .. دى فيها ايه !.

وهرش الصول راسه وقال :

ـ تقدر تدفع تامين ؟! تدفع جنيه يعنى ؟!.

فاسرع علوانى يقول :

ـ احنا قادرين ندفع ثمن كيلة درة لما حندفع السخام ده اللى بتقولوا عليه ؟

واستدرك محمد ابو سويلم قائلا للصول :

ـ ما ادفعشى حاجة ! تامين ده ايه ؟ ادفع لمين ؟ حتاخدوا الأرض وادفع لكم فلوس كمان ؟ مين ده اللى حياخد الجنيه !! ياك ينجن !.

فقال الصول وهو مازال يهرش راسه :

ـ ادفع ياراجل الجنيه .

فقال محمد ابو سويلم :

ـ دا مش مال ؟ يعنى ادفع ضريبة المال ؟ ياسيدى احبسونا وللا احجزوا علينا مابندفعشى مال للحكومة دى .. والحكومة عارفة ؟!.

ونزل الصول من على الحصان ، وترك حصانه لأحد العساكر .. وسار الى محمد ابو سويلم قائلا بهمس :

ـ ادفع جنيه ياراجل انت تسلك امورك .. خليك نبيه وحرك !.. تقدر تدفع جنيه والا لا ..

ورأى دياب حصان الصول يميل براسه لياكل اعواد القطن ، فقال للعسكرى بضيق :

ـ ماتحوش اللى يندبب ده كمان !..

ونهره العسكرى ولكنه ظل يزعق ، بينما كان محمد أبو سويلم يقطع همس الصول ليصيح :

ـ يعنى عايز تاخد جنيه وتسلك الشغله ؟! برطله يعنى ؟! لا مفيش .. إجيب منين الجنيه ده .. اجيب فلوس منين يعنى علشان ابرطلك؟!

وامتقع وجه الصول ، واصفر وصرخ فجأة :

ـ انت يا راجل انت مبتفهمش ! انت يا راجل بتقول كلام فارغ .. اسمع انت بتتعدى على ملك الحكومة وبتحرض البلد على كده ! انت مش عارف ان الحكومة حتدفع لك تعويض .. يعنى مالكش حق فى القطن ده ! انت بتسرقه من الحكومة ..

فزعق محمد ابو سويلم :

ـ انا باسرق الحكومة والا هى اللى بتسرقنا ؟!

وهوى الصول على وجه محمد أبو سويلم بكفه ..

ورنت الضربة إفى فضاء الحقول ، وترنح محمد أبو سويلم على الأرض التى ظل راسخا عليها مدى خمسين عاما . وبوغتت وصيفة. فانفجرت صرخاتها متوالية مفزعة كأنما انشقت فى أعماقها الهاوية.. وانطلقت تدعو بشلل اليد التى امتدت عل ىإبيها .. وتستغيث بالناس ان ينقذوا اباها والقطن ..

وذعر الصول واضطرب لحظة .. وأمر العساكر أن يضربوها ، واتجه اليها وظهره الى محمد أبو سويلم ، وظل يشتمها وينعتها بألفاظ مخيفة لم تسمعها هى من قبل !..

واضطرمت فى صدر محمد ابو سويلم انفعالات ملتهبة .. وبدأ يعانى شعورا زريا يعصر قلبه ، وهو يقف عاجزاً أمام رجل يضربه قدام ابنته ، ثم يشتمها ويطعنها بكلمات جارحة فاضحة !..

وجحظت عيناه ، ونظراته ملتصقة على ظهر الصول ، ورقبته الغليظة ..

وارتفعت يداه ، وتشنجت كفاه حول رقبة الصول الغليظة المتدلية الشحم كرقبة الثور ، ولكن العساكر أحاطوا به وامسكوا بذراعيه فى عنف .. وجذبوه الى وراء .. واستدار الصول ، فضربه فى صدره بحذاءه العسكرى الثقيل .. وأمر العساكر أن يحبسوه هو ومن معه من الرجال فى غرفة التليفون بدوار العمدة حتى ينتهى أنفارالزراعية من عملهم فى حقله ..

وتحرك العساكر بمحمد أبو سويلم ، وبقية الرجال ، وتركوا القطن ملقى على الحصير ..

ومضى الصول فى المقدمة على حصانه ، واندفعت وصيفة تمسك بالصول فدفعها فى بطنها بقدمه ..

ووقعت وصيفة على الارض ..

وعندما وقفت كان الصول مازال فى المقدمة والعساكر يمضون بأبيها والرجال .. وكان الصول يهمس لأحد العساكر أن يرسل خفيرا ليأخذ القطن فى كيس لأنه حق الحكومة .

ومشت وصيفة وراءهم تلطم ، والنساء اللواتى يعملن فى الزراعية يصرخن ويدعون على الصول بالخيبة وقصف العمر والنقمة !.

والتفت الصول الى وصيفة والنساء يشتمهن ويأمرهن بالعودة..

ووقعت عيناه على وجه محمد ابو سويلم ووجوه الرجال إفراى من وراء الشحوب اضطرام المرارة والحقد ..

وارتجف .. وشد جسده وتقدم ..

وطاردته اصوات النساء ودعاء وصيفة ان تشل يداه ..

ودهمه خوف مباغت من الغيب واوشك ان يصرخ ويأمر باطلاق سراح الرجال .. ولكنه نظر الى امام وتحسس شاربه المصبوغ وتقدم من

ورائه صراخ النساء وشحوب الرجال ، والحقد المضطرم ..

وامام باب حجرة التليفون نزل من على الحصان دون كلمة ، ووضع الرجال فى الحجرة ، وعندما أغلق عليهم الباب .. أدار الصول ظهره الى الباب وصراخ وصيفة يملأ نفسه مختلطا بكلام محمد ابو سويلم : ان الرجل لايجب ان يهان أو يشتم امام ابنته !!

وتزايل الصول الى أغوار نفسه وارتعد ! .

ولكنه سعل فى شدة ، ورفع قامته .

ولاحت امامه صورة سريعة لابنته ، وللمامور ! .. لو ان الله انتقم منه استجابة لدعاء النساء فيه وانتقم منه فاوحى للمامور ان يضربه او يشتمه امام ابنته !

وارتعش من جديد .. ولكنه خبط الأرض بقدميه ، ووقف ثابتا لبعض الوقت ثم نادى شيخ البلد وامر بالا يسمح للرجال بمغادرة حجرة التليفون .

وغاض صوته وهو يقول انه راجع الآن الى المركز وسيعود الى القرية فى الليل .. ولن يقيم فى القرية بعد ، وانما سيمر عليها كل ليلة !.

وقفز الى ظهر الحصان وقفز من ورائه العساكر .. على خيولهم .

وتقدم به الحصان منكس الراس .

وعندما غادر القرية ومضى به الحصان على الجسر ، كانت تدوى فى اعماقه كلمات محمد ابو سويلم « انت تحب حد يشتمك قدام بنتك » .

وعادت صورة ابنته تطوف امامه ، وزحف عليه احساس مرهف بالعار !.

وامتلات اذناه برجع صرخات وصيفة ، وانتفض امامه كيانها الذى يتلوى من الألم ، ويدعو عليه فى جزع ان تشل يده .

وكان يشكو من ضغط الدم .. وارتجف برعب هذه المرة !.

وافكر فى ان يعود ، فيامر باخراج محمد ابو سويلم والآخرين من حجرة التليفون .. ولكنه ترك الحصان يتقدم به الى المركز .

ومضى الحصان متهدلا منكس الرقبة ، ومن فوقه الصول يهتز على وقع خطواته دون أن يرفع وجهه . وعندما رفع راسه وهويقترب من المركز سقطت من خديه على الأرض دمعة كبيرة .. دمعة ندم .. واشفاق من المصير !.

٢٢

وقف عبد العاطى امام حجرة التليفون يخبط كفا على كف ويزعق فى الخفراء من حوله :

ـ بقى ابوى محمد أبو سويلم ينحبس فى اودة التلافون واحنا اللى نحرسه ؟! يانهار اغبر يارجاله !.. بقى شيخ الغفر يجرى له كده ؟! بقى شيخ الغفر يجرى له كده ؟! وعبد الهادى كمان ؟! ياسلام يا أولاد ! ياسلام على بدع الحكومة !..

ولم يتكلم احد من الخفراء ..

كانت وجوههم داكنة ، حزينة وكانوا يرسلون ـ فى بطء ـ أنفاسا ثقيلة مفعمة بالحسرة ..

واخيرا قال رجل منهم :

ـ ياأخى بس ياك ماتيجيش اشارة من المركز يطلبوهم هناك !.

ولاح هذا الخاطر للجميع مروعا حقا ، فبادر عبد العاطى قائلا :

ـ فال الله ولا فالك ياشيخ !..

وعاد الصمت يخيم على الجميع ، والعيون ملقاة على الباب الخشبى القديم البنى الذى حشر وراءه محمد ابو سويلم وعبد الهادى ودياب وعلوانى ومعهم عامل التليفون ..

وصاح علوانى من الداخل :

ـ آه ياحكومة !.. من يوم مانزلتى البلد وانا قلبى بيطب .. لكن برضه كل شدة وتزول .. دا أبو زيد انحبس ياحكومة وفى الآخر طاح فى اللى حبسوه .

ورنت من وراء الباب الخشبى ضحكة عبد الهادى ودياب ..

ولم يسمع أحد صوت محمد ابو سويلم ..

وارتفع صوت عبد الهادى يقول لعامل التليفون :

ـ وانت حابس نفسك معانا ليه .. ياجدع اطلع انت وان جت اشارة من هنا ولا هنا حاخدها لك انا ..

وعندما كان عبد الهادى يتكلم من وراء الباب ، كان عبد العاطى الواقف فى الحراسة يقول لزملائه الخفراء :

ـ دا الصول من جبره عاوزنى اجيب له هنا القطن اللى انجمع من غيط أبويا محمد .. "قال دا قطن الحكومة ؟! عاوز يحطه فى بطنه ياعم !! ابلعى ياحكومة ابلعى !..

وتحرك عبد العاطى متثاقلا الى حقل محمد ابو سويلم ..

وفى الحقل وجد رجال الزراعية يهوون بسرعة عجيبة على اعواد القطن .. واختلج وهو يرى القطن الابيض يسقط على الارض ، وهمهم لنفسه :

ــ مافيش رحمة ! ياسلام ! ..

وعندما بلغ كيس القطن وجد محمد افندى يجلس وراءه ..وحيدا وراسه بين يديه ..

وربط عبد العاطى الكيس الذى لم يكد يمتلىء ، وبدا يحاول ان يحمله على ظهره قائلا لمحمد افندى ان الصول يريد ان يأخذ القطن للحكومة .

وقال له محمد افندى :

ــ ارمي الكيس فى دارنا .. انا حاشتريه وادفع فلوسه لدار ابوك محمد . يا راجل دا ماعندهمشى ريحة الدرة .. وابقى قول للصول انك على ماطلعت الغيط مالقيتشى القطن ..

ورمى عبد العاطى الكيس ، واطلق انفاسا تحمل التعبير عن الراحة.

واقترح على محمد افندى ان يجمع هو الآن مايستطيع من القطن قبل ان تدهسه اقدام عمال الزراعية ..

وقبل ان يجيبه محمد افندى كان عبد العاطى يلتقط الفصوص ويضعها فى صدره بعد ان ربط خصره بحبل من التيل وجده الى جوار الكيس ..

ونادى على الفتيات اللواتى يعملن فى الزراعية ، فاقبلن عليه يساعدنه فى حماس كبير ، تاركات عملهن فى الزراعية .

وزعق رئيس الانفار فيه فقال محمد افندى بمكر وهدوء :

ــ سيبهم !.. دا حضرة الصول اللى عايز كده .. عايز ييجى يلاقى القطن فى الدوار ! .

وحملق رئيس الانفار قليلا ثم تمتم :

ــ طب يا سيدى .. يعنى ادفع الاجرة للبنات ويشتغلوا فى جمع القطن ؟! طب ياسيدى .. ما دام حضرة الصول عاوز كده !.. امره !.

واستطاع عبد العاطى والفتيات ان يملأوا الكيس .. واخذ عبد العاطى يدك الكيس بقدميه والبنات ممسكات باطراف الكيس .

وعندما انتهى من دك الكيس ربطه قائلا بسرور :

ــ بقى قنطار اهه بزيه !.. ياللا يابت اسندى على ضهرى اسندى

ورفع الكيس بمساعدة الفتيات ومحمد افندى .. وسار بمقوس

الظهر حتى بلغ دار محمد افندى فوضعه على المصطبة فى مدخل الدار صائحا لنفسه :

ــ والله عفارم عليك يامحمد افندى .. والله مرجلة ياجدع ! اى كده !.

ومضى عبد العاطى الى الدوار فروى للخفراء وللمحبوسين ماكان من امر القطن .

وقال محمد ابو سويلم بصوت خفيض :

ــ لك الشكر يامحمد افندى ..

اما محمد افندى ، فقد عاد من الحقل منكس الراس مثقلا بالافكار .. كان يرتب فى ذهنه كلمات يكتبها فى تلغراف الى النائب العام يشكو فيه من القبض على رجال من القرية وحبسهم بلا سبب ..

ولم يفكر فى ان يلجأ الى محمود بك هذه المرة .. ولاحت له صورة محمود بك كريهة كالصول ، وكالذين امروا بأن تشق الزراعية فى وسط الارض وتنتزع الحقول وتسحق اعوادها الخضراء !..

وقرر ان يرسل صورة من التلغراف الى الصحف التى تهاجم الحكومة .. والى كل الكتاب الذين تطاردهم الحكومة .. وفكر فى ان يرسل صورة أخرى لوزير الحقانية ، وصورة رابعة لرئيس محكمة الاستئناف .. ولنقيب المحامين !..

ولكنه تذكر ان الحكومة اغلقت نقابة المحامين .. هكذا قرا فى احدى الصحف منذ عام !..

وحين استقرت فى ذهنه كلمات البرقية .. اسرع فى مشيه ، ولم يفكر فيما يمكن ان يحدث له .. وفى ذهنه ان يضع عليها توقيع اهل البلد ..

ووصل داره ، واندفع الى امه ، فطلب منها ان تذبح اوزة وان تخبز « طرحة » من طحين القمح ، وان تحضر الصينية ، وترسلها الى الرجال المحبوسين فى الدوار .

وكانت امه ــ كنساء كثيرات فى القرية ــ تبكى ، وتقطع بكاءها احيانا لتعرى راسها وترفع يديها الى السماء وتدعو لابنها دياب وللرجال !.

وصعد محمد افندى الى حجرته فوق السطح .. ونزل مسرعا يتحسس جيبه ، بعد ان لبس الحذاء والطربوش والجلباب البلدى الكشمير ..

واندفع الى بيت محمد ابو سويلم .. وقابلته فى الطريق فتـــاة فحاولت أن تهذر معه ، ولكنه انفجر فيها يلعنها ويلعن الذين خلفوها ..

واحمر وجه الفتاة واضطربت وقالت لنفسها :

ـ ماله كده ياه .. دا أنا عمرى ماشفته مطهوم قوى كده .. عمره ماكان كده !..

وأمام باب محمد أبو سويلم وقف محمد افندى ينقل نظره بين نساء باكيات يجلسن من حول زوجة الرجل ..

كانت كل واحدة منهن تروى الأحلام المخيفة التى رأتها فى أول الصيف .. وكانت احداهن تقسم أنها عندما رأت الصول ورجاله يدخلون البلد على ظهور الخيل ، تأكدت أنه مادامت الحكومة دخلت البلد فواقعة البلد زرقاء !.. ولم يسمع محمد أفندى صوت وصيفة .. ولم يستطع ان يتبين وجهها بين النساء .. واضطرب محمد افندى ، وشعر بدموعه تكاد تخنقه .. وعادت الكلمات التى اعدها للبرقية تلتهب فى ذهنـه ، وانبعث من اعماقه كلمات جديدة ملتهبة واتخذت فى فكره مكان الكلمات القديمة ، وفكر فى ان يوقع هو بنفسه البرقية وليجر مايجرى ! واخيرا لاحت له وصيفة .. خرجت من قاعة فى داخل الدار ومشت الى امها .. ورآها لاتكاد تستطيع أن تثبت خطـوتها .. وكانت تتحسس بدنها ، وتتوجع .. وكان خدها متورما ، وعيناها مقروحتين وفى أجفانهـا ذبول ، والصفرة الشاحبة تغمر وجهها كله .

وناداها محمد أفندى فمشت اليه بانكسار ، ولم تكن تستطيع ان ترفع عينيها .

ووقفت على الباب معه بلا مبالاة ، صفراء كأنما عروقها توقفت عن النبضات .

وسألته عما يريد بصوت مبحوح

وكان محمد أفندى هو نفسه كسيرا ، متعب القلب ، تحمل نبرات صوته تهدجا حزينا كالنشيج .

وقال لها انه اشترى القطن الذى جمع من حقل أبيها ، وهو يريد أن يعطيها ثمنه ..

وفتحت وصيفة عينيها لحظة .. ثم نكست رأسها قائلة :

ـ لما اشاور أمى .. بعدين يا محمد أفنـدى لما اشـاور امى .. والا لما ..

ثم غاض صوتها وسط الدموع .. وتوقفت قليلا ثم استمرت تقول وقد اتخذ صوتها رنين النادبات :

ـ والا لما اقول لأبويا ..

وانهارت فى البكاء ..

واستدار محمد أفندى .. ومشى ، وصدره يعلو ويهبط ، والدم يغلى فى عروقه ..

وركب الجحشة وركض بها الى المركز ليرسل البرقية ..

***

وحاولت انا ان اتحدث الى وصيفة ، ولكنى لم استطع .

دخلت دارها مقتحما الزحام الحزين من النســاء الجالسات على الارض : الرءوس فى الأيدى ، والجلاليب السوداء تغمر المكان . ووجدت وصيفة بينهن ترقد على رجل احداهن .

وملأنى المنظر بالرهبة .. ولم اجد كلاما اقوله ، وعدت من فورى الى دارى . اعد للسفر .. فقد كان على أن ارحل بعد يوم واحد الى المدرسة الثانوية فى القاهرة ..

وحاولت أن اكلم انسانا عن وصيفة ..

ولم اجد غير عم كساب .. سائق العربة الحنطور .

ولكن عم كساب ، لم يرد أن يتكلم .. كان يدخن السيجارة من السيجارة ، ويتنهد ، ويهز رأسه .

وعندما تكلم آخر الأمر قال لى ان محمد ابو سويلم مهما يحصل له فهو يقدر على أن يبتدىء من جديد !.

ولم يكن هذا هو ما أريده من عم كساب .

غير أن عم كساب لم يقل لى غير هذا ، ثم قام يمسح ظهر الحصان واخذه الى النهر ..

ودخلت الى أمى فوجدتها تمتحن السلال .. وتختار منها سلة كبيرة لتضع فيها ما أحمل الى القاهرة من زاد ، وملابس .

ولم أقل شيئا وخرجت الى الطريق ..

ووجدت نفسى اندفع الى دكان الشيخ يوسف ..

كان يجلس فى داخل الدكان ومعه الشيخ الشناوى يقرآن مخاطبة الجمعة التى سيلقيها الشيخ الشناوى بعد يومين .. كانا يقرآن من كتاب اصفر قديم تعود الشيخ الشناوى ان يقرأ منه خطب الجمع .

وكان الشيخ يوسف يلبس العمامة ذات الشال النظيف الأبيض والجلباب الكشمير والفانلة الصفراء .. وكل ما اشتراه ليكون عمدة ...

وكان يقف امام الدكان شاب حافى القدمين ينظر اليهما مبهورا .

ورايت الشيخ يوسف يرفع راسه عن الكتاب ويقول فى سرور:

ــ أيوه ياشيخ شناوى .. أيوه ياسيدنا .. ابقى زعق شوية وانت بتخطب فى الحتـــة دى ٠٠ اطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم ٠٠ يعنى العمدة .. هه .. يعنى اللى مايطاوعنيشى وانا عمـدة يبقى كافر وابن كافر كمان !.

ثم استطرد فى زهو وخفة :

ــ انا راجع من عند البيه محمـــود دلوقت .. وهـوه معشمنى بالعمودية خالص .

وانخفض صوته وهو يقول :

ــ وحياتك انت دا لاهف له النهاردة اتنين جنيه كده عالصبح ..

وقال الشيخ الشناوى بطيبة :

ــ ياسيدى ربنا ينجح مقاصدك بحق جاه المصطفى عليه الصـلاة والسـلام .. الفاتحة للنبى ولأهل البيت .. الفاتحة !.

وقرا الشاب الواقف على الدكان الفاتحة معهما .. وعندما انتهـوا من قراءة الفاتحة واكفهم مفتوحة ، مسحوا وجوههم بكفوفهم ..

والتفت الشيخ يوسف الى الشيخ الشناوى قائلا :

ــ حاكم دى مش بلد ياسيدنا ٠٠ دى بلد عاوزة الربابة ٠٠ ان ما كنت أادبهالك تمام ٠٠ شوف ياأخى محمد أفندى بيعمل ايه ٠٠ يخلى الراجل فى الحبس ويلعب بعقل البنت ويديها قرشين .. قال ايه .. قال اشترى الشوية القطن اللى الصول حجزعليهم .. المصيبة ان الصول خادهم .. وانا شايفه بعينى دى !.. البت جات شاورتنى من قيمـة شوية قلت لها أوعى لنفسك ٠٠ أحسن لها تروح تشتغل فى الزراعية بدل محمد افندى مايأكل بعقلها حلاوة .. ماهى بلد خبص !..

وقبل ان ينفرج تقطيب الشيخ الشناوى عن اية كلمة ، تدخـل الشاب الذى كان يقف امام الدكان حافى القدمين .. فقال :

ــ كلام ايه ده ياشيخ يوسف ؟! ياجدع دا شارى القطن بحق وحقيق بقى كل حاجة تلوعوها كده ؟! بقى وصيفة حيتلعب على عقلها ؟! ومحمد أفندى خلاص بقى انهبل يعنى ؟ ياراجل اختشى ! ٠٠ ياراجل حط فى عينك حصوة ملح .. ياجدع اتنحرر كده وماتقلبشى العمل الحلو تخليه عمل ســو !.. عيب عليــك !.. بقى انت شفت القطن بعينـك رايح للصول ؟! والله انك كداب فى أصل وشك .. ومن كتر الكدب القطن مافاتش من على دكانتك من أصله ! انا شايفه بعينى دى اللى تنقـلع، داخل دار محمد أفندى ! ياخبر اسود ياإخواتى على دا كدب !..

وانفجر الشيخ يوسف فى الشاب ..

ــ كدب ؟.. اخرس قطع لسانك انت واللى نفضك .. غور ياواد من قدامى ، ياك تنقلع عينك ؟! هوا انت يامعوض عاوز تمهزانى ؟.. دا كلام تقوله لى ؟٠٠ دا كلام تقوله لواحد مقامه عالى زيى ؟٠٠ جاتكو البلى فى ملافظكو .. بلد حلاليف !.. هوه ياواد يامعوض علشـــان عبد الهادى ماطلع لك جاموستك من البير تقـــوم تمشى وراه !! والله لاربيكى يابلد !..

وقال معوض وهو ينصرف :

ــ انا ماشى ورا عبد الهادى !.. عبد الهادى ما اتحبس وانت عمال تجرى عالعمدية ! والله ياشيخ مايخشعك غير عصايتين من عبد الهادى!

ومضى الشاب ..

وبقى الشيخ يوسف يهتز من الضيق .. واخذ الشيخ الشناوى يقول :

ــ الأكادة الواد ده عليه كدب ؟! بقى هوه شاف القطن داخل دار محمد افندى .. اذا كنت انت شايفه رايح للصول !..

ولم يعلق الشيخ يوسف ، واحس برغبة فى الا يتحدث مرة اخرى فى موضوع القطن .. فهو فى الحق لم ير القطن يحمل الى الصـــول وهو يعرف انه كان يكذب منذ لحظة ، وان الشيخ الشناوى يكذب الآن ليجـامله ..

وعاد الشيخ الشناوى يقرا خطبة الجمعة بصوت مرتفع .. ويرفع عينيه عن الكتاب احيانا ليسأل الشيخ يوسف تفسير جملة من الجمـل العديدة التى ظل يقرأها سنوات ٠٠ ويسمع لما يقوله الشـيخ يوسف باعجـــاب ..

وتركت انا الدكان .. وعدت الى دارى ، اختلط فى هرج الاستعداد للسفر .

وانصرف النساء من عند ام وصيفة وهمست وصيفة لأمها بأن محمد افندى يزعم انه اشترى القطن ويريد ان يدفع لها الثمن ، ولكن الشيخ يوسف اكد لها ان هذا لم يحصل وهو ينصحها الا تأخذ مليما واحــدا من محمد افندى ..

وشردت امها قليلا قبل ان تقول لها :

ــ له حق ابوكى الشيخ يوسف .. الناس تقول ايه ؟! ناخد فلوس من محمد افندى ليه ؟..

فاستطردت وصيفة تقول لأمها ان الشيخ يوسف نصحها أيضـا ان تشتغل فى الزراعية ، وهو مستعد للكلام مع رئيس الأنفار ..

ولم تتردد امها فى ان تقول لها :

ــ قومي روحي له يشغلك .. الدرة اللى اشتريناها بتمن الركوبة مش راح يقضي كمان خبزتين .. بس ياك يدوكى اجرة حلوه !..

ثم دمعت عيناها وهى تقول :

ــ آه ياما تشحططنا من بعدك يامحمد !..

وذهبت وصيفة الى الشيخ يوسف تسأله ان كان يجب أن تشتغل فى الزراعية ؟!

كانت تشعر فى اعماقها بالهزيمة وتود الا تذهب لتقف مع الرجال الغرباء الذين يقولون اى كلمة بلا تحرج .. ولقد فكرت فى أن تذهب مع امها للاقامة مع أختها فى عاصمة الاقليم ، ولكنها لم تقو على انتترك القرية وابوها محبوس فى الدوار ..

وقال لها الشيخ الشناوى متطوعا انها يجب أن تعمل فى الزراعية ولكن عليها الا تتكلم مع الرجال الغرباء ..

وتحمس الشيخ يوسف قائلا ان الرجال الغرباء ان ياكلوها .. ووعدها ان يكلم رئيس الأنفار بعد العصر لتستلم عملها من الصباح والعمل هناك بسيط وهو يغنيها عن مد اليد لمحمد افندى ، وعن سؤال اللئيم !.

ووقفت وصيفة تنظر فىالتراب ، وتتخيلنفسها تحمل الماء للرجال الذين يسحقون زرع أبيها !!.

وجاشت نفس وصيفة ، ولم تستطع ان ترفع راسها ، ولكنالشيخ الشناوى ظل يكلمها ويدعو لها بالبركة .. ولم يتوقف الشيخ يوسف عن الحاحه عليها ان تعمل لتحافظ على سمعتها التى يهددها اخذ المال من محمد افندى .

وعندما رفعت وصيفة راسها ، وادارت عينيها المغرورقتين فىوجه الشيخ يوسف .. رات وجهه قد اصفر فجاة ..

وسمعت من ورائها صوتا قاصفا يقول :

ــ ايه الكلام دا اللى بتقول عليه ياشيخ يوسف !.. ايه الكلام ده اللى قلته لمعوض ..

والتفتت وصيفة وراءها لتجد محمد افندىيطير الشرر من عينيه

كان يقف أمام دكان الشيخ يوسف لاول مرة منذ وقت طويل .. ويتحدث بانفعال دون أن يلقى السلام .

وكان محمد افندى قد تعود ان يمر على الدكان دون ان يرمىالسلام

وهو يقول لنفسه ان الشيخ يوسف اصبح لايستاهل من الواحد انيرمى عليه السلام !.

ولم يجب الشيخ يوسف ..

وقال محمد افندى مرة اخرى :

ــ ماتنطــق !..

كان محمد افندى قد ذهب الى المركز فارسل البرقيات وعاد على الفور دون ان يضيع دقيقة ، وهو بعد ان كتب برقية الاحتجاج ، يعود يشعر بانه قوى .. قوى الى حد أنه يستطيع ان يواجه كل من فى المديرية بكلام قارس شديد .

وتدخل الشيخ الشناوى متعجبا :

ــ خبر ايه يامحمد افندى .. انت مالك جاى كده ناوى شر ... ماترمى السلام ياأخى !.

ولكن محمد افندى لم يلتفت اليه ، وظلت عيناه ترمى الشرر فى وجه الشيخ يوسف ..

وانسحبت وصيفة مضطربة ..

وانفجر محمد افندى فى الشيخ يوسف :

ــ انت ياراجل انت مش حاتبطل اللك بتاعك ده ؟! بقى الراجل مرمى فى الحبس واحنا عايزين نشوف مصالحه تقوم تروح تقول للبت الكلام ده ؟! اهى امها مش راضية تاخد ثمن القطن ؟! يعنى يعملوا ايه؟ ياكلوا منين ! آه ياراجل ياضلالى !..

وقال الشيخ يوسف مرتجفا :

ــ اسمع بقى لما اقول لك .. سيبك من الكلام ده ! انتو شايلين منىكلكو ليه .. يعنى يامشي وراكو ياتسيبوا عليه تشرمطونى .. الله .. ياأخى كل واحد بيقول ياللا نفسى .. خالك الشيخ حسونة ما راح يسعى فى المركز لحد ماخللى الزراعية تحود بعيد عنكو .. هيه خدت من ارضكو الا حتة زيق لا هنا ولا هناك . انا عارف انكو متغاظين من جريى ورا العمودية .. يعنى اسيبهالكو ؟! والله مانىسايبها ؟! اشمعنى انتو بتجروا ورا مصلحتكو ؟! دهدى !.

وعاد محمد افندى يزعق وهو ينظر باشمئزاز الى الشيخ يوسف :

ــ كلام ايه دا ياراجل انت ؟! انت بتهبل بتقول ايه ؟! مصلحتنا ايه ياراجل انت ياضلالى ياعديم المروءة ياقليل الطهى !.. انت اللى عمرك مافكرت الا فى روحك .. اسمع اما اقول لك .. التخبيط الفاضى بتاعك ده لازم تبطله احسن والله والله والله العظيم تلاتة وعزة الله ياشيخ

.. قسما بالذات العلية ماعندى لك من هنا وجاى غير البلغة .. هه!! والله والله اندغك البلغة !.

ووجم الشيخ يوسف .. وفتح فمه وحملقت عيناه .. كأنه قدر ان محمد افندى يمكن ان يجعله يمضغ البلغة بالفعل .

ولو سحب عليه محمد افندى المداس فلن يستطيع ان يقول شيئا لان البلد كلها أصبحت ضده !..

واندفع محمد افندى بعيدا عن الدكان الى الطريق .. فوجد عبد العاطى يقف بعيدا ومعه الصينية بالطعام .. الصينية التى حملها من دار محمد افندى للرجال في الحبس !.

وصاح عبد العاطى بطرب :

ـ والله عفارم يامحمد افندى ! آى كده .. يكون فى علمك ياشيخ يوسف .. من هنا ورايح ماعندناش غير البلغة ندوبها على دماغ اللى مايعجبناش : نندغهاله !..

ووقف الشيخ يوسف يتمتم وهو يرتعش ..

ـ طيب .. بكره كله يخلص يابلد !.. بس تيجى العمودية وانتو تشوفوا صحيح يعنى ايه ضرب البلغ .. يعنى ايه ندغ البلغ !.

بينما تابع عبد العاطى سيره بالصينية .. وفتح غرفة التليفون ووضع الصينية على الأرض ، ورفع المكبة الخوص ، فتصاعدت رائحة الأوز المحمر ، وأرسلت أرغفة القمح دخانها ..

وانقض علوانى على الارض ، وجلس بجوار الصينية وهو يزعق فرحا :

ـ عيش سخن وظفر .. يا ولد !

يدوم الحماس ياجدعان !.

ثم لكز دياب واستمر يصيح :

ـ كل ياوله عيش قمح كل .. الواحد مابيدقوشى حتى لو مات من العيا .. اشتغل فى الظفر ياسيدى اشتغل !.. ياك ياشيخ نقعد هنا كمان شهرين تلاته .. اشمط الوز اشمط .. كل وانبسط ياجدع .. كل وانجلى يادكر !

وضحك الجميع ، وقال عبد الهادى :

ـ بس نطلع احنا واشترى لك الفنم وانت تشبع عيش طرى ياشيخ العــرب !

وحكى لهم عبد العاطى مادار بين محمد أفندى والشيخ يوسف ، فضحك محمد أبو سويلم ، ونظر دياب الى الجميع بزهو قائلا :

ـ شايفين الشهامة !.

فقال عبد الهادى باعجاب :

ـ والله شهامة صحيح .. اهو كده يامحمد افندى .

واستمر عبد العاطى يصف لهم منظر الشيخ يوسف عندما هدده محمد افندى بضرب البلغ .. كان الشيخ يوسف اذ ذاك يلبس الفانلة الصفراء ذات الأكمام الطويلة ، والجلباب الكشمير الواسع ، والعمامة الجديدة ذات الشال النظيف .

وصاح علوانى ، وهو يضع فى فمه لقمة كبيرة ملفوفة من رغيف القمح :

ـ هو الشيخ يوسف يعنى لابس العمة كده على طول ومعرضها ليه ؟ .. معرضها ليه بقى .. غرضه ايه .. غرضك ايه ياشيخ يوسف . غرضك تبقى عمدة ؟ يعنى غرضك تقبض .. طب روح ماانتش قابض!

وضحك عبد العاطى طويلا وضحك الرجال ..

ومال علوانى على عبد العاطى هامسا :

ـ الوز ده عاوز شاى .. شوف لك تسريفة بقى فى الشاى !.

وقام عبد العاطى .. ووقف يفكر قليلا ، ثم حك راسه ، واتجه الى الدوار ..

ووجد ارملة العمدة .. وحين رات عبد العاطى نادته باسمه ..

كانت تلبس قميصا اسود قصير الأكمام مفتوح الصدر .. وغرس عبد العاطى نظراته على ذراعها السمين الأبيض ، ونحرها المكشوف وصدرها الرجراج .

وطلب منها أن تاذن له فى عمل الشاى للرجال ، فرحبت وسألته أن يسير وراءها الى حجرتها لتعطيه السكر والشاى ..والتمعت عيناها، واضطرب عبد العاطى ..

وبدأ عبدالعاطى يحدثها عن علاقة الرجال بالشيخ يوسف ، واصرارهم على الا يشتروا منه ، وروى لها ماحدث بين محمد افندى والشيخ يوسف ، ورنت ضحكاتها ، وتثنت .. ودخلت حجرتها ونادت عبد العاطى .

وتحرج شيخ البلد الذى كان يجلس أمام باب الدوار .. ونادى عبد العاطى وظل يناديه ، ثم قرع باب الدوار بعصاه وهو ينادى عبد العاطى محنقا .. وعاد عبد العاطى يسأله عما يريد فى ضيق واضح فانقض عليه شيخ البلد يشتمه قائلا :

ـ ايه اللى مدخلك هنا .. اوعى تانى مرة تخش هنا من غير امرى .. حتى لو نادوا عليك من جوه .. اما برود !.. كنت تقدر ايام المرحوم العمدة تهوب ناحية جوه ؟ جاتك الغم ما ابردك !.. انا هنا زى العمدة تمام .. يعنى العمدة تمام ..

وهمهم عبد العاطى وهو ينصرف فقال شيخ البلد :

ـ اوعى تبوا فيه .. انجر .. ماتنحش كده !.. انتو فاكرين ان مالكوش عمدة !.. هيه بلد من غير عمدة ؟.. أمال أنا هنا بانيل ايه!..

وابتعد عبد العاطى وهو يقول :

ـ عمدة عمدة .. دا عامل عمدة ودا عامل عمدة .. جاتكوا الغم فى العمودية بتاعتكم !.

وقضت القرية نهارا مضنيا من القلق والانتظار .. وعندما احمرت الذوائب الصفراء من حقول الذرة تحت شمس الاصيل ، هبط على الفضاء ضباب سبتمبر ينشر الناموس فى قريتى ، وخيوطا دقيقةتهبط على الوجوه ولا تراها العيون .

وكان أبى اذ ذاك فى عاصمة الاقليم ..

واخذت انتظر عودته بالبدلة ، والقرية تنتظر عودته بالانباء ..

ياترى متى يخرج الرجال ؟

وغابت الشمس وراء أشجار التوت على الشاطىء الغربى ، ورأيت الشيخ يوسف مقبلا من ناحية عزبة محمود بك ، وكمه الواسع مشمر عن الفانلة الصفراء التى بدات تتسخ .. واندفع الى داره وطلب من امرأته ان تغسل الفانلة وشال العمامة ، قائلا لها ان محمود بك وعده خيرا ، وانتخابات العمودية غدا فى الصباح ، بالمديرية .

وعدت الى دارى ، ارسل عينى الى الجسر ، واذناى تحاولان التقاط صوت العربة الحنطور ..

كانت البهائم كلها قد عادت من الزرائب على الجسر ، والطريق فارغ لاشىء فيه .. حتى ماتلقيه البهائم من روث كانت النساء قد فرغن من جمعه ووضعنه فى المقاطف على رءوسهن ، ومضين الى الدور .

واخيرا اقبلت العربة الحنطور ، ورايت عم كساب يجلس على مقعده فى العتمة ، مرتفع الراس مفتوح الصدر ، والابتسامة تملأ وجهه ..

وهبط ابى من العربة يحمل لفة ، واخذتها منه وقلبى يدق ، وفتحتها بسرعة ، وتاكدت انها هى البدلة التى أصلحت لى ، واندفعت بها الى امى التى كانت قد وضعت الاوز المحمر والارز المعمر والفطائر فى سلة كبيرة ، وشرعت تبحث عن قطعة من الخيش والقماش لتغطى السلة

الكبيرة .. ورايت فتاه تعمل فى الدار تقبل بالمسلة والخيط ، وعلى راسها اللمبة الصفيح ..

واخذت امى البدلة فرحة ، وتاملتها بسرور ؛ ثم وضعتها بعناية كبيرة فى حقيبة الملابس وطلبت منى الا أخرج لانى يجب أن أتعشى وانام . فالعربة الحنطور ذاهبة فى الصباح لاركب قطار العاشرة الى القاهرة .. الى المدرسة الثانوية !!

وكنت انا أعانى خيبة امل وحسرة لانى لم احقق حلمى ببدلة جديدة!

غير انى اندفعت الى الطريق .. ورايت عم كساب قد حل الحصان من العربة ، ومضى فى خطوات ثابتة مبتسما ..

وسالته الى اين يمضى ، فقال لى مبتسما ان البلد تخلصت من الصول ، ولن يرى البلد مرة ثانية ، اما الرجال المحبوسون فى الدوار فالمديرية تعد اشارة تليفونية للافراج عنهم الليلة ..

وكان عم كساب يمشى بخطوات راسخة ، وأنا الى جواره أرفع راسى اليه واستمع كلماته تنساب مطمئنة من فمه المبتسم ..

واستطرد عم كساب يقول لى ان الدنيا كلها مقلوبة فى المديرية من اجل الرجال المحبوسين . فالبرقية التى ارسلتها البلد الى مصر هزت الحكومة هناك ، والكتاب الذين تضطهدهم الحكومة هاجموها فى ـ صحف المساء ـ لانها تقبض على الناس وتسجنهم بلا تحقيق وبلا جريمة !.

كان عم كساب يشمخ براسه وهو يتكلم .. وحاولت ان اقول له ان محمد أفندى هو الذى أرسل البرقية ، فوجدته يعرف ويتحدث باعجاب عما صنعه محمد أفندى ..

وهمهم :

ـ اهه اللى عمله محمدافندى ده كويس.. مش يجرى لى ورا محمود بيه ! . أهه ده الكلام .. أهه ابتدا يفهم ! .. احنا ياما شوفنا وياما جربنا .. هيه الحكومة تيجى الا بالسك !.. دا لو محمد افندى شاف اللى شفناه فى اسكندرية وغير اسكندرية ماكنشى عمره فكر فى الجرى ورا البهوات والرجوات.. هيه .. ايام !.. الناس ما بتتعلمشى بالساهل !.

وبدت لى كلماته دسمة مثقلة بالذكريات والتجربة ؛ وبفهم أسرار من الحياة لم اعرفها بعد انا الذى تعلمت فى المدرسة وعرفت كيف ارسم القارات الاربع ، وفهمت خطوط الطول والعرض واتجاه الرياح فى الدنيا وسر غليان الماء !.

وتابعنا سيرنا ..

وفجاة وقف عم كساب امام باب مفتوح ، ودخل !.

ودهشت انا ، وتقدمت وراءه ..

كان عم كساب يدخل دار محمد ابوسويلم دون ان يتنحنح كما هي العادة او يقول « ياساتر » او يا « اولاد » كما هي عادة الذين يدخلون بيوتا غير بيونهم في قريتي ..

وكان مدخل الدار مظلما ، تتكسر على جدرانه الظلال الشاحبة ، ومن بعيد فى آخر الدار يشع ضوء لمبة صفيح .

وكانت الدار ساكنة تماما كأنما فارقها اهلها .. واصبح عم كساب فى وسط الدار فنادى على وصيفة ..

وتقدمت وصيفة ، مرفوعة الراس ، بخطوات حريصــــة واللمبة الصفيح على راسها تلقى شعاعا باهتا على وجهها الحزين ..

وابتسمت وصيفة تحت الشعاع الخافت ، وخفق قلبى بشدة ، وانا ارى التماع عينيها ، وتألق وجهها بالغمازات ..

وقال لها عم كساب بصوته الهادىء :

ــ ابوكى طالع الليلة ياوصيفة .. احنا مستنيين اشارة من المديرية الليلة .

واهتزت وصيفة ، وامسكت بيــــدها اللمبة الصفيح .. وسرت الرقصة الفرحة فى بدنها كله وانطلقت تقول وراسها يهتز فى نظـرات مضطربة الى كل ماحولها :

ــ صحيح .. والنبى .. ازغرت يعنى .. زغرتى يا امه ..

وتحركت وصيفة ، ونقلت خطواتها فى اضطراب ضــــاحك ، ثم انقضت على وقبلتنى فى جبهتى ..

وشعرت بدفء شفتيها الدسمتين على جبهتى ، وبملمس جسدها الفائرالممتلىء يطوق بدنىالصغير ..وغمرتنى سعادة مفاجئة ،واختلجت وارتفعت دقات قلبى !..

وانطفا المصباح من يد وصيفة بينما ارتفع صوت امها مقبــلة من الزريبة ويداها متسختان بالروث وهى تقول :

ــ الهى يبشرك ياكساب .. الهى يجعل فى دخلتك علينا قدمالسعد بحق دى المغرب ..

ودهمتنى الحيرة وانا اسمع هذه الكلمات ..

واخذت انظر فى الظلام امامى .. وانبثق ضوء خاطف لعود كبريت

واوقد عم كساب المصباح بالعود بين اصبعيه ، ويده الاخرى تهتز على كتف وصيفة فى ابتسام مطمئن !..

وسيطرت على الحيرة ..

فانا لم ار من قبل احد فى قريتى يضع يديه على كتف وصيفة .

ولم ار من قبل وصيفة تنظر الى رجل من قبل فى قريتى ، وفى عينيها هذا البريق ..

كان واضحا انها تنظر الى عم كساب فى اكبار وعرفان .

وارتمت نظراتى على شعره الرمادى ، وشاربه القصير الذى تنفـر منه الشعرات العديدة البيضاء ..

ولم استطع ان احتمل التفكير فيما يمكن ان يكون بينهما ..

وقفزت امامى صورة عبد الهادى بوجهه الضاحك ، وصدرهالمفتوح الذى يقول عنه اولاد القرية ان فيه شعرة من الأسد تخرق الصديرى!.

وظللت أنظر الى وصيفة فى صمت ، وتذكرت جلستنا على الجميزة فى اول الصيف ، وتمنيت ان اجلس معها الآن وحيدين .. وتمنيت لو القت نفسها على مرة اخرى وقبلتنى .. وكان دفء قبلتها على جبينى قد بدا يسرى فى دمى باللهب .

وقلت انى مسافر الى مصر من صباح غد ..

ولكن وصيفة لم تلتفت الى ..

ظلت عيناها تنظران الى عم كساب والابتســـامة تتالق على وجهها كله ..

وهبط على خجل مباغت .. وتمنيت لو وجدت نفسى بمعجزة ما بعيدا عن عينى وصيفة ..

ولم اطق ان اتحــــرك امام عينيها وامضى .. ولكنى نزعت قدمى بصعوبة وانا امضى .. وسمعت همهمة من عم كساب . .

وعندما كنت أغادر عتبة الباب الى الخارج ارتفع صوت وصيفــه مختلطا بصوت امها :

ــ طريق الســلامة .. اقرا لنا الفــاتحه فى مصر . الهى يمتعك بشهادة الخدامة !

وتسمرت على الباب .. وحاولت ان استدير لاقــول شيئا .. ولكنى وجمت لحظة ، ونفسى تجيش ، وتحركت ..

وسمعت عم كساب يقول فى صوت هادىء حاسم :

ــ لا .. مافيش شــغل فى الزراعية .. سيبكوا من كلام الشيخ

يوسف والشيخ الشناوى .. انا باقــول لا .. اوعى تشتغلى فى الزراعية .. اوعى تروحى ناحيتها !.

ووصلت دارنا فوجدت امى تنتظرنى على العشاء .. ولكنى لم اتعش .. ودخلت لانام ، وعندما وضعت راسى على الفراش ، ووجدت نفسى وحيدا فى الظلام .. انحدرت من عينى الدموع فى صمت .. دون ان اعرف على التحقيق لماذا ابكى !.

وظللت ابكى وانا اكتم صوتى فى خوف من ان يدخل ابى او امى او احد اخوتى الكبار فيحسبنى ابكى .. من اجل وصيفة !.

***

وفى الصباح كنت اعد نفسى لركوب العربة الحنطور ..

وقبلتنى امى ، ووضعت فى يدى بضع قطع فضية من ذات العشرة قروش ، وطلبت منى ان التفت لدروسى وان آخذ بالى من روحى .

ووضع عم كساب كل ما احمل من زاد امامه فى العربة الحنطور ، والقيت نفسى الى جوار ابى واخى الاكبر ..

وظل ابى واخى الاكبر يتحدثان طول الطريق عما تصنع الحكومة بالقرية والناس ، وسمعت اخى يتكلم بحماس عن مقالات الكتاب .

وبقيت انا شاردا طول الطريق ..

وتعجب ابى لان المديرية لم ترسل اشارة ليلة الامس للافراج عن الرجال فقال اخى ان هذه الحكومة لا كلمة لها ، وهى لا تصنع شيئا لمصلحة الناس الا عن خوف من انفجار الناس .. وعلى اية حال فيجب ان ينتزع منها المصريون كل ما اغتصبته منهم .

وسكت ابى ، واخذت انا انظر باعجاب الى اخى الذى يدرس فى سنواته النهائية بكلية الطب ..

وكنت شاردا طول الطريق ..

وعندما اقتربنا من المدينة الكبيرة داعبنى ابى واخى قائلين اننى اصبحت الآن رجلا فى المدرسة الثانوية ويلبس البنطلون الطويل ..

وتردد فى حلقى صوتى الذى كان ما يزال ناعما ، وقلت كلمات اغالب بها شرودى !..

وذهب ابى واخى الى المديرية .. وانطلق بى عم كساب الى المحطة لانتظر هناك وفى فناء المحطة وقفت أنتظر ووقف معى عم كساب .. كنت على طول الطريق أفكر فى المدرسة الثانوية التى سأدخلها ، وفى اضرابات طلابها .. وكانت صور مما جرى فى الصيف تغمر افكارى على الدوام .

لم استطع ابدا ان انحى عن عينى صورة وصيفة وهى تبتسم فى عينى عم كساب .. واحدثها انا عن سفرى فلا تجيب الا بكلمات دعاء بعد ان تركت بيتها .

وكانت صورتها تختلط بصور عديدة لها أثناء الصيف ، وصورتها وهى تضع قدميها فى الماء وتهمس فى حلم انها تتمنى أن تصبح فتجد « زلعة مليانة برايز » ثم همسها لى انها تتمنى ان يحملها مركب فى الليل الى مصر لتعيش هناك ..

وصورتها وهى تخرج من قاعة الطحين صفراء مخطوفة لتقول لامها ان الذرة لم يعد يكفى .. وفوق هذه الصور جميعا كانت تعصر قلبى صورتها بعد أن وضع ابوها فى حجرة التليفون ..

لم استطع ابدا أن انحى عنى صورتها تلك .. ولقد اغمضت عينى ودعكتها .. ولكنى كنت دائما خلال زحام الصور ارى وصيفة راقده فى وسط الدار ، مقرحة الجفن ، متورمة الخد ، مبحوحة الصوت ، كسيرة مهزومة شاحبة .. ومن حولها النساء فى السواد !..

وحاولت ان اهز راسى لانفض عنها زحام الصور .. ولكن الصور ظلت تلح على .. ورفعت صوتى اكلم عم كساب وهو يرفع الزاد من العربة ويضعه على رصيف المحطة ..

وسألته ان كانت وصيفة اشتغلت فى الزراعية فقال لى ان مكسورة الرقبة اشتغلت صباح اليوم !..

قالها ببساطة ، بصوته الهادىء النابض بالغيظ المكتوم ..

واشعل سيجارة ..

ونظرت فى عينى الرجل ، فلم استطع ان التقط نظرة .

واضطرم بى الم غامض ، ودهمتنى المخاوف المبهمة ، وتذكرت يوم وجدنا وصيفة عائدة مع ابيها من السوق فركبت الى جوار عم كساب .. واوشكت ان تقع وهى تنزل فحملها عم كساب وانزلها !.

ايمكن ان تكون وصيفة قد اصبحت كالاخريات !.

ايمكن ان تذهب الى الزراعية فتضحك للكلمات البذيئة ، وتغنى بلا تحرج ، وتتقصع وسط الرجال ، وتدخل الحقل احيانا وراء هذا الرجل او ذاك !.

ولم استطع ان اتحمل وحدى ثقل هذه الافكار ، فسألت عم كساب ان كانت وصيفة يمكن ان تخسر !.

وسكت .. وهز راسه !..

وارتمت نظراتى عند راسه الرمادى الزاخر بالشعيرات البيضاء .

وخيل الى ان عم كساب يمكن ان يكون عما لوصيفة اكتشفته فجأة! .. وشاع فى تقاطيع وجهه حنو غريب .. وكسر عينيه ، وبدت نظراته التائهة مشحونة بالعطف الابوى .. وبالرغبة فى السيطرة على المستقبل من أجل طفل صغير عزيز لا حيلة له !..

وخطرت فى فكرى كلمات له قالها عندما قيل ان نقطة البوليس مقبلة الى البلد .. وعدت اذكر فرحته الظافرة حين علم انها لن تجىء!..

ان عمال الزراعية هم ايضا – كالعساكر – يملكون القرش ، وليس عند بنات البلد ذرة ولا مال ، والقرش يمكن ان يقلب راس اية واحدة!.

واخذت انظر الى وجه عم كساب الذى يفيض بالحنان والاصرار .

وتمنيت ان يقول لى كلاما يحمل الطمانينة الى نفسى ، وامام عينى صورة وصيفة عندما خرجت من قاعة الطحين مروعة ..

وسالت عم كساب مرة اخرى ان كانت وصيفة يمكن ان تخسر .. وهززته بيدى مستجديا منه كلمات مطمئنة ..

ولكنه بعد صمت طويل قال لى :

– ايوه سالتنى ..

ثم تنهد وقال :

– الجوع كافر ! ..

وحاولت ان اقول شيئا ادفع به زحف الاضطرام على حلقى ،ولكنى اهتززت تحت المخاوف المبهمة .. ولم استطع ان اقول شيئا .

وتحرك عم كساب الى العربة الحنطور .

وتركنى واقفا على رصيف المحطة ، ومضى يفرقع بكرباجه طالبا منى ان انتظر على الرصيف حتى يذهب الى المديرية فيعود بابى واخى الاكبر .

وظللت وحدى مبهورا من عم كساب .. معجبا بنظراته الثابتة ، وصوته الهادىء وكلماته الخاطفة المحملة دائما بالذكريات والتجربة .

وعادت الى ذهنى صورته مع وصيفة يوم ركبت الى جواره ،وقفز الى الارض وامسك خصرها بذراعيه لتنزل .. ثم ما صنعه بالأمس وهو معها فى وسط الدار . انه يصنع اشياء لا يصنعها الآخرون فى القرية؛ ويقول كلاما لا يقوله أحد .

واضطربت راسى بصور مختلطة ، وتذكرت خضرة .

ايمكن ان تصبح « وصيفة » ضائعة كخضرة بعد أن ضاعت منها الارض .

ايكون بينها وبين عم كساب شىء كالذى كان بين دياب وعلوانى وخضرة !.

وملأنى الضيق ..

وعدت افكر فى ان وصيفة ربما اعجبت بعم كساب .. ربما تزوجته .

وحتى هذا الخاطر لم يرحنى ..

وتمشيت على رصيف المحطة وانا اقول لنفسى ان عم كساب يكاد يكون فى عمر ابيها .

وظللت امشى على الرصيف الذى بدأ يمتلىء بالناس والسلال والقاطف والاخراج .. ووجدت شريط السكة الحديد يمتد امامى الى بعيد .. الى بعيد جدا فى خطين متوازيين يلتقيان على مرمى العين .. وكنت اعرف انهما لا يلتقيان ابدا .. وانما هكذا تخدع الصورة عيون الناس .

وفاضت نفسى بأحلام المدرسة الثانوية ، وما اصنعه فى القاهرة . وزخرت اعماقى بمشاهد مظاهرات الطلاب فى العام الماضى تطالب بالدستور والاستقلال والرصاص فوق الرءوس .. وتوالت فى قلبى الخفقات واهتزت امامى صور المواكب النابضة بالهتاف والوعيد .

وقلت لنفسى لئن سقطت الوزارة وعاد الدستور .. فسيعود محمد ابو سويلم شيخا للخفراء ويعود الشيخ حسونة الى القرية ، ويرتفع الحجز عن ارض كثيرة فى القرية ، ويروج الناس !.

وظللت اروح واغدو انقل عينى من الفضاء الواسع الى شريط السكة الحديد ، الى فناء المحطة ، حيث تستلقى من ورائه المدينة فى الزحام .

وبعد قليل عادت العربة ..

كان عم كساب على مقعده المرتفع يشد جسده .. ويضحك .

وهبط ابى واخى .. ودخلا ليقطعا التذاكر ويسالا عن موعد القطار بالتحديد .

وبقيت انا على الرصيف ، وعم كساب يسلم على مودعا ..

وقال لى وهو يضحك أن اشارة تليفونية ارسلت الآن الى القرية وفيها امر بالافراج عن محمد ابو سويلم وعبد الهادى ودياب وعلوانى.

وسكت لحظة ، وهو ما يزال يبتسم ، ثم اطلق ضحكة مرتفعة ،وانا انظر اليه مندهشا فقال لى :

ــ اما حصل حتة دور في المديرية دلوقت !.. مش الشيخ يوسف ومحمود بك وقعوا في بعض ؟! يا سيدى كان فيه لجنة شياخات علشان عمودية بلدنا .. واجلوها .. القصد .. يا سيدى عمك الشيخ يوسف كان فاهم ان محمود بيه راح يساعده في العمودية .. لبس اللى على الحبل كله ، ولبس الجزمة الكشف والعمة الجديدة وراح الك عالمديرية ومعاه راجلين تلاتة من البلد ، وشيخ البلد معاه كمان تلاته اربعة .. دخلوا لقيوا محمود بيه قاعد . والشيخ يوسف بقى فاهم انه معاه وعمال يديله في فلوس ويخطف من هنا ويدبر من هنا ويدفع له على امل انه حيساعده في العمودية .. بس ياعم ويلاقى لك محمود بيه مرشح نفسه للعمودية ورئيس لجنة الشياخات بيسأل تنتخبوا محمود بيه ..

ثم كتم عم كساب ضحكاته .. واستمر يروى كيف اعترض الشيخ يوسف على ترشيح محمود بك واعلن في غلظة أن البلد كلها لا تحب محمود بك فهو يلعب بالناس ويأخذ منهم المال ليقضى لهم الشغل ، ولكنه يعمل لنفسه ولا ينفذ وعوده !. واذ ذاك انقض محمود بك فضرب الشيخ يوسف بالرجل في صدره وخبطه كفا على عمامته فطارت ..

وخرج الشيخ يوسف يسب ويلعن ، وخرج وراءه اهل البلد واقسموا كلهم بالطلاق الا ينتخبوا محمود بك .. واقترح الشيخ يوسف ان يوحدوا الكلمة ويتفقوا على رجل واحد فاقترح شيخ البلد ان ينتخبوه هو قائلا للشيخ يوسف في ود :

ــ ما احنا اخوات برضه واوامرك كلها امشيهالك .. وكفاية عليك انت الدكان يا شيخ يوسف ..

ووافق الشيخ يوسف .. وحاولوا الدخول مرة اخرى على لجنة الشياخات . ولكن اللجنة اجلت اجتماعها عدة ايام ، فانصرفوا والشيخ يوسف يقسم أن يشكو محمود بك ويطالبه بما اخذ من مال .. ولن يسكت الا اذا وضعوا محمود بك في الحديد !..

وملأنى السرور وانا استمع لما يقوله عم كساب ، وضحكت كثيرا .. وتمنيت لو انى اعود الى القرية اليوم فاقضية واعيش فيما يكون هناك ثم اسافر في اليوم التالى ..

ولكن اليوم التالى كان الجمعة ، وامى لم تكن تحب لأحد منا ان يسافر يوم الجمعة .. افقيه ساعة نحس !..

وشردت فيما يمكن أن يحدث الآن . .سيعود الشيخ يوسف مغيظا، فيجد القرية تزغرد فرحة بالافراج عن الرجال ، ويمضى هو فيروى لهم ما حدث من محمود بك ويعانق محمد ابو سويلم وعبد الهادى .. وربما

عانق علوانى ودياب . .وربما بكى من الندم ، وعانق محمد افندى ، ثم يفتح دكانه ، وارسل الى علوانى بالشاى والسكر .. ووقف داخل دكانه المفتوح ، يصفق ويقول : « آه يا بلد » .. وبعد هذا يحك راسه ، ويلبس العمامة القديمة ، ويخلع كل ما اشتراه ليكون به عمدة ويفتح كتاب « عنتر » او « ابو زيد » ويقرأ فصولها في صوت مرتفع !.

وجاء ابى ووراءه اخى الاكبر ، فطلب من عم كساب أن يستعد لوضع أشيائنا في القطار لأن القطار قادم ..

وتحرك عم كساب بحقيبة في يد وبسلة كبيرة في اليد الأخرى .. ومضيت انا وراءه انظر في الفضاء الى وجه القطار الأسود الذى بدأ يزحف من بعيد ..

وقال عم كساب مهمهما :

ــ بالسلامة .. ان شاء الله الأجازة الجاية تلاقى دار جديدة على الزراعية ، وماكينة . .وتلاقى وصيفة منورة الدار !.

وباغتتنى كلماته .. واتسعت عيناى : وسألته طالبا منه ان يقول في سرعة كل ما يعنى ..

وقال لى ببساطة انه قرر ان يشترى ارضا على الزراعية من بقايا الأرض التى نزعت ملكيتها ، فيبنى عليها دارا جديدة .. فاذا أخذ محمد ابو سويلم التعويض عن ارضه التى نزعت شاركه عم كساب في بناء ماكينة طحين تكسب تماما ، وتمنح لمحمد ابو سويلم من المال والحياة الموفورة اكثر مما كانت تمنحه الارض .

ووقف القطار ، فصعد عم كساب بالحقيبة والسلة وانا وراءه أسأله ان كان حقا سيتزوج وصيفة .

فقال لى انه اتفق منذ زمن .. ثم تمتم :

ــ لما ارجع البلد حاجرها من الزراعية على ملا وشها .. زراعية ايه اللى بتشتغل فيها .. دا انا حاخبيها ! هى ماكينة الطحين تكسب وحش !.

وعدت اذكر ما كان يقوله لى عم كساب دائما ..

كان دائما يقول لى ان الرجل يجب الا يقع .. وانه يجب في اى ظرف ان يتعلم كيف يبدا من جديد !.

وحاولت ان أتصور ما يمكن أن يصنعه عبد الهادى حين يعلم ان عم كساب سيتزوج وصفية .. لقد قال لى عبد الهادى أيضا أن وصيفة ستعمر داره ، واننى ساعود في الصيف القادم لأجدها تنور الدار !.

وخيل الى ان عبد الهادى لن يرضى بالزواج من وصيفة بعد ان اشتغلت فى الزراعية ولو لساعة واحدة .. ولكنى فى الحق أشفقت عليه ، ورثيت له ..

ونزل عم كساب بسرعة ولم أقل له شيئا ..

وحضر القطار ، فوقفت مع اخى فى النافذة فسلم على أبى .. وقبلنا يده عدة مرات ، ونفوسنا تجيش ، وقبلنا ابى ، ودعا لنا بالستر ونجاح المقاصد .

وصفر القطار ..

ورنت نغماته الموحشة فى اذنى .. وفاض فى أغوارى الحنين وكل ما يثيره الوداع !..

ومضى يشق بنا طريقا طويلا بين الحقول .. حقول واسعة يغمرها بياض القطن ، وخضرة كيزان الذرة . تماما كالحقول التى تركتها فى قريتى تهوى تحت المعاول ..

وعندما انتهت حقول الذرة ، بدات تلوح لنا حقول واسعة من البرسيم الصغير .. ووجدت فتيات كثيرات يتناثرن هنا وهناك ، منحنيات على الارض يلتقطن من حشائش الحقول .. كنت اعرف انهن يجمعن الريس والجعضيض وعنب الديب واصنافا اخرى من النباتات الشيطانية ، ليأكلن بها الخبز الجاف.. فهكذا كان الفتيات والاولاد يصنعون فى قريتى ..

وظل القطار يشق بنا الارض دون توقف ..

وبدا يدخل محطات صغيرة تقوم عليها القرى يقذف بركاب ويلتقط آخرين .

وتحرك منها .. ورأيت طريقا زراعيا يوارى خط السكة الحديد..

والتفت اخى الأكبر ، وقال لى ان التلاميذ الصغار يقفون على الزراعية الجديدة فى انتظار سيارات الأوتوبيس لتعود بهم من المدرسة الابتدائية فى مدينة قريبة .

وسكت اخى قبل أن يقول لى أن بلدنا يجب أن ترسل أولادها الصغار على الزراعية الجديدة الى المدينة فستمر بها سيارات الأتوبيس.

وظللت أنظر من شباك القطار وفكرى فى قريتى .. وتوقف القطار عند احدى القرى ، وسمعت اغنية حزينة تتردد نغماتها من احدطرفات القرية :

يارب اقابل حبيبى عالزراعيـــة
ما العصر للعصر باطلع عا الزراعية

وتحرك القطار .. وتاهت منى كلمات الأغنية . فنظر اخى الى

مبتسما وهو يقول لى ان هذه القرية تغنى للزراعية ، وقد دخلت الزراعية فى حياتها وغنائها . وسكت اخى ثم استطرد يقول انه مادامت الزراعية قد جاءت ، فهى تدخل فى وجود الناس ، ويحسن ان يسيطر عليها الناس ..

وقلت له ان عم كساب سيبنى ماكينة للطحين على الزراعية ..

فاستمر اخى يقول لى ان الأرض التى بقيت لمحمد ابو سويلم لن تصلح للزراعة بعد ، ومن الممكن ان يبنى عليها ماكينة بمبلغ التعويض مشتركا مع كساب ، ويستطيع من ايراد الماكينة ان يؤجر ارضا اخرى اكبر من التى كان يزرعها .

واستطرد اخى يقترح ان يبنى الناس على الزراعية بيوتا جديدة نظيفة .

ولم يقل لى كيف .. وعندما سالته سكت ..

واستمر القطار يمضى بنا فى ضجيج رتيب منتظم . وعندما لاحت لنا القاهرة بقبابها .. ورأينا من بعد ثلاثة اهرامات فى بياض الضباب، بدا اخى يحدثنى عن هذا العام الدراسى ..

وزخرت فى صدرى صورة المدرسة الثانوية ، واضرابات الطلاب.. بينما كان قلبى ما يزال ينبض بحزن على وصيفة وعبدالهادى وقريتى..

وعندما وصلنا القاهرة ، وتركنا القطار ، توالت دقات قلبى ، واحسست بدمى يصرخ بى وينادى على اشياء مجهولة لا استطيع ان اتبينها ..

ودخلت وراء اخى فى زحام المندفعين الى ميدان المحطة ، ومن ورائنا الشيال .

وركبنا عربة حنطور الى بيتنا فى الحلمية الجديدة ..

ودخلت بنا العربة من شارع الى شارع ، والسائق يقرقع بالكرباج ويلقى شتائم لم اسمعها فى القرية فى كل شهور الصيف ..

واحمر وجه اخى ، ورايته ينظر الى بطرف عينه . ليرى اذا كنت قد فهمت الشتائم التى يلقيها السائق ..

والحق انى كنت قد سمعت هذه الشتائم طوال اربعة اعوام من شوارع الحلمية الجديدة ، ومن تلاميذ المدرسة الابتدائية .

وملأنى احساس عجيب .. فقد شعرت – فى حب بالغ – ان اخى يريد ان يحمى اذنى من هذه الكلمات التى يلقيها السائق على الناس فى

الطريق .. وكأنه يريد ان يمارس الى آخر حد مسئوليته فى تربيتى . هذه المسئولية التى بدأ يحسها منذ ودعنا ابى فى المحطة ..

ولكنى كنت وانا جالس الى جوار أخى افتح عينى على طرقات القاهرة ، مفتونا بالضجيج ، والعربات تجرها الحمير ، والسيارات الفاخرة المتعددة الالوان ، والنساء فى الفساتين ، والرجال بالبدل ، والترام ، والحفاة فى جلاليب غير زرقاء .. والعساكر !!..

وهزتنى المرائى العديدة التى طال عنها غيابى اربعة شهور من الصيف وكأنى أرى لأول مرة مدينة لم أعرفها من قبل .

وازدحمت عينى بعشرات الآباء والامهات والأولاد الصغار يتنقلون بين المتاجر .

وهمس أخى قائلا :

ـ دخول المدارس !..

ورنت كلماته فى اعماقى بوقع غريب ..

وتقدمت بنا العربة فى الزحام الذى يختلط بأحلامى ..

وشاهدت بوضوح احلامى تموج بزحام الناس ..

وظلت العربة تمضى بنا فى شوارع القاهرة .. وعروقى تنبض بأشياء عديدة من قريتى ..

اشياء لم استطع أن انساها ابدا ..



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الصحافة